

تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير

بقلم: بوفيل



الطبعة الثانية

منقحة ومزيدة بقلم: روبين هاليت

نقله إلى العربية

دكتور الهادي أبولقمة — دكتور محمد عزيز

منشورات جامعة قاريونس
بنغازي



تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير

بقلم: بوفيل

الطبعة الثانية
منقحة ومزيدة

بقلم: روبن هاليت

نقله إلى العربية

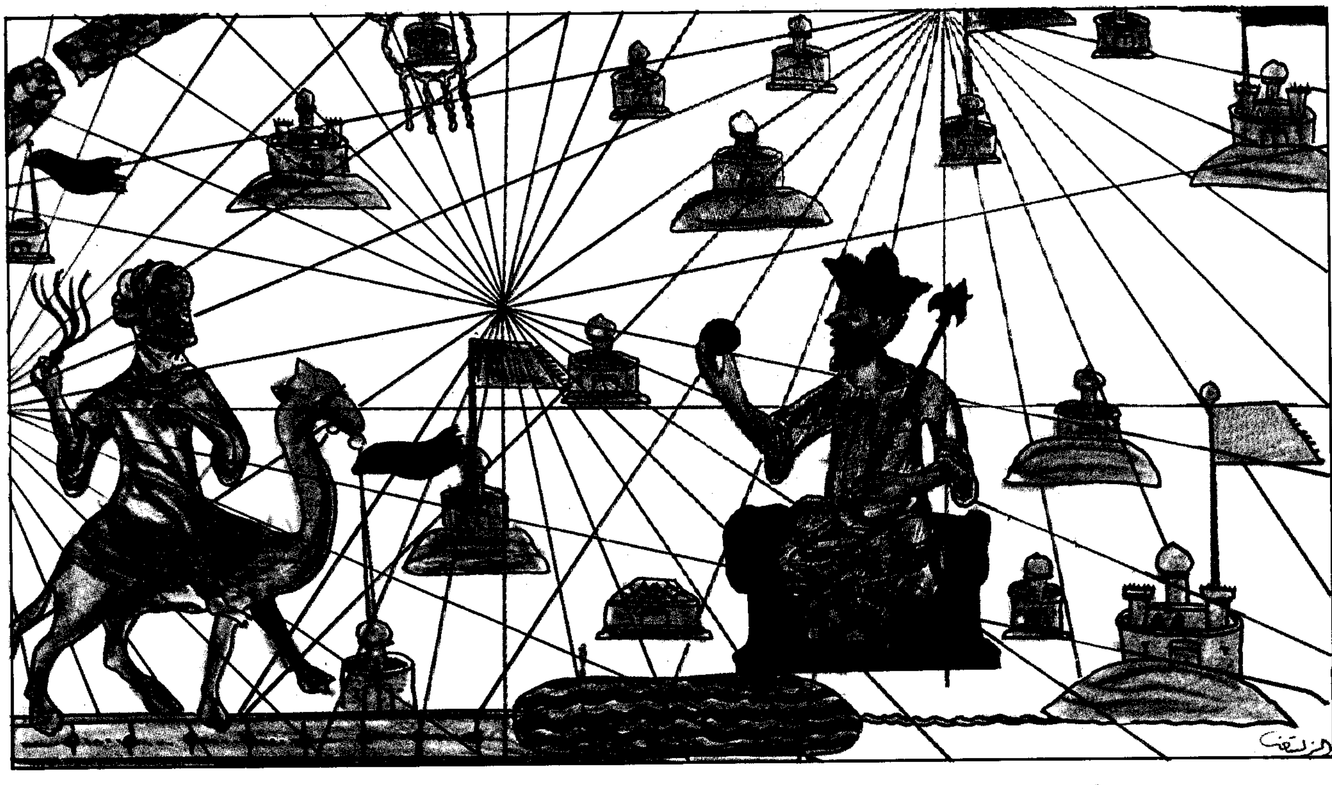
دكتور الهادي أبولقمة
رئيس جامعة بنغازي سابقاً
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس

دكتور محمد عزيز
عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية سابقاً
جامعة بغداد
أستاذ مركز بحوث العلوم الاقتصادية (جامعة قاريونس)

منشورات جامعة قاريونس
بنغازي

1988 م

منشورات جامعة قاريونس
بنغازي



شكل (1) الملك موسى مالى عاهل مملكة غينيا ، تاجه من الذهب ، صولجانه من الذهب، عرشه من الذهب، وبيده كرة من الذهب، يقدّمها هدية للوافد عليه . الصورة منقولة عن خريطة شارلس الخامس1375

هذا الكتاب

صدر أصلاً باللغة الأنجليزية تحت عنوان

The Golden Trade of The Moors

B1

E. W. BOVILL

Revaised and with aditional Material

B1

Robin Hallett

عن الناشر :

ويوجب الأتفاق المبرم بين جامعة قاريونس والناشر المذكور بتاريخ 2 .2 .1988 بإجازة نشر هذا الكتاب بطبعته العربية تحت عنوان :

تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير

ترجمة

د . الهادى أبو لقَمة
رئيس جامعة بنغازى سابقاً
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس

د . محمد عزيز
عميد كلية الإقتصاد والعلوم السياسية سابقاً
جامعة بغداد
استاذ مركز بحوث العلوم الإقتصادية
جامعة قاريونس

كلمة التعريب

كان الدكتور الهادى أبو لقمة قد عرض على أن أشاركه فى تعريب هذا الكتاب (تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير) ، ولما تصفحته وفرغت من قراءته على عجل وجدته مفيداً بقدر ما هو ممتع . ووجه الإمتاع أنه كتب بأسلوب بارع حلو العبارة ، واضح التركيب ، يحوى الكثير من الأخبار الطريفة التى تشوق القارىء فيستمر على متابعة مطالعته حتى النهاية . أما فائدته فتأتى من وجوه عديدة . وقبل أن نورد شيئاً بهذا الخصوص من الملائم أن يشار هنا إلى أن غير قليل من النقاط التى نود ذكرها يمكن أن يجدها القارىء فى مقدمة الطبعة الأولى والطبعة الثانية وهى موجودة فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب . ولذلك فسوف نكتفى بإيراد ما كنّا ندوّنه لدينا ونعتبره جديراً بالملاحظة والتنويه به :

1 ـ إن هذا الكتاب يزود القارىء بمجموعة طيبة من المعلومات عن كثير من الأسماء التى يصادفها أثناء مطالعاته المختلفة. وتورد هذه الأسماء ضمن سياقها التاريخى مع الإشارة إلى مدلولها الأصلى مثل كلمة ليبيا والبربر . فمن الذى استخدم اسم ليبيا أولاً ، وما هى المنطقة الجغرافية التى كان يراد بها فى الإبتداء ؟ سوف يجد ذلك فى هذا الكتاب . وينطبق الأمر نفسه على كلمة البربر .

2 ـ وهذا الحيوان الذى يسمى الجمل والذى يوصف بأنه سفينة الصحراء من الذى أدخله إلى أفريقيا ، ومتى كان ذلك ، وما الذى أحدثه من الآثار فى المجالات المدنية والعسكرية ، وما الفرق بينه وبين بقية الحيوانات التي كانت تستخدم قبله فى الركوب والنقل والجر مثل الخيول والثيران وغيرها ؟ الأجوبة

إلى كل ذلك وغيرها يجدها القارىء مبثوثة فى هذا الكتاب . ويترك للقارىء أمر الموافقة على رأى المؤلف حين يذهب إلى أن إدخال الجمل قد أحدث ثورة إجتماعية ، وأنه فى المجال العسكرى كان يشبه استخدام القنبلة الذرية فى الحرب العالمية الثانية حيث لم يجعل أمام الخصم من خيار إلا الإستسلام .

3 ـ وفى هذا الكتاب تنويه حَسن بالكتّاب العرب المسلمين وبخاصة فى مجال الجغرافية التى كانت لهم فيها إضافة ملحوظة ومشهودة . ومن هؤلاء الكتاب : المسعودى ، ابن جوقل ، البكرى ، الادريسى ، العمرى ، ابن بطوطة ، وابن خلدون . ورد عنهم نبذة : متى كانوا ، وماذا ينسب إليهم من النشاط العلمى ، وما هى أهميتهم التاريخية .

4 ـ وبلاد المغرب الكبير (أو بلاد المغاربين كما توصف أيضاً هذه الأيام) وما جاورها من الجنوب الغربى على وجه الخصوص كانت مسرحاً لحركات المرابطين والموحدين . فنحن نقرأ فى هذا الكتاب فصلاً ممتعاً قيماً : أين وكيف نشأت هذه الحركات ، ومن هم أصحابها ، وكيف أثروا فى مجرى التاريخ لهذه المنطقة وما جاورها .

5 ـ والإستكشافات الجغرافية الخاصة بالساحل الغربى لأفريقيا ، وبالأقسام الداخلية من القارة الإفريقية ، متى بدأت ومن قام بها وما الدوافع إليها؟ هذه نقاط تشرحها صفحات عديدة من هذا الكتاب . والمعروف أن الدوافع إلى الإستكشافات كانت توجز فى ثلاث كلمات إنكليزية أول كل حرف منها G . وهى : (1) الذهب Gold ، (2) الإنجيل Gospel ، (3) المجد Glory ، أى تحقيق المرء طموحاته بارتياد الأماكن المجهولة . ويعرض الكتاب علينا لماذا قل الذهب فى أوربا ، وما سبب زيادة الحاجة إليه ، ولماذا توجهت الأنظار إلى أفريقيا لسد هذه الحاجة .

ومن الملائم أن يشار هنا إلى أن كلمة «جنيه» هى معرّبة ومحرّفة بعض الشىء لكلمة غينة Guinea الانكليزية نسبة إلى غينيا فى أفريقيا التى كانت

مصدر الذهب الذي ضرب منه الجنيه الإنكليزى ، وقد صدر هذا الحنيه سنة 1663 واستمر في الصدور حتى سنة 1813 ، وفى عام 1717حددت قيمته بواحد وعشرين شلناً . وهو الآن وحدة للقيمة والحساب تعادل بارناً وشلناً واحداً ، ويستخدم غالباً فى تقدير أجور الأعمال الحرة والحرفية كأتعاب المحامين ، أو فى تقدير المواد الغالية الثمن كالرسوم الفنية والآثار القديمة وما إلى ذلك . والمهم فى كل هذا هو أن كلمة «الجنيه» مقتبسة من اسم القطر الإفريقى « غينيا » الذى اشتهر بوفرة انتاجه من الذهب ، وبجودة الذهب فيه .

وقد طلب الذهب لأغراض النقود لما تتوفر فيه من المزايا والخصائص التى لا تتوفر فى أى معدن آخر حتى الفضة ، فهو صغير الحجم وكبير القيمة ويقادم البلىٰ والمؤثرات الطبيعية ويمكن إدخاره لوقت الحاجة وما إلى ذلك من الصفات المرغوبة الأخرىٰ . ومع أن الذهب أصيب بعدة نكسات أدت إلى تقليل الطلب عليه لأغراض النقود فى الداخل ، بعد إحلال النقود الورقية غير القابلة للتحويل بدلاً عن الذهب مسكوكة أو سبيكة ، فإنه (أى الذهب) بقى من العناصر المهمة التى تؤلف الإحتياطيات النقدية الدولية المستخدمة فى إيفاء الديون والإلتزامات بين الدول ، بالإضافة إلى العملات الدولية وحقوق السحب الخاصة وما إلى ذلك .

ويزداد طلب الناس على الذهب بدلاً من النقود المتداولة (الأوراق النقدية) عند حالات التضخم الحادة لحماية مدخراتهم من التآكل وفقدانها الكثير من قوتها الشرائية ، بخلاف الذهب الذى يحافظ على قيمته الإستبدالية وقد يزداد قيمة فى مثل هذه الظروف ، فهو ملاذ مأمون .

أما بالقياس إلى النساء فيوصف الذهب عادة بأنه « زينة وخزينة » . ويراد بالخزينة أن الذهب تختزن فيه القيم أى القدرة على المبادلة بمختلف السلع والخدمات عند الحاجة . فهو يحول بسهولة إلى النقود الجارية أو المتداولة التى تشترى بها تلك السلع . ويوصف الذهب فى هذا الخصوص بأنه ذو نسبة عالية من السيولة ، أى أنه عند تحويله إلى النقود القانونية لا يفقد شيئاً كبيراً من

قيمته ، ويتم التحويل بسرعة ملحوظة ، بعكس الحال إذا كانت القيمة أو الثروة قد أدخرت في ساعة ذات جواهر ، أو أثاث ثمين . ولعل هذا هو من وراء جعل الذهب جزءاً من مهور النساء . فإذا لم يكن هناك ضمان إجتماعى ، ولم تكن فرص التعليم وأبواب العمل والحصول على الدخل متاحة للإناث كما هى للذكور ، ولم تكن القوانين تعامل الطرفين على حد سواء ، بل كانت متحيزة للرجل بصفة عامة ، وكان المتوقع فى القانون أن يقف إلى جانب الأضعف فى طرفى التعاقد ، فلا بد للمرأة أن تلتمس الضمان الفردى لنفسها . ويلعب الذهب دوراً ملحوظاً وتاريخياً فى هذا المجال . فالذهب فى عقود القران الجارية فى تلك الأوساط المذكورة من شأنه أن يطيب خاطر المرأة ويطمئن قلقها حين لا تدرى شيئاً من غدها وهى تهب خلاصة نفسها وصفوة ضميرها .

وبالخلاصة أن الذهب قد ارتبط منذ أن عرف بنوعين أساسيين من الطلب عليه : (1) طلب لأغراض النقود الداخلية[1] . (الغالب فى الوقت الحاضر أن الذهب يؤلف جزءاً أو نسبة من الإحتياطي أو الغطاء للعملة المحلية المصدرة) ، أو لأغراض النقود الدولية . (يؤلف الذهب جزءاً من وسائل الإيفاء الدولية ، ويحتفظ به ضمن ما يعرف بالإحتياطات الدولية للقطر) . (2) والجهة الأخرى التي ارتبط طلبها على الذهب منذ القديم هى المرأة . تطلبه لأغراض الحلي والضمان (زينة وخزينة) .

6 ـ ويطالعنا هذا الكتاب بشخصية فريدة اشتهرت بانتسابها إلى أفريقيا ،

---

1 ـ كل عملة في العالم تعرف بمقدار معين من الذهب . وإن كان هذا التعريف لا يطابق فى الوقت الحاضر سعر الذهب فى السوق ، كما أنه لم يعد يمثل أى التزام بذمة الجهة المصدرة (أى المصرف المركزى) . وبعبارة أدق أن الإلتزام قد أوقف وأعفى المصرف المركزى من التزامه بدفع المقابل الذهبى بالرغم من استمرار وجود هذا الإلتزام على الأوراق النقدية المصدرة . كما يشاهد مثلاً على الورقة النقدية الإنكليزية . والمشرع هو الذى يوقف هذا الإلتزام . وعلى سبيل المثال تعرف المادة 26 من قانون المصارف رقم 4 لسنة 1963 فى ليبيا أن الدينار الليبى يعادل 2,48828 غرام من الذهب الخالص . والواقع أن هذا المقدار من الذهب تبيعه الجهات الرسمية بمبلغ يجاوز كثيراً الدينار الواحد حتى إن جلب المشترى معه عقد زواجه .

هو ليو (أو ليون) الإفريقى . وكان اسمه السابق الحسن بن محمد الـوزانى . أما كيف صبأ إلى دين آخر ، ومن أعطاه الإسم الجديد ورعاه ، ولماذا وصف بالإفريقي فيحال ذلك للكتاب نفسه الذى تطرق إليه مرات عديدة ، وجعل له فصلاً كاملاً يتناول حياته الأولى وأسفاره ونشاطه العلمى ، وما جـرى له من الأحداث .

7 ـ وليس بقليل ما يسمع الناس أو يقرءون فى منطقة المغرب الكبير عن بنى هلال وبنى سليم . ويود المـرء أن يعلم من هم هؤلاء الأقوام ومن أين جاءوا ولماذا نزلوا بهذه الديار ولم يحطوا أركابهم فى مكان آخر . كل هذه المعلومات يجدها القارىء متناثرة فى سيـاقها التـاريخى بين صفحات هـذا الكتاب .

8 ـ ولعل من أغرب الأمور التى يقرأها المرء فى هذا الكتاب هو ما يدور حول المقايضة الخرساء أو الصامتة بين الزنوج الذين يقدمون الذهب للحصول على الملح وبين التجار (المغاربين) الذين يقدمـون الملح للحصول على الذهب ، وأن الصفقة كلها تجرى بدون أن ينبس أحد الطرفين بحرف واحد ، وبدون أن يرى أحد الطرفين وجه الطرف الآخر . حتى المساومـة والاشعار بالقبول أو الرفض لعرض أحد الطرفين المتقايضين يجرى صمتـاً وبدون أن يتقابل الطرفان وجهاً لوجه ، وذلك عن طريق الحركات الدالة التى تنعكس فى تقليل أو زيادة المعروض من إحدى السلعتين : الملح والذهب .

وبالرغم من أن هذه الصورة من المقايضة قد تواتر سرَدها من جهات عديدة باختلافات جزئية ، فقد يصعب قبولها . صحيح أن تجارة الذهب قد أحيطت بالكتمان الشديد والسرية التامـة ، ومنع الغيـر من التطفـل عليها أو محاولة التعرف على طرقها ، والوقوف على الأماكن التى يتواجد فيها الذهب . ونترك للقارىء أن يكوّن رأيه الخاص بهذه الصورة من المقايضة بعد قراءته الفصول المتعلقة بالذهب ، وهى ليست بالقليلة .

9 ـ ويحسّ القـارىء عند قـراءته الفصـول الخاصـة بجيش الصحـراء والإعداد لغزو الأقوام الجنوبية للإستيلاء على ذهبها بمجموعة من التصرفات

والوقائع المؤلمة التى ترتبط عادةً بحكم السلاطين المغامرين. وتتراءى صفة الغدر على رأس هذه التصرفات. ويلعب الوهم، أو الغضب، أو الشك، أو حب الوصول إلى السلطة والبقاء فيها، وابعاد المنافسين الفعليين أو المحتملين، وغير ذلك من الأغراض الدنيوية، دوراً بارزاً فى أعمال الغدر التى يتكرر حدوثها بين السلاطين والقادة والرؤساء خلال غزو السودان. ويراد بالسودان فى هذا الكتاب جميع البلدان التى تقع فى جنوب الصحراء الإفريقية والتى تمتد من المحيط الأطلسى غرباً حتى البحر الأحمر شرقاً. ويتساءل القارىء فى نفسه ألم يوجد من ينبّه إلى هذه المظالم ويدعو إلى إيقافها؟ والواقع أن المؤلف لم يخيب أصحاب هذا التساؤل، وقد تطرق إلى ذلك فى مواضع عديدة. وتعد الحكاية التى أوردها عن أحمد بابا عند مقابلته المنصور ملك المغرب آنذاك نموذجاً لقوله الحق فى وجه الظلم والطغيان. وكان طبيعياً أن توصف غزوة السودان بأنها من أحلك الصفحات فى تاريخ القارة الإفريقية.

10 ـ ولا يقتصر هذا الكتاب على تجارة الذهب بين جانبى الصحراء الإفريقية الكبرى، ونقله إلى الأماكن الأخرى، وعلى ما ارتبط بهذه التجارة من المحاولات لاكتشاف طريق بحرية تؤدى الى داخل القارة الإفريقية وتقضى على احتكار الطرق الصحراوية التى كانت بيد المغاربين. كانت تجارة القوافل تشمل مجموعة كبيرة أخرى من السلع غير الذهب مثل العاج، ريش النعام، العقيق، طيب الزبّاد، الجلود، الكولا، الخيول، الأنسجة المختلفة، الملح، التوابل، ويضاف الى كل ذلك تجارة مهمة أخرى هى تجارة الرقيق من الذكور والإناث. وظلت تجارة الرقيق رائجة بسبب ربحها الواسع والسريع حتى استفاق الناس من بشاعة هذه التجارة فحرمت تحريماً دولياً.

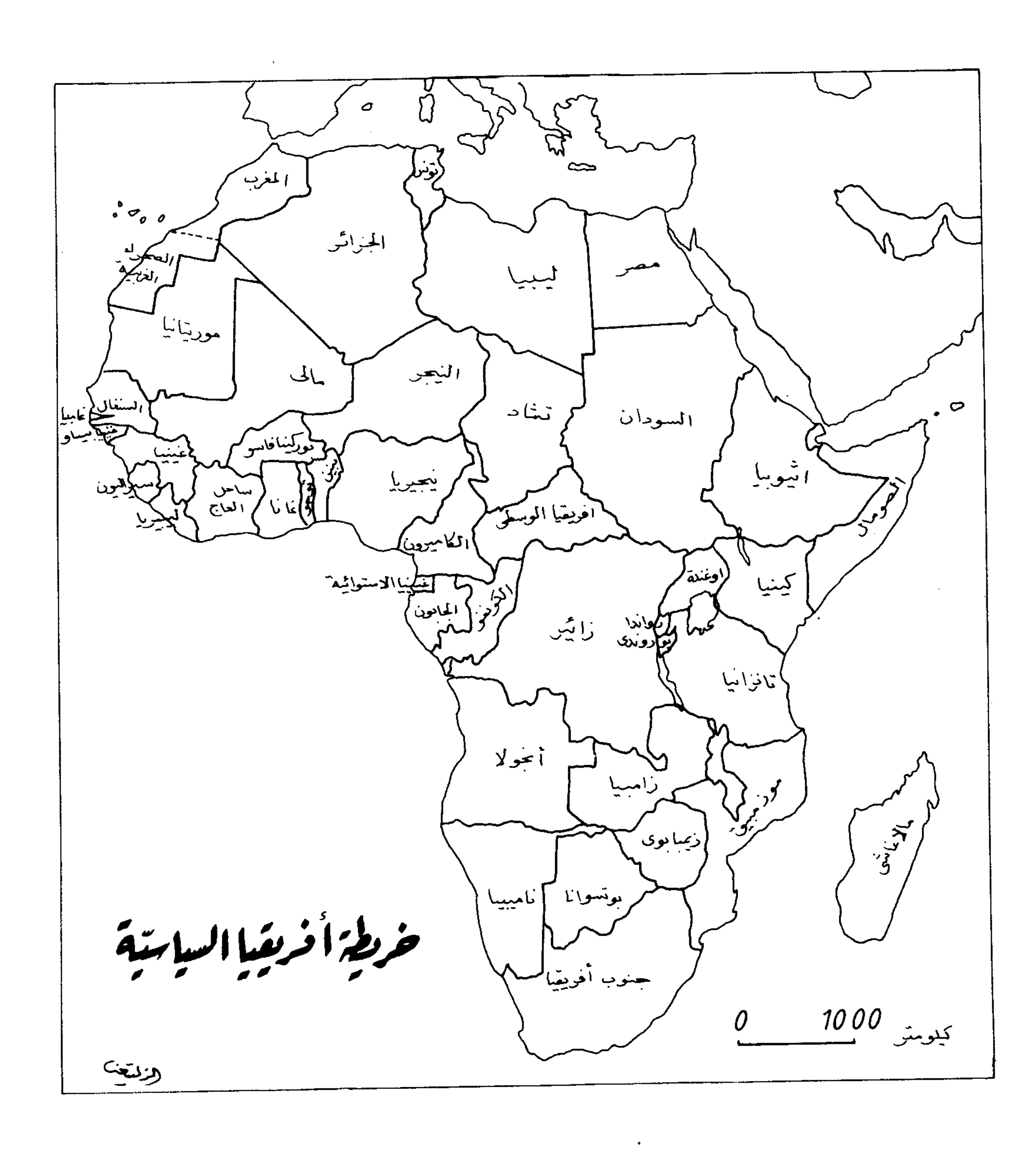
11 ـ وفى خاتمة هذه الكلمة ننوه بالشكر لكل من أسهم بشكل أو بآخر فى إخراج هذا الكتاب إلى اللغة العربية. وتأتى فى الصدارة جامعة قاريونس التى تولت نشره. ونذكر بالتقدير سعد الزليتنى من القبة الفلكية فى جامعة قاريونس، فقد رسم الخرائط المتعلقة بهذا الكتاب. ويوجه الشكر أيضاً إلى

العاملين فى قسم المطبوعات والنشر فى جامعة قاريونس ، عبد الرحمن الشريدى ، محمود بن حُمَيدة ، سليمة الطيّب . فقد كان لهم أثرهم فى الحصول على الأذن بالترجمة ومتابعة قضية النشر حتى يخرج الكتاب إلى دائرة التداول .

د . محمد عزيز

المدينة الجامعية ، بنغازي

1988. 9. 26



خريطة أفريقيا السياسية
المغرب
الجزائر
تونس
ليبيا
مصر
الصحراء الغربية
موريتانيا
مالي
النيجر
تشاد
السودان
اثيوبيا
الصومال
السنغال
غامبيا
غينيا بيساو
غينيا
سيراليون
ليبيريا
ساحل العاج
غانا
بوركينافاسو
نيجيريا
الكاميرون
افريقيا الوسطى
غينيا الاستوائية
الجابون
الكونغو
زائير
اوغندة
كينيا
رواندا
بوروندي
تانزانيا
أنجولا
زامبيا
موزمبيق
زيمبابوي
ملاغاشي
ناميبيا
بوتسوانا
جنوب أفريقيا
0 1000 كيلومتر

مقدّمة الطبعة الأولى

بقلم المؤلف : بوفيل Bovill

وضع هذا الكتاب تلبية لمن طلب طبعة جديدة من كتابى «قوافل الصحراء الافريقية الكبرى» . انه يتناول الموضوع نفسه ، ويورد الكثير من القصة نفسها ، ولكنه لا يعالج الأمور على المنوال نفسه تماماً . وهناك اسباب عديدة دعت الى هذا التوجه .

فقد وجدت أولاً أن اقتصارى على تنقيح ما كتبته قبل ربع قرن يشعرنى بالهوان والملل . ففى الكتاب كثير مما كان ينبغى أن يكتب على نحو افضل ، وليس بقليل ما كان من الواجب عدم كتابته اصلاً . وبالاضافة الى ذلك فقد جمعت خلال هذه الفترة مادة جديدة ارى من الواجب أن يستخدم الكثير منها ، وان لم يكن ذلك إلا لغرض واحد هو الكشف عن مدى الخطأ فى البعض من استنتاجاتى السابقة . وهكذا يتبين أن الحاجة إلى تناول الكتاب كله بإعادة كتابته بشكل آخر كان أمراً لا مفر منه .

على أن الحاجة كانت تستدعى اكثر من ذلك . فمرور السنوات قد جلب معه تغييرات تجعل من اللازم معالجة الموضوع على نحو مختلف ، اى تناول القصة بطريقة جديدة . فالقصد من كتابى «القوافل» كما ورد فى مقدمته ، هو أن يبين كيف عملت الطرق التجارية التى تعبر الصحراء على ربط اقوام الشمال والجنوب من الصحراء بوشائج الدم والثقافة ، وان نوفق الى قدر من الاعتراف بالدور الذى لعبه السودانيون الغربيون فى تاريخ الحضارة . وكان التأكيد يدور حول أثر اقوام الشمال فى اقوام القسم الداخلى ، اى أثر البيض

والسمر فى السود . وجرى تصور الكتاب فى كانو ونحن ننظر امامنا عبر الصحراء الواسعة المقفرة نحو مدن المغرب المحتشدة التى ارتبط بها السودانيون الغربيون بروابط نسجت خلال القرون العديدة . ولذلك فقد كان الكتاب يتوجّه بالدرجة الأولى الى الذين يعنون بافريقيا الغربية . واتيح لى منذ ذلك الحين أن ازداد معرفة ببلاد المغرب من مراكش الى لبدة وبالآداب المتعلقة بها . وتعلمت من اسفارى المتواضعة ، ومن قراءاتى اشياء كثيرة ، وبخاصة ادراكى أن الصحراء تهيمن على تاريخ الشمال بدرجة لا تقل عن هيمنتها على تاريخ الجنوب . ولكن هذه الهيمنة لا يعترف بها مؤرخو المغرب إلا قليلاً ، ولا تعترف بها أبداً العامة التى تحدق مفتونة بعظمة الآثار القديمة الباقية المتناثرة فوق تلك الارض الجرداء .

وتراءت لى الحاجة الى كتاب يبين كيف اغنت الصحراء قرطاجة واذهلت الرومان ، وكيف فى الازمنة التالية ، استطاعت طرق القوافل المهمة التى تربط مدن الشمال المتطورة بالاسواق الكبيرة والمراكز العلمية المتواضعة فى الجنوب ، أن تلعب دوراً لا يقتصر على التأثير فى مجرى الاحداث فى المغرب وفى ما هو أبعد منه ، بل كانت أحياناً تحدد مجرى تلك الاحداث ويبين كيف ظل البربر والعرب ، اليهود والمسيحيون ، يعتمدون قروناً طويلة متواصلة على ثروة السودانيين وعلى كدهم وعملهم . ان هذا الكتاب يهدف الى تلبية تلك الحاجة .

وقد عنى العديد من العلماء البارزين بتاريخ افريقيا الشمالية ، وبعضهم عكف على دراسة ذلك التاريخ طوال حياته . ولذلك كان دخولى فى هذا الميدان الذى سبقنى اليه العديد من العلماء الاعلام يشعرنى بالصغر ، ولكنه ليس بذلك الصغر الذى يمنعنى من أن اناقش احياناً النتائج التى توصل اليها الكبار .

وبالرغم من أن هذا الكتاب موجه الى حد ما ، خلافاً لكتابى السابق ، الى الذين يعنون بدراسة افريقيا الشمالية ، فانى عند كتابته كنت اضع نصب

عينى دائماً حاجة طلبة تاريخ افريقيا الغربية الذين انا مدين لهم بالـدعوة الى طبعة جديدة لكتابى «القوافل» . ان ذهب المغرب ، وكذلك جلود المغرب ، يرجع اصل كل منهما الى السودان ، البلاد التى تتوجه اليها جميـع الاحداث فى هذه الفصول .

لقد دونت فى باب المراجع وفى الهوامش ، المصادر التى استقيت منها مادة هذا الكتاب . ولكنى اعترف بالجميل ايضاً الى اولئك الذين قد تقـدموا الى بين آن وآخر واقترحوا التصحيح ، أو التعـديل ، او الاضـافة الى كتـابى السابق . ان دينى قد تراكم خلال السنوات ، وقد تضخم فى الفترة الأخيرة بما لقيت من رحابة الصـدر لدى الـذين توجهت اليهم طـالباً العـون والارشاد فى وضع هذا الكتاب .

وبين الـذين اشعر ازاءهم بـالعرفـان المتميز : ارنيت ، السيـدة اولوين بروغان ، كرون ، دانيال ؛ الاستاذ هنرى لابـوريت ، السير غـوردون لثيم ، السيدة ماكدوغل ، السير رجموند بالمر ، سكلتون وزملاؤه فى غرفة الخرائط بـالمتحف البريـطانى ، الاستاذ تيلر ، ابنتى السيـدة جيمس بلاكيت ـ اورد ، واخيراً زوجتى التى وهبتنا من ايثارها وصبرها الجميـل ما يجـل عن كل ثنـاء وجزاء .

هارلو

1 **فبراير** 1975

بوفيل

E . W . Bovill

مقدّمة الطبعة الثانية

بقلم : روبن هاليت Robin Hallet

جرت العادة بين الذين يدرسون افريقيا أن يقسموا القارة الى جزأين غير متساويين : افريقيا الشمالية ، أو افريقيا البيضاء من جهة ، وافريقيا الاستوائية ، أو افريقيا السوداء من جهة اخرى ، وأن تجعل الصحراء ، التى تبدو حاجزاً واضحاً ، خطاً ملائماً للتقسيم .

ولكن الواقع هو أن الصحراء لم تكن أبداً حاجزاً ، أو قفراً مجدباً خالياً من الحياة . فمنذ فجر التاريخ بنى الناس بيوتهم فى الصحراء ، ونشأت بعض الاصناف من التجارة خلال قرون عديدة بين الذين يسكنون على طرفى الصحراء ، فى المغرب وفى السودان . ان دماء الذين جاءوا من الصحراء أو من الاراضى التى فى شمالها قد تدفقت فى عروق بعض الاقوام من السودان ، كما أن دماء السودانيين قد تركت طابعها فى سكان واحات الصحراء وسكان المدن فى المغرب . وكان الرقيق الاسود ينقل عبر الصحراء ، خلال قرون عديدة ، ليقضوا ايامهم وهم يشتغلون خدماً فى البيوت ، أو محظيات ، أو عمالاً ، أو جنوداً بين الجماعات التى تقطن المغرب . وكانت تأتى معهم منتجات اخرى من السودان : العاج ، ريش النعام ، الجلود ، جوز الكولا ، والذهب على رأسها جميعاً . وقد اسهم الذهب من افريقيا الغربية فى رخاء المغرب ، وفى تطوير الاقتصاد الاوربى خلال العصور الوسطى . ان اخبار الذهب السودانى قد جذبت البرتغال الى الجنوب من السواحل المجهولة فى غرب الصحراء . وقد ساعد ذهب افريقيا الغربية الذى اكتسب من بعد عن طريق التجارة مع ساحل الذهب ، على توفير الاموال للقيام بالحملات

الملاحية البرتغالية حول الساحل والاندفاع الى البحار الشرقية ، وكانت تلك الحملات من الأهمية بحيث إنها فتحت عهداً جديداً من عهود التاريخ . وفى خلال القرون التالية ظلت تصورات الذهب فى القسم الداخلى من افريقيا ، واحلام الاستيلاء على التجارة الذهبية المغربية وتحويل طريقها تراود الاوربيين الآخرين وتشجعهم على التغلغل فى القسم الداخلى من افريقيا الغربية على طول الطريق الذى يقود الى النيجر والى تمبكتو الاسطورية .

ولم تكن تجارة الصحراء ، بطبيعة الحال ، تتحرك باتجاه واحد . فمن الشمال تأتى قوافل الجمال التى ينظمها التجار فى شمال افريقيا . وهى تنقل السلع التى يحتاج اليها أهالى السودان : الملابس الفاخرة ، الفلفل ، السيوف ، والسلع الأخرى التى تعد من المواد الترفية ، بالاضافة الى تلك السلعة الضرورية للحياة ، الملح ، الذى يستخرج من اعماق الصحراء . وما كان التجار يجلبون معهم سلعاً مادية فقط ، بل كانوا ينقلون معهم ايضاً المعرفة والثقافة عن عالم اوسع ، عالم الاسلام ، ومفاهيم جديدة عن الدين ، والقانون ، والحكومة ، واشكالاً جديدة من طرق التعلم ، وكلمات جديدة تغنى اللغات المحلية ، واساليب جديدة من الفن المعمارى ، ومحصولات جديدة ، وحرفاً ومهارات جديدة .

ولكى نفهم تاريخ السودان ، تاريخ افريقيا الغربية كمجوعة ، يتوجب على المرء أن ينظر شمالاً الى الصحراء وما يجاوزها ، الى بلاد المغرب . وعلى المنوال نفسه ، اذا اردنا أن نفهم تاريخ المغرب فينبغى أن ننظر بين الحين والحين جنوباً الى الصحراء والى السودان . ان التوصل الى ادراك موثوق عن تاريخ القارة بمجموعها يوجب على المرء أن لا يتأثر أو ينقاد ببعض التقسيمات التقليدية مثل افريقيا الاستوائية وافريقيا الشمالية ، بل من الأجدر أن يكوّن تصوراً شاملاً عن المجموع ، لا تظهر فيه الصحراء حاجزاً ، بل كمصفاة يترشح منها ، أو كبحر يجمع ويربط كما يقسم ويفرق . وهذه هى الفكرة الاساسية التى يقدمها كتاب بوفيل الى قرائه .

ان كتاب تجارة الذهب وسكان المغرب قد نشر اولاً فى سنة 1958 . وكان مبنياً على كتاب سابق عنوانه «قوافل الصحراء القديمة» الذى نشر اولاً فى سنة 1933 . وكانت فترة عقد العشرين وعقد الثلاثين تتميز بالفتور والركود فى الدراسات عن افريقيا . وانها لتبدو كذلك على الأقل عندما يقارن المرء المقدار القليل نسبياً مما كان يكتب عن افريقيا فى تلك الفترة بالعدد الواسع من الدراسات الافريقية التى تمت فى السنوات الأخيرة ، او بسلسلة الآثار والاعمال العلمية التى انتجها كبار الرحالين فى افريقيا خلال القرن التاسع عشر ، والجيل الأول من الادارات الاستعمارية . وقد يعجب بعض القراء ، كما عجب الكاتب الحالى ، ويتساءل كيف قدر لكتاب فريد مثل كتاب القوافل أن يكتب خلال تلك الفترة . واشباعاً لهذه الرغبة فى الاطلاع كتب بوفيل نبذة وجيزة عن نشوء الكتاب :

فى سنة 1918 نقلت الى قسم المشاة فى كانو Kano بعد أن خدمت مع قوة افريقيا الغربية الحدودية فى افريقيا الشرقية الالمانية ، حيث احببت هناك منطقة الهوزة Hausa حباً عميقاً . لم اكن قد شاهدت كانو من قبل . وقد اهتاج خيالى الى حد بعيد بمشهد الحياة المزدحمة فى المدينة الكبيرة ، وبخاصة مشهد الجمهور الواسع المؤلف من مختلف الاماكن والبلدان وهم يملؤون يومياً السوق ويجذبون الانتباه بتحركهم .

كنت اشتاق الى أن اعرف عن شعب الهوزة وبلادهم البهيجة اكثر مما تخبرنى الكتب ، ولكن هذه الرغبة غير المألوفة فى البحث وزيادة الاطلاع لم تنل الموافقة بطبيعة الحال . وكان موقف ضباط الادارة ، بصفة خاصة ، ازاء ميلى الى طرح الاسئلة التى لا يستطيعون الاجابة عنها ، هو الرد بانها عديمة الصلة بالوظيفة وتذكيرى بان التدريبات العسكرية ولعبة البولو هى الاعمال الملائمة والكافية لشخص مرءوس مثلى .

ولما نقلت الى سوكوتو تهيأت لى تجربة تختلف كل الاختلاف . ذلك أن الضابط المقيم وضابط المنطقة قد رحبا باهتمامي غير المتوقع

بشؤون البلاد وشجعا عليه . وكانت النتيجة أن اصبح كل منهما صديقاً طوال الحياة . نلت التشجيع منهما ، ولكن شعور الاستياء من السخرية فى كانو ظل يلازمنى ، فقررت ، فى اعماق نفسى ، ليأتين يوم يجد فيه اولئك المتحجرون في الادارة أنهم مدينون بالفضل فى نشر تاريخ تلك البلاد الى من كان مجرد شخص مرءوس . وقد انجزت هذا القرار بكل ما اوتيت من قدرة بعد اربع عشرة سنة بنشر كتابى قوافل الصحراء القديمة ، الذى انحدر منه هذا المجلد .

لقد مضى الآن عقد منذ ظهور « تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير » . وفى خلال هذه الفترة اسهم العلماء فى اوربا، وامريكا، وافريقيا فى دراسة معظم الموضوعات التى تناولها هذا الكتاب . وكان لا بد من طبعة جديدة لكتاب « تجارة الذهب » تأخذ فى الحسبان هذه الاعمال الجديدة . وعلى هذا الوجه روجع الكتاب ومرت عليه يد التنقيح . ولذلك سيجد الذين قرأوا الطبعة الأولى من كتاب « تجارة الذهب » أن الطبعة الحالية تشتمل على بعض التصحيح ، وبعض الحذف ، وعلى عدد ملحوظ من الاضافات .

واهم الاضافات هى التالية :

الفصل 1 ، التغير المناخى فى الصحراء .

الفصل 2 ، مادة جديدة عن الصحراء فى ما قبل التاريخ . ونظرة منقحة عن رحلة هانو .

الفصل 4 ، كان الفصل الاصلى يعنى بالدرجة الأولى بالطوارق ، ثم وسع لتقديم المزيد من المعلومات عن الاقوام الصحراوية الأخرى . وجرى التأكيد على الفرق بين الطوارق والصنهاجة من البربر .

الفصل 5 ، هذا فصل جديد برمته ، يتناول التاريخ الأولى لاقوام السودان ، وهو موضوع القت عليه البحوث الحديثة كثيراً من الضوء الجديد .

الفصل 6 ، تقرير عن أفول حكم الرومان فى افريقيا الشمالية ، يعتمد

على الاعمال الحديثة التى قام بها العلماء الفرنسيون .

الفصل 10 ، انحطاط امبراطورية مالى .

الفصل 11 ، معظم المادة فى هذا الفصل سبق نشرها فى كتاب قوافل الصحراء القديمة ولكنها حذفت من كتاب «تجارة الذهب» . كما أن البيانات عن اهمية تجارة الذهب فى اقتصاد بلدان البحر الابيض المتوسط تعتمد على البحوث الحديثة التى اجراها العلماء الفرنسيون .

الفصل 12 ، الكثير من المادة فى هذا الفصل كان قد نشر فى «القوافل» ولم ينشر فى «تجارة الذهب» .

الفصل 13 ، مادة جديدة عن الرحلات الأولى حول ساحل افريقيا الغربى . وأهمية ذهب افريقيا الغربية للبرتغال .

الفصل 14 ، مادة مضافة عن تجارة ذهب السودان ، تعتمد بالدرجة الأولى على ما كتبه جغرافيو العرب فى العصور الوسطى .

الفصل 23 ، غيّر عنوان هذا الفصل من «النيجر» الى «التغلغل الاوربى فى القسم الداخلى من افريقيا» ووسع حتى يشمل مادة جديدة تعتمد على البحوث الحديثة عن حركة الاستكشافات الاوربية فى اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر .

الفصل 24 ، غير عنوان هذا الفصل من «عثمان دان فوديو» الى «بورنو ، الهاوسا، وامبراطورية سوكوتو الفولانية» . ذكرت بورنو قليلاً فى الطبعة الأولى من «تجارة الذهب» ولكن تاريخها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بدول الهاوسا، ولذلك وصفت هنا بايجاز . وقد بحث الموضوع الخاص بجهاد عثمان دان فوديو كثيراً فى الفترة الأخيرة من قبل العلماء العاملين فى نيجريا . والمادة الجديدة الواردة هنا مبنية على اعمالهم العلمية .

الفصل 25 ، ادخلت معلومات اكثر تفصيلاً عن التجارة فى داخل

السودان الغربية ، واكملت تجارة الصحراء باحدث البحوث عن هذا الموضوع ، وعدلت التصورات المقدمة فى الطبعة الاصلية عن العوامل التى أدت الى تدهور التجارة عبر الصحراء ، ونوقشت مجموعة من العوامل الجديدة الأخرى . وختم الفصل ببيان موجز عن التغيرات الحديثة فى الصحراء .

لقد وضع فى آخر الكتاب اسماء العديد من كتب المراجع . كما اشير الى مجموعة منتخبة من المراجع لمن يود الوقوف على دليل مفيد يعين على التوسع فى القراءة .

وفى تحضير هذه الطبعة الجديدة من «تجارة الذهب» كنت اضع الى جانبى باستمرار كتاباً واحداً : هو كتاب ريمون مونى المعنون الجدول الجغرافى لافريقيا الغربية خلال العصر الوسيط . طبع أولاً فى سنة 1961 ، وكان ثمرة عشرين سنة من الدراسة والبحث . ويعد كتاب مونى واحداً من اعظم المساهمات التى انجزت حتى الآن فى دراسة التاريخ الافريقى . على أنى اعتمدت كثيراً أيضاً على المؤلفات الحديثة للعديد من العلماء الآخرين ، كما استفدت على نحو واسع من المراجعات النقدية التى نشرت عن الطبعة الأولى لكتاب «تجارة الذهب» وبخاصة المراجعات التى كتبها فاج Fage فى (افريقيا Africa ، يولية 1959) ، وثيودور مونود فى (مجلة الارساليات الدولية ، اكتوبر 1958) ، وتوماس هوجكن فى (افريقيا الغربية ، مارس 1958) وسمت فى ايبادان ، اكتوبر 1958) .

* * * * *

وتوفى بوفيل فى ديسمبر سنة 1966 ، بعد بضعة اسابيع من كتابة القسم الاكبر من هذه المقدمة . وكان من اعماله الأخيرة أنه قرأ بدقة وعناية التنقيحات التى اجراها كاتب هذه الاسطر وأبدى موافقته عليها . ويمكن أن يقال عن بوفيل الآن إنه كان عالماً فريداً فى تخصصه بالثقافات الافريقية ، وهو فريد لأن معظم حياته العاملة لم تنفق ، كما قد يظن البعض ، فى الادارات الاستعمارية ، او التعليم الجامعى ، بل انفقها وهو مدير ناجح على رأس شركة فى المنطقة التجارية والمالية بمدينة لندن . وقد جعله هذا العمل على

صلة وثيقة بالادارة الخاصة بشؤون افريقيا الشرقية . فزار افريقيا الشمالية في عدة مناسبات . على أنه كان يبدى أسفه الشديد لعدم توفر الفرصة لمشاهدة افريقيا الغربية مرة اخرى بعد تسريحه من قوة افريقيا الغربية الحدودية في سنة 1919 . وقد بوأته كتبه مقاماً محموداً بين المؤرخين الذين كتبوا عن افريقيا . وفي هذا العصر الذى ازداد فيه الاحتراف الجامعي ، يبرز بوفيل متحلياً بذلك التقليد القديم المجيد الذى يجعل المرء يهوى العلم ويولع بالثقافة .

ان الدراسات المتعلقة بتاريخ افريقيا الغربية قد بلغت الآن مرحلة عالية مثيرة . وهذا العدد المتزايد من العلماء المنتمين الى عدة اقطار مختلفة والذين لهم اختصاصات متنوعة يعملون باطراد على زيادة معارفنا عن ماضى افريقيا الغربية . وفي هذه الظروف التي قلما يمضى فيها شهر دون ظهور بعض المساهمات البارزة في تاريخ افريقيا الغربية لا يستبعد أن يجد الاختصاصيون في هذا المجال أن بعض الاقسام من كتاب بوفيل ، حتى في الطبعة المنقحة قد بدأت تظهر عليها بعض ملامح القدم . ولكن القارىء العام والاختصاصىّ الذى يحتاج الى نظرة شاملة محفزة ، من المرجح أن يجد في «تجارة الذهب» خلال سنوات عديدة قادمة ، كتاباً يقدم دراسة تمهيدية مثيرة ، واسعة المدى ، ناصعة البيان ، عن نطاق من الماضى ربما كان قليل التردد على الخواطر . وهو كسائر الدراسات التمهيدية الجيدة يمكن أن يحفز على المزيد من الاهتمام والتعمق في البحث . ولعل العديد من افراد الجيل الحاضر الذين اختصوا بتاريخ افريقيا يتذكرون أن اهتمامهم بهذا المجال من الدراسة قد نشأ من قراءتهم كتب بوفيل . ونرجو أن تتاح الفرصة لجيل جديد من القراء فيحظوا بالتجربة نفسها .

روبن هاليت

معهد دراسات الكمونويلث
اوكسفورد
اغسطس 1967

البَاب الأول

افريقيا الغابرة

الفصل الأول

أسود الأراضي الجافة

ينقسم شمال القارة الافريقية الى نطاقات طبيعية تمتد من الغرب الى الشرق فى اتجاه يكاد يكون متوازياً . فعلى امتداد ساحل المتوسط يظهر شريط مموج المظهر يعرف بالتل، ويسوده مناخ لا يختلف كثيراً عما هو موجود على طول ساحل القارة الأوربية الجنوبى ، ويسكنه قوم يمارسون الزراعة بالدرجة الأولى .

ويلى هضبة التل صوب الجنوب مناطق اكثر ارتفاعاً ويغلب عليها الجفاف رغم انها جزء من اكثر اراضى المنطقة ارتفاعاً والتى يتمثل أعلى أقسامها فى قمم جبال الأطلس التى تكون فى مجموعها مناطق استبسية يقطنها قوم من الرعاة وأشبابهم .

وتنحدر هذه المرتفعات انحداراً واضحاً صوب الصحراء التى تشكل أوسع نطاق جاف مقفر على سطح الكرة الأرضية ، مما فرض تخلخلاً واضحاً فى اعداد السكان الذين يمارسون الرعى اينما سمحت الظروف بذلك .

ورغم الاتساع الهائل لنطاق الصحراء الا أن اطراف حدوده الجنوبية غير واضحة ومحددة ، اذ تتداخل وببطء مع مناطق الاتبس التى سرعان ما تخلى طريقها أمام حياة عشبية اكثر غزارة ، ممثلة فيما يعرف بأراضى السافنا ، التى سرعان ما تفسح المجال هى الاخرى أمام مساحات تكثر بها الحياة الشجرية Parkland حيث يقوم السكان فى كلا النطاقين السابقين ، كما فى منطقة التل باحتراف الزراعة المستقرة ، التى تنتهى بدورها هى الاخرى حيث تبلغ أطراف

الغابات الأستوائية الكثيفة .

وتعرف المنطقة المتباينة فى تكويناتها ، والممتدة ما بين ساحل البحر المتوسط وبداية نطاق الصحراء ، وبين المنطقة الواقعة ما بين أقليم طرابلس والمحيط الأطلسى بتسمية جغرافية غير محددة اشتهرت باسم باربري Barbary *، كما تعرف المناطق السهلية الممتدة ما بينم جنوب الصحراء، ومنطقة الغابات الإستوائية ببلاد السودان ، التى تعنى أرض السود فى اللغة العربية ، وتشمل المنطقة الممتدة ما بين ساحل البحر الأحمر والمحيط الأطلسى . أمّا ما يشار إليه بالسودان الغربى فيعنى الجزء الواقع غربى بحيرة اتشاد وساحل المحيط .

ومع ان نطاقاً صحراوياً مقفراً يفصل بين منطقة المغرب الغربى وأراضى السودان الغربى ، الاّ ان هذا الحاجز المرعب ، لم يقف جسراً يستحيل عبوره اذ لعبت حركة التبادل التجارى واتصال السكان دوراً لا يغفل فى تنمية العلاقات الحضارية ، والتبادل الاقتصادى ، وفى هذا ما يعطى الصحراء دوراً مهيمناً وفعالاً فى تاريخ الاطراف الداخلية لكل منطقة شمال افريقيا .

ان أى تحول نحو الجفاف فى هذا النطاق الصحراوى الشاسع ستنجم عنه بالضرورة آثار سياسية لا حدود لها ، لان مثل تلك الزيادة ستعنى دفع وطرد قبائله الرحل ، الى الانتقال والاستقرار فى مناطق الهضاب وسهول ارض المغرب العربى ، أو الى الوصول الى الاراضى السهلية فى الجهات التى تجاور نطاق الصحراء جنوباً ، ويعنى فى نفس الوقت ان المسافات التى تفصل بين نقاط توفر الماء به ستزداد تباعداً مما يعرقل سهولة بلوغ القوافل اليها .

وعلى العكس فان أى تحول نحو زيادة كمية التساقط سيزيد من عدد الآبار ومناطق المرعى ، ويقلل من اعتماد الناس على الابل مما يخفف وطأة

* من الأفضل استعمال اصطلاح المغرب العربي بدل التسمية الركيكة المشار اليها، والتي ترجع بداية استعمالها الى العصر الروماني .

الحياة ويدفع الى مزيد من الاستقرار ، وبالتالى فإن تقصى امكانية حدوث تغيرات ملموسة على مناخ الصحراء خلال العصور التاريخية ، يصبح استفساراً بالغ الاهمية لذوى الاختصاص على الأقل خاصة وان منطقة شمال افريقيا تحظى دون غيرها من جهات العالم ، بوفرة وغنى عوامل الطرد الناجمة عن تغيرات مناخية نحو تفاقم ظروف الجفاف بها ، وإن عملية التحول تسير من سيء الى اسوأ .

ففى جميع الجهات الواقعة شرقى دولة المغرب التى تحظى بسقوط كميات جيدة من الامطار ، هناك دلائل تشير وتؤكد حدوث دمار وتخريب ناجم عن نقص واضح فى كمياة المياه .

كما ان المنطقة الممتدة ما بين الجزائر ووادى النيل مليئة بشواهد تؤكد الحقيقة السابقة ، فبقايا عشرات المدن الاثرية ، وخزانات المياه المهجورة ، واحواض الأودية الجافة أضافة الى انقراض معظم ان لم يكن جميع الحيوانات الضخمة (1) ، أدلة مادية تؤكد حدوث تحول مناخى قوامه تناقص كميات الامطار التى كانت تسقط على تلك الربوع .

فمسرح الجم الروماني بتونس ، الذى يتسع لستين الف متفرج ، يبقى اليوم أثراً وسط منطقة مهجورة تقريباً ، بعد ان كان دليل رخاء وازدهار ، الأمر الذى ينطبق ولو بدرجة أقل مستوى على مثيله فى مدينة تمجاد . فهذان الأثران يقومان اليوم وسط مناطق عشبية فقيرة تتنقل فوقها مجموعات من الرعاة حيث يستحيل على الباحث العثور على مخلفات وبقايا المياه الجارية التى لم يخل منها مكان آن ذاك .

كما ان الزائر لمدينة لبدة ، لابد وان يسرح به الخيال مقتفياً عظمة ما يراه من آثار شامخة لمدينة زاد عدد سكانها على ستين الفاً ، وأن يتساءل عن الطريقة التى وفر بها سكانها حاجتهم من المياه ، وعن تلك الخزانات الهائلة التى أقاموها بجانب الحمامات العامة وفى كل مكان سمح لهم بذلك رغم أن الموقع لا يتعدى ما يسقط به من مطر اليوم على مائتين وخمسين ملليمتراً .

فحصر ما لا يعد من الأمثلة على تناقص اعداد السكان التى ترجع كلها الى تضائل كميات الامطار يمكن اضافتها بيسر الى ما سبق وأشير اليه ، ولو أن ما ذكر كفيل بالقاء ضوء ساطع لأقناع كل من تطأ أرجله تلك الديار ، علماً بأن بقايا مجارى الأودية ، التى قل ما يخلو منها مكان ، والتى يحتل بعضها مجارى واضحة العمق ، تشير هى الاخرى الى تتابع فترات الجفاف التى توالت على المنطقة .

وعلى أية حال فان أية تأكيدات اخرى لتدهور الظروف المناخية منذ العصور القديمة ، يمكن مشاهدتها على الفسيفساء التى تضمها متاحف التراث الرومانى ، التي تصور انماطاً من طريقة حياة الناس ، وشكل بيوتهم ومزارعهم ، والطريقة التى يمارسون من خلالها حرفة الزراعة وما يزاولونه من نشاط رياضى ، وما يتوفر فى أريافهم من حياة حيوانية .

انها بكل صدق حياة تختلف كلية عن الحياة المعاصرة لأنها أقرب شبهاً بما هو قائم اليوم فى دولة كينيا ، وليس كما فى منطقة المغرب العربى ، إنها الحياة التى كانت تمارس على ارض مخزن غلال روما وليست التى نراها اليوم فوق هذه الارض .

ولعل أكثر ما يحز فى النفس ذلك التبدل والتغير الذى ادى الى فقدان جل ثروة الاقليم الحيوانية التى كانت تضم زمن الحكم الرومانى انواعاً عديدة من الحيوانات وبأعداد كبيرة ، والتى بإستثناء قلة من الحيوانات البرية لم يعد لأكثرها وجود فى الوقت الحاضر اللهم الا فى مناطق افريقيا المدارية .

ولعل خير مثال يصور ذلك الماضى هى تلك الصور والرسومات التى يضمها متحف باردو Bardo بالعاصمة تونس ، والتى تضم مجموعة فريدة تصور تلك الحيوانات التى يظهر بينها حيوان التيل .

كما أن التاريخ يحكى الأمر ذاته مع قطعان الفيلة التى كانت تجوب كل منطقة شمال افريقيا زمن القرطاجيين ، والتى كانت لا تزال كما كانت ايام الرومان ، الذين وصف هيرودوت من قبلهم بكثير اقليم الظهير لمنطقة شمال

افريقيا بمأوى الحيوانات المتوحشة .

يبدو الاستنتاج الطبيعي والمنطقى من وراء كل ما سلف أن الظروف المناخية السائدة الآن هى ظروف طارئة ولم تأخذ طريقها الاَّ منذ العصر الرومانى حين بدأت الصحراء تزحف على الطرف الافريقى المجاور لساحل المتوسط الذى كان أرضا يانعة قبل ذلك التاريخ ، فأى استنتاج آخر يمكن الوصول اليه من ساحل منطقة طرابلس مثلا حيث وصلت عملية التحول المناخى ذروتها وأفلحت فى ردم مينائى لبده وصبراته ، القديمتين بكميات مأهولة من الرمال المتحركة .

فالى جانب المدن الاثريه المدفونه تحت أكوام الرمال ، توجد أمثله عديدة لمدن مهجوره وسط مناطق قاحلة ، ومجارى عديده لأوديه ضيقه ، وفقدان واضح للثروة الحيوانية ، غير ان جميع هذه المؤشرات لا يمكن ان تقف دليلا قاطعا على حدوث تحول مناخى عميق الجذور بحيث يبقى الاحتمال الآخر كامنا فى تشابه كميات المطر الحاليه مع تلك التى كانت تسقط منذ ألفين وخمسمائة سنة خلت .

فالرومان عندما يضطرون لاسباب اقتصادية أو سياسية أو لدواعى الحرب أقامة مركز عمرانى جديد أو توسيع فعاليات نشاط ما هو قائم ، لم يذعنوا لشح المصدر المائى ان يحول بينهم وبين تحقيق أغراضهم فقلة أوشح ما هو موجود أو سوء نوعه كانوا يستعيضون عنه بجلبه من جهات اخرى ، فمدينة قسطنطينيه مثلا زودت بمصدر مائى يبعد عنها بعشرين ميلا ووفروا احتياجات Caesarea بنفس المسافة الاَّ ميلا واحدا ، في حين حظيت مدينة قرطاج بتوفير الماء لها من على بعد تسعين ميلا كاملة .

واليوم تقف قنوات وسواقى المياه ، التى أقامها الرومان وسط أراضى سهلية مجدبة او بشق فجوات لها عبر مناطق جبلية ، خير شاهد على عبقرية مهندسى المياه الرومانيين الذين افلحوا أيضاً فى استغلال مياه العيون لتزويد مراكزهم العمرانية بالمياه .

فما قام به أحفاد روما من الايطاليين من مجهودات فى تعمير مستوطناتهم الزراعيه فى بعض جهات الساحل الليبى ، بعد احتلالهم لها فى الثلاثينات ، لا يعدو ان يكون نقلاً مباشراً لتصرف اجدادهم الذين كان عليهم ان يواجهوا النقص الواضح فى مصادر المياه فى تلك الربوع خلافاً لبقية الاراضى التى كانت خاضعة لهم ، بتجميع مياه الامطار على اسطح المنازل أو من مساحات أعدت خصيصاً وحفظها فى خزانات لاستعمالها وقت الضرورة ، بالاضافة الى ما أقاموه من سدود على مجارى الأودية التى تسمح تكويناتها الجيولوجية بذلك ، والتى إما ان تحفظ وراء تلك السدود أو تجمع فى خزانات هى الاخرى .

وهنا تجدر الاشارة الى ان الاغريق صادفوا هم الآخرين نصيباً من النجاح فى تعاملهم مع الحاجة الى المياه على طول ساحل ليبيا الشرقى حيث أفلحوا فى اقامة العديد من المدن الزاهره ، التى تحوطها بساتين الكروم ، ابتداء من سيرين وانتهاء بالاسكندرية حيث لا تزال بقايا صهاريج المياه تشهد على ذلك .

ويمثل جفاف الصحراء شرقى منطقة قابس خطراً دائماً ، فزحف الرمال عملية لا يمكن الحد منها الا باستمرار مزاولة فلاحتها ، أما وقد بدأت السدود والخزانات فى التعرض للتلف والتدمير ، فان الزراعة قد أخذت فى الانكماش اولاً ثم الاندثار فى نهاية المطاف ، مما فتح المجال أمام تقدم وزحف الصحراء المستمر والذى كان من بين آثاره ما أشير اليه بالنسبة لمينائى صبراته ولبدة .

لقد كان من نتائج انجازات الرومان فى اقامة السدود والصهاريج ما ترتب على قيامها من قنوات نقلت المياه الى أماكن اخرى ، السبب المباشر وراء اقامة العديد من المدن المهجورة ، التى لا زالت تشد انتباهنا حتى اليوم .

أصيبت انجازات المهندسين الرومانيين باكثر من مظهر أوقف استمرار

عملها بحكم تداعيها للتلف أو كأثر للتخريب وبالذات منشآت السدود وقنوات المياه ، غير ان الذى يجب التأكيد عليه ان مثل ذلك الفعل لم يكن بسبب فشل أو تناقص واضح فى كميات الأمطار ، أو شح مياه العيون ، بقدر ما هى راجعة الى تصرفات الانسان نفسه . فأثر العوامل الطبيعيه الناجمة عن حركات الأرض الباطنية لا يعتد به كسبب له آثار ينوه بها . فالإنسان هو الذى دأب على اللجوء لاستعمال مخلفات تلك المنشآت كبديل لاقامة مراكز عبادته ودور سكناه خلال الالف سنة المنصرمة .

فالمسجد الكبير بمدينة القيروان استغل فى بنائه ثلاثمائة عمود من المبانى الرومانيه والبيزنطيه المجاورة ، والتى لم يعد لها اثر الآن . كما ان مسجد تاجوراء ، شرقى مدينة طرابلس ، استخدم فى انشائه ثمانيه واربعون عمودا اختيرت من بين آثار مدينه لبده خلال القرن السادس عشرة . أما فى مدينة غدامس ، الواقعة الى الجنوب من منطقة طرابلس ، فلم يبق من مخلفات الحكم الرومانى الطويل سوى بضع أعمدة لا زالت موجودة بمسجدي المدينة حاليا . وهنا علينا أن نقر ان قسطا من التخريب المتعمد للمنشآت الرومانيه كان نتيجة للغزو وما ينجم عنه من آثار مدمره ، وبالذات مع مهاجرى بنى هلال الذين حلوا بالمنطقه بعد تركهم الديار المصريه خلال القرن الحادى عشر .

كان ذلك التاريخ يوما أغبر فى تاريخ منطقة شمال افريقيا ، فأولائك القوم لم يركنوا فى حياتهم الى سكن مستقر وكانت الخيمة ضمن زادهم الأساسى مما دفعهم الى حصار وتدمير كل المبانى التى تصادفهم . وهكذا تحولت المدن والقرى وقنوات المياه ، والكبارى والصهاريج ، الى أكوام من الركام فكانوا بذلك اشرس وأفظع من أى غزاه عرفتهم هذه الديار . كما تعرضت الاراضى المروية للاهمال وتحولت مع الوقت الى مناطق قاحلة ، كما تعرضت أراضى الغابات الى مصير مشابه مما زاد من حدة تفاقم مشكلة المياه .

وخلافا للعرب الفاتحين فى القرنين السابع والثامن ، لم يسد الهلاليون

للمنطقة ما يستحق ان يذكر بل تحولت الارض الى كم مهمل حتى ان الانجازات التى قام بها الفرنسيون والايطاليون لم تفلح بعد فى استعادة هذه الأراضى لسابق عهدها .

أما مجارى الأودية ، التى تضمها الصحراء ، فيمكن شرحها بسهولة اذ تكون اغلبها فى الزمن الجيولوجى الرابع ، اى ما قبل تدوين التاريخ بزمن طويل ، وبالذات فى الفترة التى كانت فيها المنطقة مأهلة كسقوط كميات غزيره من الامطار . أما اليوم فان قلة منها فقط قد تتعرض لجريان المياه بها خلال الفصل المطير من السنة .

وبغض النظر عن التفاصيل ، فان انكماش الحياة الحيوانيه التى كانت غنية ومتنوعة ، لا يجب الحاقها بعامل تغير الظروف المناخيه ، فما يظهر من تلك الحيوانات التى صورت بوضوح على الفسيفساء الرومانيه ، لن تكون الحياة مستحيلة عليها اليوم فى اجزاء كثيره من منطقه شمال القارة ، والتى لولا زحف الحياة العصريه عليها ، لما وجدت تلك الحيوانات تعارضا بين مجال آمن لحياتها ، وبين مصلحه من قد يعيش عليها من بن الانسان .

ومع ذلك فأن العديد من الحيوانات التى ظهرت صورها فى زخارف بديعة ، منذ ايام الرومان ، قد اختفت كلية أو كما قد يفكر البعض باختفائها منذ أمد طويل . فصورة التيل الافريقى التى ظهرت فى فسيفساء متحف باردو Bardo بتونس ، هى نفس صوره التيل الذى ظل يعيش بالمغرب حتى بداية الحرب العالمية الثانيه . كما وجدت بمنطقة الأطلس الوسطى ، العديد من الاسود وذلك حتى عام 1922 ، واكثر من هذا فان البعض يعتقد باستمرار وجود بعض النمور فى الجهة ذاتها . أما اختفاء النعام فانه لا يمتد طويلا الى الوراء.

كما ان انقراض الفيل لم يتم الا فى الفترة الأولى من ظهور المسيحية ، حيث كان الرومان يمعنون فى صيده ، بعد ان عرفوا استخدامه من قبل القائد الاسكندر فى حملته على الشرق ، كما انهم دربوا القرطاجيين على طريقه صيده ، وللعلم فان ذلك الحيوان هو نفسه الذى لا يزال يجوب أواسط افريقيا

رغم ما أصابه من تغيير بحكم العزلة وظروف البيئة .

وهكذا فان الذين يلمون بظروف حياة فيلة الوقت الحاضر فى افريقيا المداريه حيث تعيش وتتكاثر بشكل مرض ، رغم تباين الظروف البيئية ، لن يجدوا لتأكيدات المختصين بامكانية ان تصبح الكثير من جهات شمال القارة الافريقية ، ملاذاً لتكاثرها من جديد ، وبالذات فى منطقة أطلس العليا التى كانت آخر مكان قيل بتكاثرها فيه .

يميل الانسان كالحيوان الى التكاثر واستنزاف الموارد المتاحه بالقرب منه ، فالجوع يقود الى التطاحن القبلى الذى يؤدى الى الحروب التى كثيرا ما تدفع بجماعات كثيرة من اماكنها مما قد يؤدى الى تغيير مسار التاريخ كما حدث اكثر من مرة فى كل من آسيا وأوربا .

فالجوع الذى يدفع بالجيران الى محاربه بعضهم ، ينزل جام غضبه قبل الانغماس فى تلك الحروب ، على ما يوجد قريبا منه من حيوانات للاقتتات بها ولدفع الأذى عن المحاصيل التى تقتات عليها . فحيوانات الصيد فى افريقيا المداريه مهددة اليوم اكثر من اى وقت مضى ، بازدياد ملحوظ فى عدد السكان الذين يبحثون بدورهم عن توسيع رقعة الارض الزراعيه ، وحاجتهم الملحة أيضا لزيادة مساحة اراضى المراعى ، مما لم يعد يوفر مكانا رحبا لكليهما معا ، وكالعادة أصبح على الحيوان ان يتراجع تاركا الاقوى والأصلح للبقاء .

فقد تحتم على الحكومة الاوغنديه خلال الفتره ما بين (1929 ـ 1954) قتل اكثر من ستة وعشرين ألف فيل ، كما انها لا زالت تتخلص من عدة مئات كل سنة بسبب الاضرار التى تصيب المحاصيل الزراعية التى اخذت رقعتها تمتد داخل المناطق التى كانت حكراً لتحركات قطعان الفيله التى بدأت تبدى مقاومة للتخلى عنها .

وبالمثل تناقصت قطعان الزراف التى كانت لمدة جيل مضى تجوب معظم سهول كينيا بشكل ملفت للنظر ، اذ لم يعد هناك مراعى كافية لها ولقطعان الماشيه التى يقوم الفلاحون بالتوسع فى تربيتها .

فما يحدث فى افريقيا الجنوبية ، ويهز الضمير الانسانى ، بالنسبة لسكانها السود ، فصل يسير على نفس القواعد التى حدثت فى شمال القارة حين ارتفع عدد سكانها بوصول موجات متلاحقه من الغزاة فى ظل من الفوضى وعدم استتباب الأمن ، مما مهد السبيل أمام تقلص واضح فى ثرواتها الحيوانية .

أما ما أصاب الحيوانات البرية من اباده فيرجع السبب الأول فيه الى تعطش الرومان للحصول على ما يمكن صيده من حيوانات مفترسه ارضاء لنزواتهم ، التى لا تقف عند حد أمام حلبات المصارعة .

كانت تلك الهواية التى تقام دوما لأرضاء علية قومهم ، تلاقى اقبالا منقطع النظير ، وكانت على الجانب الآخر تدر اموالا طائله لمن يتولون عمليات الصيد ، واعداد تلك اللقاءات التى تنتهى بقتل المئات من الحيوانات ، والعديد مما يدفعون لمبارزتها ولو ان جلهم من العبيد أو مما قاموا بأعمال لا يرضى عنها المجتمع ، فالقتل واسالة الدماء على الحلبة كان بمثابة رفع راية النصر .

فعن فترة حكم الامبراطور دومتيان Domitian ، كان النظاره لا يقبلون بصرع أقل من عشر حيوانات فى العرض الواحد مما أوجب تجهيز تلك الامكنه بمحارق خاصة للتخلص من تلك الجثث .

ويذكر ان يوليوس قيصر ، دفع فى احدى المناسبات بأربعمائة أسد الى الحلبة لمصارعة جمع من عبيده ، أما الامبراطور بومبيى Pompei فقد كان اكثر اغراقا فى الابهة اذ وفر ستمائه أسد لعرض مماثل . أما الامبراطور اغسطس Agustus فيذكر أنه قدم ثلاثة آلاف من تلك الحيوانات فى ستة وعشرين مشهدا ، هذا فى حين قام الامبراطور تيتاس Titus ، عند تدشينه احدى التماثيل الفخمه ، بتجهيز تسعة آلاف من الحيوانات المفترسه لتفتك أو يفتك بها من قبل ما أعده من عبيد لتلك المناسبة .

أما فى المناسبات الاقل أبهة فى تاريخ لاحق ، فيذكر انه فى عهد

الامبراطور تراجان Trajan تم قتل ألفين ومائتين وستة وأربعين حيواناً في يوم واحد (2) .

لقد دخلت تلك العروض ذاكره التاريخ لضخامة اعداد الحيوانات التى أوتى عليها ، والتى ما كانت لتشكل الا نسبه ضئيلة جدا من مجموع ما أبيد خلال مدة لا تزيد عن قرن ونصف ، وهى المدة التى تناولتها الوثائق التاريخيه التى تشير الى ان جزءا ضئيلا من تلك الحيوانات كانت تستورد من مصر وبعض جهات القارة الاسيوية ، مما يعنى ان جلها كان يوفر محليا بكل تأكيد . فاذا عرفنا الصعوبات الجمة التى تعترض صيد الحيوانات المفترسة سليمة ثم ما يترتب على الحفاظ عليها حتى يؤتى بها الى حلبات الصراع على يدى صيادين محترفين ومن مسافات بعيده ، لتبين لنا ان ثمن الالعاب الرومانيه تلك لا بد وان تكون ، بالنسبة لثروة المنطقة من الحيوانات البرية ، عند مستوى تتشابك فيه الأرقام التى نتعامل معها .

حظيت الفيلة بأهمية هامشية فى مجال الالعاب الرومانية مقارنة بغيرها من الحيوانات البرية ، فحين أقدم الامبراطور بومبيى على اعداد مجموعة منها لمنازلة مصارعين محترفين أوتى بهم خصيصاً من افريقيا ، أثار مظهر صرعها الرعب وظهرت علامات الاشمئزاز ، وتحرك ضدها الضمير الرومانى الذى لا يهتز عادة لمظاهر القتل وسفك الدماء (3) .

ومع هذا فان هذه الحيوانات لم تكن بمنأى عن الفتك بها . اذ كانت هناك رغبة جامحة للحصول على ما تحمله من عاج خام ، واغرب من ذلك ما يؤكده المؤرخ بلينى من ان لحم الفيل وبالذات حول الاطراف الغضروفيه كان أفضل الوجبات التى يشتهر بها المطبخ الرومانى (4) .

أما المؤرخ استرابو ، فيتركنا دون أية نزعة للشك ، بأن وصول افريقيا الشمالية لانقراض يكاد يكون كاملاً فى ثروتها الحيوانية ، يرجع الى محصلة الجمع بين مجهودات الفلاحين بدفع الأذى عن حقولهم بتكثيف عمليات الصيد ، وجنوح الرومانيين الى ممارسة هواياتهم الغريبة داخل حلبات الرياضة

اذ كتب بقول . . . تتكاثر الحيوانات البرية فى المنطقة الممتدة ما بين اعمدة هرقل وارض قرطاج تماماً كالمناطق الداخلية ، الامر الذى لم يعد محتملاً معه اطلاق صفة البدو على جزء من السكان لفشلهم ومنذ القدم ، ملاءمة انفسهم للعمل الزراعى لكثرة الحيوانات البرية المتواجدة . . . أما الأن فهم صيادون مهرة اذ يساعدهم الرومان فى مهمة صيد ومنازلة تلك الحيوانات التى أصبحوابالفعل سادة لها بجانب احترافهم العمل الزراعى [5] .

وهذا يمكن القول انه بنهاية القرن الأول قبل الميلاد أصبح بالأمكان مزاولة العمل الزراعى بشكل أيسر لانكماش اعداد الحيوانات البرية ، التى كانت تحد من فلاحة الارض بشكل واضح فى الكثير من المناطق ، علماً بأن ذلك التاريخ لا يعنى مطلقاً ان ممارسة عملية الصيد لم تستمر، ولو على نطاق أضيق ، فى تاريخ لاحق . ومما يلفت النظر فى هذا الخصوص ان معظم الحيوانات التى ظهرت صورها على الفسيفساء ، والتى لم يعد لها أثر ، أو ان ما بقى منها أصبح من القلة بحيث يهددها الفناء ، قد اندثرت أو تضاءلت اعدادها منذ زمن انتهاء الحكم الرومانى . فاختفاء الثروة الحيوانية وتحول الكثير من المدن الى آثار ، وما حل ببعض مجارى الأودية لا تعزى إلى التغيرات المناخية . ومع هذا فمن الخطأ القول بعدم حدوث ذبذبات مناخية ، فتدمير الغابات قد اوجد فعلاً تبايناً طفيفاً فى معدلات سقوط الامطار اضافة إلى تغيرات اخرى لأسباب لا زلنا نجهلها .

فاقليم طرابلس ، كما يقول خبراء الآثار ، كان ينال كمية أكبر من الأمطار أيام حكم الرومان عما هى عليه الآن . كما توضح سجلات المطر التى خلفها الجغرافى بطليموس فى القرن الثانى بعد الميلاد بأن عدد الايام المطيرة فى مصر وان تساوت مع ما هى عليه الآن ، الاّ انها كانت موزعة بشكل افضل من الوضع الراهن [6] .فالتغيرات المناخية التى حدثت كانت طفيفة جداً ، والا فإنه ما كان لدعائم سدود الأودية ان تصمد امام كميات اوفر من المياه الجارية فيها ، كما ان سعة الخزانات كانت اكبر من التى نراها .

فالقارىء لوصف الاقليم من خلال ما تركه الكتاب الرومان سيجد من

المستحيل عليه الاّ ان يقف مشدوهاً أمام قدرتهم الفذة فى التعامل مع ظروف مناخية ، ومصادر مياه لا تختلف كثيراً عما هو سائد اليوم . اذ شكلت أراضيها الشاسعة الجافة ، بما يعيش عليها من حيوانات ، مصدراً لغلال روما ، الذى لعبت مصر فيه دور المصدر الاساسى للقمح . فمثل هذا الوصف الذى يتكرر باستمرار لخصه الشاعر الرومانى هوراس فى كلمات بقوله «أنها الارض الخالية من الأسود»[7] . فى حين يوجزه المؤرخ ساللوت على اعتبارها الرقعة الجغرافية التى يندر توفر الماء بها سواء عن طريق المطر أو المستخرج من الأرض [8] .

تظهر الوقائع التاريخية مشكلة شح المياه على انها واقع مرير كثيراً ما يطفو على السطح ، من ذلك ما واجهه يوليوس قيصر من قلق مستمر اثناء محاصرة مدينة سوسه التونسية ، تلك المشكلة التى اعادت فرض نفسها مع القائد بليزاريوس بعد مرور ستة قرون من تواجد يوليوس قيصر عندها .

كما ان حدوث دورات الجفاف لم تكن أقل تكراراً فى الماضى عما هى عليه فى الوقت الحاضر ، فالامبراطور هدريان بالغ الافارقة فى حبه لا لشىء سوى لتصادف نزول المطر ، بعد انقطاع ستة سنوات ، مع اليوم الذى حل فيه بأرضهم .

وخلاصة القول ان منطقة شمال غرب افريقيا قد تعرضت ، خلال الالفى سنة الماضية ، الى تبدل فى احوالها المناخية الا انه تبدل طفيف ولا يكاد يذكر .

أما منطقة الصحراء فان تاريخها المناخى اكثر اثارة مما سبقت الاشارة اليه ، اذ مما لا شك فيه ان هذه الرقعة الجغرافية الهائلة كانت منذ الف سنة ، كما هى اليوم صحراء قاحلة دون ان ينالها اى تغيير ، فقد أعطى الكتاب القدماء صورة معتمة للحال الذى كانت عليه اذ كتب هيرودوت يقول« . . . ليبيا مليئة بالحيوانات البرية ، وتليها ارض رملية يندر وجود الماء بها ، ولا تمثل شيئاً سوى الصحراء [9] . أما صورتها لدى المؤرخ بلينى ، بعد خمسة

قرون من وصف هيرودوت لها بأنها صحراء وليس بها الا الرمل ، وما تعج به من ثعابين (10) .

كانت الصحراء دوماً مكاناً محفوفاً بالمخاطر أذ الذى يذكر ان جيش قمبيز الذى ارسله للانتقام من بعض أعدائه عند معبد آمون بواحة سيوة ، تعرض لهبوب عاصفة رملية عاتية أتت على كامل الجيش ، الأمر الذى اعتبره السكان المحليون انتقاماً عادلاً للإساءة لمعبدهم المقدس (11) .

وقعت حملة قمبيز عام 525 قبل الميلاد ، ولكن ماذا اذا عاد المرء احقاباً سلفت قبل ذلك التاريخ حيث كتب الباحث لويد كابوت بريجسL.C.Briggs ما نصه «كانت الصحراء قبل احقاب عديدة من تدوين التاريخ ، مختلفة تماماً عما هى عليه الآن ، اذ كان جزء كبير منها أرض خصبة تقطنها اعداد لا بأس بها من السكان بحكم مناخها الملائم ، كما توضح ذلك المخلفات الحجرية المختلفة المنتشرة فى أغلب الجهات . كما يعنى العثور على اعداد من سهام وصنانير صيد السمك ، المصنوعة من العظام ، فى قلب المنطقة الوسطى من طرف الصحراء الغربى ، ان بعض السكان كانوا يزاولون تلك الحرفة منذ أمد موغل فى القدم . فقد دلت الحفريات الحديثة ، على ان اغلب الرقعة الصحراوية الحالية ، كان منذ ثلاثة او أربعة آلاف عام مضت ، أرضاً خصبة ، وبها وفرة من المياه ، وتظهر فى بعض اجزائها البحيرات الضحلة والمستنقعات التي تنمو بها مجموعات بعض الأشجار ، التي لم يعد لعضها اليوم أثر جنوبى جبال الأطلسى (12) .

لم تكن أدوات صيد سمك انسان العصر الحجرى الحديث ، المخلفات الوحيدة التى تظهر حدوث تحولات مناخية هامة ، فما تركه بعض صيادى تلك الحقبة الزمنية من نقوش كاملة ودقيقة ، على بعض الاحجار فى وسط وشمال الصحراء ، تقف شاهداً آخر على ما حدث ، اذ تظهر تلك النقوش بعض الحيوانات كالفيل ، ووحيد القرن ، وفرس النهر ، والتيل الذى اختفى اليوم كلية . ومع ان المملكة الحيوانية الحالية لمنطقة الصحراء

والساحل لا زالت غنية ومتنوعة * ، الا ان فصائلها الضخمة انقرضت من هذه المناطق .

يتبين من كل ما سبق ذكره من أدله ، وربطها مع بعضها حدوث تغيرات على جانب كبير من الأهمية فى الظروف المناخية التى تـأكدت بمـا لا يدعـو للشك عند المختصين بدراسة ما قبل التـاريخ الـذين أقروا بتحـول بارز نحـو الجفـاف على كامـل منطقـة الصحـراء فى الفتـرة مـا بين ثـلاثـة آلاف والف وخمسمائة عام خلت [13] .

ومع الأقرار بهـذا الرأى ، الاّ ان اسنـاد تلك المهمة لمـا أصاب حـالة المناخ من تبدل لا يمكن أن تقف دليلاً وحيداً على تلك التغيرات . ففى كل من جنوب الصحراء ، ومنطقة الساحل طميت مجارى الأودية ، وقل منسوب المجارى المائية الهامة ، كما غيرت المجارى الأقل أهمية خطوط سيرها كما يـظهر جليـاً فى منطقـة بحيرة اتـشاد . كانت ميـاه البحيـرة ، خـلال العصـر الحجرى الحديث ، تنصرف لمسافة اربعمائة ميل فيما يعرف ببحر الغزال الى ان تنتهى عنـد منخفض بوديـلا Bodele الذى يقـل منسوبـه بمـائتى قـدم عن منسوب البحيرة . ان تأكيد وجود أماكن غنية لحفريـات من العصر الحجـرى الحديث فى بوديلا والعثور على اكوام ضخمة من مخلفـات صهر المعـادن ، يشرح قيام عملية تصنيع خام الحديـد الذى لا يعـود تاريخـه الا لفترة ظهـور المسيحية ، مما يعنى ان منطقة البوديلا كانت مأهولة بسكان مستقرين منذ زمن سابق لنهاية العصر الحجرى الحديث .

وبما ان مجرى بحر الغزال جاف فى الوقت الحاضر ، رغم ما قيل عن وصول بعض مياه البحيرة اليه عام 1874 وجريـانها لمسـافة مـا يقرب من مـائة

---

* أصبح بامكـان الأسـد ، والـزراف ، والضـأن البـرى ، والحميـر ، وبقـر الـوحش الأبيض ، والغزال ، والظباء ، وهى جميعاً حيوانات برية ، القدرة الفائقة على العيش بدون الحاجة الى الماء لعدة أسابيع ، أو أشهر أو حتى نهاية أعمارها .

ميل ، فان الاستنتاج يدل على ان منسوب مياه البحيرة آخذ فى الانخفاض لعدم استمرار وصول مياه رافد لوجونىLogoni أحد أهم مصادر مياه البحيرة .

واخيراً لا بد من التأكيد بأن استفحال عملية التصحر لا بد وان ترجع الى فعل الانسان نفسه . فالرسومات التى اشير اليها تبين وجود قوم من الرعاة ساعدت قطعانهم على تدمير واجتثاث الغطاء النباتى فى الوقت الذى بدأت فيه معالم شح الأمطار تعجز فى اعادة تعويض ذلك الغطاء الطبيعى لسيرته الاولى . ومما يجدر ذكره ان فعل الانسان قديماً لا زال عملية قائمة ، فالرعى الجائر لقطعان البدو لا زال يعمق من اثر التصحر رغم انه ليس بالفعل الوحيد الذى يسهم به الانسان فى زيادة رقعة الصحراء .

ففى المناطق القريبة من عاصمة غانا القديمة كمبى صالح Kumbi Saleh ، زحفت الصحراء عندما تمكن البدو من طرد السكان المزارعين ، كما ان طرق قوافل الصحراء والآبار التى كانت قائمة عليها نالها الاهمال وردمت الابار لا لسبب طبيعى وانما لما طرأ من تغيير فى اتجاه التجارة الى منافذ اخرى .

وباستثناء المناطق القطبية لا توجد اليوم الآ جهات محدودة أقل جذباً لسكن الانسان من منطقة الصحراء الكبرى ، التى لم تسكنها ، منذ زمن هيردوت ، الا أعداد قليلة تتناسب مع مواردها الهزيلة ، التى جعلت منهم ، بحكم الظروف البيئية القاسية ، قوماً من الرعاة الذين لا يجدون مفراً سوى استخدام التنقل بحثاً عن المصادر الشحيحة من الماء والمرعى .

يعرف الجميع ان الحد أو الهامش بين الوفرة والمجاعة فاصل ضيق وشديد الحساسية مما يجعل استمرار الحياة أمر مشكوك فيه لعدم ضمان المستقبل الذى يتطلب سلالة صارمة تحمل كل معانى الرجولة ومستعدة دوماً للذود عن آبارها ومراعيها ، كما سيكون عليها الدفاع وبنفس الهمة ، عن ممتلكات جيرانها اذا دعت الضرورة .

لقد تبين للبدو ان استمرار الحفاظ على بقائهم وجعله محتملاً عند

الضرورة ، يلزمهم المحافظة على مواردهم الطبيعة بكافة الطرق الممكنة مما كان يدفعهم الى الايقاع بالقوافل التى تجتاز مناطق نفوذهم ، أو بالهجرة الموسمية الى البقاع المجاورة حيث الظروف المعيشية أفضل حالاً ، كما كان يفعل بدو الشام وشبه الجزيرة العربية الذين يقصدون أرض الفرات أو النيل ، وكما فعل أولاد يعقوب ، أو كما لا تزال تعمل قبائل شمال الصحراء الذين يقضون مع قطعانهم أشهر الصيف على هضبة الأطلس ، أو فى منطقة التل فى الجزائر وتونس ، وهو ما يفعله بعض طوارق جنوب الصحراء الذين يقصدون منطقة السّافنا فى شمال نيجيريا وسهول النيجر الوسطى ، علماً بأن مثل هذه التحركات الفصلية لا تجد معارضة من قبل اشباه البدو والسكان المستقرين الذين يعلمون جيداً ان القوم لن يطول بهم المقام اذ سيعودون بهدوء طالما ينتهى فصل القيظ .

أما فى بعض الاحيان الاخرى ، وبالذات حين لا تكون هناك مراعى كافية ، وتجف الآبار فان ما كانت تدفع به الصحراء من هجرات موسمية معتادة تحول الى نمط آخر مختلف فى الحجم وفى التوقيت ويتعارض تبعاً لذلك مع مصالح الجيران ، مما يخلق نواة للمشاكل وعدم الاستقرار . فما كان هجرة موسمية يصبح والحالة هكذا نوعاً من الغزو والنهب الذى لا يلبث أن يتحول الى نوع من الاحتلال يعطى الراعى حق التسلط على المزارع الضعيف .

أدت بعض الصفات التى يتصف بها البدو كالشجاعة ، والقسوة والحركة السريعة مع النزعة الى اخضاع الغير الى ان يصبحوا جيراناً يحسب لهم اكثر من حساب وبالذات مع اشباه البدو الذين يقطنون الجهات الحدودية والذين لا تتأصل فيهم صفات البدو بشكل يجعلهم اندادا لهم ، مع الاخذ فى الاعتبار ان الحكومات المركزية نفسها قد تفشل فى وضع حد يكبح جماحهم مما دفع بالكثير منها لبناء أسوار لحماية نفسها كما حدث مع الاسرة الثانية عشرة فى مصر ، والاشوريون فى العراق ، وسور الصين العظيم التى هدفت الى الحد من الغارات المتكررة التى تدفع بها الصحراء الى المناطق المزروعة .

فالهجرات المتكررة ، التى دفعت بها مناطق الاستبس الاسيوية كثيرة

وآثار بعضها أفزع العالم ، كهجرات الاسكيثيون ، والآريون والفرس الشرقيون ، أو تلك التى دفعت بها اجزاء القارة الاكثر جفافا كما فى حالتى العرب والاتراك .

أما فى منطقة الشمال الافريقى فان احتلال المغرب من قبل المرابطين يسلط الضوء هو الآخر على الصراع بين الصحراء ومناطق الزرع . كما كانت قبائل صنهاجة تحترف الانقضاض على تمبكتو ومنطقة النيجر الوسطى ، أو كما فعلت قبائل بنى هلال وبنى سليم التى انطلقت بالقرب من مكة والمدينة ، أو تلك الغارات التى كان يشنها تبوتبستى على وادى النيل . فما تدفع به الصحراء من بدو على الجهات المستقرة قريباً منها كان ولا يزال خطراً قائماً .

لا يدرك الكثيرون ان السبب والدافع الحقيقى وراء موجات الغزو ، التى يشنها البدو يرجع فى غالبه الى دواعى اقتصادية وليس لتسلط غريزة النهب وحب التسلط ، ذلك ان العامل الحاسم الذى يحدد هذا التصرف يرتبط مباشرة بكميات المطر التى تسقط فى مواسمها المعتادة . فقلة المطر خلال موسمها المعهود ينجم عنه تناقص ظاهر فى تلبية احتياجاتهم هم وقطعانهم ، مما يلزمهم بالبحث عن مورد يعوضهم ما باتت بيئتهم عاجزة عن توفيره تلقائياً ، وعليهم والحالة هكذا تدبير العثور عليه عن طريق النهب وسلب الآخرين .

فاذا تكرر شح المطر لأكثر من فصل ، أو اذا زادت ثروتهم الحيوانية عن الحد الذى يسمح بمرعى هين خلال الفصل الحار ، فان الغزو والاحتلال المباشر يصبحان التطلع الوحيد ، مع الاشارة الى ان مثل هذه الاحداث لا تتم الا اذا تأكد فشل توفر كلأ يفى حاجة قطعانهم ، أو أن الأخيرة زادت الى الحد الذى لا يفى المرعى بحاجتها ، وإلّا لأصبح كل شمال افريقيا عرضة وباستمرار للنزاعات السياسية وسفك الدماء وهو ما لم يحدث رغم التحول التدريجى نحو الجفاف منذ ظهور المسيحية على الأقل .

ان التحكم فى قبائل الصحراء ، التى لا تعرف سوى العناد والجموح ، كان من المعوقات التى أضفت اعباء اضافية على الموارد المحدودة ، وزاد من

أعباء الرومان فى امكان تحقيق تلك الغاية .

أما بالنسبة للاطراف الجنوبية للصحراء الافـريقية فـان تاريـخ المدن لا يرجع لأكثر من الف سنة حيث نتبين ان الطوارق لم يقوموا بنهب المناطق الغنية من اقليم غرب السودان بسبب تكاثرهم وزيادة عددهم لأسباب طبيعية .

وعلى الرغم من الميل الطبيعى لنمو السكان ، وتكاثر اعداد قطعانهم ، الا ان الصحـراء لم تظهـر عجزهـا لاعالـة القبائـل التى تقطنهـا الا حين قام الأوربيون بتدمير اقتصادهم ، مما يعطى دليلاً قاطعاً بأنه على الرغم من الزيادة التدريجية فى معدلات الجفاف ، الا اننـا نفتقر الى أدلـة أكيدة على حـدوث تغيرات نحو الأسوأ منذ الألف الثانية قبل الميلاد .

الفصل الثاني

العقيق والذهب

«إن كل شيء بين القرطاجيين فيه مكسب لا يعد سيئاً أو شائناً»

بوليبيوس

فى وقت حوالى عام 450 ق. م زار الرحالة والمؤرخ اليونانى الشهير ، هيرودتس ، المستعمرة التى انشأها أبناء بلده فى شحات Cyrene فى شمال افريقيا . وهناك جمع قدراً حسناً من المعلومات عن مختلف القبائل فى ليبيا ، كما كان اليونانيون يسمون آنذاك شمال افريقيا بهذا الاسم . وكان الجارامنتيون احدى هذه القبائل البعيدة التى كانت تسكن فى المنطقة التى تطابق فزان الحديثة . وقد أخبر هيرودتس « أن الجارامنتيين كانوا يصطادون الأثيوبيين من سكان الحفر أو الكهوف فى مركبات صغيرة تجرها أربعة خيول لأن هؤلاء الذين يسكنون الكهوف كانت لهم سرعة عجيبة فى الركض على أقدامهم تفوق كل من عرفناهم من الناس . انهم يأكلون الحيات والعظايا وغيرها من الزواحف ، ويتحدثون بلغة لا مثيل لها فوق الارض ، كأنها صرخات الخفافيش . » وإذا اعتبر الجارامنتيون أسلاف سكان الفزان الحاليين ، فيبدو من المحتمل أن يكون سكان الكهوف الاثيوبيون ـ السود الذين يعيشون فى الحفر ـ هم أسلاف التيبو القاطنين فى تيبستى Tibesti [1] .

وأشار هيرودتس ايضاً الى قصة بارزة اخرى القت بعض الضوء على الصحراء . «خرج خمسة فتيان اشداء من ابناء الرؤساء فى سرت الكبرى ، يرومون التعرف على الأقسام الصحراوية من ليبيا ، وهدفهم أن يتوغلوا فى

الداخل أبعد مما فعله أى انسان من قبل . فتزودوا بقدر وافر من الماء والمؤونة وقطعوا الصحراء متوجهين نحو الغرب . وبعد سفرهم عدة ايام على الرمال جاءوا الى سهل فيه اشجار محملة بالثمار ، وبينما كانوا يقطفون الفاكهة باغتهم بعض الزنوج الاقزام فقبضوا عليهم ، وما كانوا يفهمون شيئاً من لغتهم . ونقلوهم فوق مستنقعات واسعة حتى وصلوا بلدة يتحدث اهلها نفس اللغة التى يتحدث بها آسروهم . وشاهدوا نهراً كبيراً تعيش فيه التماسيح يمر بالبلدة ، وهو يجرى من الغرب الى الشرق . واستطاع الفتيان المغامرون أن يعودوا فى الوقت المناسب سالمين الى بلدهم» (2) .

وهذان الخبران اللذان اشار اليهما هيرودتس ـ الجارامنتيون يطاردون فى مركباتهم أهل الكهوف من الاثيوبيين ، والمغامرة الغريبة التى قام بها الفتيان الناسامونيون ـ كانا يمثلان تقريباً كل ما كان يعرف عن سكان الصحراء الوسطى فى الالف الأول ق. م . وهذه الاخبار التى اوردها هيرودتس قدّر لها فى السنوات الحديثة أن تتأيّد وأن تكمل بالأدلة المستحصلة من النقوش والصور على الصخور فى الصحراء . وكان أول من أشار الى وجود الصور القديمة على الصخور هو المستكشف الالمانى هنريخ بارت فى الاوائل من عام 1851 (3) . ولكن هذه الثروة الفنية الرائعة على صخور الصحراء لم يكشف عنها النقاب إلا خلال الأربعين سنة الماضية ، وكان ذلك بالدرجة الأولى على يد علماء الآثار الفرنسيين .

وهذه الرسوم والنقوش من العسير جداً بيان تاريخها لأسباب فنية ، غير أنه كان من الممكن تصنيفها الى عدة أساليب، ووضع ترتيب زمنى خاص بكل اسلوب[4]. وأقدم هذه الأساليب تتميز بالنقوش ذات الحجم الطبيعى أو القريبة من الحجم الطبيعى ، وقد رسمت وفق الاوضاع الطبيعية وهى تصوّر الحيوانات الوحشية وبضمنها الفيل ، وحيد القرن ، ونوع من بقر الوحش قد انقرض الآن . وفى بعض هذه النقوش مشاهد تصور الصيادين ، ويبدو من المحتمل أن هذه النقوش قد صنعها فى الواقع أناس يعيشون من حيث الأساس على الصيد . والنقوش من هذا الأسلوب لم يعثر عليها إلا فى النصف

الشمالى من الصحراء ، ويعتقد بعض العلماء أن تلك النقوش قد اجهزت قبل 5000 ق . م ، ويفضل آخرون تاريخاً أحدث من ذلك .

ويبيّن الأسلوب الثانى العديد من نفس الحيوانات فى الأسلوب الأول ، ولكنه ذو تاريخ يليه بشكل واضح ، ذلك لأن بقر الوحش (الثيتل Bubalus Antiquus) لم يعد موجوداً فى النقوش . وبدلاً عن ذلك بدأت بالظهور « الماشية المدجّنة » ، وصارت تعرض فى النقوش المحفورة وفى الصور المتعددة الالوان . وقد وجدت صور الماشية فى أقسام عديدة من الصحراء ؛ وهى منتشرة على وجه الخصوص فى جبل عوينات الواقع فى شرق تيبستى ، وفى تيبستى نفسها ، وفى تاسيلين آجر فى الغرب من فزان . ومن الواضح أن صور الماشية هذه تقدم الدليل على وصول جماعات رعوية قدمت من مكان أبعد من جهة الشرق . ويميل بعض العلماء الى اعتبار هؤلاء الرعاة القدامى هم أسلاف البدو الفولانيين فى افريقيا الغربية .

والأسلوب الثالث المتميز يتّسم بوجود الاشخاص الذين يركبون عربات تجرها الخيول . وقد عثر على اكثر من ثلاث مائة صورة فى الصحراء ، من فزان الى جنوب المغرب ، فى أهاجار وفى أدرار من أقليم ايفوراس . وهذه المركبات تؤيد أخبار هيرودتس عن الجارامنتيين ، كما أنها تساعد على ايضاح المغامرة الغريبة التى قام بها الناسامونيون ، وذلك أن عالم الآثار الفرنسى ، هنرى لوت Henri Lhote ، قد وجد صور المركبات فى محطات مختلفة على طول طريق القوافل القديمة المؤدية من أهاجار الى الادرار فى الايفوراس . فوجود هذه المركبات يشير الى أن ذلك كان هو الطريق الذى سلكه الناسامونيون ، وأن النهر الذى يجرى من الغرب الى الشرق كان فى الواقع هو نهر النيجر بالقرب من جاو (5) .

وفى الأسلوب الرابع اختفت المركبات ، وبدلاً عن ذلك يشاهد الرجال يركبون الخيول وبيدهم الرماح . والأسلوب الخامس ، وهو أقل الأساليب الفنية تمييزاً ، يبيّن الرجال على ظهور الجمال .

وكـان لا بد من مضى سنـوات عديـدة قبـل أن يفلح علمـاء الآثـار فى استخلاص المعلومات التى تنطوى عليها تلك المادة الفنية الرائعة . ذلك أن الصور والنقوش تشتمل على أشياء تجـاوز كثيراً البشـر والحيوانـات . فبعض الصور تمثل آلهة غريبة . وصور أخرى تزود المشاهد بانطبـاعات مفصلة عن الملابس والاسلحة ، وبعض الصور تدل بوضوح على التأثير المصرى ، كما أن صوراً أخرى ، وبخـاصة بعض صـور العربـات ، تذكـر بالأسـاليب الفنية لمنطقة بحر ايجة . ومـع أن الكثير مـا زال محاطـاً بالغمـوض ، فان احـدى الحقائق لا يرقى اليهـا الخلاف : وهى أنـه خلال قـرون عديـدة قبل ادخـال الجمل الى الصحراء (وهو حدث حصل حوالى مستهل العهد المسيحى) كان من عادة الناس أن ينتقلوا فى الصحـراء مع الثيـران ، أو فى مركبـات تجرهـا الخيول ، أو على ظهور الخيل .

أن استخدام الخيول والثيران فى الصحراء ليس بالغريب أبـداً كما قـد يبدو لمن نشأ وهو يتصور أن الجمل هو الحيوان الوحيد للحمل الذى يستطيع الانسان ان يستخدمه فى الصحراء . فحتى عهد حديث كان العديد من قبائل الصحراء يحتفظون بعدد صغير من الخيول . وبين بعض القبائل ، كالطوارق فى الأهاجار مثلاً ، كان الحصان بسبب ندرته يعد رمزاً للمنزلة العالية . وبين القبائل الأخرى ، كانت الخيول تؤلف أحد العناصر الأساسية فى قوتها . ففى حالات الاشتباك فى القتال يعوّل على الحصان اكثر الى حـد بعيد ممـا يعوّل على الجمل [6] .

أن ثيران الحمل تستخدم على نحو واسع من قبل العديد من الجماعات التى تعيش فى السودان ، ويستخدمها أيضاً عرب الشوة فى منطقة بحيرة تشاد على سبيل المثال ، كما أنها ما زالت تستخدم فى عدة أقسام من الصحراء ، وفى أيار ، وفى الفزان ، أما فى تيبستى فقد كان من تقاليد التيبو أن يستخدموا الثيران المخصية قبل أن تصلهم الجمال .

ولم تعد الثيران المخصية تستخدم خـارج الواحـات الكبيرة ، ولـذلك فليس من السهل أن يحدد طاقتها على السفر بدون ماء مقارنة بطاقة الجمل .

ويقول رود Rodd (وهو الآن اللورد رنيل Lord Rennell) « أن الثيران المحملة يمكن أن تسير مرتاحة بدون ماء كل ثلاثة أيام » . ويقول أيضاً : « إن الثيران غير المحمّلة ، تسير اربعة أو خمسة أيام بدون ماء ، بالرغم من أن هذا الأمر قد يبدو عسيراً على التصديق» [7] . والتحقيقات التى اجراها الكاتب الحاضر قد حملته على الاعتقاد أن الثيران فى مقدورها أن تنجز ما هو أفضل من ذلك كثيراً . ففى الذروة من موسم الجفاف الذى حل فى شمال تنجانيقا أخبرنى احد الرعاة المحليين أنه ما كان يسقى قطيعه أكثر من مرة واحدة كل خمسة أيام . ولم يوجد شىء فى أحوال القطيع يشير الى أنه كان يعانى بعض الصعوبات . وفى خلال الحرب الأخيرة وجد أحد الموظفين البيطريين فى كينيا ، وقد كان يسوق على وجه منتظم القطعان للذبح من الصومال الى مومباسا ، وجد أن لا صعوبة فى سوق قطعانه بدون ماء خلال ثمانية أيام متعاقبة . لم تكن هذه الماشية مثقلة بالأحمال ، ولكن كان يتوجب عليها أن تسير مسافات بدون ماء ، اطول كثيراً مما تعودته ، واذا كانت حرارة النهار أقل من الحرارة التى تسود الصحراء ، فانها لم تكن لتحظى بالمحفز من برد الليل الصحراوى . ويبدو من المعقول الافتراض أن الحيوان القادر على العمل ثمانية أيام بدون ماء فى السهول الساحلية الساخنة فى افريقيا الشمالية فى وسعه أن يعتاد بمرور الزمن العمل نفس الايام على أقل تقدير فى ظروف الصحراء . ولكن من المشكوك فيه أن يدرب على العمل ثمانية أيام بدون ماء وهو محمّل بالأثقال . ولو أن هذه الماشية الصومالية كانت من سلالة تعوّدت ، خلال أجيال متوالية كثيرة ، أن تنقل الأحمال فى الطريق التجارية الصحراوية ، لكان من الراجح أو المحتمل أن تستطيع القيام بذلك .

أن الجمل لا يعمل عادة أكثر من عشرة أيام بدون ماء ، وعلى هذا الأساس لا يوجد من فارق كبير فى هذا الجانب بين الجمل والثور المخصى . كما أن قدرة كل من الحيوانين على الحمل متقاربة كثيراً ، وفى غرب السودان يستطيع الثور المخصى أن يسير عشرين ميلاً فى اليوم ، وهذا لا ينقص إلا قليلاً عما يستطيعه الجمل . ومن ناحية أخرى يسير الثور المخصى بسرعة تقل

كثيراً ، ولذلك فهو ينفق وقتاً أطول للانتقال من نقطة للمياه الى أخرى ، وبهذا الوجه يضع حداً اقصى لمدى سفره ، او المسافة القصوى التى يستطيع قطعها بدون ماء . وظلت الأمور على هذه الحال طبعاً الى أن جاءت المهارى ، وهى جمال الركوب السريعة ، فأتيح لقبائل الصحراء أن تحظى بتلك القدرة المذهلة على التحرك والانتقال .

ولا ريب أن لا داعى الى الأفتراض أن حركة القوافل فى الصحراء لم تصبح ممكنة إلا بعد وصول الجمل . ولو أن الآبار والثقوب المائية كانت أكثر قليلاً مما هى الآن لكان السفر باستخدام الثيران المخصية فى العديد من طرق القوافل قريباً من السفر على ظهور الأبل ولم يجاوزها من حيث المشقة إلا قليلاً . وكان من الممكن أيضاً أن تكمل الثيران المخصية بالحمير التى ، كما رأينا من قبل ، لها قدرة فائقة على السفر بدون ماء ، وفى وسعها أن تحمل نصف حمولة الثور المخصى ، وأن تسير فى اليوم من الأميال ما يسيره . وقد استخدم الفراعنة من الأسرة العشرين ، الحمير لنقل المؤونة والذهب من والى المناجم فى الصحراء الشرقية * ان قبائل اسبيتان البدائية أو قبائل الجوهالة فى جبال الهوجار التى لم تحصل على الجمال أبداً ، ما زالت تستخدم الحمير .

أن النمط العام للحياة فى الصحراء الذى كان سائداً من أيام هيرودتس لم يقدر له أن يتغير كثيراً عن نمطه فى الأزمنة الحديثة . ذلك أن استمرار الحياة فى الصحراء يوجب على القبائل نفس الأمور الضرورية وهى أن يستخدموا على أحسن وأتم وجه ممكن الموارد الضئيلة فى الصحراء ، كما أن الهجرة الموسمية من الصحراء الى التلال والهضاب فى الشمال كانت تؤلف احدى السمات الطبيعية للحياة الصحراوية . والواقع لم يكن هناك من نطاق صحى يفصل أو يعزل البدو الرحل عن القبائل المقيمة . فالاتصال بين

* فى وسع الحمار السودانى الصغير أن يقطع 85 ميلاً بين مواقع السقى اذا شددت عزيمته بعد 50 ميلاً الأولى بزبدية واحدة من الماء . (الدكتور سلجمان ، مقتبس من اركيل ، فى رسالة الى المؤلف) .

الصحراء والمدينة كان مستمراً ، ووجود الاتصال يعنى قيام التجارة بلا ريب . وكانت هذه التجارة لا تزيد كثيراً على مقايضة التمور بالقمح ، ومن المحتمل أنها ذهبت أبعد من ذلك كثيراً ، وقد سارت مع المبادلة بين السلع ، مبادلة الأفكار ، ومبادلة المعارف ، وقبل كل شيء المعارف الجغرافية .

لقد كانت التجارة طوال العصور التاريخية من أكثر الدوافع شيوعاً على الاستكشافات . أما الاستكشاف من أجل الاستكشاف فقد كان نادراً حتى الازمنة الحديثة . أن الرغبة فى الوقوف على منشأ المنتجات الغريبة والثمينة ، واكتشاف مصادر جديدة للثروة ، والالتفاف حول التجار الوسطاء لعقد صفقات رخيصة ، لهى ميول متأصلة فى الطبيعة الانسانية . ولا سبيل الى الافتراض أن الناس فى شمال افريقيا كانوا فى رغباتهم الانسانية اكثر تحرراً من الآخرين ، وأن اتصالاتهم ببدو الصحراء لم توقف فى نفوسهم الرغبة فى البحث عن الواحات المزدهرة أو الوصول الى السهول الكثيرة والخصبة فى الجنوب البعيد . ولذلك ينبغى لنا أن نتوجه الى الذين يعيشون فى ساحل البحر المتوسط من شمال افريقيا لنرى ماذا نتج عن علاقاتهم مع سكان الصحراء والسودان .

ففى القرن الخامس ق. م ، عندما كان هيرودتس يصف طرق الجارامنتيين ، « وجدت على طول ساحل افريقيا الشمالية ، من خليج سرت الى المحيط الاطلسى غرباً ، مجموعة من المحطات التجارية التى انشأها الفنيقيون خلال الخمسمائة سنة الماضية . وكان الفنيقيون بالدرجة الأولى تجاراً مغامرين ، ومع ذلك فانهم لم يظهروا أية رغبة فى التوغل الى داخل افريقيا ، لأنهم كانوا يتمسكون بالبحر ولا يميلون الى المغامرة بأنفسهم فى ارتياد القسم الداخلى من افريقيا » . (وكانوا فى هذا الخصوص مثل التجار البرتغاليين الأوائل فى الهند الذين كانوا يشبّهون بالاسماك التى إن اخرجت من البحر هلكت) . على أن هذا الوصف كان أقل أنطباقاً على اقربائهم القرطاجيين الذين مدوا اولاً هيمنتهم على المستوطنات الفنيقية فى

شمال افريقيا ثم استوعبوها وحولوها الى مستعمرات تتبع مدينتهم الأساسية . وفى القرن الخامس ق. م اصبحت قرطاجة عاصمة تدين ببعض رخائها الى الخصب فى منطقتها الخلفية التى كانت ذات سعة ملحوظة وتخضع لها مباشرة وإن كانت حدودها غير واضحة المعالم .

وقد أنشأت قرطاجة على طول الساحل شرقاً وغرباً ووراء اعمدة هرقل عدداً من المستعمرات كان معظمها فى الأصل فنيقية . وبينما كان الفنيقيون يكتفون بمستوطناتهم الصغيرة التى يتولاها عدد كاف من المديرين الذين يغتربون موقتاً من اجل العناية بمصالحهم التجارية ، نجد المستعمرات القرطاجية تتحول الى بيوت ومقرات دائمة للعديد من مواطنيهم ، وكل منهم يدير تجارته لحسابه الخاص ويعتمد على نفسه بصفة عامة . وفى خلال الف سنة من احتلالهم الساحل كانت مصالح القرطاجيين كلها تقريباً ترتكز على التجارة وكانت تمتد على جميع القسم الغربى من البحر المتوسط ، وكانت قرطاجة نفسها هى صاحبة السيادة وتقع بعيدة عن اعمدة هرقل (يراد بها جبل طارق فى اوربا وجبل موسى فى افريقيا فى الجهة المقابلة) . ومع ذلك فان وجودهم كان يعتمد ، الى حد كبير ، على افريقيا ، فى حصولهم على ثمار تربتها التى تمدهم بالحياة ، وفى حصولهم ، وإن كان بدرجة اقل ، على منتجاتها القابلة للتصدير والتى تدخل فى تجارتهم . وهكذا يتبين انهم ، بخلاف اسلافهم الفنيقيين ، كانت لهم صلات وثيقة مع اهالى البلاد . كانت تجمعهم وتربط بينهم المصالح المتبادلة ، وحالات التزاوج المتزايدة . وكان تطور كل مستعمرة واعتمادها على منطقتها الخلفية يستند الى الرغبة فى الانعزال . فقد ورثت قرطاجة من أسلافها الفنيقيين الميل الى البقاء دولة بحرية من حيث الأساس ، ولذلك لم يكن احتلالهم الساحل مستمراً من الوجهة الجغرافية . فما كانوا يطلبون من الارض أكثر مما هو ضرورى لتجارتهم ورخائهم . ولذلك فقد كانت مستعمراتهم مثل المقاطعات او الجزر التى تفصل الواحدة عن الاخرى ، امتدادات من الساحل لا مأوى فيها ولا ميناء ، لأنهم لا يحتاجون اليها ولا ينتفعون بها .

وعلى اية حال فقد كانت قرطاجة بذاتها مدينة كبيرة، وليست مجرد مقاطعة منعزلة يمكن أن تسد حاجاتها بنفسها. وكانت تعتمد فى غذائها وفى دفاعها على قسم كبير مما يسمى تونس فى الوقت الحاضر، كما كان يدين لها بالولاء العديد من قبائل البربر. ومع أن الحدود لحكم قرطاجة على المنطقة الخلفية للمدينة تكتنفها الشكوك، فلا بد أن تكون مترامية الاطراف، لأن القوات المسلحة الافريقية كانت تؤلف جزءاً كبيراً، ثم صارت تؤلف الجزء الغالب من جيوش قرطاجة الجرارة. وسوف يجرى التطرق الى ما اقدم عليه هيملكو من عمل مخجل بالتخلى عن جيشه الافريقى فى سرقوزة وتركه يذبح أو يسترق على يد اليونان، كما سيذكر بلا ريب فرسان نوميدية ذوو الاسلحة الخفيفة الذين كانوا فى جيش هانيبال.

وقد دفعت الضرورات السياسية والاقتصادية قرطاجة الى تكوين امبراطورية اقليمية لهم فى افريقيا. فساحلها الطويل المتعرج، الغنى بالموانىء المناسبة، جعلها قاعدة ممتازة تبنى عليها وتنطلق منها تجارة بحرية واسعة. وكانت مدينة قرطاجة نفسها تجمع، مثل العديد من المستوطنات الفنيقية، مزايا الميناء الممتاز الى جانب موقعها الحسن فى شبه جزيرة يسهل الدفاع عنها. وبالاضافة الى ذلك فقد كان لها مركز وسطي يسيطر على مضايق البحر المتوسط، اهم واكبر الطرق التجارية فى العالم. وهذا الجمع الملائم بين هذه الظروف قد جعل منها عاصمة ممتازة لتلك الامبراطورية.

وهذا الموقع الستراتيجى القوى الذى تتمتع به قرطاجة بالاضافة الى موقع آخر مماثل لمدينتهم الثانية فى الامبراطورية، وهى قادس التى تقع وراء اعمدة هرقل، قد اتاح للقرطاجيين، الذين كانوا لا يتسامحون أبداً مع المتطفلين على التجارة، أن يمنعوا جميع الاجانب من التدخل فى تجارتهم.

وكان الرومان قد استبعدوا بموجب احدى المعاهدات من الدخول الى جميع الاراضى التى أقام فيها القرطاجيون مستوطنات تجارية. ولذلك فقد كانت صقلية، وساردينيا، وجنوب اسبانيا مغلقة امامهم. وما من سفينة رومانية

تضـطر الى اللجوء الى احـد الموانىء الفنيقيـة يمكنها أن تبقى اطـول مما تستدعيه الظروف الجوية أو الاصلاحات الاساسية. وكان المرور بالمضـايق محظوراً ايضاً، لئـلا يعرف الآخـرون أن القرطـاجيين كانـوا يحصلون على القصدير والرصاص من كورنوال Cornwall وبريطاني Brittany (مقـاطعة في فرنسا). ويحدثنا سترابو أن ربان احدى السفن من قـادس كان متـوجهاً الى القنال الانكليزى شعر أن سفينة رومانية مغامرة كانت تتعقبه خلسة، فما كان منه إلا أن جنح بالسفينة، وهكذا دمر السفينة وحمولتها ولكنه اخذ الروماني معه.

وكان ساحل افريقيا الشمالية الواقع في غرب برقة مغلقاً أيضاً في وجه الاجانب. وفي القرن السادس ارغم اليونان على التخلي عن مستوطنة كانوا قد انشأوها على الساحل بين خليجي سرت، وبعد قـرن او حوالي ذلـك حظر عليهم بموجب المعاهدة أن يأتوا الى الغرب أبعد من التارز Altars في منطقة الفيلاني. وهذه الصرامة في ابعاد اليونان والرومان عن البلاد الواقعة في غرب خليـج سرت الكبيـر قد انعكست في قلة المعلومـات التي اوردهـا الكتـاب الاقدمون عن التجارة الافريقية لقرطاجة، وما ورثناه نحن من الجهل بطبيعة تلك التجارة وسعتها.

ومع أن قرطاجة، كانت تصنع السلع الرخيصة لاجل التصدير، ولكن تجارتها الرئيسة هي ومستعمراتها التابعة لها كانت تتميز بالخزن والتوزيع، فهي تنقل السلع من قطر أجنبي الى آخر، وتستبدل المواد الأولية لاحـد الاقطار بالسلع المصنوعة لقطر آخر. وهكذا يتبين أن القرطاجيين ما كانوا يعتمدون بشكل بارز على افريقيا نفسها لدعم تجارتهم. والواقع أن قبائل البربر الساكنة في الساحل كانت بدائية الى حد كبير، وما كان بلدهم المغرب غنياً بدرجة كافية حتى تتاح لها المساهمة بنصيب ملحوظ في تجارة قرطاجـة الضخمة. وكان الصوف، والجلود، والاخشاب، والصبغ الأرجـواني، والعاج، وريش النعام تؤلف المنتجات المحلية الرئيسة التي كانت تجد طريقها الى الموانىء الاجنبية، ولكنها لم تكن، في حدود ما يمكن ايراده، ذات حجم مهم. وبما أن التجارة الافريقية الخالصة كانت ذات طبيعة منخفضة نسبياً فانها لم تكن

ذات اهمية كبيرة للقرطاجيين انفسهم.

ولقد أفلح القرطاجيون فى اخفاء أسرار تجارتهم الى درجة كبيرة بحيث لا نستطيع أن نستنتج من الادلة الظرفية أو العرضية إلا ما كان ذا طبيعة موقتة. وكل ما نعرفه على وجه اليقين هو أنهم كانوا يحصلون على العقيق من الجارامنتيين، وأن العقيق فى اوربا كان يسمى بحجر قرطاجة. وبالرغم من أن بلينى Pliny يسهب فى الكتابة عن العقيق الافريقى، ويؤكد اهمية قرطاجة بوصفها المركز الرئيس لتوزيعه، فانه ما من أحد، لا هو ولا غيره، يشير الى مدى الأهمية فى تلك التجارة[9] . ومع ذلك فمن المهم الإشارة إلى أن الرومان قد وجدوا ، بعد سقوط قرطاجة ، أن تلك التجارة جديرة بالإستمرار فيها .

ومن المعروف طوال التاريخ ، أن أسهل طريق للوصول الى داخل افريقيا من البحر المتوسط هو الطريق المتجه الى الجنوب الواقع فى منتصف المسافة بين خليجى سرت الأكبر والأصغر . وهذا الساحل القاحل غير المضياف ، أى منطقة سرت ، الممتد الى الشرق والغرب من مدينة طرابلس الحديثة ، كان يطلق عليه الأقدمون اسماً ذا مغزى وهو « المركز التجارى » ، ولكن هيرودتس وصف المنطقة بأنها بلد آكلى اللوطس . وعلى طول هذا الساحل ، وضمن فواصل قصيرة وجدت ثلاث مستوطنات تجارية قرطاجية مهمة : صبراتة ، وأويا (طرابلس) ولبدة . وكانت هذه المستوطنة أبعد من أن يبرر وجودها على أساس الموارد الطبيعية لذلك الجزء من الساحل وعلى أساس منطقتها الخلفية المباشرة . ونظراً لغياب أية أسباب سياسية أو استراتيجية مهمة تستلزم التجمع والازدحام فى هذه النقطة ، فالنتيجة التى يمكن استخلاصها هى أن ذلك المكان يوفر طريقاً سهلاً الى الداخل . واذا صحّت القصة التى يرويها اثينوس عن قرطاجى اسمه ماجو قد عبر الصحراء ثلاث مرات ، فلا بد أن يكون هذا هو الطريق الذى سلكه [10] .

وكانت طرابلس تسمى بوابة الصحراء ، وظلت تعد على هذا المنوال

حتى القرن التاسع عشر عندما اختارتها سلسلة رفيعة الشأن من المستكشفين ، وبخاصة ليـون ، دنهام ، أودني ، وكـلابيرتـون ، وبارت الشهيـر ، وجعلوها قاعدة انطلقوا منها فى أسفارهم الى قلب القارة . والى طرابلس ايضاً سار اليها القائد الكبير لكليرك Leclerc على رأس كتيبته الجريئة فى عام 1943 ، وهو قادم من بحيـرة تشاد مـاراً بطريق الجـارامنتيين . وأمر آخـر يشير الى أهميـة هـذا السـاحل للقـرطاجيين هـو أنهم جعلوا مدينـة التارز فى أقليم الفيـلانى الحد الغربى الفاصل لأراضى اليونان وممتلكاتهم . وبالنظر لبعد طريق الجارامنتيين المفضى الى فزان ، فانه لم ينكر على اليونان استخدام هذا الطريق .

واذا لم يكن العقيق وحـده ، فما هى الاشيـاء الأخـرى ، التى جعلت طريق الجارامنتيين مهماً بهذه الدرجة ؟ مـا هى أصناف التجـارة الأخرى التى ساعدت على دعم ذلك « المركز التجارى » ؟ ان الاجابة تستلتزم أن ننظر الى الاستعمالات المتعددة لهذا الطريق فى الأزمنة التالية عندمـا رفع النقـاب عن التكتم التجـارى . فحتى فتـرة متـأخـرة من القـرن المـاضى كـان الـرقيق ، الـذهب ، العاج ، وريش النعـام تؤلف عناصـر التجارة الحيـويـة بين البحـر المتوسط وفزان . وفى أيام قرطاجة كان فى شمال افريقيا عدد واسع من الفيلة والنعام ، ولذلك لم توجد هناك حاجة للذهـاب الى الجنوب من أجـل العاج والريش . وعلى هذا الأساس يكون الجواب المحتمل ، أن الشىء الآخر هو الرقيق أو الذهب ، أو كلاهما .

واستخدم القرطـاجيون اعـداداً كبيرة من الـرقيق ، وبخاصـة فى زراعة أراضيهم الواسعة التى كـانت فى حوزتهم والتى جعلتهم مشهـورين بالمهـارة الزراعية . كما انهم كانوا يتاجرون بالرقيق . ويبدو أن جزر البليار كانت سوقاً قيمة بشكل بارز ، فسكان الجزر كانوا على استعداد لشراء ثلاثة أو أربعة رجال فى مقابل امرأة ، وكان هذا يناسب القـرطاجيين ، كمـا أن الذين كـانوا منهم يخـدمون فى الجيش القـرطاجى كـان من عاداتهم المنقـادين لهـا أن ينفقـوا أجـورهم على النساء والخمـر . وليس من اليسير أن نعـرف مـدى استخـدام

القرطاجيين للرقيق من الزنوج . وفى المدافن القرطاجية عثر على العديد من الجماجم ذات السمات الزنجانية ، كما أن الجيش القرطاجى الذى غزا صقلية فى القرن الخامس ق. م ، كان يضم عدداً من الأفارقة من ذوى البشرة الداكنة كثيراً ، ويحتمل أنهم كانوا من الزنوج . ويقص علينا فرونتينس Frontinus أن اسراهم كانوا يستعرضون عراة أمام جنود اليونان لغرض التشهير بالقرطاجيين والازدراء بهم (11) . على أنه من الناحية الأخرى كان من عادة القرطاجيين أن يستعبدوا أسرى الحروب وضحايا القرصنة ، وهذان مصدران للحصول على الرقيق ، وكان القرطاجيون يستفيدون منهما كثيراً ، وهذا يعنى أنهم لم يكونوا يعتمدون كثيراً على افريقيا لسد حاجتهم الى عمل الرقيق . وليس من المحتمل أنهم كانوا يترددون فى استعباد ما قد يحتاجون اليه من البربر ، كما أنهم لم يكونوا من الغلظة بحيث إنهم لا يميزون فيما يفعلونه بأولئك وبطبقة الفلاحين من أبناء جلدتهم . وعلى أية حال فالادلة على وجود الدم الزنجى قائمة وبارزة ، ويبدو من المحتمل أنهم كانوا يستوردون الرقيق من فزان . فقد كانت احدى المصادر للرقيق ذلك أن الجارامنتيين الذين كانوا يصطادون أهل الكهوف من الأثيوبيين ما كانوا يفعلون ذلك إلا من اجل استرقاقهم . وربما كانت تجارة الرقيق مع فزان مهمة للقرطاجيين ، ولكن لا توجد اسس يعتمد عليها فى الافتراض أنها كانت كذلك .

وفى هذا الجو المشوش من الاخبار والأسناد القليلة الخاصة بأفريقيا الشمالية ، وبالصحراء ، وبالدول التى تقع فى شمالها وجنوبها ، نجد خيطاً من الذهب يسير خلالها . فمن وادى النيل فى الشرق الى المحيط الاطلسى فى الغرب قامت المتاجرة بالذهب مع القسم الداخلى فى افريقيا طوال جميع الأزمنة من التاريخ المدوّن . فقد كان الذهب والرقيق ، الرقيق والذهب يؤلفان أساس تجارة المغرب مع السودان . وكان الذهب يتدفق الى الشمال من مجريين رئيسين ، طريق الجارامنتيين ، من فزان الى طرابلس ، وطريق تاغازة من النيجر الى سيجلماسة فى المغرب ، احدهما فى الشرق والآخر فى الغرب . ويبدو أن التدفق كان مستمراً ولكنه لم يكن مثيراً . ومع ذلك فقد

حصلت مناسبات تمر كالبرق الخاطف يجد فيها العالم كميات من الذهب تشير بوضوح الى ثروات اسطورية مخفية بعيداً فى القسم الداخلى من افريقيا . ففى أوائل القرن الرابع عشر ظهر منسا موسى بشكل مثير فى الصحراء فأدهش مصر والعالم الغربى بعرضه الضخم والمسرف من الذهب . وبعد قرنين ونصف القرن حصل المغاربة على كميات هائلة من الذهب بفتحهم بلدان النيجر الاوسط ، حتى أن الدول المسيحية كانت تنافس الأتراك متذللة لكسب الحظوة لدى سلطانهم . ومن أين كان يأتى الذهب ؟ هذه هى المسألة التى كان المسيحيون والمسلمون يحاولون حلها بدون انقطاع والتى حفزت على القيام بأعمال عظيمة فى تاريخ الاكتشافات الجغرافية . ولكن الذين كانوا يتعاطون هذه التجارة كانوا يتكتمون كثيراً بشأنها ، ولذلك لم يتم التوصل الى حل المسألة إلاّ خلال الفترة الحديثة تماماً .

وفى أيام هيرودتس ، كما يخبرنا هو ، وجد من الأثيوبيين فى أعلى النيل ، من كانوا على جانب من الثراء بحيث إنهم كانوا يقيدون مساجينهم بأغلال من الذهب [12] : كما أن اليونان فى زمن هوميروس شحنوا مرة سفينة من مصر كل حمولتها من الذهب . وفى الطرف الآخر البعيد الى الغرب وجدت ايضاً تجارة الذهب خلال مدة طويلة مع الأفارقة على الساحل الاطلسى . ولم يشر هيرودتس ولا أى مؤرخ قديم آخر الى المتاجرة بالذهب فى أى مكان آخر يقع بين هذين المكانين المتطرفين جغرافياً . ومن المحتمل أن تجارة الذهب العابرة للصحراء لم تكن قد ولدت بعد . ولو أنها قد ولدت ما كان القرطاجيون ليخبروا أحداً بشأنها . ولكن ليس بين ايدينا شىء مؤكد بهذا الخصوص .

ويخبرها ثوسيديدس Thucydides أن القرطاجيين كانت لهم ثروة طائلة من الذهب ، وقد تأيد هذا الشىء بمقادير الذهب التى وجدت فى مقابر القرطاجيين [13] . ودهش بلينى حين فرضت روما على قرطاجة غرامة تدفع بالفضة لا بالذهب ، ولم يكن سبب ذلك ندرة الذهب لدى قرطاجة ، بل

لندرته فى العالم [14] . وقد زينت حفلات النصر التى احـرزها سيبيـو بعرض جميل من الذهب ، يحتمل أنه كان قرطاجياً ، ولكن لا يوجد ما يدل على أن قرطاجة كانت تتاجر بالذهب فى البحر المتوسط . ولذلك فان الافتراض بـأن تجارة الذهب هى السبب الذى جعل القرطاجيين يعلقون أهمية كبيـرة لطريق الجارامنتيين لا يقوم على أساس متين . ومع ذلك فان سطيفان جزيل الشهيـر يتصور أن ذلك يمكن أن يكون السبب [15] . وعلى أية حـال فمن العسير أن يقبل رأيه أن الذهب الذى يحتمل أن حصل عليه القرطاجيون من فزان قد جاء من أماكن بعيدة تبلغ الفروع العليا من نهر النيجر . فقد وجدت ، كما سنرى فى فصل قادم ، مصادر اخرى لامدادات الذهب أكثر احتمالاً ، بضمنها فزان نفسها .

وعلى هذا الاساس يمكن أن يورد الرقيق والذهب كتفسير ممكن يوضح اهتمام القرطاجيين بطريق الجارامنتيين . ولكن الاساس لايراد الذهب فى هذا التفسير هو اضعف من ايراد الرقيق . ويزداد هذا الاساس ضعفاً اذا علمنا أن ثروة القرطاجيين من الذهب لا تبدو أنها كانت أكبر مما كانوا قد حصلوا عليه من الساحل الغربى لأفريقيا حيث قد حصلوا من هناك على بعض ذهبهم .

ويورد هيرودتس فى أخباره عن الأقوام فى الساحل الغـربى لافريقيـا ما يأتى : «وعلى مسافة من الساحل ، كما يذكر القرطاجيون ، تقوم جزيرة تدعى سيرونيس . . . وفى تلك الجزيرة بحيرة تأخذ منهـا فتيات البلد غبـار الذهب بغمسهن فى الـطين ريش الطيـور المطلى بـالـزفت . لا أدرى إن كـان هـذا صحيحاً . ولكن اكتب ما يقال» [16] .

ويستمر هيرودتس قائلاً :

«ويذكر القرطاجيون ايضاً ما يأتى : وفى ليبيا بلد وشعب يقع فيما وراء أعمدة هرقل ، اعتاد القـرطاجيـون زيارتـه ، وهم لا يبلغونـه حتى يفرغـوا ما يحملونه من السلع ، وبعد أن يرتبوها بشكل مخصوص على طول الشـاطىء

الرملى ، يتركونها ويعودون الى سفنهم . ثم ينشرون دخاناً كثيفاً ، وعندما يشاهد السكان المحليون الدخان ينزلون الى الشاطىء ويضعون قدراً من الذهب يعتقدونه معادلاً لقيمة السلع ، ثم ينسحبون الى مسافة ملحوظة . وبعد هذا يأتى القرطاجيون الى الساحل وينظرون ، فاذا اعتقدوا ان الذهب كان كافياً أخذوه ومضوا فى سبيلهم . وإذا لم يجدوا الذهب كافياً ، عادوا الى سفنهم مرة أخرى وينتظرون بفارغ الصبر . ثم يأتى بعد ذلك الآخرون ويضيفون قدراً من الذهب الى أن يشعر القرطاجيون بالرضا . وما من طرف يعامل الطرف الآخر بالاجحاف . فهم لا يمسون الذهب أبداً حتى يبلغ قيمة سلعهم ، كما أن السكان المحليين لا يأخذون السلع أبداً حتى يؤخذ الذهب وينصرف به القرطاجيون» (17) .

ويثار هنا سؤال وثيق الصلة بالموضوع فاذا كان القرطاجيون يتكتمون كثيراً عن تجارتهم فى الشرق فكيف سمحوا بأن يعرف الغرب ذلك القدر من المعلومات عما كانوا يفعلونه ؟ والجواب هو أن الظروف الجغرافية والسياسية تجعل استمرار الاسرار التجارية متعذراً . ومن الجائز أن القرطاجيين فى أيام هيرودتس كانوا قد احتلوا قادس ، ولكنهم لم يكونوا قد أحكموا قبضتهم بعد على الطرف الجنوبى من شبه جزيرة ايبرية التى استحوذوا عليها فى الفترة التالية ، ولذلك لم يكن فى مقدورهم أن يسيطروا على المرور فى المضايق . والى أن تهيأت لهم السيطرة لم يكونوا بقادرين على الاحتفاظ بأسرارهم ومنع اوربا من الاطلاع عما كان يجرى فى نقطة كانت افريقيا تقترب فيها كثيراً من اوربا . وكانت بين القارتين تجارة واتصالات لا تنقطع ، وكما يخبرنا سترابو ، كان فقراء اسبانيا يذهبون لصيد الاسماك فى مراكبهم الصغيرة الى ساحل موروسيا Maurusia ويواصلون صيدهم حتى يبلغوا نهر لكسوس Lixus (18) . وكانت بقية امبراطوريتهم الافريقية يلفها بحر كان فى مقدورهم أن يسيطروا عليه ، وقد سيطروا عليه فعلاً . وهناك ، كما يقول سترابو ، كان القرطاجيون قد اعتادوا أن يرموا الى البحر كل الاجانب الذين يبحرون بمحاذاة بلادهم ويذهبون الى ساردينيا أو المضايق (19) .

ونأتى الآن الى ذكر وثيقة تعد واحدة من أكثر الوثائق الخلافية فى التاريخ القديم . يقال إنه وجد فى معبد كرونوس فى قرطاجة كتابة منقوشة مطولة تصف رحلة نازلة من ساحل افريقيا الغربية بقيادة هانو Hanno . وقد دمرت هذه الكتابة بعد استيلاء الرومان على قرطاجة ، ولكن يزعم ان أحد الكتاب من اليونان أو الرومان قد دوّن نسخة منها قبل تدميرها [20] .

وكان هانو قد كلفه القرطاجيون « بالابحار ماراً بأعمدة هرقل » لكى ينشىء مدناً للفنيقيين المقيمين فى افريقيا . وانه قد أقلع بستين سفينة ذات خمسين مجذافاً ومعه حشد من الرجال والنساء يبلغ تعدادهم 30.000 ، بالاضافة الى المئونة والمعدات الأخرى . وبعد انشائهم عدداً من المستوطنات على طول الساحل الاطلسى للمغرب بلغت الحملة نهراً كبيراً هو لكسوس . وكان يسكن على ضفاف النهر قبيلة بدوية تسمى لكسيتة . وبعد أن أخذوا بعض المترجمين من هذه القبيلة واصل القرطاجيون سفرهم باتجاه الجنوب على طول الساحل الصحراوى حتى وصلوا جزيرة سيرن Cerne فأقاموا فيها مستوطنة أخرى .

وابحروا من سيرن مواصلين سفرهم خلال المثلث من نهر واسع يسمى كريتس ، ومن هناك الى نهر آخر عريض وعميق كان مملوءاً بالتماسيح والكركدن . ثم عادوا الى سيرن ، ولكنهم ارتحلوا مرة أخرى باتجاه الجنوب لمدة اثنى عشر يوماً حتى وصلوا رقعة ممتدة مشجرة عالية ذات أشجار متنوعة تفوح منها العطور . وبعد أن التفوا حول هذا الرأس وجدوا أنفسهم فى تجويف واسع من البحر محاط بأرض منخفضة ممتدة . وهناك شاهدوا نيراناً تندلع ليلاً فى كل جانب بين آن وآخر ، مرة تبدو ضخمة واخرى تظهر أصغر منها . وواصلوا الابحار خمسة ايام اخرى حتى انتهوا الى «خليج كبير» . «وكان فى الخليج جزيرة لها بحيرة فى وسطها ، وجزيرة فى وسط تلك البحيرة . ونزلنا على الجزيرة الصغيرة وما كنا نشاهد غير الغابات ، وفى الليل اشتعلت الكثير من النيران ، وكنا نسمع أصوات المزامير والصنج ونقرات الطبول وصيحات

الحشود من الناس .» وترك القرطاجيون الجزيرة على عجل مبحرين بمحاذاة الساحل حتى مروا ببلاد يخرج منها دخان معطر من أخشاب ملتهبة ، وكانت النيران المنبثقة منها تتصاعد وتنغمس فى البحر . واستمروا فى الابحار حتى وصلوا الى أعلى جبل قدر لهم أن يشاهدوه ، يسمى مركبة الآلهة . وفى وسط هذا الجبل وجدوا لهباً يتصاعد حتى كأنه يمس النجوم . . . وسلكوا فى الانهار ذات الفروع الخمسة لمدة ثلاثة أيام أخرى ، فوصلوا الى خليج آخر يشتمل ايضاً على جزيرة ، وفى الجزيرة بحيرة ، وفى البحيرة جزيرة صغيرة . وهذه الجزيرة الثانية كانت مملوءة بأناس متوحشين ، وعلى الاغلب كانت النساء لهن شعر كثير يكسو أجسامهن ، وسمّاهن المترجمون بالغوريلا . ولم يستطع القرطاجيون أن يمسكوا بأى واحد من الرجال ، ولكنهم حصلوا على ثلاث نساء ، كن يعضضن ويخمشن ويقاومن من أسرهن . «ولكننا قتلناهن وسلخناهن وجلبنا جلودهن الى قرطاجة . وكانت هذه نهاية رحلتنا بسبب نفاد مئونتنا» . وعلى هذا النحو تنتهى قصة حملة هانو ، وهى حملة يظن على العموم أنها قد حصلت حوالى عام 480 ق. م. ومال العلماء ، حتى عهد متأخر ، الى قبول تلك الكتابة واعتبارها أصيلة ، وركزوا اهتمامهم ومساعيهم على تحديد الاماكن التى ذكرت فيها . وقدمت فى هذا الخصوص عدة تفسيرات مختلفة . وذهب بعض العلماء الى أن الجبل الضخم الذى شاهده الرواد ووصفوه بأنه « مركبة الآلهة » لا بد أن يكون بركاناً ، وأشاروا الى أن البركان الوحيد على ساحل افريقيا الغربية هو جبل الكاميرون . ووجد آخرون أنه من المتعذر التصور أن القرطاجيين قدّر لهم الذهاب الى ذلك المكان البعيد على الساحل ، وشخصوا الجبل المذكور بجبل كاكوليما فى سيراليون ، واعتبروا السنة اللهب المتصاعدة على جوانبه ناشئة ، تبعاً لرأيهم ، من نيران الاعشاب أو الغابة [21] .

وعلى أية حال ، ففى خلال السنوات العشر الماضية اتجهت الاعمال التى قام بها عالمان فرنسيان هما جيرمان Germain وموني Mauny الى أن أسطورة هانو لا تستند على وثيقة أصيلة بتاتاً . وقد عمد جيرمان وهو العالم

باللغات القديمة ، الى التدقيق فى النص بعناية بالغة وانتهى من بحثه الى هذا الاستنتاج «أن ما لا يقل عن ثلاثة ارباعه ليس سوى رياضة أدبية متوسطة الجودة ، وأن مصادرها التى يرجع العديد منها الى أصل أدبى ، يمكن أن تحدد أحياناً» (22) . وتناول مونى النص بطريقة أخرى . فقد أشار الى صعوبات الملاحة على طول الساحل الصحراوى ، ونوه بشكل متميّز بهذه الحقيقة ، وهى أنه من المتعذر تقريباً السير بمحاذاة الساحل شمالاً فى مواجهة الرياح المعاكسة . وذهب الى أن المسافة التى يمكن أن تقطعها المراكب فى اليوم لا تزيد على خمسة عشر ميلاً ، وعلى هذا الأساس فإن الرحلة من وادى نون فى المغرب الى مصب نهر السنغال ، ومسافتها تبلغ حوالى 1250 ميلاً ، لا بد أن تستغرق ثلاثة أشهر تقريباً ، وأن هذه الرحلة لا بد أن تجرى على ساحل يتميز بأنه امتداد طويل وقاحل . وأشار اخيراً الى أن الاشياء المدونة فى العصور الوسطى لا تذكر ما يدل على وجود سفن تتحرك بالمجاذيف استطاعت أن تقوم بسفرة ناجحة أبعد من رأس بوجادور (23) .

ولم يكتشف علماء الآثار حتى الآن أي شيء من بقايا القرطاجيين أبعد من موجادور على القسم المغربي من المحيط الأطلسى . وبغياب الادلة الأثرية التى يمكن الاعتماد عليها فإن كل تصور عن تواجد القرطاجيين فى افريقيا الغربية خلال الألف الأول ق.م، لا يعدو أن يكون من باب الخيال أو التخمين.

وفى الصحراء أيضاً ، لم يعثر على أى شىء من الآثار التى يمكن أن تعين فتلقى ضوءاً جديداً على علاقات القرطاجيين بالقبائل التى فى الداخل. على أنه من الجدير أن يشار الى النظرية التي عرضها العالم الكبير بشئون الصحراء الافريقية غوتيه gautier (24) فقد حاول غوتيه أن يشخص الخرز الملغزة ذات القيمة العالية التي يندر وجودها الآن في الساحل الغربى بالعقيق القرطاجى. والآراء منقسمة كثيراً حول حقيقة تلك الخرز القديمة. ويعود ذلك جزئياً الى أن صناع الزجاج في البندقية كانوا يقلدونها كثيراً طوال العصور. ويبدو أنها كانت تصنع في الغالب من العقيق الأبيض Chalcedony ،

وهذا الاسم مشتق من الكلمة اليونانية التي وضعوها لقرطاجة. وفى الأزمنة القديمة، كما رأينا من قبل، كان العقيق الأحمر يسمى بالحجر القرطاجي. ويتراءى أن غوتيه يناقش الموضوع على هذا المنوال: «أن تلك الخرز القديمة المسماة أجرى Aggrey هي العقيق الأبيض، وأن العقيق الأبيض هو الحجر القرطاجي، وأن الحجر القرطاجي هو العقيق الأحمر، ولذلك فان العقيق الأحمر القرطاجى الذى كان يأتى من الجارامنتيين، وخرز الأجرى هما شىء واحد. وليس من العسير التصدى لهذه الحجة، فالى جانب ضعفها، تقف ضدها كل الظروف.

وبالرغم من أن خرز الأجرى ، كما يشير الى ذلك غوتيه ، لا ترتبط الآن بساحل غينيا ، فمن الواضح أن تعدد العثور عليها فى مقابر الصحراء يدل على أنها كانت واسعة الانتشار فى شمال افريقيا خلال بعض الأوقات . أن افتراض غوتيه ، كما ورد فى نقاشه الملخص آنفاً ، أن تلك الخرز كانت تصنع وتوزع من قبل القرطاجيين ، هذا الافتراض يبدو مفرطاً فى الجرأة . ولماذا لا ينسب الأمر الى الجارامنتيين أنفسهم ؟ فالشعب القادر على صنع مركبات تجرها اربعة خيول يعد صنع الخرز من العقيق الأبيض بالقياس اليه أمراً سهلاً جداً . ورأى بديل الى جانب ذلك وهو احتمال وجود جهات أخرى ، الى جانب القرطاجيين ، كانوا يشترون العقيق الأبيض من الجارامنتيين ويصنعون منها الخرز * . وقد وجدت صناعة محلية قديمة للخرز في بيدة بنيجريا ، كانت تحصل على أحجارها من مدينة كانو ، ولكن التقاليد المعروفة تذكر أن الحجر كان يأتى فى الأصل من مصر أو من جبال الأطلس . أحدهما محتمل**،

---

* بالرغم من أن العقيق الأبيض لم يعثر على وجوده حتى الآن فى فزان فقد وجد فى الجزائر وفى الصحراء الليبية . (وايزمان ، المتحف البريطانى - قسم التاريخ الطبيعى - فى رسالة الى المؤلف) . ولذلك فمن المحتمل أن يكون الجارامنتيون قد حصلوا عليه من داخل بلادهم . وبالأضافة الى ذلك ، وكما رأينا من قبل ، يشير بلينى الى جبل جيرى فى بلادهم حيث كانت الاحجار الثمينة تستخرج منها .

** أن المواد الأولية التى استحصل عليها حديثاً صناع الخرز فى البيرة من كانو، وجد أنها قطع =

والآخر بعيد الاحتمال . وقد يكون المصدر ايضاً هو فزان ، بلد الجارامنتيين .

وبعد كل هذا يحتمل أن يأتى يوم يظهر فيه أن العقيق القرطاجى هو نفسه خرز الأجرى ، وعندئذ يصدق ما ذهب اليه غوتيه . وإذا حصل ذلك فسوف نقترب كثيراً من معرفة الاسباب التى كانت تدفع القرطاجيين الى التجمع حول رأس طريق الجارامنتيين .

مصنوعة من العقيق الأحمر واليشب اللذين يعتقد أنهما قد جلبا من كامباى . (رسالة من أركيل الى المؤلف) .

الفصل الثالث

الرومان والجرمنتيون

« ان الرومان الذين يعنون برواية انتصاراتهم العظيمة لا يذكرون الا النزر اليسير عن أجزاء افريقيا الداخلية »

رشارد جوبسون

ان افتخار الرومان بقضائهم على قرطاجة قد خالطه الكثير من الشكوك . وما كانوا يعرفون ما الذى ستنطوى عليه انتصاراتهم . وكان يزعجهم ويقلقهم بصفة خاصة أن يتولوا ادارة مجموعة من القبائل البربرية المولعة بالحرب . ومع ذلك فقد كان لزاماً عليهم أن يحتلوا افريقيا عسكرياً ، وبذلك وحده يمكن أن يحموا أنفسهم من انبعاث القرطاجيين الذين كانت القبائل تعضدهم وتعزز شوكتهم . وقد تعلم الرومان من تجاربهم الطويلة فى ادارة البلدان المفتوحة ، أنهم كلما تورطوا فى حرب ، دفعت بهم إلى التورط فى حرب اخرى ، وانهم لا يكادون يستقرون فى حدود حتى يشعروا بالحاجة إلى حدود اضافية ابعد لحماية حدودهم الأولى . ومع ذلك فقد عقدوا العزم على ان يكتفوا باحتلال اقليم صغير حول قرطاجة هو الاقليم الافريقى ، Provincia Africa * ، وأن يتركوا للحكام المحليين ادارة بقية البلاد .

وقد افلحت هذه السياسة فى بادىء الأمر ، ولكنها اصيبت بالاخفاق فى

---

* ومن هنا انتشرت التسمية فشملت القارة كلها . وقد ظلت البلاد التونسية تعرف رسمياً باسم مملكة أفريقيا Royaume d'Afrique ، وبهذا الأسم وصفت فى المعاهدة التى أبرمها حسين باشا ، باى تونس ، مع فرنسا فى سنة 1830 .

الأخير ، لتعذر الحد من شوكة حكام ليبيا وطموحاتهم ، الذين امتدت نفوذهم ومكائدهم حتى بلغت المسائل السياسية الداخلية لروما . وبعد انتصار القيصر على جوبا Juba فى معركة فابسوس Phapsus سنة 46 قبل الميلاد ، جرى الاستيلاء على نوميديا Numidia . ولما توفى بطولمى Ptolemy ابن جوبا الثانى فى سنة 40 بعد الميلاد ، امتد سلطان الرومان على موريتانيا ايضاً . وفى عهد اباطرة الرومان امتد سلطانهم على جميع الساحل الافريقى الشمالى من لبدة Lepcis حتى الاطلسى .

ولم يمض زمن طويل حتى كانت الظروف المشابهة لتلك التى دفعت الرومان إلى التوسع على طول الساحل ، قد اجبرتهم على التوسع فى الاعماق وبذلك تجسدت المخاوف الشديدة التى تردد ذكرها غند سقوط قرطاجة . وعندما كان احتلال الرومان مقتصراً على منطقة ساحلية ضيقة ، ما كانوا يواجهون سوى قبائل وثيقة الصلة بالارض إلى حد كبير ، ويمكن أن تدار امورها اسهل كثيراً من القبائل الرعوية البدوية . ان الهضاب وراء الشريط الساحلى التى كانت تمتد الى الداخل وتؤلف سلسلة طويلة مر الهضاب والجبال ، كجبال الاورس Aures ومنطقة الجبل فى اقليم طرابلس ، كانت آنذاك ، كما هى اليوم موطناً لقبائل شبه بدوية مثل الناسامونيين Nasamones فى الشرق والموريين فى الغرب . وكان هؤلاء يثيرون القلاقل والفتن ولذلك توجب أن تفتح بلادهم . ولذلك قدمت خطوط الدفاع الرومانية حتى سفوح التلال التى اعتبروها خطوطاً طبيعية ممتازة للدفاع . ويبدو أنه قد تبين للرومان فى هذا الوقت بالذات أن ليس لتورطهم فى المعارك من حدود بادية للعيان . وهكذا ادخلوا فى سلطانهم المرتفعات الجافة ذات العشب التى تمتد من الهضاب العالية فى الغرب وتمر باراضى التلال فى الوسط حتى تصل اقليم الجفرة Gefara فى اقصى الشرق . وكانت هذه الاراضى كلها مراعى صيفية للقبائل الصحراوية المعروفة بشكيمتها الشديدة وصعوبة المراس . وفى اشهر الصيف الجافة ، عندما لا يتبقى مكان للرعى فى الصحراء ، كانت تلك الاراضى الصالحة للرعى ضرورية لحياة القطعان والماشية التى تعتمد عليها

القبائل الصحراوية فى معاشها وبقائها . وهم يستخدمون هـذه الاراضى على اساس أنها حقوق لهم قد استقرت بالممـارسة زمنـاً طويـلاً . وما كـانت هذه الهجرات الموسمية لتعد أبداً من قبيل السلب أو النهب . وكانت القبائل شبه البدوية المقيمـة فى المرتفعـات تعتبر تلك الهجـرات من الأمور العـادية التى تلازم الحياة القبلية . ولكن الصحراء تولّد غرائز السلب وتـرغم الانسان على العيش مستعداً لخوض الحرب ابداً . ولذلك كـان بدوى الصحـراء لديـه فى وقت واحد الميل والقدرة على غزو جيرانه ، وهو يقدم على هـذا مرات غيـر قليلة . ومع ذلك لم يكن بدو الصحراء الكبـرى فى ايام الـرومان الأولى قـد حصلوا على الجمال التى اتاحت لهم من بعد قدرة كبيرة على التنقل وجعلتهم جيراناً اشد اثارة للرعب والفزع .

وكان الرومان بطبيعة الحال لا يرتاحون إلى هذه الغارات السنويـة التى تقـوم بها القبـائل المـولعة بـالقتال والتى مـا كانت تعـرف الـولاء لسيـد غيـر رؤسائهم . وقد فات الرومان أن يدركوا أن هذه القبـائل كـانت تتحرك بـدافع اقتصادى ، وأن مشكلتهم اقتصادية وليست سياسية . وكان عليهم أن يعلموا أن بدوى الصحراء يدافع حتى آخر رمق له عن حقوقه التقليدية فى الـرعى سواء أكانت فى الصحراء أم فى المرتفعات . ولذلك حـاول الرومـان أن يحدوا أو يوقفوا هذا الاندفاع السنوى من الصحراء إلى اراضيهم . وبهذا الوجه أثـاروا عداوة القبائل القاطنة فى شمال الصحارى ، واصبحت الصحراء ملاذاً ومركزاً يقصده ويتجمع فيه كل الذين يشقون عصا الطاعة لروما .

ويخبـرنا سـالوست Sallust أنـه فى ايـام الاحتـلال الأولى ذهب رئيس النوميديين Numidian جوغرتا Jugurtha ، بعد شعوره بوطأة الكبت ، «مجتازاً الصحـارى الواسعـة حتى وصل غيتـولى Gaetuli وهى قبيلة متوحشـة غليـظة الطباع»، وجمع جيشاً من بين صفوفها[1]. ويذكر تـاسيتس Tacitus كيف أن تكفاريناس Tacfarinas بعد قرن ونصف القرن قـد التجأ فى ظروف مماثلة إلى الجرمنتيين Garamantes طالباً المساعدة. وهـذه مناسبـة سوف نعـود اليها بعـد قليل » (2) .

ولما وجد الرومان أنه من المتعذر عليهم أن يمنعوا البدو الرحل من اختراق خطوطهم ، أو من الانضمام بقواهم إلى القبائل المتمردة فقد حاولوا أن يحبطوا تلك الغزوات مسبقاً وأن يكسروا شوكتهم ويتخلصوا من شرهم وذلك باقامة الحاميات فى الواحات الشمالية . وامتدت سلسلة المخافر الامامية الجديدة متجهة إلى الغرب من خليج قابس مارة بتوزير Tozeur ، نيفتا ، نغرين وبسكرا فى جنوب بوسعدة ، واتجهت من هناك نحو الشمال الغربى على طول سهل هودنا Hodna . وكان كل مخفر امامى يسيطر على طريق واحد أو اكثر من الطرق التى توصل من الصحراء إلى المرتفعات واراضى الهضاب .

وكانت فسكيرا Vescera (بسكرا Biscra) التى تسيطر على الطرق المؤدية الى ممر القنطرة الكبير * تحميها كتيبة جندت من صحاري آسيا، تعرف فنون الحرب الصحراوية، ولذلك اختيرت لحراسة هذا الموقع المهم. وفى اقليم طرابلس Tripolitania وسعت الخطوط الدفاعية ومُدّت حتى حدود الجبل. وفى اوائل القرن الثالث ادخلت هذه الحدود الجديدة الممتدة من سرت Syrtes الى موريتانيا، ضمن المنطقة الدفاعية، وهكذا تقدمت الحدود مرة أخرى نحو الصحراء. وكان الرومان يواجهون على امتداد خطوطهم اعداء الداء لا يعرفون اللين او الصفح. وفي اقصى الغرب فقط، أى في موريتانيا، كان بدو الصحراء ما زالوا بعيدين من الوجهتين الجغرافية والسياسية. وما كانت الجيوش الرومانية تذوق طعم الراحة إلا هناك. ان الفيلق الثالث المعروف باسم اوغستا الذى كان مقره في لامبيس (لامبيسا) والذى عهدت اليه أمور الدفاع عن هذه الحدود صار يجمع الآن من صفوف الاهالى المحليين، ولذلك تحول كله سريعاً الى جيش افريقى.

---

* كان الرومان من قبل قد اكتفوا بالسيطرة على المدخل الشمالى للممر الضيق بتواجدهم فى لامبيس Lambaesis (لامبيسا Lambessa) التى كانت مقراً لكتيبتهم الثالثة المعروفة باسم اوغستا Augusta التى كانوا يطلقون عليها اسم لجام القبائل الصحراوية ، ولكن تبين لهم سريعاً أنها لم تكن من هذا القبيل ، ولذلك اضطروا الى وضع حامية أخرى عند أسفل الممر الضيق فى فسكيرا (بسكرا) .

وفى ساحل سرت، أى في منطقة امبوريا Emporia ذات المدن الثلاث: لبسز ماغنال ، أويا ، وصبراتة ، التى اخذت مدينة طرابلس (أى المدن الثلاث بالرومانية) اسمها منها ، لم يكن الاتصال الوثيق بالصحراء حديث العهد . وبما ان الرومان كانوا يهتمون بالتكاليف التى يتحملونها من جراء احتلالهم افريقيا لذلك لم يضيعوا شيئاً من الوقت ، وبادروا الى الاستحواذ على تجارة قرطاجة مع الجرمنتيين الذين كانوا يؤلفون قوماً يحيط بهم الغموض . ولكن تبين للرومان أنهم كانوا على جانب كبير من المنعة والقوة وقد وصفهم هيرودوتس بانهم قوم أولو بأس شديد . ولم تتضاءل قوتهم بالرغم من مرور الزمن . وقال عنهم تاسيتس Tacitus انهم شعب لا يقهر* . كان موطنهم الأصلى فازانيا (فزان) ، وهى مجموعة من الواحات فى قلب الصحراء ، وكانت عاصمتهم جاراما Garama ، وهى جرمة الحالية . على أنا نسمع عنهم أنهم كانوا ايضاً على مقربة من ساحل سرت ومن المحتمل أن سلالتهم كانت تمتد من الجنوب الشرقى حتى حدود النيل(*) . وتبعاً لما اورده هيرودتس يبدو أنهم كانوا قوماً الفوا الاقامة ويتعاطون الزراعة والتجارة . اما لوسيان Lucian فقد اعتبرهم بدواً يسكنون الخيام ، ويقومون بهجرات موسمية الى الاماكن البعيدة فى الجنوب ، ويمكن الافتراض انهم كانوا خلال ذلك يغزون التروغلوديتيين Troglodytes للحصول على الرقيق ، كما اورد هيرودتس ذلك[4] . ومن الواضح

* يبدو ان الكوران Kuraéan وهم قوم من البدو المنحدرين من خليط من التيبو والزنوج ، يمثلون الجرمنتيين فى العصر الحديث . أنهم يقطنون الصحارى فى شمال دارفور Darfur والوادى Wadai اللتين كانتا بلد الجرمنتيين . ومن الجدير أن يلاحظ أن صحراء بيودا فى شمال الخرطوم ، كانت تعرف باسم صحراء غوران Desert of Goran حتى عهد متأخر من القرن السابع عشر ، وقد وصفت بهذا الأسم ايضاً من قبل ليو الافريقى Leo Africanus .

(L. P. Kirwan, «Christianity and the Kuraéane», journal of Egyptian Archaeology, XX, 1934, PP. 201-3.)

(*) قال عنهم هيرودتس أنهم كانوا «يغطون الملح بالتراب ثم يزرعون وينثرون غلاتهم»؛ وفى أوائل القرن التاسع عشر وصف جورج فرانسز ليون فزان مشيراً الى «البساتين . . . البيضاء بالملح» ، (Travels, P. 206) .

أنهم كانوا مدينين فى مركزهم المهيمن فى الوسط الشرقى من الصحارى الى قوتهم العددية والى رقعتهم الجغرافية الواسعة التى كانت تتيح لهم أحياناً أن يعيشوا حياة مستقرة ، كما فى فزان ، وتفرض عليهم احياناً اخرى حياة البداوة والترحل ، كما فى حالة الصحراء التى تفصل فزان عن الساحل . كانوا يتألفون من قبائل تسكن البلدان والقرى ، ومن جماعات اخرى تحترف الرعى وتألف حياة الترحل . وكان الرومان يحترمونهم باعتبارهم تجاراً ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستاءون منهم ويعتبرونهم من عوامل اختلال الأمن فى منطقة طرابلس .

وليس من السهل أن يصنف الجرمنتيين من الناحية العرقية، ولكن في وسعنا أن نفترضهم من الزنجانيين (أى الشبيهين بالزنوج)[5]. وقد جاءت اخبارهم على صور شتى، وقيل عنهم انهم يكتسون قليلاً أو عراة، واستناداً الى ما اورده بلينى Pliny فقد كانوا يعيشون مع نسائهم على اساس التسرى والمعاشرة من غير زواج شرعي، وهذا النمط من المعاشرة يميل أهل التحضر الى نسبته الى غير المتحضرين. ان استخدامهم المركبات ذات العجلتين، التى تجرها الخيل، وعبادتهم آلهة لها رؤوس من الحيوانات، وهو أمر يشاهد كثيراً فى صنف من الرسوم المعاصرة، توحى كلها بانهم مدينون بعض الشىء من الوجهة الثقافية الى مصر، ولكن ظروف هذا الاتصال ما زالت محجوبة فى غياهب الماضى السحيق.

ولا ريب فى أن استمرار الجرمنتيين فى تجارتهم مع أقليم امبوريا Emporia كان يشعرهم بالارتياح ، ولكن تغيير الحكام الاجانب فى ساحل سرت قد اثار لديهم النفور وروح المقاومة. كانوا قوة تجارية وما كانت لهم من اهتمامات خارج التجارة كما أنهم لم يسمحوا للمسائل السياسية بالاخلال فى سير التجارة، وقد أدى ذلك الى أن يصبحوا قوة عسكرية منيعة الجانب، وكانت تعتبر سيطرتها الادارية الوثيقة ذات اهمية بالغة. ان قبائل الساحل التى كانت قد قبلت سيادة الجرمنتيين الاقوياء صار عليها الآن أن تحنى رؤوسها للحكام الاجانب. واذا لم يوضع حد فعلى لقطعان وماشية الجرمنتيين بالهجرة الموسمية التقليدية من الصحراء إلى اراضى الهضاب ، فذلك ناشىء بطبيعة

الحال من عدم القدرة على منعهم، وعلى الاذعان لمشيئة السلطة المحتلة. كانت قسوة الحكام الرومانيين تثير بلا ريب سيلاً من الشكاوى، كما كانت تدعو سكان الساحل المستعبدين الى طلب الحماية من جيرانهم الاقوياء فى الصحراء. ولم يظهر القرطاجيون ابداً امام الجرمنتيين أنهم دولة منافسة لهم، ولكن الرومان، من الجهة الاخرى لم يكتفوا بجعل انفسهم قوة منافسة فقط، بل ارادوا أن يكونوا السلطة الوحيدة فى المنطقة. وبالقياس الى شعب عظيم مثل الجرمنتيين الذى لم يجرأ احد على تحدى مركزهم الفائق فى شرقى الصحراء، كان تغير الحكام فى الساحل أمراً لا يطاق.

وليس بمعروف على وجه الدقة متى تصدعت العلاقات بين الرومان الجرمنتيين ولكن الرومان وجدوا انفسهم مرغمين عند اواخر القرن الأول قبل الميلاد على أن يقوموا بما يمكن أن يعد حملة على جانب من الخطورة ضد فزان. فقد توجب عليهم فى ذلك الحين أن يخمدوا ثورة قامت بها غيتولى Gaetuli، ويرجح انها طلبت العون من الجرمنتيين الذين أبدوا استعدادهم لذلك. وسواء أكان هذا هو السبب فى الحرب أم لم يكن، فان عملاً جريئاً كغزو فزان ما كان ليحصل إلا اذا كانت الاستفزازات المستمرة قد بلغت الذروة وصارت تتحدى السلطة الرومانية رأساً.

كانت الحملة بقيادة نائب القنصل (الحاكم العسكرى) لوسيوس كورنيليوس بالبس من اهالى اسبانيا. لقد أخذ الجرمنتيين على غفلة ونجحت الحملة فى اخضاع فزان. وقد تم الاستيلاء على مدن عديدة منها جاراما (جرمة) العاصمة، وواحة سيدامس (غدامس) البعيدة المهمة التى تقع فى بلاد الجرمنتيين ايضاً، ومن بين الاماكن التى تم الاستيلاء عليها وذكرها بلينى Pliny جبل جيرى Gyri «الذى تستخرج منه الاحجار الثمينة» ومن سوء الطالع أن موقعه قد ظل غير معروف حتى الآن (6).

ومن المحتمل أن يكون الغرض من الحملة هو القضاء على شوكة الجرمنتيين ومنع كل تحدّ للسيادة الرومانية. وقد يكون القصد من تلك الحملة

من الناحية الأخرى، مجرد العقوبة والتأديب. والواقع أنها اخفقت اذا ما قيست بالانتصارات السابقة، وكان يرتجى لها ذلك، ذلك أن شن الحرب ضد بدو الصحراء لا يحظى ابداً بدعم المواطنين الرومان فى الداخل: اذ يأتى جوابهم ازاء المطالبة بقوة عسكرية كبيرة هو الأخذ بالانتشار الواسع وسلوك حرب العصابات. وليس فى مقدور الجيش النظامى أن يقضى عليهم، كما ليس فى مقدور قبضة اليد أن تمزق وسادة.

ومع ذلك فقد قوبلت الحملة بالترحاب واعتبرت انجازاً رائعاً . والواقع انها كانت كذلك . فقبل ذلك لم تحمل روما ابداً الحرب إلى قلب الصحارى . وبالاضافة إلى الصعوبات الخطيرة المرتبطة بحرب الصحراء ، كان على الجيش أن يسير أولاً ثلاثين يوماً فى اراض خالية تقريباً من الماء قبل أن يصيب العدو فى مواقعه غير الحصينة فى فزان . وكانت روما تعرف أن ذلك العدو يؤلف أكبر قوة فى الداخل . وحظى بالبس بشارات التكريم الرفيعة . وبالرغم من أنه كان من أهالى قادس ، فقد اقيم له الاحتفال الرسمى الخاص ، وهو الاجنبى الوحيد الذى أكرم على هذا النحو .

لقد كشفت الاحداث أنه بالرغم من تواجد الصحراء ، يمكن الاغارة على فزان من الساحل ، وكان لهذا وقع أليم وهزة مفزعة بالقياس إلى الجرمنتيين ، كما أن التدمير الذى نجم عن حملة بالبس كان تحذيراً بان القوة العسكرية الرومانية ليس من السهل الاستخفاف بها . كانت الحملة درساً مفيداً ، وكان لها أثر فعال فى منع الجرمنتيين من التدخل المباشر فى الامور السياسية للقسم الشمالى ، ولكنها شجعتهم على مد يد العون للاعمال العدائية ضد الرومان التى كان يقوم بها جيرانهم . فهم ، على سبيل المثال قد أيدوا قضية المرماردين Marmaridae فى برقة Cyrenaica ، ولكنهم هزموا على يد نائب القنصل على الأقليم: بوبليوس سلبيسيوس كيرينيوس Publius Sulpi-Cius Quirinius. وفى سنة 17 بعد الميلاد اندلعت ثورة بقيادة تكفاريناس Tacfarinas الجندى الليبى اللامع المدرب تدريباً رومانياً، وقدر لهذه الثورة أن

تنتشر أخيراً من سرت Syrtes إلى المحيط الأطلسى . وقد هددت هذه الثورة الاحتلال الرومانى تهديداً خطيراً إلى حد أنها استلزمت جلب الفرقة الاسبانية التاسعة لتعزيز الفيلق الثالث الموسوم باسم أوغستا . وظل تكفاريناس سبع سنين يتحدى بنجاح سلطة الحكام الاجانب ، وقد اضطر خلال تلك المدة إلى أن يلوذ مرتين بالصحراء[7] .

وفى المناسبة الثانية ، إن لم تكن فى الأولى أيضاً ، كان الجرمنتيين هم الذين وفروا له الملاذ وآووه بالرغم من الجهود التى بذلها الرومان المقيمون فى لبدة لمنعه من الوصول إليهم . وفى هذه الظروف قرر تيبريوس Tiberius فجأة أن يسحب الفليق التاسع الاسبانى من افريقيا . وقد أثار هذا الفعل قلقا عميقاً لدى نائب القنصل كورنليوس دولابيلا Cornelius Dolabella ، لأن حملاته المتواصلة التى لا تبدو لها من نهاية ضد تكفاريناس كانت قد بلغت مرحلة حرجة تستلزم استخدام كل رجل يمكن أن يضع عليه يده . أما تكفاريناس فقد تنفس الصعداء وشعر بالارتياح من هذا الانسحاب المفاجىء الذى وجد فيه آية على تزعزع مكانة روما ، وافلح فى اقناع الجرمنتيين بهذا الرأى وحملهم على مده بالعون ، وإن كان المحتمل أن ذلك العون لم يكن بالسعة التى كان يرجوها . انهم ما زالوا يشعرون بالم الهزيمة على يد كيرينيوس ، ولذلك اظهروا الاحتياط والحذر ولم يرغبوا فى الالتزام على نحو واسع . ويروى تاسيتس Tacitus عن تكفاريناس أنه « جعل ملك الجرمنتيين شريكاً فى غاراته يمده بمفارز خفيفة من الجنود ، وإن لم تكن فى الواقع جيشاً نظامياً »[8] . كان دولابيلا ينازل تكفاريناس الذى ما زال فى الميدان ، ولذلك لم يتوفر لديه الجيش للقيام بحملة تأديبية ، ولولا تلك الظروف لأرسل الجيش فى مطاردة الجرمنتيين المتدخلين ، ولهذا السبب تركت اقوام الصحراء الجافية تسرح بدون عقاب . ومع ذلك فعندما قتل تكفاريناس فى المعركة ، وتحررت الجيوش الرومانية من القتال ، أحس الجرمنتيين بالخطر وحاولوا أن يدفعوا عنهم العقوبة التى كانوا يخشون أن تكون فى انتظارهم. ويقصّ تاسيتس أنه فى ختام الحملة اصطحب دولابيلا معه «رسلاً جاءوا من

الجرمنتيين، وهذا من المشاهد النادرة فى روما . . . ان الأمة التى كانت تشعر بالهول والفزع لمقتل تكفاريناس . . . قد بعثت أولئك الرسل يلتمسون العفو من الشعب الرومانى»[9] .

ومن المحتمل أن زيارة اولئك الرسل قد قوبلت بالترحاب ، ومما يثير العجب انها اقنعت الرومان بزوال كل ما يدعو الى التخوف من الجرمنتيين ، وانها كانت وسيلة للاعتذار عن شن حملة ثانية باهظة التكاليف ضد فزان . فقد علموا أن بالبوس قد احزر ما احزر من النجاح لأنه قد أخذ الجرمنتيين على حين غرة . فقد اصبح هؤلاء منذ ذلك الوقت على جانب كبير من اليقظة والحذر خوفاً من تكرر الحوادث ، وبالاضافة إلى ذلك فقد احاطوا انفسهم بمزيد من الحماية وذلك بلجوئهم إلى اكثر الطرق شيوعاً وفعالية فى الدفاع ضد إلهجوم فى الصحراء . وقد كتب بلينى Pliny ، «لقد صار بحكم المتعذر أن يفتح الطريق إلى بلاد الجرمنتيين ، لأن قطاع الطرق من اولئك القوم صاروا يملئون الآبار بالرمال»[10] .

ولم يتوان الجرمنتيين من أن يدركوا أنهم مدينون فى نجاتهم من العقوبة لمساعدتهم تكفاريناس إلى وساطة رسلهم على نحوٍ أقل مما هم مدينون بذلك إلى اجراءاتهم الدفاعية التى اتخذوها بانفسهم . وقد تعززت ثقتهم التى استمدوها منها بسحب الرومان غير الصائب بقية جيوشهم من اقليم طرابلس بتصورهم تحقق السلام . وعلى أية حال فان الاضطرابات التى حصلت من بعد كانت تختلف عما كانوا قد توقعوه . ففى سنة 69 بعد الميلاد اندلعت الحرب بين المدينتين المتجاورتين: أويا (طرابلس) لبتس (لبدة) Lepcis . ولولا دخول الجرمنتيين مرة اخرى إلى هذا الميدان لما كان لهذه الحرب من أهمية كبيرة . كان الجرمنتيين يعتقدون أنهم اذا ما غلبوا على أمرهم فى المعركة فما عليهم إلا أن يسارعوا فى العدو إلى الصحراء ويملئوا الآبار التى يخلفونها بالرمال وبذلك يوقفون كل ملاحقة ضدهم، وبما أنهم كانوا على ثقة من مناعة مواقعهم تجاه أى هجوم على فزان فقد استجابوا لطلب العون

الذى وافاهم من سكان أويا، واستطاعوا بالاتفاق مع حلفائهم الجدد أن يفرضوا الحصار على مدينة لبتس . وقد استدعى هذا أن يتدخل حاكم مقاطعة نوميديا Numedia ، فالريوس فستوس Valerius Festus فسارع من اسفل الساحل لاعادة النظام ، وقد افلح فى ذلك بسرعة مدهشة . فحرر لبتس من الحصار ، وقهر الجرمنتيين ، واسترد الكثير من غنائمهم ، وطاردهم إلى داخل الصحراء . وهو بهذا العمل قد انجز اموراً جديرة بالتنويه . ويخبرنا بلينى أنه قد عثر على طريق جديد وقصير عبر الصحراء يعرف باسم (بريتور كابت ساكسى Caput Saxi Praeter) وهو لا يختلف كثيراً عن اسمه المحلى الحديث باب راس الحمادة[11] . ويحتمل أنه الطريق الذى يتجه بشكل مستقيم ومباشر إلى الجنوب من أويا ماراً بغريان ، مزدا ، والقرية الغربية التى اشتهرت من بعد ، فى عهد كاراكالا Caracalla ، بالاحداث التاريخية المهمة . ويستنتج مما سبق أن فاليورس فستس قد اكتشف طريقاً لم يكن معروفاً لدى الجرمنتيين ولكن هذا بعيد عن التصديق ، فقد كان يقوم بمهمته العسكرية فى بلاد الجرمنتيين انفسهم ، ولا بد أنهم كانوا يعرفون بلادهم افضل كثيراً من الرومان ، أو على الأقل بقدر ما يمكن أن تعرفه أية قبيلة قد يأخذ الرومان منها جماعة الادلاء والمرشدين .

على أن السر الذى يحيط باكتشاف الطريق الجديد يمتد فيشمل مجالاً اوسع كثيراً . فقبل انتهاء القرن حصلت أمور غريبة أخرى لم تحظ بالتفسير ابداً .

وأول هذه الأمور هو التقارب المدهش حقاً بين الرومان والجرمنتيين ، ومنه انبثقت حملتان بارزتان قام بهما الرومان عبر فزان باتجاه البلدان فى الجنوب . وتمت هاتان الحملتان فى عهد تراجان Trajan حوالى سنة 100 بعد الميلاد . وقاد الحملة الأولى سبتيميوس فلاكس Septimius Flaccus وكان حاكماً على مقاطعة نوميديا ، وظل يسير ثلاثة اشهر باتجاه الجنوب من فزان ، ومن المؤكد تقريباً أنها انتهت به إلى السودان . وقد تتوفر الدلائل فى هذا البلد

ذات يوم حول حركته بهذا الاتجاه . ومع ذلك فان بطليموس Ptolemy يذهب إلى أن هذا الخبر ، وقد استقاه من مارينوس الصوري Tyre ، ينطوي على المبالغة . والحملة الثانية التي قادها يوليوس ماترنوس قد دونها بطليموس ايضاً معتمداً على نفس المصدر .

(شرع يوليوس ماترنوس بالخروج من لبتس ماغنا ومن جراما بصحبة ملك الغارامانتيين الذى بدأ بحملة ضد الاثيوبيين، وانطلق سيرهم باتجاه الجنوب حتى وصلوا بعد أربعة اشهر ارض اجيسما Agisymha وهى بلاد الاثيوبيين حيث يتواجد فيها الكركدن (وحيد القرن)[12] .

كان بطليموس يتردد فى تصديق هذا الخبر ايضاً، ولكنه مذكور بشكل مفصل اكثر من الآخر ويبدو أنه الى حد الزعم بان ارض اجيسما تماثل وتطابق ارض تيبستى Tibesti . وذهب البعض الى أن تلك الارض تطابق بلاد أير Air، على أنه كما اشار رود زِ زُخيي (لورد رينل Rennell ليس من السهل الوصول الى أير من بلد فزان، ولذلك فلن يكون الرومان قد زاروها إلا لحاجة ملحة، ولا يتوفر دليل يؤيد ذلك[13] ومن ناحية اخرى تقع تيبستى قريبة من الطريق الطبيعى المؤدى جنوباً من فزان الى بلاد نجرولاند، ونعتقد أن هذا الطريق كان يستعمل آنذاك فى نقل التجارة، ولذلك يصعب القول إن الرومان كانوا يجهلونه. ولما وجد العرب انفسهم، وكذلك الاتراك الذين جاءوا بعدهم، وكلهم على غرار الرومان، أنهم باحتلالهم فزان، ورغبتهم فى مد سلطانهم الى الجنوب، توجهوا جميعاً الى تيبستى وتغلغلوا فيها، ولكن ما من أحد منهم بلغ أرض أير. وقد أشار نفس الكاتب ايضاً الى أنه فى الوقت الذى لا توجد في ارض أير اسماء تشبه بارديتس Bardetus وميشك Mesche اللذين ذكرهما بطليموس على أنهما اسما جبلين في اجيسمبا، فانه توجد فى تيبستى اسماء باردای Baradai ومسكى Miski .

ان اشتراك الجرمنتيين مع الرومان لا يترك مجالاً ملحوظاً للشك حول الغرض من الحملة المشتركة. وربما عمد الرومان الى تعزيز صداقتهم الجديدة بموافقتهم على تقديم المساعدة فى الهجوم على الدول المجاورة

القوية . ومع ذلك فلا تتوفر لدينا الأدلة على أن الجرمنتيين كان لهم أعداء فى الجنوب، ولم يكن فى مقدورهم أن يخضعوهم قبل مجىء الرومان اليهم. ولعله من الأرجح أنهم قد طلبوا من الرومان أن يذهبوا بهم فى حملة للحصول على الرقيق، وأن يوليوس ما ترنوس بادر الى اغتنام هذه الفرصة رغبة منه فى مشاهدة بلدان جديدة. ومن المستبعد أن يكون هو نفسه ميالاً الى اقتناص الرقيق، والظاهر أن الرومان لم يعنوا بتجارة الرقيق فى افريقيا الوسطى. واذا كان الغرض من هذه المغامرة المشتركة هو الحصول على الرقيق، فلا شك عندئذٍ فى أن اجيسمبا كانت هى تيبستى التى تقبل بصفة عامة على أنها موطن الاثيوبيين التروغلوديتيين الذين يقول عنهم هيرودتس إن الجرمنتيين اعتادوا غزوهم. ونظراً لغياب أى دليل يبين الحدود الجنوبية التى بلغها سبتيميوس فلاكس في تغلغله، فان تيبستى يمكن أن تعد أبعد نقطة بلغها الرومان في داخل افريقيا غربى وادى النيل * .

واهم من هذه التخمينات هو أن نتبين الظروف التى ادت الى ذلك التقارب المفاجىء الذى جعل من اليسير القيام بحملتين عسكريتين متقاربتين على ما يظهر، اندفعتا الى اراض بعيدة كانت تعد لدى الرومان حتى زمن قريب انها بلاد لا أمل فى الوصول اليها. ومن المحتمل أن الاكتشاف الغريب المرتبط بالطريق الجديد هو جزء من نفس المشكلة التى قد اهملت كلياً ولم يلتفت اليها العديد من العلماء العارفين الذين تعمقوا في دراسة تاريخ الاحتلال الروماني. وبالرغم من التعقيدات التى تكتنف هذه المسألة، فانه يمكن أن يورد بشأنها تفسير بسيط واضح وإن لم يكن فى هذه اللحظة.

كانت فنون الحرب واشياء عديدة اخرى فى افريقيا الشمالية تمر خلال تلك الأوقات بمرحلة ثورية بسبب دخول الجمل. وفى تاريخ النصف الشمالي من هذه القارة لا نجد حدثاً كان له من النتائج اكبر من دخول هذا الحيوان الذى

---

* ان هذا لا يعنى بطبيعة الحال الأشياء الرومانية الأصل. فمثلاً عثر فى سنة 1931 على مسكوكة رومانية من عصر قسطنطين أثناء الحفريات فى بوا فى الكاميرون البريطانية. (رسالة من ارنيت E.J. Arnett الى المؤلف) .



شكل (2) أفريقيا الرومانية

اصبح الآن اساسياً لا غنى عنه. وتحيط الشكوك القوية بتاريخ دخول هذا الحيوان والظروف التى رافقته. ويبدو أن انتشار البقايا العظمية على نحو واسع لجمل العصر الجيولوجى الرابع فى طول المنطقة وعرضها يشير بوضوح الى أن

هذا الحيوان قد وجد هناك على وجه الاستمرار منذ ما قبل فجر التاريخ . ومن المعروف الآن أن حيوان العهد الجيولوجى الرابع لم يبق حتى الازمنة التاريخية . ويعتقد أن الجمل المتأخر قد جاء به الفرس الى مصر فى القرن السادس قبل الميلاد . واستخدم الاسكندر الكبير اثناء حملته الجمل فى النقل الى هيكل جوبيتر آمون ، ولكن الظاهر هو أن سيوة كانت أبعد نقطة غربية بلغها الجمل فى هذه المدة . وهذا يدعو الى العجب اذا ما نظر المرء الى الحاجة الكبيرة الى هذا الحيوان فى سيرينايكا (برقة) وفى اقليم طرابلس ، وهذا اذا تجاوزنا عن ذكر الصحارى . ولعل احد الاسباب الى ذلك هو الاخفاق فى تنمية هذا الحيوان فى مصر السفلى ، فبدلاً من أن تكون هذه المنطقة ، كما هو المتوقع ، مكاناً لتوليد هذا الحيوان وتصديره ، كانت تستورده . وهى ما زالت حتى الآن تسد حاجاتها بشرائه من مصر العليا وفلسطين . وقد وصل الجمل إلى جمهورية السودان الحالية خلال بعض الأوقات قبل العهد المسيحى ، ومن الصعب أن يفسر أو يعلّل لماذا لم ينتشر من هناك إلى الغرب . إن عدم ظهوره فى الرسوم على الصخور العديدة القديمة التى كانت تبين فيها بشكل مفصل حيوانات الصحراء ، الوحشية والأليفة ، ليدلّ بوضوح على عدم وجوده آنذاك[14] .

•

لقد استولى القيصر على اثنين وعشرين جملاً فى ثابسوس Thapsus سنة 46 قبل الميلاد. وهذا هو اقدم شيء مدون عن الجمال فى غربى سيوا Siwa. ومع أن الرومان كانوا يألفون بدرجة كافية استخدام الجمال فى آسيا، وأنهم كانوا يدركون مبلغ أهميته فى افريقيا، فانهم، على ما يبدو، كانوا متباطئين جداً فى استخدامها هناك. فقد ظلوا مدة طويلة بعد معركة ثابسوس يستخدمون الخيول فى عملياتهم العسكرية التى لو استخدمت فيها الجمال لكانت أنفع كثيراً. وبالاضافة الى ذلك ففى تاريخ الاحتلال الروماني لم تذكر الجمال مرة اخرى إلا بعد 400 سنة . وفى سنة 363 بعد الميلاد ، عندما طلب اهالى لبتس (لبدة) Lepcis المساعدة من حاكم افريقيا ضد الاستريانيين Austuriani الذين كانوا يهاجمون بلادهم وينهبونها ، اجاب انه لا يستطيع ان يأتى لمساعدتهم

حتى يرسلوا اليه 4000 جمل لنقل جنوده[15] .

ربما كان الرومان هم الذين ادخلوا الجمال، ولكن الجدير بالملاحظة هو أن نسمع أولاً أن استخدام الجمال فى شمال افريقيا لم يكن من قبل الرومان، بل من قبل الذين ثاروا ضدهم. وبالاضافة الى ذلك فان عملياتهم العسكرية ما كانت تأخذهم عادة أبعد من حافة الصحراء الافريقية، كما انهم لم يحاولوا أبدا التوغل فى الصحراء غرب اقليم طرابلس، ولذلك لم تكن حاجتهم الى الجمال عامة أو ملحة.

ويرتبط ادخال الحيوانات الأليفة غالباً بهجرات الناس ، ولعله لم يكن من قبيل المصادفة وحدها أن يتزامن أول ظهور للجمال فى افريقيا الرومانية تزامناً وثيقاً مع أول دفعة من الزناتيين وصلت الى المنطقة نفسها . ان هؤلاء البدو من البربر الذين قدّر لهم بعد عدة قرون أن يقدمّوا للقسم الغربى من المغرب سلالات حاكمة قوية ، سلالة المرنيين فى فاس Fez وسلالة عبد الوديد فى تلمسان، قد جاءوا من الشرق عن طريق سايرن (شحات) Cyrene وليس فى مقدورنا القول إن كانت هذه الهجرة قد أوحى بها الرومان أو شجعوا عليها، ولكن المحتمل الظاهر هو أن الزناتيين هم الذين ادخلوا وعمموا استعمال الجمال فى منطقة جيتولى Gaetulia وفى سهوب الهضاب المرتفعة . .

ويظهر أن الجيش الرومانى قد بدأ يستخدم الجمال فى وقت يتراوح بين سنة 46 قبل الميلاد وسنة 363 بعد الميلاد . وهذا هامش زمنى على جانب كبير من السعة ، ولا توجد بيانات يمكن الاعتماد عليها . وبالرغم من ذلك فالقول إن فرقة اوغستا الثالثة قد استخدمت النقل على الجمال خلال القرن الأول للميلاد ، يبدو محتملاً تماماً ، وهو يشرح الى حد كبير أمراً يكتنفه الغموض . ومن المهم أن يلاحظ أنه بعد قرن من ذلك التاريخ ، كما تبين من التماثيل المحلية ، قد انتشر استعمال الجمال بصفة عامة فى اقليم طرابلس ، بحيث صارت تستخدم فى اعمال الحراثة ايضاً .

ان قصة اكتشاف الطريق الجديد من قبل فاليريوس فستوس يمكن ان

تفهم الآن بسهولة . فالطريق الجديد لم يكن جديداً إلا بمعنى أنه كان معدوم الماء الى حد كبير بحيث يتعذر على الخيول السير فيه ، ولكن وجود الجمال قد جعلت استخدامه ممكناً . وفى القرن التاسع عشر بين من ارتاد هذه الصحراء نفسها ، ليون G . F . Lyon ، «أن الخيول تسبب من المتاعب للقافلة اكثر من أى شيء آخر . فالكمية الكبيرة من الماء الذى من الضرورى أن يؤخذ لها يبلغ معدله دائماً حمل بعير واحد لكل حصان ، وهذا بدون أن يشمل الأحمال الأخرى من القمح والتمور اللازمة لغذائها»[16] . فالجمل لم يقتصر على جعل السير فى هذا الطريق الجديد ممكناً فحسب ، بل انه جعل السفر في الصحراء اسرع كثيراً .

ويمكن الآن ايضاً أن يفسر التقارب الذى تم بين الرومان والجرمنتيين ان مطاردة هؤلاء من قبل فاليريوس فستوس وفرقته من راكبى الجمال التى تكونت بعد هزيمتهم امام لبتس (لبدة) قد اظهرت للجرمنتيين أن الرومان فى مقدورهم أن يذهبوا حيث لا يستطيعون واسرع كثيراً مما يستطيعون . لقد انتهى ما كانت لهم من حصانة تحول دون مطاردتهم ، ولم تعد الصحراء ملاذاً اميناً ، ولم تعد فزان بنجوة من الغزاة . ان ظهور هذا السلاح الجديد لدى الرومان كان له من الأثر فى الجرمنتيين ، مثل أثر القنبلة الذرية فى اليابانيين سنة 1945، وإن كان على نطاق اصغر كثيراً ، وكان له نفس النتيجة ايضاً . فقد استسلموا فوراً وتركوا بلادهم مفتوحة للغزاة الاجانب .

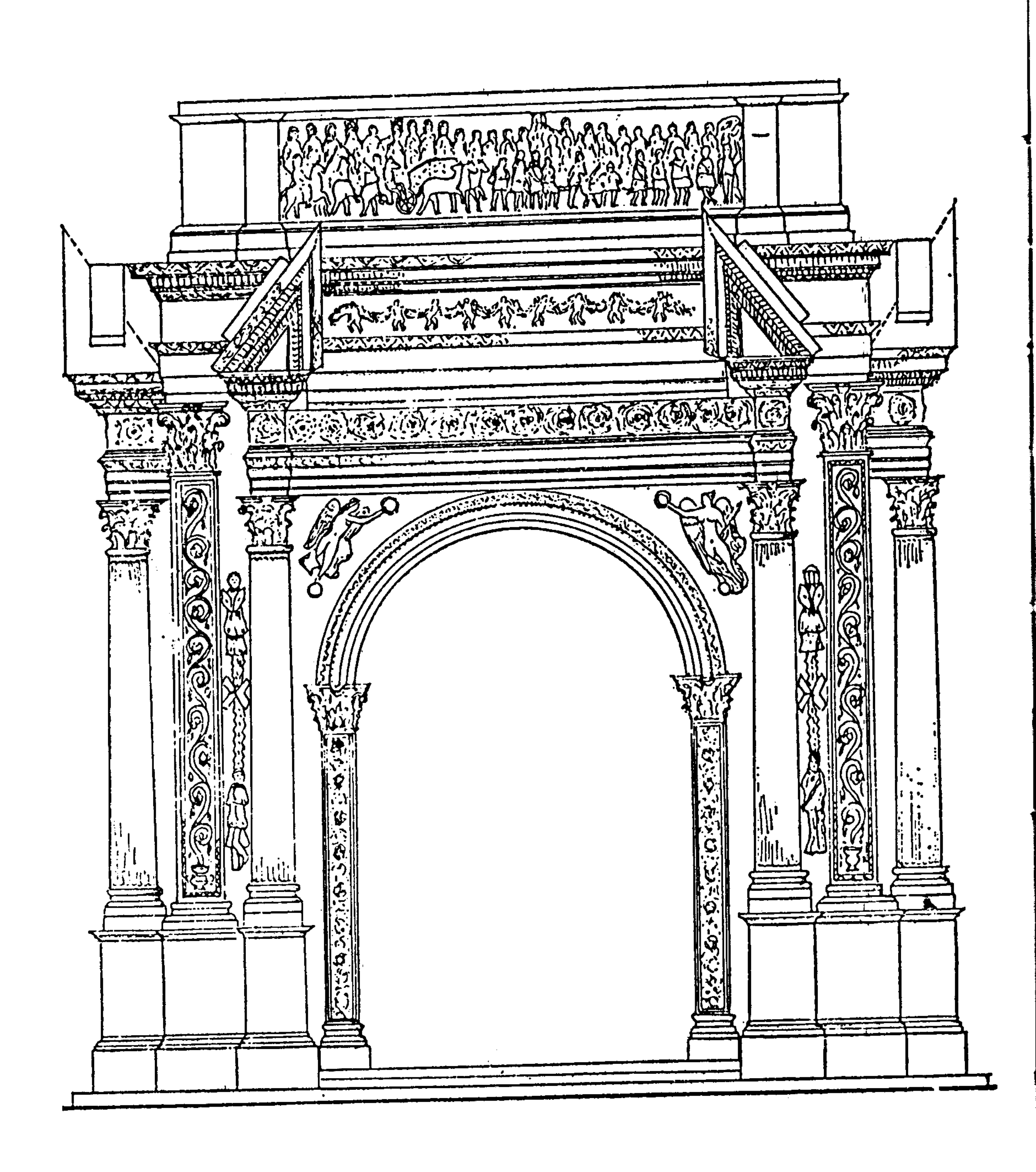
وأخيراً يمكن أن نرى الآن بوضوح كيف أن الحملات الضخمة التى قادها سبتيميوس فلاكس ويوليوس ماترنس الى الاقسام الداخلية البعيدة قد غدت ممكنة على نحو مفاجىء . ولم يفقد الجرمنتيون عزيمتهم على المقاومة فحسب ، بل انهم راحوا يتوددون للرومان ويمدون ايديهم مرحبين .

ومع أن الرومان ، كما سوف نرى ، قد استغلوا الى ابعد الحدود قدرتهم التى اكتسبوها فى الوصول بيسر الى فزان ، فان القرن الذى عقب حملتيهم الى المناطق الداخلية البعيدة لم يشهد حوادث جديرة بالتنويه بالقياس الى

اقليم طرابلس . على أن المشهد قد تغير بارتقاء سبتيميوس سفيروس العرش فى سنة 193 . فقد خرجت لبتس (لبدة) Lepcis من مقاطعة ادارية وتبوأت مكانة مرموقة كشفت عنها بجلاء التنقيبات الحديثة عن الآثار . فما من بقعة على طول هذين الالفين ميلاً من الساحل التاريخى الممتد من مرتفعات فيلانى Philaeni التى تقدم عليها القرابين الى الساحل الاطلسى ، أشد اثارة وتحريكاً للخيال من الميناء الصغير لمدينة لبتس العظيمة عند مدخل وادى لبدة . وهذا المكان هو فى الواقع بوابة الى الصحراء ، وهو النهاية الشمالية لطريق الجرمنتيين ، الذى ظل قروناً عديدة واحداً من اهم طرق القوافل التى تعبر الصحراء الافريقية . فاذا ما وقف المرء على الرصيف الذى كانت ترسو عنده السفن الشراعية الضخمة من اوستيا Ostia ، وصار يحدق جنوباً فى الخرائب الفخمة الرائعة ، فمن الجميل أن يتذكر أن الامبراطور العظيم الذى تحى تلك الخرائب ذكراه ، والذى كانت لبتس (لبدة) مسقط رأسه ، والذى كان يتكلم اللغة اللاتينية بلهجة فينيقية قرطاجية ، كان قد توفى فى يورك سنة 211 .

ولم يقتصر اهتمام سفيروس بارض مولده على لبتس (لبدة) . فقد امتدت يده إلى المنطقة الدفاعية فاعاد تنظيمها ، وعززها ، ووسعها ، ولم يكن الغرض من ذلك ، كما قد يظن المرء ، هو تلبية الحاجة الماسة لحماية المدينة التى اختارها الامبراطور مفاخراً بها ، بل أراد ان يعزز هيبة البلد الذى ولد فيه[17] . وفى داخل الصحراء وخلف الحدود الدفاعية انشئت حاميتان جديدتان تابعتان لفرقة اوغستا الثالثة ، احداهما فى بونجيم Bu Ngem والأخرى أبعد منها إلى الغرب فى سيدامس (غدامس) Cydamus ، وهى واحة اشتهرت فيما بعد بتجمع القوافل فيها تحت اسمها الحاضر وهو غدامس . ومن المحتمل أنه قد أنشئت خلال هذا الوقت أيضاً حامية فى جرمه ، عاصمة الجرمنتيين . ولم يبق عن هذه الفترة سوى القليل من الوثائق المكتوبة ، على أن البحوث الأثرية قد القت بعض الضوء الساطع على الظلال الداكنة .

وفى اوائل القرن التاسع عشر أورد المستكشف الدكتور اودنى Dr . Oudneyأنه عثر على ضريح رومانى فى جرمه Germa ، وقد زار هذا



(لبدة) قوس الامبراطور « سفيروس » وقد اعيد رسمه مع زخارفه ومنحوتاته بحسب احد الآراء كما يجب ان يكون عليه في الاصل . (قدمته مشكورة جميلة عبد الكريم - الطالبة في قسم الدراسات العليا للآثار - جامعة قاريونس)

الضريح هنرى بارت Henry Barth بعد جيل من ذلك التاريخ ، ووصفه بدقة مدهشة اصبح بحق مشهوراً . * وفى سنة 1934 جلبت بعثة أثرية ايطالية من جرمه مجموعة غنية ومنوعة من الأشياء الرومانية التى تعرض الآن فى متحف المستعمرات فى روما ، وقد عثر على بعضها فى الضريح نفسه .[19] وتتألف تلك الاشياء بالدرجة الأولى من المواد الفخارية ، والزجاجية ، والمصابيح ، كما تشتمل ايضاً على اجزاء من النسيج الصوفى ، ومن الأرجوان المتعدد الألوان المصنوع غالباً فى مدينة الصور Tyre . وتبين هذه المجموعة من الأشياء أن السلع التى منشؤها حوض البحر الابيض المتوسط ، والكثير منها رومانى ، كانت تصل فزان بحرية منذ نهاية القرن الأول حتى القرن الرابع أو بعد ذلك . ويبدو أن الضريح نفسه يعود إلى القرن الثانى . ولم تهمل الفرص للقيام بالتجارة التى هيأتها الحملات التى قادها سبتيموس فلاكس ويوليوس ماترنوس . وقد كشف علماء الآثار بالضبط ما كان التاريخ قد حملنا على توقعه . وتبين السدود الترابية لصيانة المياه وحفظها ، التى كانت على نمط يضاهى الاجراءات فى اقليم طرابلس ، أن اهتمام الرومان بفزان كان يتناول التنمية كما يتناول التجارة ، وإن كانت التجارة لها الغلبة .

وتمثل التجارة الرومانية موضوعاً واسعاً للبحث ، حتى أن العديد من اعلام المؤرخين قد اتخذوا منها اساساً لدراستهم ، ومع ذلك فان هؤلاء لم يدخلوا فى دراستهم بشكل مفصل موضوع التجارة الصحراوية التى لا بد من الاعتراف بانها كانت ضئيلة الاهمية . وقد اكتفوا بالافتراض أن السلع التى كان الرومان يتجرون بها مع فزان هى نفسها التى صارت من بعد تتدفق نحو الشمال فى طريق الجرمنتيين ، وكانت تشمل على وجه الخصوص الذهب ، الرقيق ، العاج ، وريش النعام . ولا توجد اسس تاريخية لمثل هذا

* ان تشابه الصور الضوئية (الفوتوغرافية) الحديثة للضريح وما رسمه بارت عنه (Travels, Vol. 1, p. 157) ما هو إلّا واحد من الأمثلة التى لا تحصى عن الدقة الفائقة التى احتفظ بها ذلك الرحالة اللامع فى جميع مجلداته الخمسة الغنية التى دوّن فيها أسفاره فى داخل أفريقيا .

الافتراض . ولا يوجد فى الواقع أى دليل يؤيد أن الرومان كانوا يستوردون من فزان أى واحد من هذه الأشياء .

وتساعد التأكيدات التى أوردها بلينى فى هذا المجال ، فقد كتب «ان معاملاتنا الوحيدة هى المتاجرة بالاحجار الثمينة المستوردة من اثيوبيا ، والتى نسميها بالعقيق الأحمر»[20] وعلى نحو مماثل اشار سترابو Strabo قبل قرن إلى أن فزان هى البلد الذى يأتى منه العقيق الاحمر .[21] إن كلا الكاتبين قد جعلا طريق الجرمنتيين ممراً لتجارة العقيق الأحمر . وفى وجه هذين البيانين الواضحين يصعب أن نقاوم الاستنتاج أن العقيق كان اهم سلعة يتجر بها الرومان مع فزان . ولا يوجد فيما دُوّن من بعدما يوحى بانهم لم يستمروا على هذا المنوال .

كان الذهب يستخرج فى بعض الاوقات من فزان . ومن المحتمل أن الرومان قد حصلوا على بعض الذهب من هناك ، ولكن بوجود المصادر العديدة والايسر وصولاً ، المنتشرة من اسبانيا إلى الاورال ، ومن البحر الابيض المتوسط إلى بحر البلطيق ، لا يحتمل أن يكون الذهب سلعة اساسية فى تجارتهم الصحراوية .

ومن الممكن أن يستبعد ريش النعام من أن يكون ضمن المواد المهمة ، فقد كان حتى ذلك الوقت متوفراً بكميات ملحوظة فى القسم الشمالى . ويمكن ان يورد القول نفسه وللسبب نفسه بشأن الحيوانات الوحشية التى تطلب لأماكن التسلية العامة ، او تطلب لجلودها . وبالاضافة إلى ذلك فان تكلفة نقل الحيوانات الحية أو نقل جلودها عبر الصحراء كانت عاملاً يحول دون ذلك .

أما العاج فسلعة محتملة . فالفيلة كانت ما زالت كثيرة العدد فى شمال افريقيا عند ابتداء العهد المسيحى ، ولكنها انقرضت بحلول القرن الرابع . ومن الناحية الأخرى كانت آسيا والبحر الأحمر من المصادر التى اعتمد عليها الرومان زمناً طويلاً ، وكانت تمدهم بالعاج ، ويحتمل أن يكون على نطاق متزايد ، ولذلك فمن المؤكد أنه لم تحصل ندرة فيه . ومن المحتمل أن بعض

العاج كان يستحصل من فزان ، على أن تلك الكمية لو كانت كبيرة لكان من العسير أن يغفل عن ذكرها كلا الكاتبين : سترابو وبليني .

وفي ظل كلا العهدين الجمهوري والامبراطوري كان الرومان يستخدمون العمال الارقاء ، على أن مصادر الامدادات منهم في اوربا وآسيا كانت بدون حدود تقريباً . فاسرى الحروب وحدها كانت تمدهم بمصدر لا ينضب تقريباً في عهود الجمهورية . ان غارة واحدة على ابيروس Epirus جلبت لهم ما يعادل 150,000 أسير . وعند سقوط قرطاجة استرقت نسبة كبيرة من سكانها . وكان تدفق الرقيق من آسيا الصغرى خلال سنوات طويلة كثيراً ومستمراً . والى جانب ذلك كانت هناك اسواق الرقيق الواسعة في البحر الابيض المتوسط ، وبخاصة ديلوس Delos ، حيث كان في المقدور ، كما يروى سترابو ، اجراء التعامل بخصوص 10,000 رقيق في اليوم [22] . ولم يكن الرقيق من اوربا وآسيا على جانب كبير من الوفرة فحسب ، بل كانوا أكثر ملاءمة لحاجات الرومان من الافارقة ، فهم احسن تكيفاً مع المناخ واقوى اجساماً . واذا استثنينا التماثيل الصغيرة التي تصور الزنوج ، وقطعة الفسيفساء المصنوعة في القرن الأول في بمبي Pompii التي تصور رقيقاً زنجياً ضمن وليمة ، فلن توجد من ادلة تذكر عن الرقيق الاسود في العهد الامبراطوري [23] .

ولذلك فمن العسير الظن أن روما كانت تعتمد على افريقيا في حصولها على عمل الرقيق، إذ لم تكن لديها من حاجة للقيام بذلك على نطاق مهم. ونسمع عن النوميديين والفيتوليين أنهم كانوا يستخدمون لحمل المحفات والتنقل في عملهم بين الابواب والموائد . وقد كتب سنيكا Seneca «وددت لو أن كاتو Cato يشاهد واحداً من رجالنا المتأنقين مع حاشيته من الخدم الراكبين والنوميديين » [24] . على أن هؤلاء كانوا يؤخذون من الساحل الافريقي الذي كانت له اسواقه الخاصة بالرقيق ، كما هي الحال في اى قطر آخر ، ويبدو أن استخدامهم على ذلك المنوال كان قليلاً ، ولعله لم يكن أكثر من اسلوب أو نمط عابر يشبه استخدام الخدم الزنوج في انكلترا خلال القرن الثامن عشر . ولذلك فان الرقيق الاسود الذي يحتمل أن يكون قد وصل عن طريق

الجرمنتيين، لم يكن له، أن كـان له أصـلاً، سوى أثـر ضئيل فى الاقتصـاد الرومانى . والقليـل منهم الذى كـان يستخدم فى البيـوت ، كان من السهـل الحصول عليهم من الجماعات الزنجية فى الساحل الافريقى ، امـا الاراضى الصغيرة فى الواحات الصحراوية التى كانت موجودة آنذاك والتى استمرت فيما بعد ، فقد كانت تزرع بمعونة الرقيق من السودان . ولـذلك فنحن على يقين عندما نذهب آلى أن الرقيق لم يكن لهم سوى نصيب صغير جداً فى التجارة الرومانية مع فزان .

وقصارى القول لا يتراءى من سبب للشك فيما كتبه سترابو وبلينى عن تجارة العقيق الأحمر . ولا بد أنها كانت اهم مادة تنقلها القوافل المتجهة نحو الشمال . ومن المحتمل أنه قد وجدت تجارة عامة ايضاً كان فيها للعاج بعض النصيب ، واحياناً كانت تشتمل على بعض الرقيق وقدر قليل من الذهب . ولم يذكر حتى الآن طيب الزبّاد باعتباره سلعة حاول الرومان البحث عنه فى فزان . ويشير التاريخ المدون إلى أن هذا الطيب كان شائـع الاستعمال فى السـودان وفى منطقة الصحارى ، كما كان مستعملاً فى العصور الوسطى ، وكان يطلبه صانعو العطور فى اوربا ، كما يطلبونه اليوم . ومن المؤكد تقريباً أن الرومان قد عرفوا هذا الطيب عن طريق صلاتهم بتجارة البحر الأحمر ، ومن المحتمل أنه كان يدخل ضمن الامتعة العامة التى كانت تنقل من فـزان . وبالـرغم من قلة المعلومات التى لدينا عن تجارة الجـرمـنتيين فمن الـواضح أنهـا كانت ضئيلة الاهمية فى تجارة روما الخارجية الضخمة والواسعة الانتشار . ومع ذلك فإنها كانت عنصراً مهماً فى تاريخ احتلال الرومان لأفريقيا الشمالية .

لقد رأينا فى الفصل السابق أن تجارة الجرمنتيين فى العهود القرطاجية كـانت على جـانب ملحـوظ من الاهميـة بحيث أنهـا جـذبت بعض حـالات الاستيطان الوثيق نسبياً فى ساحل سرت، وأنها كانت الأصل لنشوء ودعم لبتس (لبدة)، أويا، وصبراتة. وفى العهـود الرومـانية تحـولت هذه المـراكز التجـارية الصغيرة إلى مدن جميلة . وقد يوحي ذلك أن التجارة التى كانت السبب فى نشوئها ، هى التى جعلتها كبيرة ايضاً . ولم يكن الأمر كذلك . اذ يبـدو أنها

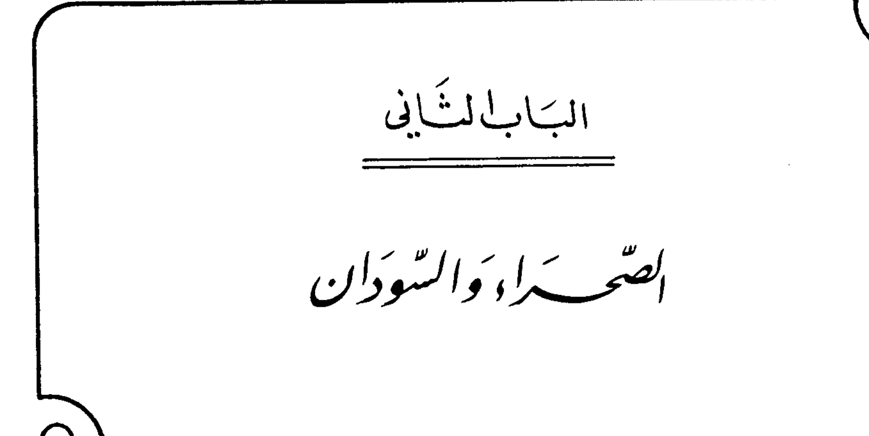
مدينة بثروتها فى ظل الاباطرة إلى الزراعة التى عملوا كثيراً على تنميتها ، وإلى صيد السمك وتجارة الصبغ الأرجوانى . وفى الابتداء كان تشجيع التنمية الزراعية مدفوعاً بعوامل سياسية أكثر من أن تكون اقتصادية ، وكان الغرض هو ربط القبائل شبه البدوية بالتربة ، وهذا يساعد كثيراً على حل المشاكل الادارية الحادة . ولكن ذلك التشجيع كان موجهاً ايضاً لسد حاجات روما نفسها . وكانت احداها الحاجة إلى زيت الزيتون . وبهذا الوجه اصبح اقليم طرابلس أحد الاقطار الرئيسة التى تنتج زيت الزيتون فى الامبراطورية الرومانية ، ويشهد على ذلك الخرائب العديدة لمعاصر الزيت المتناثرة فى طول ذلك الاقليم وعرضه حتى الوقت الحاضر . وكانت الحبوب والحاصلات الأخرى تزرع فى ظل انظمة متقنة من الرى التى اشير اليها من قبل . ووجدت ايضاً الكروم ، ولكنها كانت لسد الحاجات المحلية فقط . ومنذ العهود القرطاجية كان الريف قد تحول ، وتحول معه الاقتصاد فى اقليم امبوريا Emporia . فالسفن الشراعية الكبيرة التى كانت تبحر بين لبسز وأوستيا Ostia كانت تشحن فى الغالب بزيت الزيتون أكثر من شحنها بمنتجات الفزان والسودان .

فى جبال الهوجار Hoggar وفى قلب منطقة الصحارى المتوسطة توجد خرائب تتعلق بالعهد الرومانى وترتبط بمنطقة البحر الابيض المتوسط ، ولكن لا يبدو فيها شيء يتعلق بالرومان . فبالقرب من واحة الابالسة Abalessa تقوم الخرائب لقلعة صغيرة ، أو بيت واسع محصن ، وهو مبنى من عدة غرف قد شيد باسلوب غير معروف لدى الطوارق فى الوقت الحاضر ،ولكنه معمول به حتى الآن لدى جماعات التيبو Tebu فى تيبستى . وتشير التقاليد إلى أنه كان بيتاً لأمرأة تسمى تن حينان Tin Hinan تمتطى ظهر جمل رائع ابيض اللون ، وانها قد وصلت على نحو محفوف بالاسرار والغموض إلى الهوجار من واحة بعيدة فى تافيليلت Tafilelt الواقعة فى جنوب المغرب (مراكش) وتدعى الطبقة العليا المحلية من الطوارق أنها من سلالتها . وقد كشفت الحفريات الأثرية قبراً وجدت فيه عظام أمرأة لا تشبه المغاربة ، بل تشبه النموذج المصرى ، وتذكر على نحو قوى بصور الطبقة الحاكمة المرسومة على الآثار الفرعونية .

ووجد على ساعدى الهيكل العظمى اساور من الفضة والذهب ، وعلى الصدر قلادة من الذهب وحبات منوعة بعضها من العقيق الابيض . ووجد فى القبر ايضاً كميات من الخرز المختلفة الأخرى ، وتعويذة تجلب الخصب ، وخصلة من الاعشاب ، وسلال للتمور والحبوب ، وأوعية للحليب ، ومسكوكة من عهد قسطنطين ، واشياء أخرى كثيرة ، وكلها معروضة الآن فى متحف باردو Bardo فى الجزائر . أن المسكوكة وكذلك الزجاج رومانى ، وكلاهما يشيران إلى تاريخ القرن الرابع . ان قصة تن حينان ـ من أين جاءت ، ولماذا اختارت ذلك المكان البعيد للسكن فيه ، وكيف وصلت اليه ـ تمثل واحدة من اشد القضايا الصحراوية اثارة للحيرة ، وقد تضاعفت اثارتها بما كشفته الحفريات التى أيدت تأييداً بارعاً ما يدور حولها من الأساطير [25] .

وعندما ننظر إلى الوراء من خلال القرون ونركز على العهد الروماني نجد بجلاء حدثاً بارزاً يفوق فى اهميته جميع الاحداث الأخرى ، ومع ذلك فهو حدث يحتمل أن الرومان لهم فيه نصيب . ذلك هو ادخال الجمل ، الذى كان له من الآثار البعيدة المدى بحيث أصبح مؤشراً لبزوغ عهد جديد للنصف الشمالى من القارة . فقد وسع مجال النشاط الانسانى ، وأثر فى الحياة الاقتصادية التى تمس المجتمع برمته . فقد منح الجمل الانسان حرية فى الحركة لم يكن يعرفها من قبل ، وجعل أبعد المراعى فى متناول يده . وتخلصت طرق القوافل من نصف اهوالها ، وفتحت قنوات جديدة لتدفق التجارة والثقافات . .

ومع كل هذه التغييرات جاء رجل جديد إلى افريقيا ، ان البدوى صاحب الجمل ، المتمرد ، النهاب ، المراوغ ، المنيع الذى لا يقدر عليه . وهكذا واجهت الحضارة تهديداً لم تتخلص منه تماماً أبداً منذ ذلك الوقت ، وهو تهديد لم تكن الفيالق الرومانية قد عرفته أبداً .



الباب الثاني

الصحراء والسودان

الفصل الرابع
الطوارق والشعوب الصحراوية الأخرى

«ان هذا الجزء من العالم مأهول على وجه الخصوص بالافارقة أو المغاربة (Moores) بعبارة أدق، والأخيرون من صنفين، هما المغاربة البيض أو السمر، والمغاربة الزنوج أو السود».

جون بورى John Pory

فى القرن السابع الميلادى ، وقبل أن يغزو العرب شمال افريقيا ، كانت الصحارى يقطنها صنفان متميزان من الناس ، صنف ذو بشرة داكنة أو زنجية وصنف ذو بشرة فاتحة اللون .

وتشير الأدلة الأثرية إلى «أن جماعات زنجية من العصر الحجرى الحديث قد اخذت بالانتشار من السودان قبل حوالى خمسة آلاف سنة وهى تتجه نحو الشمال على طول الصحارى التى كانت آنذاك خصبة نسبياً» (1). ويشير المؤلفون القدامى منذ زمن هيرودوتس إلى «الاثيوبيين» - وهى كلمة يونانية تعنى حرفياً الناس «ذوى الوجوه المحروقة» - وانهم يسكنون جميع الاراضى الواقعة جنوب ليبيا أو جنوب افريقيا الشمالية . وما زالت بعض الجماعات من ذوى البشرة الداكنة تتواجد حتى الآن بين سكان الصحارى الحاليين .

«ومعظم المراكز الزراعية فى النصف الجنوبى من الصحراء ما زالت مأهولة باناس غالبيتهم من الاقوام الزنجية تعرف باسم الجوجان Chouchan والفزانيين أو الدواديين Dauda فى القسم الشرقى والوسط من الصحراء ، وفى

الغرب يعرفون باسم الهـاراتينيين Haratin » [2] . وفى مجتمع الـواحة يشغـل الهاراتينيون مركزاً متـواضعاً ، «فهم يعملون فى مقـابل حصـة من الناتـج فى مزارع الملاك الذين هم دائماً تقريباً من البيض ، ويغلب أن يكونوا من البدو المولعين بالقتال» ، ولكنهم يعتبرون صنفاً يختلف عن العبيد أو الرقيق . وكان يظن غالباً أن الهاراتينيين يتحدرون من سلالـة الرقيق الـزنوج الـذين جاء بهم سادتهم البربر إلى الواحات ، وأنه من المحتمل أن يوجـد ارقاء زنجيـون بين اسـلافهم . على أن الهاراتينيين ليسـوا من أصـل رقيقى فقط : فبـالـرغم من حيازتهم على بعض الملامح الزنجية فى بشرتهم الـداكنة وشعـرهم المفتل ، فان شكل أنفهم ووجههم لا يشبه غالباً تماماً ما يميز زنوج السـودان ، كما أن «فصيلة دمهم تختلف تمـامـاً عن أى فصيلة اخـرى لاقـوام الصحـارى ، أو السـودان ، ولكنهـا تشبـه فصيلة الأقـزام فى الغـابـات المـطريـة فى غـربى الكونغو » [3] .

ويمكن أن يـورد على نحو غيـر نهائى أن "الهـاراتينيين يجمعـون ضمن اسـلافهم اناسـاً من الأصول الـزنجية التى سكنت الصحـارى خـلال العصـر الحجرى الحديث [4] .

والقـوم الآخر من ذوى البشـرة الداكنـة هم التيبو Tibu الـذين يسكنون الجزء الرئيسى من جبال تيبستى ، وقسماً كبيـراً من البلاد فى جنـوبها . ومن حيث لون البشرة يعد التيبيون «على العموم ذوى بشرة داكنـة جداً من جميـع الوجوه» وتختلف فصيلة دمهم اختلافاً ملحـوظاً عن الهـاراتينيين ، وعن زنوج السودان ، ولكنها تشبـه كثيراً فصيلة البـربر حتى قيـل إن التيبو يـرجعون إلى أصول من البربر [5] . على أنه من الناحية الاخـرى تتعلق لغتهم بعائلة لغـوية تختلف كل الاختلاف عن لغة البربر . واذا سلمنا بهذه التناقضات فان التيبـو يمثلون أكثر أقوام الصحراء ابهاماً .

وكان السكان ذوو البشرة المفتوحة اللون الساكنون فى افريقيا الشماليـة يعرفون لدى اليونان باسم الليبيين . واشار الرومان اليهم من بعد باسم البرابرة

Barbari ، واقتبس العرب هذا الاصطلاح ، واستعملته من بعد اوربا ، ويتبين من هـذا أن كلمةُ البـربر ، اطلقت على السكـان المحليين فى اقليم باربـرى Barbary .

ان الجماعات المتحدرة من أصل بربرى لم يقتصر تواجدها على افريقيا الشمالية فقط ـ تونس الحالية ، والجزائر ، والمغرب ـ بل وجدت كـذلك فى القسم الغربى والوسط من منطقة الصحراء . ويميز اليوم فى مجموعة الساكنين فى الصحراء من ذوى البشرة الفاتحة اللون بين النـاطقين بالعـربية والنـاطقين باللغة البربرية . وبعض الذين يتحدثون العربية كجمـاعة شـامبا Chaamba ، مثلاً ، فهى قبيلة من البدو تسكن القسم الشمالى من الصحراء ، تحدرت من سلالة عربية دخلت شمال افريقيـا من الشرق خـلال القرون التى تلت الفتـح العربى . اما الجماعات الأخرى الناطقة بالعربية فهى قبائل متحدرة من أصول بربرية تأثرت على نحو بالغ بالنفوذ العربى . والعديد من القبائـل التى تسكن الصحراء الغربية والتى يطلق على مجموعها اسم المغـاربة Moors تنتمى إلى هذا الصنف .

وتوجد بين الذين يتحدثون اللغة البربرية فى منطقة الصحراء جمـاعات مختلفة ، منها سكان غدامس ، ومزاب Mzab ، ومنها نقطة نائية ومنعزلة تتكلم البـربريـة ، يطلق عليهـا اسم عيدا بـل حسن Ida bel Hassen تسكن جنـوب موريتانيا . على أن الجماعـة البربـرية الغـالبة تتـألف من الطوارق Tuareg . ويتواجد الطوارق فى الوقت الحاضر ضمن عـدد من الاتحادات القبليـة التى تمتد اراضيها من غدامس وعين صلاح In salah فى شمال الصحراء إلى النيجر وجنوبها ، وتغطى منطقتها جبال الحجار Ahaggar وأير Air ، وادرارAdrar فى ايفوراس Iforas . وهذه الاتحـادات أو التحالفـات «تقسم سياسيـاً إلى قبائـل تتفـرع إلى افخاذ ، وتقسم هـذه إلى بطون . ومن النـاحية الاجتمـاعية يقسم السكـان البدو إلى ثـلاث طبقات رئيسـة ، الطوارق «الاشـراف» و «الاتبـاع» والرقيق الزنوج» (6) . وتسمى لغتهم التماهق Tamaheq وهى لهجـة من اللغة البربرية ، والحروف التى يكتبون بها هى التيفناغ Tifinagh المقتبسة جزئياً من

الألفباء الليبية القديمة . ومن ابرز ما يميز الطوارق هو عادة رجالهم الغريبة فى ستر الوجه وترك العيون فقط مكشوفة . وقيل الكثير فى تفسير الاصل لهذا اللثام . وقد ذهب هنريخ بارت ، مثلاً ، إلى الظن أن تصميمه ربما جاء مقلداً شكل خوذة فرسان القرون الوسطى ، على أنه لم يقدم حتى الآن أى تفسير مقنع بشأنه . ومن المحتمل أن اللثام قد ادخل استعماله بين عام 600 و 1000 بعد الميلاد . ولم يورد المؤلفون القدامى والبيزنطيون شيئاً عن اللثام فى كتاباتهم عن القبائل الليبية ، ولكن البكرى كتب فى القرن الحادى عشر مبيناً أن جميع قبائل الصحراء ترتدى اللثام (7) .

ويورد الكتاب القدامى قدراً حسناً من المعلومات عن القبائل القاطنة فى المنطقة الوسطى من الصحراء . فقد اشار بطليموس Ptolemy الجغرافى الاسكندرانى ، وهو من كتاب القرن الثانى للميلاد ، إلى الجرمنتيين ، والناتامبيين Natambes ، والماكورينيين Makkorenes ، والفاروسيين Pharrusii . وقد اعتبر الناتامبيون مطابقين للعنتابيين والماكورينيون للعماقوريين ، والفاروسيون للايفوراسيين ، وهذه الاسماء الحديثة ما زالت تطلق على بعض القبائل أو الفروع القبلية بين الطوارق . وتوحى الادلة من هذا القبيل «أن سكان الصحراء الوسطى لم يصبهم تغيير يذكر خلال ألـ 1800 سنة الأخيرة»(8) .

وكان الكتاب القدامى أقل أخباراً عن الاقوام فى القسم الغربى من الصحراء . واذا اريد الحصول على بعض المعلومات عن السكان فى هذا الجزء من الصحراء قبل وصول القبائل العربية وجب الرجوع إلى ما كتبه الجغرافيون والمؤرخون العرب فى العصور الوسطى . والمرجع الاساسى لتاريخ البربر هو المؤرخ الكبير ابن خلدون فى القرن الرابع عشر . وتبعاً لما اورده إبن خلدون كان الذين يتكلمون اللغة البربرية من سكان شمال افريقيا يقسمون إلى طائفتين ، البطر Botr والبرانس Branes . وكان الزناتيون اهم فرع للبطر ، وهم من البدو الذين هاجروا من الشرق خلال الحقب التاريخية ، وسكنوا الحزام الشمالى من الصحراء . وقد كتب ابن خلدون عنهم أنهم

ينقلون مساكنهم من مكان إلى آخر ، وانهم ينفقون الصيف فى التل ، والشتاء فى الصحراء ، وكانوا يستخدمون القوة تجاه من يعيش فى المناطق المزروعة ، كما انهم كانوا يقاومون سلطة الحكومات العادلة والنظامية [9] .

وكان البرانس يتألفون من فرعين رئيسين ، المصمودة والصنهاجة . وكانت مصمودة فى الغالب جماعة مستقرة سكنت الاجزاء الجبلية من المغرب . وكانت صنهاجة تتألف من جماعة مقيمة وأخرى من البدو : وقد سكن المقيمون من صنهاجة منطقة القبيل فى شرقى الجزائر . اما صنهاجة البدوية فكانت تتواجد فى الصحراء الغربية . وكانت صنهاجة البدوية تضم عدداً من القبائل ، من بينها قبيلة لمتا وقبيلة لمتونة . ويبدو فى الوقت نفسه أن الكثير من قبائل الطوارق قد ارتبطوا بجماعة الصنهاجة . والظاهر أن كتاب العرب انفسهم فى العصور الوسطى كانوا على ارتباك بشأن العلاقة الدقيقة بين الصنهاجة فى الصحراء الغربية وبين الطوارق الذين سكنوا القسم الاوسط من الصحراء . فيلاحظ أن واحداً من اقدم المراجع ، وهو ابن حوقل ، من كتاب القرن العاشر للميلاد ، قد أشار إلى بنى تناماك (كيل تاماحق ، الذين يتحدثون بلغة التماحق ، وهي لغة الطوارق) فذكر أنهم يحكمون تادمكة Tadmekka ، وهى بلدة فى شمال جاو Gao ، وعدد اسماء العديد من قبائلهم ، وبعض هذه الاسماء تطابق اسماء القبائل التى ما زالت تعيش فى المنطقة نفسها . ويضيف قائلاً إن بعض الناس يذكرون أن بنى تناماك قد جاءوا في الاصل من السودان ، وانهم من ابناء حام Ham من ناحية امهاتهم ، وهذا البيان يمكن أن يفسر بأنه اشارة إلى ممارسة التزاوج بين الطوارق ونساء المجتمعات ذات البشرة الداكنة التى تعيش فى منطقتهم . ومن الناحية الأخرى ، وتبعاً لما يورده أبن حوقل ، تذهب المراجع الأخرى إلى أن بنى تناماك يرتبطون على نحو واضح بصنهاجة[10] .

وفى تاريخ الصحراء خلال العصور الوسطى ، لعبت صنهاجة فى الصحراء الغربية دوراً أكبر شأناً من الطوارق ، فقد قدر لهم أن يؤسسوا اسرة المرابطين القوية Almoravid . وكانت المنازعات بين صنهاجة والزناتيين فى

شمالى الصحراء تمثل احدى المسائل المهمة خلال هذه الحقبة التـاريخية . على أنه فى مستهل القرن الحادى عشر اخذت القبائل العربية البدوية بالتحرك نحو شمال الصحراء ، ثم انتشروا بعـد ذلك فى الصحـراء الغربيـة ، واضطر الزناتيون البربر إلى التحرك نحو الشمال ، او الاندماج كلياً بالعرب . والعديد من قبائل الصنهاجة قد تقلص دورها وتحولت إلى وضع التابع الثانوى . فاخذوا لغة الغزاة ، وتركوا اللثام ، ولكنهم احتفظوا بالعديد من عادات البربر * (11) . ومن الناحية الأخرى استطاع الطوارق الذين كانوا محتمين بالجبال فى آر Air والاحجـار Ahaggar ، ويعيشون بعيـداً عن الـطرق التجـاريـة الـرئيسـة ، أن يحتفظوا بلغتهم وعاداتهم ، ومن المحتمل انهم امتصوا بعض القبائل العربية(12) .

والطوارق فى الوقت الحاضر مسلمون ، ولكنهم يحتفظون بالعديـد من العقـائد المـرتبطة بـدين سـابق . وكـان العـرب يسمـونهم احيـانـاً بمسيحى الصحراء ، وتوجد بعض الدلائل التى توحى باحتمال تـأثرهم بـالمسيحية فى بعض الفترات من تاريخهم . وتشتمل لغتهم على عدد من الكلمات التى قد يكون لها أصل مسيحى . فكلمة ميـزى Mesi تعنى الله God وكلمة انجيلوس Andjelous تعنى الملك Angel . وهـاتان الكلمتـان مثلان بـارزان . كمـا أن اسماء السموأل Samuel وداود David وشاءول Saul وهى لا تستعمل الا نـادراً من قبل العرب فى افريقيا ، نجدها شائعة بين الطوارق . على أنه من الناحية الأخرى ليس فى انتشار شكـل الصليب المتكرر فى الكثيـر من المصنوعـات اليدوية أية دلالة مسيحية خاصة ، لأن هذا الشكل نفسه موجود فى جميع انحاء العالم الاسلامى . ولا ريب أنه قد وجدت جماعات مسيحية عديدة فى شمال افريقيا حتى زمن الفتح العربى . وفى القرن السادس تحول الجرمنتيون فى فزان إلى المسيحية ، على أن تحولهم هذا يبدو أنه كان عملاً سياسياً بحتاً ،

---

* وكانت هذه القبائل التابعة تعرف باسم الزناجـة ، وهو تحـريف لأسم الصنهاجة . وفى القرن الخامس عشر ، أطلق البرتغاليون اسم هذه القبائل على النهر الذى كانت تعيش على ضفافه ، وبهذا الوجه صار يعرف لدى الأوربيين باسم السنغال .

ولم يكن له شأن باق . ومن المعقول الافتراض أن بعض قبائل الطوارق كان لها شيء من الاتصال بالجماعات المسيحية قبل الفتح العربى ، ولكن لا يوجد من سبب يحمل على الاعتقاد أنهم اعتنقوا المسيحية فى أى وقت من الاوقات [13] .

وتوجد جماعتان أخريان أصغر حجماً هما الزغاوة Zaghawa واليهود ، وكان لهما بعض الشأن فى العهود الأولى من تاريخ الصحراء والسودان ، وان كان الكثير مما ورد عن مساهمتهما يتسم بالغموض . والزغاوة فى الوقت الحاضر تؤلف قبيلة بدوية تعيش على حدود الشاد والسودان فى شمالى درفور Darfur . ويوصفون بانهم «فى الغالب خليط» من التيبو والزنوج «بالاضافة إلى الصلات مع الليبيين والبربر» . ولغتهم متفرعة من لغة التيبو [14] . وتبعاً لما اورده اليعقوبى ، وهو من كتاب القرن التاسع الميلادى ، «كانت أولى ممالك السودانيين [أى الزنوج] هى مملكة الزغاوة فى كانم Kanem [15] . وأيد ياقوت ، الذى كتب بعد اربع مئة سنة ، أن الزغاوة قوم من السودان [16] . ولكن ابن خلدون صنف الزغاوة ضمن «الاقوام ذات اللثام» اى البربر الساكنين فى الصحراء [17] . وقد يمكن التوفيق بين هذه الروايات بافتراضنا أن الزغاوة يرجعون فى اصلهم إلى التيبو والزنوج وانهم قد خضعوا بعض الوقت لطبقة من الطوارق البربر .

وفى الوقت الحاضر يضم المغرب جماعات من اليهود يبلغ تعدادها نصف مليون ، ومن الواضح أن السكان من اليهود قد استقروا فى شمال افريقيا منذ قرون عديدة . ومن المحتمل أن بعض اليهود قد رافقوا الجماعات الفينيقية الأولى عند مستهل الألف الأول قبل الميلاد ، غير أن «الموجة الحقيقية الأولى من مهاجرى اليهود إلى شمال افريقيا يحتمل أنها وصلت فى اواخر القرن السادس قبل المسيح ، إلى سيرينايكا (برقة) Cyreniaca حيث «يحتمل أنها لم تلبث حتى وجدت نفسها قد انغمرت عرضياً انغماراً كاملاً فى بحر من البربر المحليين الذين اعتنقوا اليهودية [18] . وفى سنة 115 ميلادية نشبت ثورة يهودية كبيرة ضد الحكم الرومانى فى سيرينايكا . وبعد أن أخمدت الثورة هرب

الكثير من اليهود نحو الغرب، ومن المحتمل أن بعضهم بقى فى الواحات شمالى الصحراء وقد اشير إلى وجودهم هناك فيما دوّن خلال العصور الوسطى. ويشير فريق من العلماء إلى أنه بعد تورة سيرينايكا ، قد عبرت موجة كبيرة من اليهود المهاجرين الصحراء واستقرت فى افريقيا الغربية حيث انشأوا فيها مملكة غانا التى قيل عن ملوكها الأوائل أنهم كانوا من البيض ، وانهم كانوا السلف لجماعة الفولانيين Fulani فى الوقت الحاضر [19] . ولا توجد ادلة موثوقة كافية لقبول هذه النظرية بحذافيرها ، على أنه لا يتنافى مع المنطق الافتراض أن عدداً محدوداً من اليهود قد توجهوا عبر الصحراء فى العصور الوسطى * [20] .

* فى أدبيات ذلك العصر توجد اشارة واحدة فقط الى تواجد اليهود فى جنوب الصحراء . وقد ورد ذلك فى مؤلف فالنتين فرناندز المكتوب فى ابتداء القرن السادس عشر . ويذكر فرناندز ان اليهود كانوا يعيشون فى والاتا Walata وأنهم كانوا « على ثراء واسع ولكنهم مضطهدون الى حد كبير ، وأن بعضهم تجار متجولون ، وآخرون يمتهنون صياغة الذهب أو الحلى» .

الفصل الخامس

الشعوب السودانية

ان الشريط الواسع من الارض التى تقع بين الصحراء وبين الغابات الاستوائية ـ وهى منطقة اعتاد المؤرخون أن يشيروا اليها باسم السودان الغربية ـ يوفر الموطن لعدد واسع من الاقوام المختلفة . ففى وادى السنغال ، وفى البلاد بين السنغال وغامبيا تتألف غالبية السكان من الولوف Wolof والتكلور Tucolor . وبين السنغال والنيجر ، وفى وادى النيجر الأعلى وروافده تعيش مجموعة من الاقوام ـ اهمها السونيك ، المادنجو ، البمبارا ، والديولا ـ لها سمات اساسية عديدة مشتركة ، منها اللغة والتنظيم الاجتماعى ، ولكنها تأثرت بظروف بيئية وتجارب تاريخية مختلفة ، ولذلك فقد تطورت وفق خطوط متغايرة، ففى منطقة النيجر الوسطى نجد غالبية الناس من جماعة السونجاى الذين تنتمى اليهم جماعات الزيرما والدندى . وفى داخل منعطف النيجر ، وفى حوض فولتا العليا يعيش خليط من اقوام شتى بينها الموسيون ، واللوبيون ، والسنوفيون ، وهم يتكلمون لغات متقاربة . وانتقل إلى هذه المنطقة ايضاً قوم يرجع اصلهم إلى مادنجو . وعلى طول النيجر ، أى على ما يسمى الآن بالزاوية الشمالية الغربية لنيجريا يعيش الهوسا. وبين بلاد الهوسا وبحيرة شاد تنتمى غالبية الناس إلى جماعة الكانورى . وفى جنوب الهوسا والكانورى يعيش خليط واسع من القبائل الصغيرة . واخيراً هناك جماعة واحدة ، هى الجماعة الفولانية (أو الفولا) التى تتواجد فى معظم المناطق بين السنغال وبحيرة شاد . وفى منطقة الغابات التى تشغل من افريقيا الغربية جزءاً أصغر كثيراً مما تشغله السهول المسماة السافانا Savannah تعيش مجموعة من

الاقوام اهمهـا الأكان فى جنوب غانا (ويدخل ضمنهم الاسانتيون والفانتيون) واليـوربا فى غرب نيجريا ، والايبو Ibo فى شرق نيجيريا .

ولا تتوفر وثائق مكتوبة من اى صنف يمكن أن تلقى الضوء على تاريخ افريقيا الغربية قبل سنة 900 للميلاد ، والاشياء المدونة السابقة ـ كالموجودة ، على سبيل المثال ، فى كتابات الجغرافيين العرب ـ لا تتناول الا الاقوام التى كانت تعيش فى أقصى القسم الشمالى من السودان . على أن المؤرخ ، حتى إن حرم من الاشياء المدونة ، فلديه مصادر أخرى يعتمد عليهـا : كالبحـوث اللغوية ، وعلم الآثار ، وعلم الاعراق البشرية (الاتنولوجيا) والتقاليد المتنقلة شفوياً من جيل الى جيل .

ان الخارطة التى تبين الاقوام الرئيسة فى غرب افريقيا لتثير الارباك البالغ عند النظرة الأولى . ومع ذلك فان البحوث اللغوية قد يسرت توضيح الصورة باستخدام عدد من التفريعات والتقسيمات العريضة . وعلى هذا الاساس نجد ان معظم الاقوام فى افريقية الغربية تتحدث لغات عرفت بانها من عائلة واحدة اطلق عليها بعض العلماء اسم النيجـرية الكـونغوليـة Congo ـ Niger . وهذا يشير إلى أن العديد من اقوام افريقية الغربية ، سواء أكانت تعيش فى السهول العشبية (السافانا) ام فى الغابات ، قد تتحدر من أصل مشترك . ومن الناحية الأخرى نجد الفروق بين اللغات فى المجموعة العائلية العريضة الواحدة على جانب كبير من السعة . فاذا كانت اللغات كلها قد اشتقت من اصل مشترك ، فلا بد أنه قد مضت مئات ، وربما الوف من السنين حتى ظهرت تلك الفروق وتـطورت . فـاللغتـان اليـورويبـة Yoruba والايـدوميـة Idoma ، على سبيـل المثال ، بينهما ارتباط وتقارب وثيق ، ولكن البحوث اللغوية تشير إلى أنهمـا كانتا تنموان على نحو منعزل خلال ستة الاف سنة [2] . فاليوربية والايدوميـة كلتاهما من لغـات الكوائيـة Kwa ، والكوائيـة هى احد الاقسـام الرئيسـة من العائلة النيجرية ـ الكونغولية . واذا كان لا بد من مضى مدة طويلة لمجمـوعة اللغـات ضمن قسم واحـد حتى تنفصـل الـواحـدة عن الأخـرى ، فـان هـذا يستوجب الافتراض بمرور مدة اطول على الانفصال بين الاقسام المختلفة التى

تتـألف منها العـائلة النيجريـة ـ الكـونغـوليـة مثـل الكـوائيـة ، والمـانـديـة ، والفولتائية ، وغيرها .

وتتحدث بعض الشعوب فى افريقيا الغربية بلغات لا ترتبط اطلاقاً بلغات العائلة النيجرية ـ الكونغولية. فلغة الهاوسا، وكذلك لغات العديد من القبائل الصغيـرة فى شمال نيجيـريا تمثـل فروعـاً ثانـوية لعـائلة اللغات الأفـريقيـة ـ الآسيـوية ، أو عـائلة الحاميـة ـ الساميـة ، وهى عائلة تشمـل ايضاً البـربريـة والعربية . ولغة الكانـورى Kanuri مرتبـطة ارتباطـاً وثيقاً بلغـة التيبو ، وتؤلف اللغتان معاً جزءاً من عائلة لغوية منفصلة تسمى بعائلة النيل الصحراوية . اما مـركـز لغــة السـونجـاى فغـامض . ومن المؤكـد انهــا ليست من عــائلة النيجر ـ الكونغو ، ولكنها قد تكون مرتبطة بلغات النيل الصحراوية . ويمكن الـزعم على نحـو أولى أن بعض العنـاصـر من شعب الكـانـورى ومن شعب السونجاى قد سكنت فى بعض الاوقات فى مكان أبعد فى الشمال ، وسكنت بعض العناصر منها بين الهاوسا فى مكان أبعد من جهة الشرق .

وتشير البحوث اللغوية ، فى المرحلة الحاضـرة على الأقل ، إلى نمط واسـع ولكنه غـامض بعض الشيء . وفى وسع علم الآثـار القديمـة أن يلقى احياناً شعاعاً ثاقباً من الضوء على منطقة صغيرة . وهذا ما حصل فعلاً بشـأن ثقافة النوك Nokالبارزة فى شمال نيجريا . ففى خلال عقـد الثلاثين 1930 وعقد الاربعين 1940 أدت عمليات التعدين فى مناجم القصدير على حافة الهضبة النيجرية إلى اكتشاف عدد من التماثيل الصغيرة المصنوعة من الـطين المشوىّ ، وقد وجـدَ أقدمهـا فى قريـة تعود إلى النـوك فى الجنوب من اقليم زاريا . وتبين من البحوث التالية أن الشعب الذى صنع تلك التماثيل الصغيرة كان يمارس الزراعة من حيث الاساس ، وأنه كان يستخدم الأدوات الحديدية والحجرية . واظهر التحليل بالاشعاع والكاربون أن بعض هذه التماثيـل يعود تاريخها إلى عام 900 قبل الميلاد . وتماثيل اخرى قدر تاريخها حوالى 900 بعد الميلاد . وعثر على مصنوعات يدوية تنتمى إلى نفس الثقافة فى منطقة واسعة تمتد على طول وديان البينو والنيجر . ومن المحتمل أن الذين صنعوا التماثيل

الصغيرة التى تعود إلى حضارة النوك كانوا فى الواقع الاسلاف المباشرين للشعب الحاضر الذى يسكن المنطقة : فقد لوحظ أن اسلوب الشعر المرتب لأحد الرؤوس يشبه الاسلوب الذى تتبعه احدى القبائل المحلية . ويبدو أنه من المحتمل ايضاً أن توجد بعض الصلات بين ثقافة النوك والثقافة التى تطورت فى عيفة وبنين ، لأن رؤوس النوك تشبه فى اسلوبها رؤوس العيفة شبهاً كبيراً ، واقدم هذه الرؤوس يعود تاريخها إلى القرن الحادى عشر[3] .

وتوجد مواقع عديدة اخرى تثير اهتمام العالم الآثارى المختص بافريقيا الغربية : ففى جنوب بحيرة شاد مثلاً توجد التلال التى كان يشغلها شعب سو So الاسطورى الذى سبق السكان الكانوريين . وقد عثر بالحفر الاستكشافى على قدور فخارية ضخمة يحتمل أنها كانت تستعمل فى الاصل لخزن الحبوب او الماء ، كما انها استخدمت للدفن . كما عثر ايضاً على مجموعة جذابة من المواد المصنوعة من الطين المشوى بالاضافة إلى عدد آخر مصنوع من البرنز ، لعل اقدمها يرجع إلى القرن الحادى عشر [4] . وفى منطقة السنغال وغامبيا يوجد عدد من المواقع المغليتية Megalith بشكل حلقات ودوائر حجرية . وعثر على مواقع مغليتية اخرى فى الجهة الشرقية ضمن حدود مالى الحالية . ولم تشرح حتى الآن بصورة مرضية عمر هذه الاحجار ، ولا الغرض منها أو أصولها . [5] والمواقع من هذا القبيل تثير كثيراً من الدهشة والحيرة . فهى ترغم المؤرخ على الاعتراف بمدى جهله ، كما انها تثير فى الوقت نفسه العديد من الأسئلة فى ذهنه - كيف تطورت هذه الحضارة ، وما هى علاقتها بالحضارة المعروفة فى شمال افريقيا أو فى وادى النيل ، وبالحضارات الأخرى فى افريقيا الغربية ؟ * ويبدو أن لا مناص من مرور عدة سنوات من البحث

---

* إن ادخال أعمال الحديد يؤلف أحد الموضوعات التى تربط تاريخ أفريقيا الغربية بتاريخ المناطق الأخرى . وفن صهر الحديد قد اكتشف فى آسيا الصغرى فى الألف الثانى قبل الميلاد . ثم انتشر الى مصر ، ومن مصر الى مملكة ميرو Meroe فى الجنوب . وقد عرفت ميرو خلال الفترة من 300 قبل الميلاد الى 300 بعد الميلاد أنها مركز مهم لصناعة الحديد . وكان شعب النوك يعرف طريقة إذابة الحديد ، ويحتمل أنهم عرفوا ذلك من الميرو . كما يحتمل أنهم توصلوا الى تلك =

الدءوب حتى يستطيع علماء الآثار أن يبدأوا بـذكر بعض الاجوبة المحددة . ومع ذلك ففى وسع المرء أن يشاهد من المواقع التى سلطت عليهـا الاضواء مدى التنوع والجاذبية التى يمكن أن يتكشف عنها تاريـخ افريقيـا الغربيـة فى ازمنته الأولى .

والظاهر أن الـوحدة الاجتمـاعية والسيـاسية فى المـاضى بين الشعوب الزنجية فى افريقيا الغربية ، كانت تتألف من مجموعة محلية صغيرة ترتبط فيما بينها بصلات القرابة . واذا مـا تجمع عـدد من هذه المجمـوعات فقـد كانـوا يؤلفون عشيرة . وكان رؤساء العشائر المحلية يختصون غالباً بـالاشراف على بعض الشعـائر الـدينية المتصلة بـالارض . وفى بعض الاقسـام من افـريقيـا الغربية ، فى المناطق المنعزلة من الغابات ، او المستنقعات او الجبال كانت هذه الجماعات الصغيرة تحتفظ باستقلالها تجاه الخارجيين حتى مجىء الحكم الاوربى فى اوائـل القرن العشـرين . ونشـأت فى امـاكن اخـرى دول كثيـرة العدد ، وفى بعض الحالات كان نشؤوها فى تاريخ متقدم .

وتقدم الينا التقاليد والاعراف الشفوية الدليل الوحيد عن التاريخ الأولى لدول افريقيا الغربية . ويبين المؤرخ السعدى من اهالى تمبكتو أن مملكة غانا القديمة قد وجدت قبـل الهجرة (قبـل 622 للميلاد) ، وأنـه قد حكمهـا اثنان وعشرون ملكاً قبل ذلك التاريخ ، واثنان وعشرون ملكاً بعد ذلـك التاريـخ ، وكلهم كانوا من الجنس الابيض ، ومع ذلك فان اصلهم لا يعرف على وجـه اليقين [6] . واول ملك على الســونجاى ، بحسب المصـدر نفســه ، كــان ذا الايمـان ، وهو اجنبى قـدم من اليمن [7] . اما الـذين اسسوا دول مـوسى ـ داغمبـا Mossi ـ Dagomba فيعتبرون من ذوى البشـرة الحمـراء ، يتميـزون بانهم فرسـان ، وتقع بـلادهم الأصلية «على الـطريق المؤدية إلى مكـة» [8] .

= المعرفة من الشمـال عن طريق الحـدادين الذين كـانت لهم صلات بـأهالى قـرطاجـة . (للدراسـة الموضوع الخاص بادخال الصناعة المعدنية الى أفريقيا الغربية ، يراجع مونى Mauny « بحث عن تاريخ المعادن فى أفريقيا الغربية » ، Bulletin de LèI.F.A.N., Dakar, 1952, 545- 595) .

وتشير اسطورة الهاوسا إلى أن شخصاً اسمه باياجدة قد جاء فى الأصل من بغداد إلى كانم ثم مرّ بالدورة حيث قتل هناك افعى ضخمة وتزوج الملكة . وقدّر لذريته أن يؤسسوا ستاً من دول الهاوسا (9) . وسيف هو الأسم الأول فى قائمة الأسرة التى حكمت كانم - بورنو ، ويقال انها عاشت فى «اليمن» (شبه الجزيرة العربية) (10) .

ومعظم الأوائل من العلماء الاوربيين الذين حاولوا أن يدرسوا تاريخ افريقيا الغربية والذين بنوا نظرياتهم على هذه الاساطير ذهبوا إلى أن دول السودان كانت من صنع الغزاة المهاجرين «البيض» . وقد اكدّ العالم الفرنسى أورفوى UFvoy : أن بذور صنف أعلى من الحضارة قد نشرت على طول السودان بين الجماعات الفلاحية السوداء التى كانت تؤلف كتلة كبيرة قليلة الفاعلية ، وان الذين نشروها هم جماعة من الجنس الابيض ، وكانت هذه الجماعات قليلة العدد لأنه كان يتوجب عليها ان تعبر الصحراء ، وكانت مولعة بالحرب ، سريعة التحرك والتنقل ، وانها قد جلبت معها ، بالرغم مما يتصف به البدو من ميول فوضوية وراثية ، معانى السيطرة والامبراطورية ، وصورة تعكس الأفكار السياسية فى منطقة البحر المتوسط والشرق الادنى ، وكان لدى هذه الجماعات ايضاً قدر من الغرور العنصرى (11) .

وهذه النظريات تبدو ، بالقياس إلى العلماء فى الوقت الحاضر ، ساذجة إلى حد كبير ، ومشوبة ايضاً ، وإن كان بدون قصد ، بقدر من التحيز العنصرى . وتذهب الآراء والبحوث الحديثة إلى أن ظهور الدول فى افريقيا الغربية يتسم فى آن واحد بقدر كبير من التعقيد والغموض . ويرى سمث M.G Smith فى دراسته عن تقاليد الهاوسا واصولها «وجود مؤشرات إلى فترة مشوشة بالهجرة ، والكفاح ، والتغير الحضارى ، والمحتمل أن عنف هذه الظواهر ومدتها كانا يتغيران مع تغير الزمان والمكان وبحسب الفروق فى تركيب السكان» (12) وما زال مقبولاً حتى الآن أن بعض دول السودان قد يعود نشؤوها فى الأصل إلى الغزاة المهاجرين ، وان بعض هؤلاء يمكن أن يكون أصلهم

من «البيض» وربما كانـوا من البربـر . على ان هذا التعميم لا يتم إلا بـايراد تعديلين .

فاولاً «ينبغى التأكيد» كما أشار إلى ذلك مونى وفانسينا «أن الفاتحين لا يرتبطون بحكم الضرورة بما يسمى بحضارة «ارقى» بل يورد بكل بسـاطة أنـه كان لديهم وتحت تصرفهم وسائل عسكرية اكثر كفـاءة وفعاليـة ، أو كان لهم تنظيم سياسى يتيح لهم أن يجمعوا الرجال وينشـروهم باعـداد أكبر وفى مـدة أقصر مما كان فى قدرة اعدائهم» . والثانى لا يجـوز الافتراض أن الفتـح من قبل الغزاة الخـارجيين كان الـطريقة الـوحيدة التى نشـأت بها الـدول . فمن الممكن لاحـدى الجمـاعـات المحليـة أن تفلح فى فـرض سيـطرتهـا على جيرانها . فمملكة مالى مثلاً ، التى لا يعود تكوينها إلى المهاجرين البيض باى حـال ، ربمـا نشـأت على هـذا المنـوال . ومن جهـة اخـرى ، «يـلاحظ أن الجماعات المتفرقة والمشتتة لسكان غير منظمين قـد تغرى قـادة الجماعـات المهاجرة على تنظيمهم وتكوين دولة منهم» ، وهذه نظرية قد تزودنا بالمفتـاح لأصول مملكة السونجاى[13] .

ان الممالك التى بدأت بالظهور فى السودان حوالى نهاية الالف الاول ، و«الامبراطوريات» الكبيرة ـ غانا، مالى، السونجاى، التى لعبت دوراً بارزاً فى تاريخ العصور الوسطى لافريقيا الغربية، تختلف من وجوه عـديدة عن الـدول الحـديثة التى تضم الأمم . ومـا ينبغى للمرء أن يتصـور أنها كـانت وحـدات مندمجة ومتجانسة . وكما أشار إلى ذلك تريمنغهام «ان الامبراطورية السودانية كانت تجمعاً غير منظم من جماعات مرتبطة بـالقربى ليس لهـا إلا القليل من الأمور المشتركة ، عدا الاعتراف الاسطورى بسيـد أعلى هم تابعـون له وهـو بعيد عنهم» . ولم يكن لهذه الامبراطوريات حدود دقيقة لأن «الحاكم ما كان يعنى بالسيطرة على الارض بحـد ذاتها» بـل كان يعنى بـالعلاقـة التى تربـطه بالتجمعات الاجتماعية التى يمكن أن يأخذ منهـا الرجال فى وقت الحروب ، ويأخذ منها الخدم للعمل فى بلاطه ، والمزارعين لخدمة مزارعه وابقاء مخازن حبـوبه مملوءه . . . وهـذه الامبراطـوريات الفسيحـة كان ظـاهرهـا يشير إلى

الضعف في بنيتها وتركيبها والى عدم استقرارها . فقد كانت تنشأ سريعاً ، وتتوسع قبل اوانها ، ثم بعدئذٍ نراها تتلاشى كما حصل لمالى أو أن تصاب بانحلال يدمرها كما حلّ بالسونجاى»[14] ونجد خارج هذه الامبراطوريات الواسعة مجموعة كبيرة من الوحدات المتنوعة : نجد دولاً صغيرة مثل دول الموسى على منعطف نهر النيجر ، التى حافظت على استقرارها السياسى على نحو بارز خلال قرون عديدة ، ونجد دول المدن مثل التى انشأتها جماعة الهاوسا وجماعة السو So التى كانت تحصل على معظم ثروتها من التجارة والصناعة ، ونجد جماعات بدوية رعوية مترابطة بالنسب والقربى ومستقلة . وكلما أمعن المرء نظره فى الجغرافية السياسية الأولية لأفريقيا الغربية ، ازداد ما يراه من الانماط المعقدة فى تكوين الدول . ومع ذلك فقد يفكر المرء فى النماذج التى كانت سائدة فى اوربا خلال العصور الوسطى ، كالامبراطوريات الوهمية ، والمناطق المضطربة ، والمدن القوية ، والجماعات المنعزلة العديدة . هذه الانماط لم تكن من وجوه عديدة لتختلف كثيراً عن الانماط الافريقية .

الفصل السادس

العرب

« أن مؤرخينا القدامى الذين كتبوا عن افريقيا ، مثل البكرى والمسعودى لم يعرفوا شيئاً عن بلاد الزنوج ، بل اقتصرت معرفتهم على مناطق الغوشة ouechet والكانو Cano »

ليو الأفريقى

فى مستهل القرن الثالث للميلاد كان الحكم الرومانى فى شمال افريقيا قد بلغ الذروة ، ومع ذلك فقد كانت أمارات الضعف الشديد يمكن أن تلاحظ حتى فى تلك الاوقات . فالرومان لم يفلحوا أبداً فى احتلال أفريقيا الشمالية كلها ، كما فعل الفرنسيون من بعد . كان عليهم طوال فترة حكمهم أن يواجهوا احتمال النزاع مع السكان من البربر الذين كانوا يعيشون فى المناطق الجبلية مثل الأوراس Aures التى هى داخل حدودهم ، أو فى الصحراء فى الجنوب من حدود الأمبراطورية . ومنذ منتصف القرن الثالث ، عندما ضعف كيان الأمبراطورية كثيراً بسبب الأزمات السياسية والاقتصادية ، كان البربر يثورون على نحو متواصل تقريباً . وفى مستهل القرن الرابع قرر الأمبراطور ديوكلتيان Diocletian أن يقلص حدود بلاده بالتخلى عن معظم الأجزاء من موريتانيا (شمالى المغرب وغربى الجزائر) . وكان ذلك خلال الفترة التى حصلت فيها بعض قبائل البربر المقيمة فى حافة الصحراء على الجمل وبدأت باستخدامه . وبذلك زادت قدرة هذه القبائل على التحرك والانتقال ، وزاد تهديدها للحكم الرومانى .

وفى خلال القرن الرابع ازدادت الأقاليم فى شمال افريقيا ضعفاً بسبب الانشقاق الدينى بين الكاثوليك والدوناتستيين Donatistes الذين اشتقوا اسمهم من قائدهم دوناتس Donatus وقد انتقد هؤلاء بشدة المسيحيين الـذين تركـوا عقيدتهم خلال فترات الاضطهـاد قبل أن يصـدر مرسـوم قسطـنطين Edict of Constantine فى سنـة 313 . وفى الثورة ضـد النظام المقـرر أيد جمـاعـة من الـدوناتستيين حـركة السـركمسيليين Circumcelliones (الذين يـدورون حـول مخازن الحبوب) ، الذين كانوا من الفلاحين وثاروا احتجاجاً على مظالم ذلك العصر . وفى مستهل القرن الرابع خرج النظام المقرر ظافراً ، ولكن جمهـور الناس فى شمال افريقيا تولد لديهم حقد مكبوت ضد الامبراطورية ، والكنيسة الرسمية ، وجماعة النبلاء من ملاك الأراضى المشاركين فى الظلم والقهر[1] .

ولذلك عندما عبـرت قبيلة الفانـدال Vandal ، بقيادة ملكهـا جنسريـك Genseric، المضايق من اسبانيا الى افريقيـا فى سنة 428، لم تجد أيةَ قـوة قادرة حقاً على صدّ تقدمها . وفى سنة 439 أحتل جنسريك قرطاج، ثم بنى اسطولاً وراح خلال العشرين سنة التالية يحتل معظم الجزائر فى غرب البحر المتوسط . ولم يكن أمام جنسريك فى افريقيا من خيار يذكر غير الأبقاء على التركيب الأساسى الذى تركه الحكم الرومانى . وقد صودرت بعض الملكيات الواسعة ، كما أن الكنيسة الكاثوليكية قد تعرضت للاضطهاد (كـان الفانـدال يتبعون عقيدة أريان الهرطقية) ، أما بالقياس الى البـربـر الذين كانـوا يؤلفون غـالبية السكـان ، فما كـانوا ليجـدوا من فـرق يـذكـر بين الفـانـدال والحكم الـرومـانى . وتـوفى جنسـريـك فى سنـة 477 ، ولم يكن خلفـاؤه على نفس المنزلة ، وقد جنح اتباعهم الى حياة الراحة والترف وبدت عليهم آثار الوهن ، ولذلك عندما ارسل الامبراطـور جستنيان Justinian فى سنـة 533 جيشاً بقيـادة الكونت بليساريوس conte Blesarius لفتح افريقيا ، انهارت مقاومـة الفانـدال خلال اشهر قليلة .

وامتنع البربر عن الانحياز الى احد فى الحرب التى دارت بين الفاندال

والبيزنطيين ، ولكن عندما هزم الفاندال انفجرت ثائرتهم . ومنذ ذلك التاريخ صار البيزنطيون يواجهوان حالة مزمنة من الحرب مع القبائل . ولم يستطيعوا الاحتفاظ بقبضتهم على شمال افريقيا إلا ببناء شبكة محكمة من القلاع وممارستهم الدبلوماسية البارعة لمنع البربر فى الأوراس Aures وفى الاجزاء الأخرى من نوميديا من أن يضموا قواهم الى قوات البدو الأشداء اصحاب الإبل فى منطقة طرابلس Tripolitania . كان الحكم البيزنطى قاسيا مثل حكم الفاندال أو الرومان ، إن لم يكن أشد قسوة . وقد كتب المؤرخ بروكوبيوس Procopius عن جستنيان ، «انه انهك افريقيا واستلب اموالها على هواه . . . انه فرض ضرائب مدمّرة لم يكن لها وجود من قبل ، وخص نفسه بأفضل الأراضى» (2) . ولم يكن خلفاء جستنيان بأفضل منه تجاه افريقيا الشمالية . وتميزت سنوات الاحتلال البيزنطى بثورات البربر ، وتجدد المنازعات الدينية ، وسوء الادارة ، والقهر والقمع . ولم يكن الاقليم الذى لا يجاوز تونس الحالية إلا قليلاً ، بحالة تسمح له بمقاومة غزاة آخرين .

وكان أول تقدم للعرب نحو الغرب قد بدأ من مصر سنة 642 . لم يكن الاندفاع بسبب الحماس الدينى (فذلك كان قد تبدد) بل لمجرد شهوة الفتح . واستولى العرب على أقطار الساحل فى شمال افريقيا واسموها بالمغرب . وفى سنة 647 هزم الحاكم غريغورى فى معركة سبتلة ، وكان هذا الحاكم قبيل ذلك قد اعلن انفصاله عن الدولة البيزنطية . وبهذا الوجه انتهى فعلاً الحكم البيزنطى فى افريقيا . واختار العرب لمركز قيادتهم موقعاً على رأس الطريق الساحلية المؤدية الى مصر ولكنه بعيد بما فيه الكفاية ليأمنوا من الاسطول البيزنطى . وهناك فى قلب المغرب بنوا مدينة القيروان .

وفى خلال الثلاثين سنة التالية كان العالم الاسلامى منشغلاً بصفة أساسية بالانشقاق فى صفوفه ، وقد نجمت عنه معظم الطوائف الاسلامية الكبيرة . وفى سنة 678 جدد العرب هجومهم على افريقيا ، بقيادة عقبة بن نافع ، واكتسحوا المغرب كله طولاً وعرضاً . حتى انهم بلغوا المحيط الأطلسى ، حيث نهز القائد المنتصر عقبة فرسه نحو الأمواج ليبين أنه قد أنجز

فتح البلاد . واحتل العرب من ناحية الجنوب فزان وبلغوا واحة القوار Kawar ، ولكنهم عادوا وكانوا على وشك أن يكتشفوا أراضى السودان العشبية * . واستقر بعض العرب فى واحات الصحراء ، ومن المحتمل أنهم تزاوجوا مع اليهود ، ويبدو أن عرب الجنتة Kunta المقيمين فى الجنوب الغربى من الصحراء قد نشأوا من هذا الاقتران .

وما إن بدا أن الانتصار العربى قد أنجز حتى كان حب البربر العميق للحرية قد أولد ذلك النمط من الجهود القومية العالية التى تظهر فى ساعات المحنة والتي تؤدى غالباً الى انقاذ المغلوب من الانقراض . فقد استطاع البربر بالمساعدة التى حصلوا عليها من اليونان وبقيادة كسيلة أحد ملوكهم أن يقبضوا على عقبة وجيشه قرب بسكرا Biskra فى سنة 683 . ثم دمروا القيروان تدميراً كاملاً ، ودفعوا بقية العرب للعودة الى مصر . وجاء على لسان أحد الولاة العرب « أن فتح أفريقيا متعذر ، فما من قبيلة بربرية يقضى عليها حتى تقوم أخرى فى مكانها » .

وبعد بضع سنوات قام أخيراً حسن الوالى على مصر ، وتحرك لأخضاع المغرب ، فأعاد بناء القيروان ، وقضى على قرطاج ، ودفع البقية الباقية من البيزنطيين الى البحر . واتحد البربر مرة أخرى بزعامة نبية من زناتة اسمها الكاهنة ، وقد ردت العرب على أعقابهم ، وارغمتهم على البقاء طويلاً فى مكانهم . وفى سنة 703 هزمت هى أيضاً ، وبعد خمس سنوات اكتسح العرب مرة أخرى بقيادة موسى بن نصير البلاد من الشرق الى الغرب . على أن طموحاتهم لم تقف عند هذا الحد . وفى سنة 711 كان العرب قد قويت شوكتهم كثيراً بما انضم اليهم من البربر الذين اعتنقوا الأسلام ، فغزوا اسبانيا حيث انشأوا فيها حضارة بارزة ترفع اسمهم عالياً على الدوام .

---

* كان التجار العرب ، وإن كانوا من أقاصى خراسان ، ينجذبون الى فزان بسبب تجارة الرقيق . يلاحظ:

(H.R. Palmer, Mai Idris Alooma of bonus, Lagos, 1926, p. (7)

وفى المغرب كان العرب يواجهون نزاعاً مستمراً مع البربر . وكانت المنطقة التى يسيطر عليها العرب تقتصر على مدنهم ومعسكراتهم الكبيرة . وكان البربر يرتدّون اثنتى عشرة مرة قبل أن يستحكم الاسلام فى نفوسهم. وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان الكثير مما يعرف بالمغرب والجزائر فى الوقت الحاضر تحت حكم سلالات بربرية ، كان المرابطون اولاً ، وجاء بعدهم الموحدون . على أنه فى منتصف القرن الحادى عشر خضع الشمال الأفريقى لغزوة عربية أخرى ، هى غزوة بنى هلال وبنى سليم . وكان هؤلاء العرب من البدو السلابين الذين اكرهوا على الخروج من الجزيرة العربية الى مصر . على أن الخليفة الفاطمى فى القاهرة رغب فى تخليص بلاده من هؤلاء الضيوف المعروفين بالشغب وعدم الانصياع ، فحثهم على البحث عن موطن جديد لهم فى المغرب الذى نفض منه يده يائساً . فاستجابوا له بلهفة واندفعوا الى المغرب وهم قرابة 200,000 من الاشداء . وبقى بنو سليم فى برقة . أما بنو هلال فقد واصلوا سيرهم باتجاه الغرب وتوغلوا بعيداً فى الداخل يقتلون ويدمرون حيثما نزلوا . وقد شبه ابن خلدون غزوة الهلاليين بأسراب الجراد التى تلتهم كل البقاع التى تمر بها . وكان من أهم نتائج هذه الاعمال التخريبية أن تعطلت مناطق شاسعة عن الزراعة تعطلاً مستديماً وزحفت عليها الصحراء . وقد عمد هؤلاء الاعراب الجفاة الى أن يدمروا كذلك معظم الغابات رأساً بأنفسهم أو عن طريق قطعانهم ، وبذلك أوجدوا النقص فى الاخشاب لصناعة السفن ، وقد اشتد هذا النقص من بعد وكان مصدر إرباك لأجيال القراصنة التى تحدرت منهم .

وكما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق تبعاً للمناسبات ، كان المغرب يشتمل على أطلال المدن والقرى وقنوات جر المياه ، والأسداد ، والأحواض ، والجسور التى انهدمت بحضور القبائل المتوحشة ، كما أن الصحراء لم ترخ أبداً قبضتها على مساحات كبيرة كان الانسان يزرعها قبل غزو الهلاليين . وخلافاً لبنى جلدتهم فى الغزوات السابقة ، فقد جاء هؤلاء ليبقوا ، وما زال المتحدرون منهم يملأون البلد بالناس ، وإن كانوا فى

الأراضى المنخفضة فقط . ولئن أفلح البربر فى الاحتفاظ بنقاوة عنصرهم فإن ذلك يعود بعض الشيء الى أن الطوفان العربى لم يغمر سوى الجزء المنخفض من البلد . أما الأراضى المرتفعة التى يتعلق بها البربر فقلما بلغها الأثر .

أن استمرار البربر فى الاحتفاظ بنقاوة عنصرهم قد أدهش دائماً علماء الأعراق البشرية ، فبالرغم من أن أقواماً عديدة قد دخلت بلادهم ، مثل الفنيقيين ، والرومان ، والفاندال ، واليهود ، والعرب ، فلا يبدو عليهم سوى القليل من سمات السلالات والعروق الاجنبية . ومن المثير على وجه الخصوص هو أن العرب والبربر لم يستطيعوا الاندماج ببعضهم . فبالرغم من أنهم قد عاشوا قريبين جداً من بعضهم أكثر من ألف سنة ، وأن العرب فرضوا دينهم ، ولغتهم ، وملابسهم ، والكثير من عاداتهم على قسم كبير من سكان البربر ، فإن هؤلاء الأخيرين قد احتفظوا بصنفهم العرقى المتميز . ففى جبال الأوروس ، على سبيل المثال لا نجد سوى قرابة 25 فى المئة من السكان لهم عيون داكنة اللون . فالعربى ما زال بالدرجة الاولى يرعى القطعان ، ويسكن الخيام ، متعصب ويؤمن بالخرافات الى حد بعيد ، وله تنظيم قبلى إقطاعى . أما البربر من الناحية الأخرى فهم من سكان الأراضى المرتفعة ، يحرثون الأرض ، ويسكنون المدن والقرى ، وهم ديمقراطيون من حيث الأساس . ومع أنه من الممكن أن يرفعه التعصب الى الانفجار ، فمن النادر أن يتحرك أو يثور بسبب الحماس الدينى .

وبالرغم من أن غزوة بنى هلال كانت لها آثار ثقيلة الوطأة ، فإن مجيء العرب قد حمل الى المغرب منافع ثقافية وعقلية واسعة الأبعاد . لقد جلبوا معهم المعارف والنظرة الواسعة التى اقتبسوها من الثقافة الاغريقية فى عهود الامبراطورية الرومانية الأخيرة ، والتى ازدهرت من بعد وانبثقت عنها الثقافة الاسلامية الغنية فى اسبانيا .

وما من فرع من فروع المعرفة قد نال من الغنى على يد العلماء المسلمين أكثر من الجغرافية . فالعرب الذين وقفوا على آثار بطليموس التى

نقلتها الى العربيـة الكنائس المسيحيـة ، سرعـان ما ابـدوا اهتمامـاً ملحوظـاً بالاقاليم الاجنبيـة ، وقد شجـع على هذا الاهتمـام ونمّاه ، الـرقعة الـواسعة والسمة العالميـة التى كانت عليهـا البلاد الاسـلامية . فحيثمـا اتجه المسـافر المسلم فى طول البلاد الاسلامية وعـرضها ، كـان واثقاً من التـرحاب الـذى سيلاقيه ، وكان يتوقع نفس الترحـاب فى المجتمعات الاسـلامية المنعـزلة أو البعيدة المتواجدة فى المناطق غير الاسلامية . وما من مثـل أكثر إثـارة يصور ذلك الأفق الاسلامى الفريد فى سعته من حادثة حصلت فى حياة ابن بـطوطة ذلك الرحالة الكبير . فقد اكتشف حين كان مقيماً فى سيجلماسة Sijilmasa فى جنوب المغرب أن مضيفه كان أخاً لشخص قد التقى به قبل عـدة سنوات فى غرب الصين (4) .

والدافع الآخر للاسفار الخارجية ، ومن ثم دراسة الجغرافية هـو الحج الى مكة ، الذى كان ملزماً على كـل مسلم له القـدرة والوسـائل للقيـام به . وامتثالاً لهذا الفرض الدينى كان الناس من الأمم المختلفة يجتمعون فى أوقات منتظمة فى المدن المقدسة ، كما يفعلون حتى الوقت الحاضر ، وهناك ، وهم على صعيد مشترك ، يتبادلون بحرية الأخبـار والمعلومات الخـاصة بكـل بلد منهم .

وكـانت التجارة حـافزاً كبيـراً آخر على الاسفـار ، فقد امتـدت التجارة العربية الى الصين شرقاً واتجهت الى الجنوب حتى المحيط الهندى . وهـذا التوسع البارز فى تجارتهم تشهد عليه بجلاء ما عثر عليه من ذخائر كثيـرة من المسكوكات الاسلامية فى سـواحل بحـر البلطيق ، وما أورده أحـد جغرافيى العرب من الملاحظة حول أحد أسواقهم التى كانوا يتـاجرون فيهـا بالفـراء ، وهى أن الليل ما كان يطول اكثر من ساعة واحدة .

وقبل مجىء العرب ما كان يعرف من شىء يذكر عن افريقيا فى جنوب المغرب . والواقع نحن مدينـون بجميع معلومـاتنا الخـاصة بـالتاريـخ المبكر للقسم الداخلى من افريقيا لمجموعة صغيرة من الكتاب العرب ، ومن أهمهم

المسعـودى ، ابن حوقـل ، البكرى ، الأدريسى ، يـاقوت ، العمـرى ، ابن بطوطة ، وابن خلدون . أن ديننـا لهؤلاء العلماء لهـو من الضخامـة بحيث لا مناص من ايراد شيء موجز عن كل واحد منهم فى هذا الكتاب الـذى يعتمد الى حد كبير على ما ترجم من آثارهم [5] .

ولا تعود أهمية المسعودى بالقياس الينا إلى مساهمته فى مادتنا العلمية ، بل الى تأثيره فى الكتّاب الذين جاءوا بعده ، والذين طوقونا بدين عميق . كان من اهل بغداد ، لا نعرف متى ولد ، ولكنـه توفى فى سنـة 956 . وقد انفق عشرين سنة وهو يطوف فى أرجاء العالم الاسلامى ، والمعتقد أنه زار أقطاراً بعيدة عديدة وأنه بلغ الصين ومدغشقر . وكانت له أفكار دقيقة تثير الدهشة عن شكل الأرض ، وحجمها ، وحركتها ، وهو من هذه الوجهة كان أكثر تقدماً من الفكـر المسيحى ، كـان يعتقـد أن المحيط الأطلسى ، أى بحـر الـظلمـات الأخضر ، يتعذر الابحار فيه ، وهو اعتقاد شاطره فيه بعض المسيحيين ايضاً . وتقتصر ملاحظاته عن السودان على اشارته الى تجارة الذهب المحاطة بصمت غريب .

وكان ابن حوقل الذى عاصر المسعودى تقريباً ، من أهل بغداد ايضاً . وقد أنفق خمساً وعشرين سنة فى الرحلات ، وأورد أن مؤلفه الموسوم بكتاب المسالك والأقاليم قد اشتمل على كل ما يجعل الجغرافية ذات أهمية للأمراء والشعوب . وقد كان هو وابن بطوطة الكاتبين الوحيدين من العصور الـوسطى اللذين بقيت آثارهما ، واللذين زارا داخل افريقيا . وهو من أقدم المراجع بين ايدينا عن غربى السودان ، والمعروف أنه أول من ارتاد هذه المنطقة . وقد زار اودوغاست Audoghast وكمبى Kumbi ، عاصمة غانـا ، وشاهـد نهر النيجـر يتدفق نحو الشرق ، وحمله هذا الاعتقاد أنه نهر النيل المصرى . وكان هو أول من عبر عن ازدراء المسلمين التقليدى للزنوج ، وقد كتب عنهم أنه أحجم عن وصف بلدان السود الأفريقية بسبب حبه الحكمـة وتمسكه بـالفضائـل والدين والعدل والادارات المنظمة ، وكل ذلك يصرفه عن الاهتمام بهؤلاء الاقوام ومن كانوا على شاكلتهم ، وأنه لن يعظمهم بايراد شيء عن بلدانهم [6] .

وشاهد القرن الحادى عشر ظهور كتـاب ذى أهمية بـالغة للبـاحثين فى تاريخ شمال أفريقيا . كان مؤلفه أبا عبيد البكرى من أسرة عربية بارزة تمتعت بنفوذ واسع فى اسبـانيا فى ظـل الأمويين . ولـد فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وانفق جميع حياته فى اسبانيا . واشتملت آثاره على كتاب ضخم فى الجغرافية يقع فى عدة مجلدت وقد حوى وصفاً رائعاً عن شمال أفريقيا . وما أورده عن السودان يعد ذا أهمية خاصة لأنه يمثل أقدم محاولة لتقديم وصف عام عن هذا البلد . ويتضح من دقته التى أثـارت اعجاب الكتـاب التالين أن البكرى قد وضع يده على وثائق ذات أهمية فائقة كانت محفوظة بلا ريب فى خزانة الوثائق الرسمية فى قرطبة . وقد توفى فى سنة 1094 *.

وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر ظهر كتاب يعد أهم مسـاهمة فى الجغرافية منـذ أيام المسعـودى . كان مؤلفـه الأدريسى ، وهو عـربى من اسبانيا كان يعمل فى بلاط روجر الثانى ملك صقليا النورمندى . وكان الكتّاب المسلمون فى زمانه لا ينظرون اليه بطبيعة الحال بعين الرضا ، لأنه قد دخـل فى خدمة أحد الأمراء من غير المسلمين ، وبخاصة أنه كان فى زمن أفرزت فيه الحروب الصليبية أشد الأحقاد مرارة بين المسلمين والمسيحيين . ومع ذلـك فان اسم الأدريسى كان يحظى بالاحترام فى ثلاث قارات .

ولا يعرف إلا القليل عن حيـاة الأدريسى ، ولعل شعـور الأمتعاض من أبناء جلدته فى النظر اليه هـو السبب فى ذلك . كـان جده أميـراً على ملقا ، ولكن اسرته نفيت من بعد الى أفريقيا ، واستقرت في سيتا (سبتة) Ceuta . وهناك ولد الأدريسى حوالى سنة 1100 . ويبدو أنه تعلم فى قرطبة ، وأنه أنفق مطلع شبابه فى الأسفار بين اسبانيا وأفريقيا وآسيا والصغرى .

كان روجر يرعى العلوم كلها ، وكان ذا شغف خاص بالجغرافية . وقد

---

* إن أفضل نسخة من كتاب الجغرافية للبكرى موجودة فى المتحف البـريطانى . وتـوجد نسخـة أخرى فى المكتبة الوطنية فى باريس .

أنفق خمس عشرة سنة يجمع المعلومات عن موضوعه المفضل ، وسرعان ما علم أن العرب أهم مصدر خصب للمعلومات ، فملأ مكتبته بابرام المعاهدات معهم . وكان طبيعياً أن يبحث عن عالم عربى يرتب له ثمار جهوده ، ولم يكن غير الأدريسى مرشحاً لهذا الاختيار . واستمر جمع المواد بارشاد الأدريسى ، وبلغ العمل ذروته فى سنة 1154 باصدار كتاب روجر Book of Roger المشهور ، أو كما كان يسمى احياناً وصف روجر للعالم . كان الأدريسى فريداً بين جغرافيى العرب من حيث الدقة التى وصف بها اوربا ، ومن حيث تفهمه المتعاطف مع الفكر الغربى ، وكلاهما من آثار ونتائج بيئته * .

والعالم الآخر الذى أسهم فى معارفنا الأولى عن القسم الأفريقى الداخلى هو ياقوت الذى ولد فى البلاد البيزنطية سنة 1179 . كان أبواه من الأغريق ، ولكنه عندما كان طفلاً أخذ وبيع بصفته رقيقاً ، فى بغداد ، الى تاجر أتاح له تعليماً ممتازاً . وقد أكثر من الاسفار ملبياً فى الغالب رغبات سيده ، وجمع معجماً جغرافياً لا يخلو من الأهمية . ومات سنة 1229 .

ولم ينتج القرن الثالث عشر كتاباً عربياً له علاقة مهمة بموضوعنا ، ولكنا عوضنا خيراً بانتاج خصب فى القرن الرابع عشر**. نحن مدينون للعمرى فى كتابه مسالك الأبصار بمعظم ما نعرفه عن الرحلة الشهيرة التى قام بها منسا موسى من مالى . كان العمرى عربياً من دمشق ، ولد فى سنة 1301 ، وأنفق أوائل حياته فى خدمة سلطان مصر . وبعد قضائه عدة سنوات فى القاهرة عاد الى دمشق حيث تفرّغ كلياً للحياة الأدبية .

---

* كانت النسخة المختصرة كثيراً لكتاب روجر الذى وضعه الأدريسى قد طبعت فى روما سنة 1592 ، على أن الطبعة الكاملة الأولى كانت ترجمته الفرنسية من مخطوطتين باليد فى المكتبة الأمبراطورية فى باريس ، وقد نشرت فى سنة 1836 . وفى حوزة بيت بودلين نسخة خطية مكتوبة فى القاهرة سنة 1456 .

** لقد اغفلنا ذكر كتاب الكغرافية الشهير لأبى الفداء (1273-1331) بسبب قيمته الضئيلة للباحثين فى تاريخ القسم الداخلى من الشمال الغربى الأفريقى .

وعـاصر العمـرى عالمـان بارزان سيـظلان دائماً من مفـاخـر الحضـارة العـربية . وهـذان هما ابن بـطوطة الـذى يعد واحـداً من أشهر الـرحالـة فى التاريخ ، وابن خلدون الذى ندين لـه بالكثيـر من معارفنـا الخاصـة بالتـاريخ المبكر عن البربر والعرب .

ولد ابن بطوطة فى سنة 1304 فى طنجة حيث كانت اسـرته ، وهى من البربر ، قد استقرت هناك منذ بضعـة اجيال . درس فى البـدء علوم الدين ، وفى سن الحادية والعشرين أدى فريضة الحج الـذى حبب اليه الاسفـار التى صارت من بعد أشـد رغباتـه . وبعد أن زار الشـرق الاوسط سافـر الى الهند لينضم الى العلماء القادمين من أجزاء عديدة من العالم والذين كانوا يحتشدون فى بلاط سلطان دلهى . وسلك طريقاً غير مبـاشر عبـر آسيا الصغـرى واجتاز سهوب آسيا الوسطى الى خراسان . كانت شهرته كعالم قد سبقته الى الهند ، ولذلك فقد حظى باستقبال ارضى طموحه ، ثم عين من بعد قاضياً للمالكية فى دلهى . وبعـد سبـع سنـوات ارسله السلطان محمـد طـوغلق فى مهمـة الى الصين ، ولكن ما إن ترك دلهى حتى أخذ خصومه يهاجمونه فاضطر الى الفرار وترك المهمة .

ثم نسمع عنه من بعد أنه فى ساحل مالابار التى سافر منها الى جزائر المالديف ، وعين هناك قاضياً ولكن تحمسه فى تطبيق القانون ما كـان ليروق كثيراً فى نظر سكان الجزر ، ولذلك اضطر الى الاسراع فى ترك شواطئهم . وبعد زيارته سيام وآسام حقق طموحه فى مشاهـدة بكين وإن لـم يحظ بمقابلة الامبراطور المغـولى ، وقد كان يتطلع اليها متلهفاً . ثم شـرع فى العودة الى موطنه عن طريق سومطرة ، مالابار ، وسوريا ، ثم وصل طنجة فى سنة 1349 . ثم قام بالحج الى مكة حيث انجزه فى ستة أشهر ، وبذلك يكون قد قام برحلة حول العالم استغرقت اربعاً وعشرين سنة . ولكن شوقه الشديد الى الأسفار لم يشبع بعد . وبقى عليه أن يشاهد قطراً مسلماً آخر وهو السودان ، وأعد نفسه اليها . كانت آخر أسفار حياته وأكثرها جدارة بالتنويه ، فقد أتاحت له أن يعطى العالم أول صورة مفصلة عن الـرحلات فى قلب افـريقيا الغـربية . وقـد قدر

عندما عاد ابن بطوطة من فاس Fez أنه قد قطع قرابة 75000 ميل . وتوفى فى سنة 1368 أو 1369 .

أما ابن خلدون فقد كان يعاصر ابن بطوطة . وهو من اسرة عربية هربت من اسبانيا الى افريقيا فى زمن غزوة المرابطين ، واستقرت فى تونس حيث ولد فيها سنة 1332 . وقد أتاحت له تحصيلاته العلمية الحصول على عمل فى البلاط فى سن مبكرة ، ولكنه لم يحصل على ما كان يتوقعه من السلطان ، فانتقل الى فاس حيث حصل هناك على وظيفة فى البلاط ايضاً. أن أنانيته وحبه لحبك المؤامرات قد أودعته السجن . وعند اطلاق سراحه اختار لنفسه حياة المغامرات السياسية ، وكان مؤهلاً لذلك تماماً . أن شهرة ابن خلدون كعالم حاذق قد مكنته من خديعة عدة أمراء واحداً بعد الآخر . وبعد أن خدم فى غرناطة ، بوجى ، بسكرا ، وتلمسان ، عاد الى تونس حيث يحتمل أنه شرع فى وضع كتابه الكبير عن تاريخ البربر والعرب . أن رغبته الشديدة فى التمتع بسلطة سياسية ، وإساءته فى استعمالها ارغمتاه سريعاً على البحث عن مجال جديد لممارسة مواهبه . لقد اختار مصر ، وقد كان فى هذا الاختيار موفقاً لنفسه وللاجيال التالية .

فقد عين مفتياً للمالكية فى القاهرة ، ولكنه فى سنة 1387 تقاعد واستقر فى قرية فى الفيوم وعكف على حياة الدرس والبحث . وأنفق هناك سنوات عديدة فى عزلة هادئة جمع خلالها القسم الأكبر من كتابه التاريخى الكبير . وفى خلال انتقاله من بلاط الى آخر جمع مادة ضخمة توفر على غربلتها وهضمها فى عزلته فى الفيوم . وبعد اربع عشرة سنة استدعى مرة اخرى للقيام بوظيفة الأفتاء المهمة في القاهرة ، ولكن قسوته وصرامته تجاه المتجاوزين ، لم تتح له أن يتقلد منصباً خلال مدة طويلة .

وفى سنة 1400 رافق سلطان مصر فى محاولته غير الموفقة لانقاذ دمشق من تيمورلنك . ولما تخلى عنه سيده توجه الى معسكر التتر مؤملاً الحصول على امتياز المرور بأمان الى مصر ، وربما كان يرجو ايضاً أن يشبع رغبة

المؤرخ الطبيعية فى أن يقابل بنفسه أكبر محارب فى تلك الأيام . وكانت النتائج مرضية تماماً للعالم الشيخ . فقد حصل على جواز المرور بأمان ومنح مقابلة طويلة مع الفاتح التترى .

وتوفى ابن خلدون فى القاهرة سنة 1406 ، وكان يعد أكبر عالم مسلم فى زمانه . ومع أنه لا يوجد سوى القليل مما يثير الاعجاب فى سلوكه ، فقد حظى بالتقدير من الأجيال التالية التى تدين لمعرفته الواسعة وأعماله بالقسم الكبير من معلوماتها عن التاريخ المبكر الخاص بالعرب والبربر .

ووجد فى العصور الوسطى علماء آخرون من العرب سنعتمد على آثارهم فى مناسبات قادمة . ومن بينهم المقريزى ، المؤرخ المصرى الشهير (1364 - 1442) والعديد منهم لا نعرف عنهم سوى ما ذكر فى كتابات الآخرين ، وعلى سبيل المثال ابن سعيد الجغرافى الذى توفى سنة 1286 . فقد كتب تقريراً عن السودان ، ومن سوء الحظ أنه مفقود . واذا قدرنا الأمور بعدد المرات التى كان ابو الفدا ، ابن خلدون ، وآخرون يعتمدون عليه ، فإن أثره يعد كبيراً حقاً ، وأن فقدانه يعد خسارة فادحة للعلم .

وبعد القرن الرابع عشر أخذت المعارف الاسلامية بالتدهور السريع . ومع ذلك فنحن نعتمد الى حد كبير على الكتّاب العرب حول الكثير مما يتعلق بالتاريخ المتأخر لغربى السودان . ومن أهم هؤلاء السعدى مؤلف كتاب تاريخ السودان .

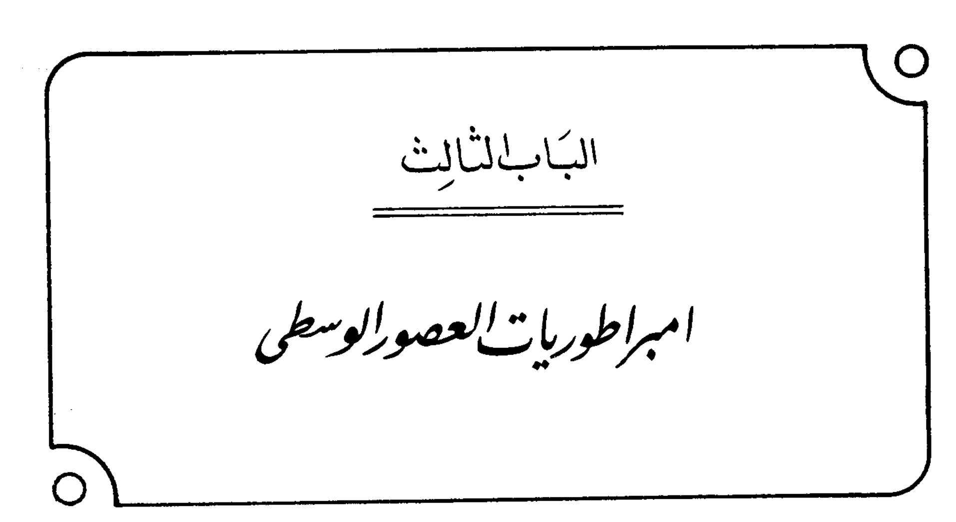
ولد عبد الرحمن السعدى فى تمبكتو سنة 1596 . نشأ من عائلة سودانية رفيعة المحتد ، وكان منذ مطلع شبابه قد اعتاد التنقل بين الاوساط المتنفذة . كان كثير المفاخرة ببلدته الأصلية ، وفى التاريخ الذى كتبه يشير باستمرار الى أهميتها والى اعتبارها المركز الأصلى لموطن الزنوج . وأول وظيفة عامة تقلدها كانت وظيفة الكاتب العدل فى مدينة جين Jenne ثم صار إماماً لها ، وتقلد هذا المنصب من بعد فى تمبكتو . وقد لعب دوراً فعّالاً فى الحياة السياسية ، ونال لقب الكاتب ، أو أمين سر الحكومة اعترافاً بخدماته العامة . ومن المحتمل أنه

توفى بعد فترة قصيرة من سنة 1655 ، وهى السنة التى أنجز فيها كتابة تاريخه عن السودان .

وفى القسم الأول من تاريخه الذى يغطى نشوء امبراطـورية السـونجاى Songhai empire ، اعتمـد الكـاتب كثيـراً على مؤرخين لم نعثـر على جميـع آثارهم . وهو يشير بصفة خاصة الى مرجعين : معجم السير لأحمد بابا وكتاب آخر عنوانه « الكبير » . وكان احمد بابا ، الذى توفى فى تمبكتـو سنة 1627 ، بعد قضائه عدة سنوات أسيراً فى مراكش ، من عائلة معروفة بالعلم فى مدينة أكيت Aqit ، ويعود فى أصله الى جدالـة ، مثل العـديد من فئـة العلماء فى مدينة تمبكتو . ومن الجدير بالملاحظة أنه قد أكمل تعليمه تحت اشراف عالم من مادنجو اسمه محمد باغيويـو الذى كـان أحد تـلامذة أبيـه والذى كـان قد اكتسب بعض الشهرة بوصفه احد العلمـاء . ومعظم العلمـاء فى جين ، التى كانت تعد مقراً للعلم والمعرفة ، كانـوا من الزنـوج . أما العلمـاء فى تمبكتو فكان معظمهم من أصل بربرى . إن ما لا يقل عن أحد عشر كتاباً لأحمد بابا موجود حتى الآن ، وهى تذكر أن مؤلفها كان عالماً كبيراً [7] . كان السعـدى صغيراً جداً فلم يقع تحت تأثيره المباشـر ، ولكنه استفـاد كثيراً من الجمـاعة المثقفة التى كان احمد بابا يتزعمها خلال مدة طويلة * .

---

* نحن مدينون فى اكتشاف كتاب « تاريخ السودان » لهنرى بارت ، الذى عثر على نسخة منه فى غواندو سنة 1853 . ولم تبق المخطوطة بين يديه سوى بضعة أيام ، كما أنه لم يأخذ منها سوى مقتطفات قليلة مختصرة ، وقد ذكر خطأ أن ذلك الكتاب قد حرره أحمد بابا . ومن بين ثلاث نسخ مخطوطة لكتاب التاريخ هذا توجد اثنتان فى المكتبة الوطنية فى باريس.



الباب الثالث

امبراطوريات العصور الوسطى

الفصل السابع
المرابطون

« أن سهل المغرب نفسه مكان فاخر يطيب السكن فيه ، إذا قارناه بأشبيلية مدينتنا الرائعة ! ولو أن هؤلاء البربر ضربوا خيامهم هناك ، لقامت بيننا وبينهم الصحارى والجيوش الجرارة ، وأمواج البحر » .

وزير اسبانى

عندما انتشر العرب باتجاه الغرب ، انتقل معهم مركز الاهتمام الى المغرب الأقصى ، الى أبعد نقطة فى الغرب يطلق عليها فى الوقت الحاضر اسم بلاد المغرب . ففى هذه البلاد سهول واسعة منبسطة ، ومراع فسيحة من الأراضى المرتفعة ، وكلها تنعم بأمطار سخية ، وجداول دائمة الجريان وافرة العدد ، وهى تفصل البحر المتوسط عن الصحراء بدلاً من الشريط الضيق القاحل الذى كان يحجز الغزاة المتجهين الى الغرب من النيل . ومع أن الظروف فى المغرب كانت أقل ملاءمة ، فانها لم تكن مغايرة عن تلك التى تحولت من بعد وغدت مثلاً بارزاً ورائعاً فى اسبانيا . لقد استطاع العرب فى الآخر أن يقيموا مستوطنات دائمة بعد فتحهم اسبانيا ونمت معها المعارف الاسلامية والثروات نمواً ملحوظاً وبخاصة فى المراكز العلمية والثقافية أو القريبة منها .

أن انتقال الناس والأفكار بصورة مستمرة عبر المضايق قد جعل العرب فى أفريقيا يقفون على الانجازات العظيمة التى يحققها اخوانهم فى اوربا ، كما جعل المغرب حلقة اساسية فى السلسلة التى تربط شرقى الأقطار

الاسلامية بغربيها . فمن الشرق كان يأتى العلماء ، والتجار ، وأصحاب الحرف يبحثون عن نصيب فى ثروة المغرب وثقافته . ومن اسبانيا كان يتدفق سيل لا ينقطع من المقهورين ، من ضحايا الاضطهاد السياسى والدينى ، ومن الهاربين من وجه العدالة . كان معظمهم من المزارعين الماهرين ، على أن العديد من العلماء الحاذقين كانوا يتواجدون فى صفوفهم وأعدادهم . وبهذا الوجه كان المغرب الأقصى يتغذى بتيارين متقاربين من الدماء الجديدة المنعشة . وكان لاجتماع هذين التيارين آثار خصبة نعمت بها البلاد وانعكست على نحو مثير فى مدينة فاس . فمنذ أوائل القرن التاسع استقرت 2000 عائلة من القيروان على أحد جانبى وادى فاس الصغير . وبعد سنوات قلائل جاءت 8000 عائلة ، رحّلت من قرطبة واستقرت فى الجانب المقابل . وبالرغم من أن هذه العائلات ظلت منعزلة بعضها عن بعض قروناً طويلة ، وكانت كل مجموعة تنظر الى الأخرى بعين الحسد والارتياب، فمن هاتين المجموعتين، القيروانية والأندلسية نشأت المدينة التى اصبحت وما زالت المركز الثقافى للمغرب.

وكان المغرب يجنى ايضاً منافع كبيرة من ظهور دولة قوية بعيدة فى الجنوب ، على حافة الصحراء والسودان . وبالرغم من أن مملكة غانا كانت بعيدة عن المغرب وبينهما صحراء واسعة ، فقد قامت بين الطرفين تجارة تدر الثروة لكل منهما . وكان المركز الشمالى لهذه التجارة هو سيجلماسة فى واحة تافيليلت Tafilelt فى جنوب جبال الأطلس تماماً . وكل ما بقى من هذه المدينة الشهيرة التى انشئت فى القرن الثامن للميلاد هو أطلال ممتدة تكسوها الاعشاب الضارة * .

* لم تكن سيجلماسة البلدة الوحيدة فى شمال افريقيا التى تعاطت التجارة مع السودان . ففى شرق سيجلماسة تقوم المملكة التى انشئت فى نهاية القرن الثامن على يد ابن رستم أحد الزعماء من الطائفة العبادية المنشقة ، وكانت عاصمتها الطاهرة Tahert (الطيارة الحديثة) . وتبعاً لما ورد عن تاريخ الطاهرة فقد كان لحكام هذه المدينة علاقات مع غانا وجاو خلال القرن التاسع . (تادز لويكى ، دولة الطاهرة فى شمال افريقيا وعلاقاتها مع السودان الغربية فى نهاية القرن الثامن وفى القرن التاسع ، مذكرات فى الدراسات الأفريقية ، 8 ,1962).

ومن الاشارات الأولى عن سيجلماسة ما أورده ابن حوقل الذى كتب فى القرن العاشر قائلاً ما معناه :

« أنها بلدة متوسطة الحجم . . . ولا يستطيع المرء أن يدخل سيجلماسة إلا عن طريق الصحراء وهو طريق شاق بسبب الرمال . وتقع البلدة بالقرب من مناجم الذهب . أنها بين هذه المناجم وبين أرض السود وأرض زويلة . ويقال عن هذه المناجم انها تشتمل على أحسن الذهب نقاوة وجودة . ولكن العمل فيها عسير والطريق اليها محفوف بالأخطار والمتاعب » [1] .

وفى القرن التالى وصف البكرى سيجلماسة بأنها ذات مبان فخمة ، ومشهورة بجودة مناخها [2] . وكان الكتّاب السابقون يجمعون على أن ثراء المدينة يعود الى تجارة الذهب مع غانا ، ولكن المعروف بصفة عامة أن الذهب لم يكن منشؤه غانا ، بل كان يأتى من بلد تكتنفه الأسرار يقع فى جنوب غانا اسمه وانغارا .

ويرتبط بتجارة الذهب على نحو وثيق تجارة الملح التى كان تجار سيجلماسة يعنون بها كثيراً . وكان الملح يجلب من المناجم فى تاجهازة التى تبعد مسيرة عشرين يوماً فى الطريق الجنوبى الى غانا . وبالرغم من أن الطبيعة قد حبت السودان من وجوه عديدة ، فانه كان يعانى دائماً من نقص الملح ، وهو مادة أساسية وكان يتوجب على السودانيين أن يحصلوا عليه من أماكن اخرى . وكانت تاجهازة البعيدة فى الشمال ، المنغمرة فى أعماق الصحراء ، هى مصدرهم الأساسى لتزويدهم بالملح ، ولكنهم ما كانوا يحصلون أبداً على ما يكفى لسد حاجاتهم . ولذلك فان بعض الأقوام الأبعد مكاناً والأكثر تخلفاً كانت تتوق الى الملح توقاً شديداً لا يكاد يجد سبيلاً الى الاشباع . ومن بين هذه الأقوام المنقبون عن الذهب فى بلدة وانغارا المحاطة بالاسرار ، فقد كانوا احياناً لا يتخلون عن ذهبهم إلا فى مقابل الملح . ولذلك فان ملح تاجهازة كان مادة أساسية فى تجارة سيجلماسة الذهبية .

ومن المحتمل أن تجارة الذهب مع غانا كانت قد ترسخت قبل مجىء

العرب * ولا مشاحة فى أن رغبتهم التجارية الحادة قد دفعتهم كثيراً الى تنمية تلك التجارة ، كما انها ولدت بين جوانحهم الطمع وحب المال . ويظهر أنهم فى بعض السنوات ما بين 734 و 750 للميلاد ، وبعد بضعة عقود من احتلالهم المغرب ، قد أرسلوا حملة عبر الصحراء لمهاجمة غانا (3) . وكان هذا مغامرة أشد خطراً من الحملات التى قادها سبتيميوس فلاكس ويوليوس ماترنس على طول الطريق الأيسر الى فزان . ولا ريب فى أن الرغبة فى أن يكتشفوا ويستولوا على مصدر الذهب المتدفق الى المغرب هى الدافع الاساسى للاقدام على مثل هذه المغامرة الطموحة . ويظهر أنها كانت على غرار حملة اخرى ارسلت على نفس الطريق ولنفس الغرض بعد عدة قرون ، وبلغت السودان وحصلت على كمية من الذهب ، ولكنها اخفقت فى غرضها . وكل ما انجزته الحملة العربية هو الهجوم غير الموفق على غانا ، ويظهر أن قسماً من الجيش لم يعد أبداً ، ذلك أن البكرى يتحدث عن أحفادهم الحونيين الذين كانوا هناك فى القرن الحادى عشر .

وقد أثبت علماء الآثار الفرنسيون الآن بما لا يرقى اليه الشك ، أن الأطلال الواسعة على بعد 300 ميل تقريباً فى الجنوب الغربى من غرب تمبكتو تبين موقع عاصمة غانا القديمة ، وهى مدينة كومبى ، وقد ذكرت مرة واحدة فقط فى التاريخ المدون ، فى تاريخ الفتاش ، وهو كتاب أقدم من كتاب تاريخ السودان ، وله اهمية مماثلة (4) . وتبعاً لما أورده السعدى تعد مملكة غانا ذات عمر مديد ، فقد كان لها اثنان وعشرون ملكاً قبل الهجرة ، ومثل هذا العدد بعدها (5) . كانت العائلة المالكة بيضاء ولكن الشعب كان أسود من مادنجو . ومن ناحية اخرى ، وكما أشار محمود الكاتى فى كتاب الفتاش ، وجد بعض الاختلاف حول اصل الأسرة الحاكمة ، فالبعض كان يقول ان أصلها من

---

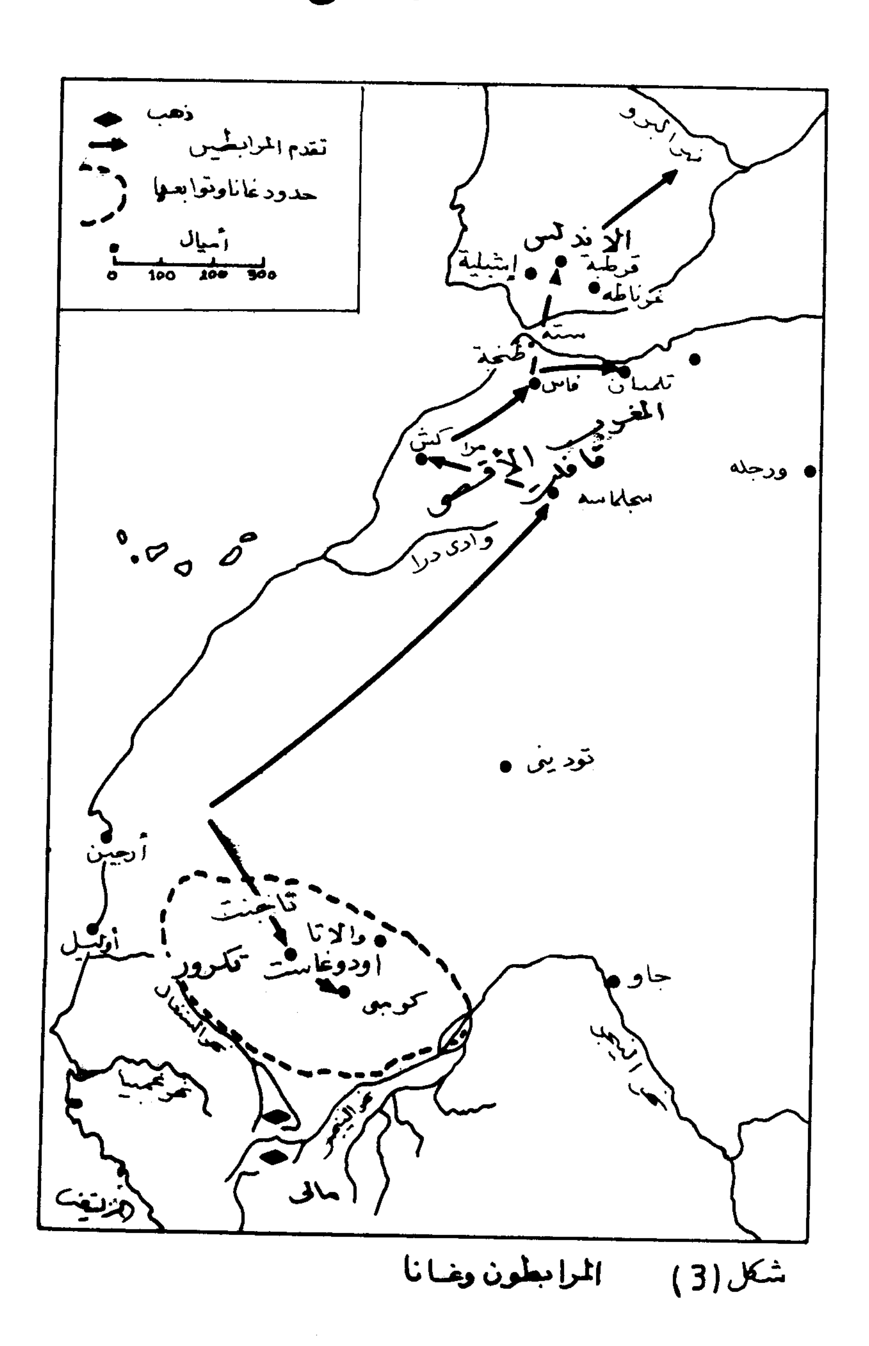
* أظهرت البحوث الحديثة وجود طريق قديم للقوافل يمتد بين الشمال والجنوب عبر الصحراء ، ويقع أبعد الى الغرب من طريق سيجلماسة ـ تاجهازة . ومن المحتمل أن العرب قد استعملوا الطريق الأول . (R. Mauny, Bull. IFAN,IX, 1947, PP. 341-57) .

سونيك Sonike ، فى حين أن آخرين كانوا يعزونها الى مادنجو ـ وهى نظرية غير محتملة فى رأى كاتى ، وذهب فريق ثالث الى أن الأسرة قد انحدرت من الصنهاجة البربر، وهو رأى يعدونه أقرب الى القبول[6]. ومهما كان أصلها فمن الواضح أن العرب فى القرنين الثامن والتاسع كانوا يعتبرون غانا من أعظم ممالك الزنوج فى السودان . وكانت حدود غانا التقريبية هى : نهر النيجر من الشرق ، ونهر السنغال ورافده الفاليم من الجنوب ، وكانت الصحراء من الشمال والغرب [7] .

ان القول السائر إن بدو الصحراء يؤلفون جيرة سيئة لهو سديد وينطبق على الجنوب من الصحراء كما ينطبق على شمالها. ففى هذا الوقت حين كانت غانا قد حققت لنفسها اهمية تجارية وأقليمية لم تستطع أبداً أية مملكة زنجية أخرى أن تدنو منها ، كانت السحب القاتمة والمهددة تتجمع فى الصحراء من جهة الشمال الغربى . فقد كانت المملكة مهددة بالاتحاد الذى كونته قبائل الصنهاجة بقيادة تيلوتان Tilutan رئيس اللمتونة Lemtuna . وكان تحت أمرة تيلوتان جيش من 100000 جمّال من الصنهاجة ، واستطاع أن يفرض سيطرته تقريباً على جميع قبائل البربر فى غرب الصحراء ، وأخذ يغير باتجاه الجنوب ، ويضايق بهجماته المتكررة اتباع ملك غانا . وكان هذا الأخير يرهب ما أوتى جاره من قوة هائلة ، ولذلك لم يجرأ على مقاومة اعتداءاته . ولم يكن تيلوتان راغباً فى تجربة قوته ، واكتفى بغزو الاجزاء النائية من غانا . وبهذا الوجه أمكن التخلص من النزاع المباشر بين هذين الجارين القويين [8] .

كانت عاصمة لمتونة أودوغاست Audoghast ، وتسمى حديثاً تيجداوست Tegdaoust ، وكانت تقع على بعد لا يجاوز مسيرة خمسة عشر يوماً بالغرب من كومبى فى شرق تاجنت Tagant ، وعلى بعد شهر واحد من أرجين Arguin على الساحل . كانت بلدة واسعة ذات أبنية جميلة ، تحيطها بساتين النخيل ، وتقوم خلفها الصحراء . وكان سكانها من البربر الذين كانوا يملكون عدداً كبيراً من الرقيق الزنوج ، وكانت بينهم جماعة كبيرة من العرب يتعاطون تجارة القوافل [9] .

خريطة - الفصل السابع



شكل (3) المرابطون وغانا

كان الماء وافراً فى اودوغاست، وبذلك تيسرت انواع شتى من المحصولات ، بضمنها التمور ، القمح (مادة ترفية مقتصرة على الاثرياء) ، الدخن ، التين ، الكروم القرع (اليقطين) ، والحناء . وكانت الماشية والاغنام وافرة ورخيصة . وكانت اودوغاست مستودعاً مهماً للذهب ، الذى كان يستورد من السودان ويعاد تصديره إلى المغرب وبخاصة سيجلماسة . وكانت تستورد القمح ، الفواكه الجافة ، النحاس ، والملابس من الشمال ، والعنبر والملح من الساحل ، والذهب والعسل من السودان . ويورد ابن حوقل فى وصفه مرور القوافل المستمرة بين اودوغاست والمغرب ، مثالاً على سعة التجارة الجارية ، وهو الدين المترتب فى ذمة شخص من سيجلماسة لتاجر فى اودوغاست ، ويبلغ 40000 دينار من الذهب* [10] .

واستطاع الناس أن يجمعوا ثروة طائلة مكنتهم من أن يعيشوا حياة راخية مترفة ، وأن يشجعوا فنون الحضارة . وكانت اودوغاست مشهورة بمهارة طباخيها ، وبجمال فتياتها ذوات البشرة البيضاء ، والتى يطنب البكرى فى وصف مفاتنهن . فقد كانت تلك الفتيات يبذلن كل جهد مستطاع للمحافظة على مظهرهن ، حتى أنهن كن يفضلن الاضطجاع بدلاً من الجلوس لئلا يتشوه التماثل الرشيق فى الاجزاء الخلفية من اجسامهن .

ومع أن اودوغاست قدرت ظاهرياً أن تحافظ على علاقات ودية مع غانا ، فقد استمر الاحتكاك بين اللمتونة والسونيك . وكان الاخيرون يغيرون على القوافل الآتية من الشمال عند اقترابها من أودوغاست ، وكانت اللمتونة تنتقم بالتدخل فى شؤون غانا الداخلية ، وبالمشاركة فى الحزازات الشخصية بين رؤساء الاقطاعات التابعين . ومع ذلك فقد اصبح السونيكيون تدريجاً القوة المسيطرة ، وبالرغم من أنهم استعادوا المقاطعات الخارجية التى سلبت منهم ، فانهم لم يحاولوا احتلال أودوغاست .

---

* كان الدينار يعادل وزن اثنتين وسبعين حبة من الشعير .

وفى اوائل القرن الحادى عشر تجمعت قبائل الصنهاجة ، كما حصل فى زمن تيلوتان ، لكى ترد اعتداءات السونيك ، وربما لكى تكسر شوكة غانا . ولكن لم ينجم عن هذا القرار شيء ، فقد جاءت سلسلة من الاحداث غير المتوقعة وحوّلت طموحات الصنهاجة إلى مجرى آخر .

ان بعض الصنهاجة كانوا قد اعتنقوا الاسلام على أثر اتصالاتهم بالتجار المسلمين الذين كانوا بين ظهرانيهم ، وكان المعتاد أن يؤدى رؤساؤهم فريضة الحج . ولما كان رئيسهم الاكبر، يحى بن ابراهيم، ماراً بالقيروان عند عودته من الحج ، تأثر بما وجد لدى العالم ابى عمران الذى تعجب من جهله باصول الدين ، واخبره الرئيس المذكور أن اتباعه فى الصحراء هم أقل معرفة من أميرهم ، والتمس من العالم فى فاس أن يجد له فقيهاً يعلمه ويعلم جماعته اصول الدين . وبهذا الوجه عاد يحى إلى بلده مصحوباً بواعظ اسمه عبد الله ابن ياسين الذى كان من أتباع أحد الوجهاء فى سيجلماسة . وكان من نتائج ذلك اختلال السلام بين قارتين [11] .

وبدأ ابن ياسين مواعظه بين قبائل يحيٰ، بنى الجدالة الذين نفروا من الافكار التقشفية التى جاء بها هذا الزاهد من الشمال وحاول أن يفرضها عليهم ، فما كان منهم إلا أن احرقوا بيته واخرجوه من بلدهم . ورافقه فى خروجه اثنان من اللمتونة المخلصين ، وطلب العزلة فى مكان محاط بالمياه ، قد يكون جزيرة فى السنغال ، أو قنة جبل فى الساحل ، وانشأ هناك رباطاً ، او تكية على اسس عسكرية * . وهذا السلوك الغريب أثار الاهتمام ، وجاءته جموع من الناس يدفعها هذا الزاهد . وتأثر العديد من زواره بهذه التعاليم الجديدة وصاروا من اشد اتباعه ومريديه حماساً . ولما بلغ الاتباع قرابة الألف جمعهم ابن ياسين ودعاهم إلى التوجه شمالاً وارغام العالم على قبول العقيدة

---

* كانت الرباطات مراكز حدودية محصنة وكان حرسها فى الغالب من الداعين بقوة الى الأسلام . . . وقد تغيرت هذه الرباطات من بعد وتحولت من مراكز تبشر بالدين وتهدى اليه ، الى مراكز لتعليم أصول التصوف .

(J.S. Trimingham, A History of Islam in West Africa, 23, n2.)

المصححة . لقد عـرفوا بـاسم المرابـطين ، اى الذين يـلازمون الـربـاط . وتحرفت الكلمة فى الاستعمال الاسبانى إلى المرافيد Almoravid [12] .

وفى سنة 1042 بدأ المرابطون ، وعلى رأسهم ابن ياسين ، بالجهاد ضد الجدالة واللمتونة التى كانت حتى ذلك الوقت قد رفضت التعاليم الجديدة . وجعل امام الناس الخيار بين الموت أو اعتناق المذهب الجديد ، وانتهى الأمر بانتصار المـرابطين ، ولكنـه انتصار انتـزعت منه حـلاوته . فقـد حرّم عليهم قائدهـم الزاهد ملذات السلب والاغتصاب ، وبذلـك فتر تحمسهم لقضيتـه . ولما طبق هذه القيود بمزيد من الصرامـة والاستبداد انقلبـوا عليه فـاضطر إلى الهرب .

وعاد هذا المعلم بعد ذلك إلى سيده القديم ، وجّاج فى سيجلماسة . ووجد هنا العطف والاتباع الراغبين فى الثأر لما لحقه من الأذى فى الصحراء . وقد هدد وجّاج بطرد وتكفيـر كل من يـرفض اطاعـة ابن ياسين ، الـذى اعيد ارساله مع اتباعه الجدد إلى الصحراء ، وقد زودوا بالأمر للقضاء على كل من يعارضهم . وقد نفذ ابن ياسين تعاليم سيده بدقة ولم يمض زمن طـويل حتى قبلت معظم قبائل الصحراء الغربية العقيدة الجديـدة واتحدت تحت رايتـه ، وهى متأثرة من جهـة بحماسـه فى الوعظ والارشـاد ، ومن جهة اخـرى بثقل الدعم الذى حصل عليه فى الشمال .

وشرع الآن أبن ياسين فى استغلال مركزه القوى الذى حققه لنفسه فى الصحراء الغربية . لقد كان منظماً مقتدراً ، ولعله كان المعياً ، ولا ريب فى انه كان زعيماً ملهماً ، فانشأ جيشاً من 30 000 رجل تضاعفت شوكتهم بما أوحى اليهم زعيمهم من تعصب متقد * . كان بعضهم يركب الجمال او الخيـول ،

---

* أثار علماء آخرون الى أن الدافع الدينى وإن كان قد زودهم بالحافز الأول، وجاء لـهم بوحدة جديدة، وقوى فيهم الرغبة فى الفتح والغلبة ،فقد كان عاملاً ثانوياً مساعداً. وشعر الصنهاجة من البربر انهم مطوقون بين الـزناتـة المسيطرة على سيجلماسة وبين السـونيك الـذين احتلوا اودوغاست . (J.S. Trimingham, A History of Islam in West Africa, 25)

ولكن معظمهم كانوا من المشاة . كانوا مسلحين بالحراب والرماح التى يفتكون بها ، وكانوا يحاربون بعنف بالغ ويقابلون الموت بالترحاب والتهليل . وبالرغم من انهم لم يعرفوا من قبل أى نوع من القيود فقد صاروا الآن يطيعون القواعد والنظام اطاعة دقيقة كالتى تشاهد فى الجيوش الحديثة . فلم يكن افرادهم ورتباؤهم يخالفون امراً ، وما كانوا ابداً يطاردون عدواً مقهوراً .

وبعد أن تمكن أبن ياسين من السيطرة على الصحراء الغربية ، اخذ يستعد لاستخدام هذا الجيش المروع فى نشر عقيدته القديمة بين القبائل المنحرفة فى الشمال . ويبدو أنه تلقى هذا المشروع بوحى الهى ، ذلك أن ابن ياسين لم يكد يتخذ هذا القرار حتى جاءته دعوة من سيده القديم وجّاج يناشده الاسراع إلى الشمال لانقاذ اهالى دراعة فى جنوب المغرب من امير سيجلماسة واعتداءاته . فتحرك ابن ياسين فوراً إلى الشمال ، وهزم جيش سيجلماسة ، وقتل أميرها ، واستولى على المدينة . وبعد أن ترك حامية فيها تصون المواطنين من اية جهة محتملة ، عاد إلى الصحراء ليقابل حدثاً جديداً يهدد قضيته [13] .

ومع أن ابن ياسين كان يحظى بولاء معظم القبائل فى الصحراء الغربية ، فان اهالى أودوغاست ، الذين وقعوا تحت نفوذ الأسرة السونيكية المكروهة الحاكمة فى غانا ، قد أخذوا يظهرون التحدى . وكانت السوق الكبيرة ممزقة بسبب الضغائن المتبادلة بين البربر والجماعات العربية فيها ، وكان هذا ظرفاً اتاح لابن ياسين الاستيلاء عليها فى عام 1054 . ومن باب تحذير الآخرين الذين قد يفكرون فى تحدّى سلطته ، الغى جميع القيود على جنوده ، فكانت النتيجة أن قتل المواطنون واغتصبت نساؤهم [14] .

وفى الوقت نفسه وجد الناس فى سيجلماسة أن حكامهم الجدد لم يكونوا بافضل من سابقيهم كما كانوا يأملون ، ولذلك فقد عقدوا العزم على استرداد حريتهم . لم يردعهم ما حلّ باودوغاست ، وربما لم يعرفوا شيئاً عنه ، فقد ثاروا وقتلوا حامية المرابطين . واصابهم الذعر مما صنعوه بايديهم فحاولوا

ان يضعوا اللوم على زناتة وناشدوا ابن ياسين أن يتقدم إلى الشمال وأن يطردهم من بلادهم . وكانت اجابته أن يعيد احتلال سيجلماسة . كان هذا امراً ميسوراً . ولكنه وهو من اهالى تلك المنطقة ، كان يعرف جيداً أن اقامته هناك لا يحتمل أن تستمر طويلاً بدون تعكير أو إضطراب ، اذ تقيم فى مؤخرته تلك القبيلة المروعة من الصنهاجة . كانت سيجلماسة مركزاً أو مخفراً امامياً لعالم آخر ، عالم العرب فى المغرب الاقصى الذى كان هو ينتمى اليه ، والذى كان احتلال المرابطين مصدر تهديد وتحد له . كان لا بد أن ترسل عاجلاً أو آجلاً قوات ضخمة لاخراجه وابعاده إلى الصحراء الغربية التى كانت سيطرته عليها لا تتناسب أبداً مع طموحاته المتصاعدة ولذلك فقد اتخذ الآن قراراً جديراً بالقائد الكبير . فقد عزم على مهاجمة الاطلس وفتح المغرب الأقصى . وقبل أن يتاح للشمال الوقت للظن بما كان يدور فى رأسه من مشروع جريء إلى هذا الحد ، فقد انطلق المرابطون ينهمرون على المواقع الحصينة فى جلاوى Glawi وقندافى Kundafi وتوغلوا فى سهول المغرب . وبعد فترة وجيزة قتل ابن ياسين فى المعركة عام 1057 .

وبموته انقضت حياة واحد يعد من ابرز الشخصيات فى تاريخ افريقيا . ان الحركة العظيمة التى انشأها وتولى ادارتها قد كانت عند وفاته قد جمعت فى مملكة واحدة بالفعل جميع الصحراء الغربية بالاضافة إلى المقاطعات الشمالية الخصبة من سوس ، اغمات ، وسيجلماسة وتوابعها . وقد وضعت الاسس ايضاً لتكوين امبراطورية تمتد إلى ما وراء سواحل افريقيا . وما كان لانسان أن ينجز هذا القدر العظيم إلا اذا كان من ذوى الطباع البطولية .

واختار المرابطون زعيماً روحياً خلف ابن ياسن ، ولكنه توفى بعد فترة وجيزة ، وانتقلت السيطرة كلها إلى ايدى اميرهم ابن بكر . وقد انشأ هذا مركزه فى أغمات بالقرب من الموقع الذى بنيت فيه مدينة مراكش من بعد ، وواصل الحملة الشمالية التى كان ابن ياسين منهمكاً فيها عند وفاته [15] .

ولكن هذه العمليات قد اعيقت الآن ، ولم تأت الاعاقة من المقدمة بل

من المؤخرة ، من الصحراء . وكان مصدر الضعف الاساسى لدى المرابطين هو عجزهم عن السيطرة على اتباعهم وانصارهم . لم يكن لهم دولة ، بل امبراطورية تتألف من اتحاد مهلهل النسج من قبائل بدوية دفعتها إلى التجمع عقيدة مشتركة وخوف مشترك ، هو الخوف من نتائج الانفصال . ومع انهم قبلوا النهج الدينى الاصلاحى ، غير أنه لم يكن عميقاً ولم يتملك نفوسهم ، كما أن الخوف من ابن ياسين كان يتضاءل بنسبة ابتعاده عنهم . كان ولعهم بالاستقلال شديداً ، وظلت الحزازات القديمة بين القبائل فلم تخف أو تخمد . وتماسك القبائل باية حال امر يثير العجب .

ان الذين سببوا اشد القلق هم الجدالة فى اقصى الربع الجنوبى الغربى من الصحراء . وعندما ذهب ابن ياسين إلى الشمال ليحتل سيجلماسة من جديد ، ترك خلفه قوة تراقب اولئك الناس ، ومع ذلك فقد تمردوا ولم يقمعوا ابداً . وجاءت الانباء بعد وفاة ابن ياسين عن نشوب الاضطرابات بين اللمتونة والمسوفة Mesufa . كانت كلتا الجماعتين موالية مخلصة للفرقة ، ولكن النزاع قد يفضى إلى ردة هذه الجماعة او تلك . وكان استمرار الجدالة على تمردها المكشوف ينطوى على تهديد خطير بفقدان المرابطين سيطرتهم كلياً فى الصحراء . ولذلك قرر أبو بكر أن يذهب بنفسه إلى الجنوب ليعيد الأمور إلى نصابها . وقبل أن يباشر سفره سلم قيادة الجيش الشمالى إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين .

واستطاع ابو بكر بتدخله الشخصى أن يعيد النظام على وجه السرعة ، ولكنه رأى أنه اذا لم يجد منفذاً للروح المتمردة لدى هؤلاء البدو من سكنة الصحراء ، فانهم لن يلبثوا حتى يأخذ بعضهم بخناق البعض الآخر . وعلى هذا الأساس ترأسهم وقادهم ضد الزنوج الوثنيين السوننكيين الخاضعين لملك غانا .

وفى الوقت نفسه كان المرابطون فى الشمال ينتقلون من قوة إلى قوة . كان يوسف يزخر بالنشاط وروح المغامرة ، وقاد جيشه الظافر إلى قلب المغرب

الاقصى ، ويبدو أنه عقد العزم على تبنى سيرة الفاتحين وامـامه امكـانات لا حدود لها تقريباً . ولما عاد ابو بكر فجأة من الجنوب وجد أن نائبه لا ينوى أن يعيد اليه قيادة الجيش . ولما لم يجد ابو بكـر من خيار إلا الاذعـان ، تخلى رسمياً عن المغرب إلى ابن عمه وانسحب بحذر إلى الصحراء .

وما كان من احد ينازع يوسف فى سلطته ، ولذلك فقد استقر رأيه الآن أن يباشر بالفتوحات التى قدر لها أن تجلب له من القوة والشهرة ما يجاوز أبعد احلامه الطموحة . ولما بدأ بالتحرك شمالاً اخذت المقاطعـات الواحـدة بعد الأخرى تقدم الخضوع له . وحيثما ذهب كان يعلن أنه نصير الجماهير ، وأنه محرر الناس من بطش الأمراء الفاسدين . وانحاز اليه الفلاحون واشتركوا بلهفة فى اسقاط الحكام المستبدين المحليين ، وضاعفوا صفوف جيشه . وفى سنة 1062 انشأ مدينة مراكش فى اسفل الشعاب التى دخل منها إلى البلاد . وبعد سنة دخل فاس بدون أن يلقى مقاومة ، وسرعان ما وقف على المرتفعات التى تـطل على طنجة التي كانت، مثل ميناء سنتا (سبتة) المجاور، فى قبضة الجنود الاندلسيين . وبما انه لم يشعر بتوفر القوة الكافية لدية لمنازلة جيرانه المرعبين فى الجانب الآخر من المضيق فقد توجه نحو الشرق حيث كانت امـامه عـدة امارات صغيرة يسهل ضمها . فاستولى أولاً على تلمسان التى كانت عـاصمة زناتة ، وجعـل منها قـاعدة لعمليـاته المقبلة ، ولم يلبث أن مـد سلطانه على جميع البلاد حتى حدود الجزائر .

ومع أن يوسف قد تردد فى التعرض لسلطة الاندلسيين ، فالواقع لم يكن هناك من شيء يخشاه . فقد كان انتصار المرابطين يختلف تمامـاً عن الحالـة المحزنة التى صار اليها اخوانهم فى الدين فى الجـانب الآخر من المضيق . فقـد كـان هنـاك المسيحيـون تحت قيـادة الفـونس السـادس ، ملك ليـون ، كاستيل ، غاليسيا ، ونافار ، يهددون استمرار الحكم الاسلامى ووجوده . فقد كان الامراء المسلمون الذين يكيد بعضهم لبعض يتوددون الى الملك الفونسو ويطلبون المساعدة منه فى خلافاتهم ، بدلاً من أن يتحـدوا فى وجه عـدوهم المشترك . وصار الواحد بعد الآخر يقع تحت سلطته ويدفع اليه لحماية نفسه

جزية باهظة يعتصرها من فلاحيه الفقراء . وكلما هبط هؤلاء الامراء فى درجات الذل ازداد الفونسو استكباراً ، حتى أنه اخذ يسمى نفسه «سيّد العقيـدتين» . كان جيشه يواصل تقدمه باستمرار ، وقلما كان المسلمون يستطيعون ايقافه او مقـاومته بمسـاعيهم الضعيفة . ولمـا عجزوا عن مقـاومـة العـدوان المسيحى المتزايد سيطر عليهم اليأس . وكان عليهم اما أن يخضعوا لحكم الفونسـو أو يتركوا بيوتهم ويذهبوا لاكمال حياتهم البائسة ، يتطلعـون إلى العون من وراء المضيق حيث يقيم يوسف وجيشه المنتصر ، وقد اصبحوا سادة المغرب .

كان المعتدد ملك اشبيلية ، واقوى ملوك الانـدلسيين ، يراقب بخـوف متزايد انتصارات المرابطين وتقدمهم . فمنذ أن سمع أن قبائل البربر الاشداء أخذت تتدفق على ممرات الأطلس وانها توغلت فى سهل المغرب ، استحوذ عليه هذا الاعتقاد وهو أن القدر سيدفعهم إلى الاستيلاء على الاندلس . ولما سأله أحد وزرائه ، «لمذا تقلق من هذا الخبر ، يا مولاى ؟» أجاب «حقـاً إن سهل المغرب مكان طيب للسكن فيه بالقياس إلى مدينتنا الرائعة اشبيلية ! لماذا لا يقيم هؤلاء البـرابرة هنـاك ؟ ويكـون بيننـا وبيهم الصحـارى ، والجيـوش الضخمة ، وامواج البحر » .

وما كان يشارك المعتدد فى تخوفه هذا سوى القليل . ولما اقتـرح عليه فى ساعة حالكة الاستعانة بالمرابطين لصد عدوان المسيحيين ، رفض الاقتراح واعتبره خطوة يائسة. فهؤلاء البرابرة الغلاظ الشداد قد يصبحون ضيوفاً ثقلاء اذا سمح لهم يومـاً بالـدخول إلى ارض جميلة كـالاندلس . وكيف الأمـر اذا رفضوا المغادرة ؟ واسوأ من ذلك ، ما العمل اذا فضّل يوسف أن يكون سيداً لا حليفاً ؟ أو ليس من الاصوب الخضوع للفونسو الذى يمكن أن يقاس استبداده على نحو أسهل كثيراً من استبداد يوسف بن تاشفين؟ على أن الاقتراح كان يحظى بتأييد رجال الدين الذين سمعوا اخباراً طيبة عن بساطة المرابطين وتقواهم ، وبمساندة الجماهير التى ما كانت تتصور استبداداً اسوأ مما كانت تعانيـه على أيـدى امرائهم . ولمـا جاء المعتمـد وخلف اباه المعتـدد ، وصار ملكـاً على اشبيليـة بدد الشكـوك . فقد اعلن ، «إنى لا ارغب أن يصمنى الابنـاء بـانى

الرجل الذى سلّم الاندلس غنيمة للكافرين ، وانى لأكره أن يلعن اسمى على المنابر ، ومن جهتى افضل أن اكون جمّالاً فى افريقيا من اكون مربياً للخنازير فى بلاد القساطلة» (16) .

وتبعاً لذلك فتحت المفاوضات مع يـوسف . فدعى إلى القـدوم لنجدة المسلمين الاسبـان ، ولكن طلب اليه الالتـزام ببعض الاجراءات الـوقائيـة . فاعاد الوفد وزودهم بجواب غامض فيه مراوغة وتملص . وبينما كـان الامراء يناقشون الخطوة التالية ، انقلبت حيرتهم إلى ذعر بوصول الانباء أن يوسف قد عبر المضيق وانه استولى على الجزيرة التى اخذ فى تحصينها وتجميع الذخيرة فيها وجعلها قاعدة ينطلق منها إلى العمليات الأخرى . ولا ريب فى أن قدوم تلك الجماعات من بدو الصحراء واقامتها رأس جسر فى اوربا قد اثار الرعب ، ومع أن يوسف اسـرع فى الاعلان بـان فتوحـاته لم تنتـه ، فان الاحـداث قد اتخذت مجرى افضل مما تخوفه الكثيرون . وما إن تقدم فى داخل البلاد حتى اخذ الناس يرحبون به ويعتبرونه منقذاً ، واسرع اليه الأمـراء يحملون الهدايـا وهم صاغرون ، وضم هـو قواتـه إلى جيش المعتمد وسـاروا جميعاً لمقـاتلة المسيحيين الذين قابلوهم باعداد ساحقة ، ولكن تفوق يوسف فى الستراتيجية ادى إلى هـزيمتهم فى اكتوبـر 1086 فى زلاقة بـالقرب من بـاداجوز . وجـرح الفونسو بطعنة من حارس زنجى ، واستطاع بشق النفس أن يفر وينجو بحياته .

وشعر الأمراء المسلمون فى اسبانيا بخطأ مخاوفهم من يوسف ، فقد عاد مسرعاً إلى افريقيا مصطحباً معه كل جيشه عدا 3000 رجل تركهم تحت تصرف المعتمد . وقد كسب يوسف قلوب الناس بشجاعته وتقواه ، وخرجوا لتوديعـه هاتفين بانه منقذ الاسلام .

وبمغادرة يوسف استرد اهالى كاستيليا نشاطهم وراحوا يغيرون مرة أخرى على اراضى المسلمين . ودعا الامراء يوسف ثانية إلى نجدتهم . فعاد ولكنه قد عزم هذه المرة أن ينصب نفسه سيداً على اسبانيا المسلمة . ولم يكن هذا بـالأمر العسيـر . وقد رأى النـاس أن الأمل الـوحيد لخـلاصهم من الضرائب

الباهظة التى يفرضها عليهم امراؤهم هو فى ذلك الرجل الذى عرفوه والذى الغى فى افريقيا جميع الضرائب التى لا يؤيدها القرآن . وكان يوسف يلقى الترحيب ايضاً لدى رجال الدين الذين كانوا يشبّهون زهد المرابطين فى حياتهم بالبساطة التى كان عليها الاوائل من اتباع النبى . على أن الأمراء واصحابهم والطبقات المحظوظة هى وحدها التى كانت تعتبر يوسف بربرياً غليظ الطباع همه أن يغتصب سلطتهم . ولكن ما من أحد كان فى مقدوره أن يقاوم . فسقطت أولاً غرناطة ، ثم تبعتها اشبيلية ، ثم سقطت بسرعة البقية الباقية من اسبانيا المسلمة . وبحلول سنة 1102 كان المرابطون يحكمون بلاداً مترامية الاطراف من السنغال إلى ابرو Ebro .

ولم يعش يوسف بن تاشفين طويلاً بعد هذه الانتصارات . فقد توفى سنة 1106 ودفن فى قبر بسيط فى مراكش ، وهى المدينة التى انشأها واصبحت فى عهد المرابطين العاصمة الجنوبية للمغرب الاقصى * . وبالرغم من فتوحاته الواسعة وسلطاته غير المحدودة التى صارت بين يديه ، فقد بقى يوسف طوال سيرته مخلصاً للمثل الرفيعة التى وعظ بها ابن ياسين بعيداً فى تلك الجزيرة المنعزلة فى السنغال . وقليل من الحكام اتيح لهم بحق هذا القدر من ثقة الاقوام المغلوبة بهم . فقد منحهم ، فى افريقيا وفى الاندلس ايضاً ، نعم الطمأنينة ، ونعم الرخاء وإن كانت على نحو معتدل . ولكن هذه النعم قد انتهت بوفاته .

وخلفه ابنه على بن يوسف ، وكان شاباً فى الثانية والعشرين ، نما وبلغ اشده فى محيط يأتيه الوهن من البلاط الاندلسى ولم يعرف ابداً حياة التقشف فى الصحراء . كان معروفاً بتقواه ، ولكن الحماس الدينى لم يعوض عدم خبرته ، كما أن تنشئته لم تؤهله للقيام بمسئولياته ، ويضاف إلى هذا أنه لم يكن موفقاً فى اختيار مستشاريه . وفى محاولة اصحابه أن يقلدوا الاندلسيين

---

* إن اسم موروكو Morocco (فى اللغات الغربية) هو شكل منحرف لإسم مراكش .

فى طرائقهم المصقولة ، لم يصيبوا سوى اسوأ الملامح فى الثقافة الاسلامية الاسبانية . ولم يكن الكبار من رؤساء البربر على استعداد لمنح هذا الشاب الضعيف الولاء الخالص الذى منحوه عن طيب نفس لابيه الصارم الذى نشأ فى نفس المدرسة القاسية التى نشأوا هم فيها . كان اكتراثهم به ضئيلاً ولذلك ما لبث أن غدا حرسه من المسيحيين اهم دعامة يعتمد عليها . وهذا الاعتماد البائس على غير المؤمنين قد خفض بطبيعة الحال من الاحترام الضئيل المتبقى لديهم (17) . على أن الانحطاط لم يكن مقتصراً على البلاط . وما كان المرابطون بمستثنين من قاعدة الزوال السريع التى تحكم الملوك الرعاة . ان الاستكانة للراحة والحضارة تقضى على ما لدى بدو الصحراء من فضائل بسيطة تولدها الحياة المقتصدة والاعتماد اليومى على السيف والرمح للبقاء ، وقد حطمت المرابطين تماماً كما حطمت الهكسوس والاتراك العثمانيين .

وعندما كانت سلطة الأمير آخذة بالضعف ، وازدادت رعيته وهناً وانقساماً بسبب المنازعات الطائفية ، راح حكم المرابطين يتصاعد صرامة واستبداداً . واضيفت إلى آلام الفلاحين المظلومين عودة الغارات التى شنها المسيحيون الذين انتعشوا بما اصاب الفاتحين من وهن متزايد .

وهكذا فقد الاندلسيون سريعاً ما اصابوه من المزايا التى تمتعوا بها اولاً عندما تغير حكامهم ، ولكن لم يدم هذا طويلاً ، وسرعان ما اخذوا يأسفون على ايام امرائهم السابقين الذين احتفظوا لهم بالذكر الجميل . ولما تملكهم اليأس ثاروا وقتلوا ظالميهم . ولم يكن هذا النفور من المرابطين مقتصراً على الاندلس .

ففى المغرب قامت طائفة جديدة من البربر ، هى الموحدون ، وطردتهم . واستطاع الموحدون بقيادة زعيمهم الألمعى عبد المؤمن * ، أن

---

* كان عبد المؤمن هو الذى أمر ببناء القطبية فى مراكش . وكان المهندس الذى وضع تصميمها هو نفس الذى صمم جيرالدة فى أشبيلية ، ولكن القطبية جاءت أولاً .

يؤسسوا مملكة امتدت من المحيط الاطلسى إلى سرت ، وقد ازدهرت البلاد فى ظل ادارتهم المستنيرة . على أن هذه المملكة البربرية الجديدة لم تدم طويلاً ، ففى حدود مائة سنة سقطت متمزقة الاوصال ، ومن الفوضى التى عقبت سقوطها نشأت أسر الحفصية فى تونس ، وعبد الوديد فى تلسمان والمرينية فى فاس .

الفصل الثامن

الذهب في غانا

«الى هذه البلدة تأتى القوافل من بلاد البربر فتبقى وتسكن ، ونحن نعلم أن كل تجارتها تدور حول الذهب» .

ريشارد جوبسون

فى منتصف القرن الحادى عشر ، حين كان البكرى منهمكاً فى وصفه البارز عن افريقيا ، كانت الصحراء الغربية يلفها هياج سياسى بشأن التقدم الظافر الذى احرزه المرابطون . فى الشمال كان المغرب الاقصى قد اصبح شبه مشلول تحت قبضة يوسف . ولكن غانا الوثنية فى الجنوب ، التى كانت هدفاً للحقد المرير من كل فرد فى تلك الطائفة قد ظلت فخورة باستقلالها ، وتنعم بالحرية التجارية التامة ، ويبدو أن تجارتها المزدهرة مع المغرب لم يصبها الاختلال بسبب الاضطرابات السياسية التى احدثها المرابطون . وليس الفصل بين التجارة والسياسة حدثاً غير مألوف ، ولكن افريقيا الشمالية كانت تتميز به على وجه الخصوص . ويروى ليو الافريقى أن بعض القبائل المقيمة فى جبال الأطلس التى كانت فى قتال مستمر ، كانت تعقد هدنة دورية لضمان الاستمرار فى اعمال الاسواق بين القبائل [1] . وحتى فى خلال القرون الطويلة من المنازعات بين اوربا المسيحية ودول المغرب ، فان التجارة بين الشواطىء المتقابلة فى البحر المتوسط ما كانت تتأثر إلا قليلاً ، حتى أن المسيحيين والمسلمين كانوا يستمرون فى تجارتهم ويزور كل طرف بدون خوف اسواق الطرف الآخر .

وقد ترك لنا البكرى بعض الاخبار عن كمبى Kumbi ، عاصمة غانا ،

كان قد استقاها من تجار البربر الذين كانوا على دراية تامة بالمدينة الزنجية . وتكاد تلك الاخبار تقتصر على فخامة البلاط الملكى وعلى النشاط التجارى ، وهما فى الغالب اهم مظاهر الحياة التى يمكن أن تخلف انطباعاً قوياً فى نفس التاجر الاجنبى* [2] .

كانت العاصمة تتألف من بلدتين منفصلتين تبعد الواحدة عن الأخرى قرابة ستة اميال . احداهما كانت مخصصة للسكان المسلمين ، وتشتمل على نحو اثنى عشر مسجداً يجتمع فيها الفقهاء البارزون . والبلدة الثانية التى تعرف بالغابة كانت وثنية وتضم القصر الملكى . ومعظم البيوت فى غانا كانت مبنية من الطين وسقوفها من القش ، على أنه وجدت فيها ايضاً بعض المبانى الحجرية .

واخذ اسم «الغابة» من البساتين والايكات التى كانت تحيط بالبلدة . ويحتمل أن تلك البساتين كانت لا تزيد كثيراً على ارض تكسوها الادغال والاشواك واشجار الزعرور ، ولكنها كانت تحرس حراسة شديدة ويمنع المتطفلون من الدخول اليها ، فقد كانت مركز الحياة الروحية للبلد . وفى هذه الامكنة يسكن الكهنة الذين يخدمون الآلهة الوطنية ، والذين كانوا بلا ريب يمارسون الطقوس الرهيبة التى كانت تميز دائماً العبادات الصنمية فى افريقيا الغربية . وفى هذه الاماكن ايضاً توجد مقابر الملوك ، والسجون التى لم يعرف أن أحداً قد عاد منها أبداً .

كان الملك محور البلاط الذى تقام فيه الطقوس المتقنة والمواكب الرائعة التى تعرض سلسلة من المشاهد التى يرجح أنها ما كانت تبالغ كثيراً فى التعبير عن ثراء المملكة ومواردها . وفى هذه الحفلات كان الملك ، وقد تزين

---

* أن أول كاتب عربى أشار الى غانا هو الفزارى ، فى سنة 773 . وهو يذكر باختصار « بلاد غانا ، أرض الذهب» . وكتب اليعقوبى فى سنة 872 ، يعتبر كاوكاو Kawkaw (جاو Gao) أكبر مملكة فى السودان ، ولكنه أشار الى غانا واعتبرها « دولة قوية أيضاً»
(J.S. Trimingham, History of Islam in West Africa, 48, 51) .

بـالجواهـر وبغطاء ذهبى للرأس ، يجلس فى سـرادق تقف حولـه عشـرة من الخيول المغطاة بسروج مزركشـة بالـذهب . وكان يقف خلف العـرش عشرة غلمان يحملون دروعاً وسيـوفاً مقـابضها من الـذهب . وعن يمينه يقف ابنـاء الامراء التابعين ، وقد اكتسوا بأبهى الملابس ، وتـزينوا بـالحلى الذى يضفـر بشعرهم . ويجلس الوزراء امام الملك ، ويجلس حاكم البلدة عند قدميـه . وكـان السرادق تحـرسه كـلاب الصيد المـزينة بـالاطواق وبـاجـراس الفضـة والذهب ، كما انها كانت ترافق الملك دائماً .

وكـان المسلمون يتقلدون منـاصب عديـدة فى البلاط ، بضمنهـا امين الخزينة والمترجمون كما أن الوزراء كانوا غالباً من المسلمين . وقبل أن تبدأ الاحتفالات تقرع الطبول الملكية . وكان الاهالى الوثنيون ينحنون امام الملك وينثرون الغبار على رؤوسهم . اما المسلمون فكـانوا يعـربون عن احتـرامهم بالتصفيق .

وكـانت الخزينـة الملكيـة تشتمـل على كتلة من الـذهب ، تـرمـز إلى السلطة ، ولها حجم على جانب من الكبـر بحيث اصبحت شهيرة فى اجـزاء عديدة من العالم المتمدن . قـال الادريسى إنها كـانت تزن ثـلاثين باونـداً * (رطـلاً انكليزيـاً) ، وأن الملك اعتاد أن يقيـد فـرسـه بهـا [3] . وقـد رفعت الاشـاعات الشعبيـة حجمها إلى نسب اسـطورية ، ويـذكر ابن خلدون ، فى القرن الرابع عشر ، أنها عندما بيعت من قبل أمير مسرف إلى أحد التجار فى مصر قيل انها كانت تزن طناً [4] .

وعند وفاة الملك ، كان جثمانه يسجّى على الابسطة والوسائد ، ويوضع فيما يشبه قبـة خشبية . وكـانوا يضعـون بالقـرب منه المـلابس ، والطعـام ، والشراب . والخدم الذين كان من واجبهم أن يعدوا غذاء الملك كانوا يدفنون معه . ثم يغطى القبر بالحصير ، ويرمى عليـه الجمع المحتشـد التراب حتى تتكون كومة كبيرة محاطة بخندق .

---

* عثر على كتلة ذهبية تعادل ضعف هذا الحجم فى بامبك حوالى سنة 1900 .

وليس لدينا إلا النزر اليسير عن حالة الناس . كانوا يزرعون الخن وبعض المحصولات الأخرى ويصيدون السمك . وكـان الملك يدعـوهم فى حالات غير قليلة إلى حمل السلاح لمقارعة من يزعجهم من الجيران ، او القيام بغزوة للحصول على الرقيق . ويقول البكرى إن الملك كان فى مقدوره أن يرسل إلى الميدان ما قد يصل تعدادهم 200 000 رجل ، بضمنهم 40 000 مسلح بالاقواس والسهام (يفترض ان البقية كانت مسلحة بالرماح فقط) .

ويفهم مما اروده الادريسى عن العاصمة كمبى أنها كانت أوسع سـوق فى السودان ، وان التجار من جميع اطراف المغرب اعتادوا الاجتمـاع فيها . وقد رأينا من قبل ، أن ثروة غانا كانت تعتمد على الاتجار بالذهب الذى كان على جانب كبير من الوفرة بحيث توجب مراقبة مقاديره الآتية إلى السـوق لئلا تنخفض الاسعار كثيراً . وكان هذا الاجراء يتم بجعل الكتل الذهبية الكبيرة من ملكية التاج ، وترك التبر أو تراب الذهب فقط للمتاجرة[5] .

ويصف ياقوت، الذى جاء بعد الإدريسى بفترة قصيـرة ، تجار الـذهب من سيجلمـاسة ودراعـة ، بأنهم كـانـوا يـذهبـون الى السـودان يحملون سلعاً رخيصة وبخاصة الخرز * ، وكـانوا يضيفـون إليها الملح عنـد مرورهم ببلدة تاغازة . وعند وصولهم كمبى يجدون وكلاءهم في انتظارهم ، وهؤلاء الوكلاء هم من الأفـراد المحليين الذين يعـرفون العـادات الغـريبـة التى تكتنف هـذه التجـارة . ثم يسافـر التجار ووكـلاؤهم معاً الى الجنـوب فى مسيرة تستغـرق عشرين يوماً حتى يصلوا السنغال . والمشاهد التى تتبـع ذلك تشبـه كثيراً مـا وصفه هيرودتس في كلامه عن تجارة الذهب التى كانت تقوم بها قرطاجة فى نفس المكان من افريقيا .

واذا ما وصل التجار إلى نهر أخـذوا بقرع الـطبول الكبيـرة حتى يأتيهم السكان المحليون الذين هم عراة ويعيشون فى حفر فى الارض . وهذه الحفر

---

* كان صنع الخرز لتجارة السودان صناعة مهمة في سيتا(سبتة)حيث وجدت هناك مصائد للمرجان .

هى المواضع التى كانوا ينقبون فيها عن الـذهب . ولكنهم يرفضـون الخروج امام التجار الاجانب . ولذلك فقد اعتاد هؤلاء الأخيرون أن يرتبوا السلع التى يريدون مبادلتها ، ويجعلوها بشكل اكوام على شاطىء النهـر ثم يختفون عن الانظار . ثم يأتى السكان المحليون بعد ذلك ويضعون قدراً من الـذهب إلى جانب كل كومة وينسحبون . فاذا رضى التجـار بذلـك اخذوا الـذهب وعادوا ادراجهم قارعين الطبول دلالة على أن المقايضة قد تمت .

وحاول التجار مرة أن يكتشفوا مصدر الذهب وذلك بالقاء القبض غدراً على احد الزنوج الخائفين . وقد مات من الهزال بدون أن ينطق حرفاً ، وكان لا بد من مضى ثلاث سنوات قبل أن يوافق الزنوج على استئناف التجارة ، ولم يكن ذلك إلا لأنهم لا يملكون من وسيلة اخرى لاشباع حاجتهم الماسـة إلى الملح(6) .

ويورد المسعودى فى القرن العاشر أن هذه التجـارة الصامتـة الخاصـة بالذهب كانت معروفة جيداً فى أيامه فى مدينة سيجلماسة(7) . وفى اواخر القرن الخامس عشر علم كاداموستو من أقوال التجار العرب والصنهاجة أنها ما زالت هى العرف القائم(8) . وقد وصفت ايضاً ، كما سوف نرى ، من رحالين آخرين جاءوا بعد ذلك بفترة طويلة . وقد كانت التجارة الصامتة او المقايضة الخرساء احدى سمات تجارة الذهب فى وانغارا خلال قرون عديدة* .

ان الطريقة الغريبة التى كانت تحصل بها غانا على ذهبها قد اضافت الى اللغـز الذى يكتنف مـوقـع وانغـارا مهمـة البحث والتقصى الـتى ارهقت من اجله ، والى أبعد الحدود ، موارد المغاربة ، كما انها اصبحت من بعد أحـد

---

* ان هذه الطريقة الغريبة في التجارة لم تكن مقتصرة على تجارة الذهب في أفريقيا الغربية. ففي القرن الأول للميلاد كانت من سمات تجارة الحرير التي كانت تجرى بين الرومان والصين على شواطئ احد الأنهار في بارتيا Parthia. كما أن فا ـ هين Fa-Hein المستكشف الصيني من القرن الخامس قد وجدها في سيلان (سيرى لانكا). وبعد قرن ذكر أنها من العادات المتعارف عليها في تجارة الذهب الحبشية. ويمكن الاستشهاد بايراد الأمثلة من أنحاء أخرى من العالم. وحتى عهد قريب كان يمارسها البكميون Pygmies في الكونغو، وربما تكون مستمرة.

الاهداف الرئيسة للعديد من المغامرات والاستكشافات الأوربية . اما اين يقع هذا البلد الذى تكتنفه الاسرار والالغاز فسوف يبحث فى فصل قادم .

لم تكن تجارة غانا مقتصرة على الذهب . فقد كان التجار من المغرب الاقصى ومن ورغلة Wargla ، عاصمة مزاب Mzab يقومون برحلة طويلة وخطرة عبر الصحراء لشراء الرقيق الزنوج الذين كان يطلب شراؤهم فى الشمال دائماً . وكانت كمبى مشهورة بسوق رقيقها الذى كان يزود على الدوام بما يؤتى بهم عن طريق الاغارات على القبائل البدائية الساكنة فى الادغال على الحدود الجنوبية ، وكانت هذه الاغارات شائعة ويمارسها السودانيون على طول الطريق الممتدة من المحيط الاطلسى الى البحر الاحمر . وكانت غانا تحصل على رقيقها فى الغالب من القبائل التى تأكل لحم البشر والتى تعرف لدى العرب باسم لملم أو دمدم * .

وفى الغرب من غانا ، وعبر السنغال ، تقع مملكة تكرور Takrur ، التى لا نعرف عنها إلا القليل ، وإن كان اسمها ظل معروفاً فى البلدان الاجنبية ، خلال فترة طويلة ، افضل من أى اقليم سودانى آخر ، وهذا يعنى أنها قد تكون اكثر اهمية مما تشير اليها الأخبار اليسيرة عنها**. وكان الأوائل من جغرافى العرب يطلقون احياناً هذا الاسم على جميع السودان الغربية . وكان ملوك مالى ، وهم الذين ورثوا عظمة غانا ، يعرفون فى مصر باسم ملوك تكرور . وهذا الأسم يطلق ايضاً فى الغالب على جماعة جاءت من الغرب واقامت فى السودان الشرقية .

---

* ويبدو أن الصيغة الأخرى لتسميتهم هى نيام - نيام ، ويطلق هذا الأسم فى الوقت الحاضر على آكلى لحم البشر فى السودان الغربية . وكان أمراء كانو Kano وزاريا يستخدمون النيام - نيام بصفة جلادين . وظل أحدهم عضواً فى أسرة أمير كانو حتى سنة 1925 .

** وأول أسرة قامت (فى تكرور) وتحتفظ التقاليد المتوارثة بذكراها هى أسرة ديا أوجو Dyaèogo ، ويحتمل أنها من أصل أجنبى وقد انشأت مشيخة للقبيلة حوالى سنة 850 للميلاد . وقد أسقطت (حوالى سنة 980) على يد جماعة مانة Manna . . . وهى مشيخة من سونيك . وبموجب ما أورده البكرى تعد هذه العائلة التى حكمت تكرور أول أسرة زنجية تعتنق الأسلام . (Trimingham, 45)

وفى القرن الحادى عشر كانت تكرور موطناً لجماعة التوكـولور Tucolor التى استوطنت من بعد فى فوتا Futa حيث ما زالوا يعـرفون حتى الآن بـاسم التكارير . وكان التوكولور ، على غـرار السونيـك فى غانـا ، تجاراً يتسمـون بـالبراعـة والفعاليـة العاليـة . فقد كـانوا يـرسلون ايضاً الـذهب والفضـة الى المغرب ، ولكن يبدو أنهم كانوا يهتمون كذلك بالمزيد من التجارة المحلية . وكانوا يستوردون الملح من أوليل Aulil على مصب نهـر السنغال لكى يـوزع على قسم كبيـر من السودان الغـربية . وكـان عملهم الأساسى نسـج نوع من القماش الخشن اطلق عليه البكرى اسم «الشقوية» ولا بد ان يكـون هو نفس قماش «الجيزلى» الذى اشار اليه كاداموستو فى القرن الخامس عشر باعتبـاره منتوجاً محلياً ، وهو نفس قماش «الشيق» الذى اشتراه بارت Barth فى تمبكتو فى القرن التاسع عشر[9] .

ومن بين القبائل التى كان التوكولور يغيرون عليها من اجل الرقيق ، قبيلة الفراوى Feraui التى كانت ، بحسب ما اورده البكرى ، فى حاجة مـاسة الى الملح ، حتى أنها كانت تقبل مبادلته بما يعـادله من وزن الـذهب الذى كـان متوفراً فى بلادها[10] .

وما من عداء بين جماعة التوكولور وبين السونيك فى غانا كان اشد من العداء بين هؤلاء الاخيرين وبين المرابطين. ومع أن الكثير من جماعة السونيك كـانـوا من المسلمين ، ولم يكن دينهم ليحـول بينهم وبين تـولى المنـاصب العالية ، فقد ظلت غانا فى غالبيتها وثنية ، ولذلك كانت مصدراً يهـدد سيادة المرابطين فى الصحراء الغربية . كان القضاء على غانا هدفاً يطمح اليه كل فرد فى فرقة المرابطين ، ولا بد أن ابا بكر كان يفكر فى ذلك حينما سلّم الجيش الشمالى الى يوسف وعاد الى الصحراء . ولم يتحقق ذلك إلا بعد اربع عشرة سنة حينما استولى يوسف على كمبى ، واباح قتل سكانها ، وافلح فى فرضه الاسلام على جميع البلاد التى اصبحت هى وحقول ذهبها اقطاعـة فى ايدى المرابطين .

على ان الآثار التى نجمت عن سقوط غانا لم تكن بعيدة المدى كما كان

متوقعاً ، فقد انهار المرابطون فى الجنوب اسرع من انهيارهم فى الشمال . فبعد القضاء على العدو المشترك ، عادت الضغائن والحزازات بين القبائل الى الاندلاع مرة اخرى ، وهى نفسها التى اضعفت المرابطين فى ايامهم الأولى . فبعض القبائل ، ومن بينها المصوفة واللمتة ، رفضت الخدمة تحت أمرة اى رئيس من قبيلة اللمتونة ، التى كانت دائماً اهم قسم فى فرقة المرابطين . كما أن قبيلة الجدالة قد ظلت ، كما هو شأنها دائماً ، منعزلة وخارج الجماعة . وبوفاة ابى بكر فى سنة 1087 تقوضت هيمنة المرابطين فى الصحراء وانحلت تماماً .

ومن هذا الوجه استطاع السونيك فى غانا ، بعد فترة لا تجاوز العقد كثيراً ، ان يستردوا استقلالهم ، ولكنهم كانوا ، مثل المرابطين ، منقسمين على انفسهم ، بسبب الاحقاد القبلية . فالقبائل التى توحدت وساندت المملكة ، اخذت كل منها الآن تريد الاستقلال التام ، ولم تعد مستعدة للتضحية باى شيء فى سبيل الخير العام .

وفى سنة 1203 استطاعت سوسو Susu ، وهى من اقوى القبائل ، أن تستولى على كمبى . وتعرضت هذه السوق الكبيرة الى نتائج وخيمة . فسارع التجار العرب وبعض التجار الأثرياء من جماعة السونيك فى الخروج الى الصحراء ، وبنوا لانفسهم بلدة جديدة على بعد مائة ميل الى الشمال فى موقع تنزل فيه القوافل يسمى والاته Walata . وقد ازدهرت هذه السوق الجديدة ، واصبحت واحدة من اهم الاسواق فى جميع الصحراء الغربية . وفى الوقت نفسه اختفت كمبى من التاريخ *(11).

---

* فى القرن الرابع عشر أشار كل من أبى الفداء وابن خلدون الى كمبى كما لو كانت موجودة فى زمنهما . ومن المحتمل أنهما كانا يخلطانها بوالاتا التى وصفها مارمول ، بعد قرنين ، باسم غوالاتا . وقد استشهد مونتيل Montiel بأبى الفداء وابن خلدون ، فى كتابه : « امبراطوريات مالى » ، نشرة لجنة الدراسات التاريخية والعلمية عن أفريقيا الغربية الفرنسية ، باريس ، 90.1930 . واستشهد دولافوس Delafosse بمارمول Marmol فى كتابه « السنغال والنيجر الأعلى » المجلد الثانى ، 952 . ومن الجائز أن انحطاط كمبى يعود ايضاً الى زيادة الجفاف ، الذى يحتمل حصوله بسبب الأفراط فى رعى الماشية .

الفصل التاسع

منسا موسى ملك مالي وعاهلها الكبير

«ان اهل هذه المنطقة يفوقون كل الزنوج الآخرين ذكاء ، ولطفاً ، ونشاطاً » .

ليو الأفريقي

عندما استولت سوسو على كمبى كان أفقها يتعتم بنمو قوة اخرى تنتمى إلى نفس العرق ، وهى جماعة المادنجو Madingo فى مالى ؛ وكانت آنذاك مملكة ضئيلة الشأن تمتد من باخوى الأعلى متجهة الى الشرق عبر النيجر . وخلافاً لقبيلة سوسو الوثنية ، كانت قبيلة المادنجو قد اعتنقت الاسلام فى الايام الأولى من حركة المرابطين (1) ، ولعله فى هذا يكمن بعض اسباب الجفاء والخصومة بين القبيلتين . ومن المحتمل أن قبيلة سوسو ، وهى نشوانة باستيلائها على كمبى ، كانت تبقى فى ذهنها الطموحات التى يمكن أن تتدخل بها مالى . فحاولت أن تبعد أولئك المنافسين المحتملين وذلك برسم الخطط للقضاء على أحد عشر اخاً كانوا الورثة الشرعيين لعرش مالى . وكان هناك الاخ الثانى عشر سندياتا Sundiata ، وقد ترك لأنه كان طفلاً مريضاً ، وكان المظنون أنه لن يستطيع البقاء طويلاً . وكان هذا الاغفال حدثاً سعدت به مالى ، كما كان كارثة على سوسو . فقد نما سندياتا قوياً ، ولما بلغ أشدّه وجّه قدراته الفذة فى كل مجال حسن حتى اصبح مؤسس امبراطورية عظيمة . وبالرغم من مرور سبعة قرون بدون أية وثائق مكتوبة ، فان سندياتا أو مارى جاتا Mari Jata ، كما صار يسمى ، ما زال يعد حتى الآن البطل القومى لجماعة المادنجو (2) .

ولما ارتقى سندياتا العرش ، كان وضعه متقلقلاً ، ليس بسبب قبيلة سوسو ، بل لأن شعبه بالذات ما كان يحبه ، ولذلك احاط نفسه بزمرة من الاشخاص المستعدين للقيام باى عمل ، وقد تمكن بواسطتهم أن يحافظ اولاً على استقرار النظام فى صفوف شعبه ، وان يقدم من بعد على شن سلسلة من الحروب العدوانية على جيرانه الأقل قوة واقتداراً . وقد احرز الانتصار فى كل حملة خاضها ، وفى كل فوز كان يضاف إلى جيشه الخاص قوة جديدة . واصبح مركزه لدى شعبه الآن منيعاً ، ولكن تحقيق ذلك قد افضى الى خلق عداوة شديدة بينه وبين قبيلة سوسو التى انتهك حرمة اراضيها خلال حملاته . وقررت سوسو النزول الى الميدان لمقاتلته قبل أن تحظى مالى باية قوة جديدة . ولكن الوقت كان قد فات منذ أمد . وفى سنة 1235 قضى على جيشهم فى معركة كيرينا Kirina التى يحتمل أن تكون فى شمال كوليكورو Kulikoro . واستطاع الآن أن يطلب الجزية من اناس ينتشرون على مساحة واسعة من الاراضى تزيد على مساحة غانا القديمة ، فقد امتدت سلطة مالى الى الصحراء شمالاً ، والسنغال العليا غرباً ، والنيجر شرقاً .

وحتى ذلك الوقت كانت عاصمة مالى فى جريبة Jeriba (القسم الأعلى من باماكو الحديثة) ، ولكن سندياتا نقلها الآن الى بلدة نيانى Niani المجاورة التى كان يشار اليها غالباً باسم مالى ، واحياناً باسم مانده * . ولم ينزل سندياتا مرة أخرى الى ميدان القتال ، ولكن جيوشه استمرت على توسيع الحدود ، وبخاصة فى الغرب حيث وصلت الى نهر غامبيا ومستنقعات تكرور . وغدت مالى من اقوى الممالك فى السودان الغربية ، على أن شهرتها التالية فى اوربا ما كانت ترجع الى سعة اراضيها بقدر ما كانت ترجع الى ثروتها الضخمة التى كانت تحصل عليها من حقول الذهب فى وانغارا . ومع ذلك ففى حدود المناجم ما كانت قبيلة المادنجو تتمتع بالسيادة التامة فى ادارتها ، ذلك أنها وجدت فى الحفارين الوثنيين الجبناء نداً ومنافساً لهم . وكان جواب

* الواقع أن مالى كلمة من لغة الفولفولد للدلالة على ماندة . والفولفولد هى لغة الفولانيين .

هؤلاء الأخيرين الثابت والمستمر ازاء الجهود المتكررة التى يبذلها قاهروهم لفرض الاسلام عليهم ، هو التوقف عن الانتاج . ولذلك لم يكن امام المادنجو من وسيلة تضمن استمرار تدفق الذهب الذى تعتمد عليه تجارتهم المزدهرة ، إلا أن يتركوا تلك الجماعة وشأنها .

وقد برهنت أسرة سندياتا أنها جديرة بمؤسسها . ففى عهد حفيده منسا موسى ، الذى ارتقى العرش فى سنة 1307 ، بعد نصف قرن من وفاة سندياتا ، انتشرت شهرة مالى الى اوربا والشرق الاوسط . ويعود كل ذلك تقريباً الى قيام منسا موسى باداائه الحج الى مكة . فقد كانت الابهة والفخامة التى رافقت تلك الزيارة قد اثارت من المشاعر فى القاهرة والاماكن الأخرى التى شاهدت مرور قافلته الرائعة ، ما جعل اسم ملك مادنجو يتردد فى جزء واسع من العالم المتمدن .

شرع منسا موسى بزيارة الحج فى سنة 1324 ، السنة السابعة عشرة من حكمه ، مصحوباً بمجموعة من اتباعه . إنا نعرف أنه مرّ بوالاتا وبطواط Tuat . ولكن لا يعرف أى طريق سلكه من هناك الى القاهرة . ومن المحتمل أن يكون قد مرّ عن طريق وارغله Wargla ، ومن هناك سار على طول ساحل سرت ، وبذلك اتيحت الفرصة للتجار القادمين من اجزاء عديدة من اوربا بقصد المتاجرة مع افريقيا ، أن يشاهدوا البهاء الذى يرافق سفره قبل وصوله القاهرة . كان منسا موسى يمتطى صهوة جواد ويتقدمه 500 من الرقيق يحمل كل منهم عصا من الذهب تزن 500 مثقال * . وفى القاهرة كانت شعبيته تعود الى تقواه ووافر كرمه اكثر مما تعود الى البهاء والجلال اللذين احاط العاهل الزنجى نفسه بهما . وكانت بشرته الباهتة التى وصفت بنعوت شتى كالحمرة والصفرة ، غير متوقعة واسهمت فى المشاعر التى أثارها . وبالرغم من الموكب العظيم الذى رافق حجه لا يبدو أى دافع سياسى من ورائه . وقد

---

* كان المثقال يعادل حوالى $\frac{1}{8}$ الأونس من الذهب .

رفض أولاً القيام بزيارة المجاملة المعتادة للسلطان المالك النسيان (وهو من المماليك) بسبب الحاجة الى تقبيل الارض فى حضوره . على أن الترتيبات الواسعة التى أعدها السلطان لراحة ضيفه استعداداً لمواصلة سفره بينت بجلاء أنه قد بذلت اقصى ما يمكن من الجهود فى تكريمه . ولم يظهر أى أثر يستشف منه ذلك الازدراء التقليدى الذى يبديه ابناء الشرق المتحذلقون ازاء الزنوج (3) .

وقد وجد العمرى ، الذى زار القاهرة بعد منسا موسى باثنتى عشرة سنة ، ان اهالى المدينة ما زالوا ينشدون الاغانى بمدحه . وتروى جموع من صغار الموظفين الذين يتطفلون عادة على الاثرياء قصص هداياه من الذهب الذى جلب منه معه ما بين 80 أو 100 حمل بعير ، يزن كل منها ثلاثة قناطير (حوالى 300 باوند) . وقد استفاد الكثيرون من التجارة المربحة التى اجروها مع اتباعه السذج الذين كانوا يمتازون بالبساطة الى جانب حسن التصرف ، وكانوا لا يترددون من دفع خمسة دنانير لشراء ملبس قيمته دينار واحد فقط . وكان اكثر ما يهتمون به الملابس الفاخرة والرقيق من النساء . وعلى أثر هذا التبذير من السودانيين والسخاء المفرط من ملكهم ، تدفق بسرعة الى التداول فى مصر قدر واسع من الذهب بحيث إن قيمته السوقية قد هبطت هبوطاً حاداً ، وما كان الذهب قد استرجع قيمته السابقة حتى زمن العمرى .

ولم يقتصر منسا موسى فى عرض ثرائه الواسع على القاهرة وحدها . فقد كان ينثر الذهب حيثما ذهب ، وكانت عطاياه الخيرية فى المدن المقدسة على جانب متميز من السخاء . ولذلك لم يكن بمستغرب أن يجد عند عودته الى القاهرة وهو فى طريقه الى بلده أن موارده التى حملها معه قد اشرفت على النفاد . ولكن هذا الوضع لم يربكه كثيراً ، وذلك لامكانية الحصول بسهولة على موارد موقتة تسد حاجة ملك على عرش بلد ينتج من الذهب ما يبهر الابصار . وكان من الذين تقدموا لمد العون اليه تاجر من الاسكندرية ، تبعه طوال الطريق الى السودان لكى يسترد قرضه . ومات الرجل فى تمبكتو ، ولكن منسا موسى دفع الى ورثته كل حقه (4) .

وقبل أن يكمل سفرة العودة سمـع منسا مـوسى أن مدينـة جاو Gao ، عاصمة السونجاى Songhai قد سقطت بيد احد قواده . وكانت سونجاى مملكة مهمة تقوم على ضفة النهر ، تمتد على طول الجزء المتوسط من نهر النيجر لمسافة الف ميل باتجاه مجرى النهر من حدود مالى . وهذه الانباء عن الاضافة الهائلة الى ممتلكاته قد حملت منسا موسى على تحويل خط سيره وزيارة جاو . وتقبل هناك خضوع ملك سونجـاى شخصياً ، ولكى يضمن اخـلاص تابعـه الجديد أخذ معه الى مـالى بصفة رهينـة اثنين من ابناء الأخيـر ، على قولن وسليمان نار .

وضمّت حاشية منسا موسى شاعراً أندلسياً تعرف عليه فى مكة فتعلق به واقنعه بالدخول فى خدمته. وكان هذا الشاعر الذى اسمه «الساحلى»، يحسن الى جانب الشعر الهندسة المعمارية . وكانت اول مهمة كلفها به سيده الجديد أن يغير مبنى متواضعاً فى جاو اتخذ مسجداً ، وأن يشيد بدلاً عنه بناية أفضل تليق بعبادة الله . وقد بنى هذا المسجد الجديد بالآجر المشوىّ الذى لم يكن استعماله معروفاً فى السودان حتى ذلك الوقت ، وظل قائماً بعد أن مرّت عليه ثلاث مائة سنة ، كما أن أسسه قد قاومت البلى والاندثار .

وكانت فى سونجاى بلدة اخرى تنافس جاو فى اهميتها، وكانت تضع فى متناول منسا موسى اسرع طريق الى بلده بواسطة نهر النيجر . هذه البلدة هى تمبكتو ، وتعود اهميتها الى موقعها الجغرافى ، فقد كانت مكاناً يلتقى فيه من يسافر على اليابسة ومن يسافر على الماء ، ويلتقى فيه بدو الصحراء كما يلتقى فيه من يعيش من الاقوام على ضفاف النيجر . كانوا يلتقون هناك لمبادلة الملح والتمور والسلع المحمولـة من الغرب فى مقـابل الحبـوب ، وجوز الكـولا ، وتـراب الذهب من السـودان . وكان التجـار فى الأول يقيمـون فى خيم يبلغ عـددها قـرابـة 1100 خيمـة . ثم بـدأت هـذه الخيم تتحـول الى اكـواخ من الاعشاب ، ثم تحولت هذه الى مساكن أطول دواماً مبنية من الآجر المجفف بالشمس ، كما تشاهد اليوم هناك . وبعـد قرنين اصبحت مستـودعاً للتجـارة المـارة بين جين Jenne ووالاته WALATA ، واصبحت قـرية كـابارة Kabara

السمكية المجاورة ميناءً لها . ان موقع تمبكتو بالقرب من نهر صالح لملاحة يمر بقسم كبير من السودان الغربية قد جعل لهذه البلدة مزية عظيمة تتفوق بها على الاسواق المجاورة التى صارت تجارتها تتحول تدريجياً الى تلك البلدة (5) .

وجلب الرخاء التجارى معه الثروة والثقافة معاً . فاستولت تمبكتو على تجارة والاته اولاً ثم استحوذت على ثقافتها ، وكلتاهما كانتا فى ايدى جدالة ، الطبقة المثقفة فى الصحراء . وهؤلاء الناس الذين هم على استعداد دائماً للتكيف وملاءمة نفوسهم مع الظروف المتغيرة ، قد جاءوا فى الاصل من أدرار فى موريتانيا ، حيث هاجروا منها الى كمبى عندما اصبحت سوقاً مهمة . وعندما استولت سوسو على كمبى فى القرن الثالث عشر ، انضمت الجدالة الى الهجرة الجماعية التى توجهت الى والاته وانشأوا فيها مركزاً للعلم والمعرفة . ولما اخذت والاته تفقد تجارتها لصالح تمبكتو تبعتها الجدالة . وظلت هذه الجماعة هناك زمناً طويلاً تمارس العلم كما تمارس التجارة ، وكانت هى أول من اتاح للمدينة شهرة علمية بوصفها مقراً للمعرفة ، كما انها كانت تعد على الدوام وبصورة منتظمة الائمة المتفقهين للمسجد الرئيس . واشهر علماء الجدالة هو احمد بابا ، وكان مؤرخاً يستشهد السعدى بآرائه كثيراً * .

وفى عهد منسا موسى كانت التجارة والمعرفة قد ترسخ مركزهما فى تمبكتو ، واستفادت كلتاهما من تغير الحاكم . فقد شرع الساحلى فوراً بالاعمال لتشييد مسجد جديد بالاضافة الى بنائه قصراً للملك . وسرعان ما

* ولم يكن نشاط الجدالة التجارى والعلمى مقتصراً على الصحراء الغربية . فقد ترسخت مكانة الجدالة فى المغرب ثم فى البرتغال ، ويحتمل أن هذا كان عن طريق تزاوجهم فى أفريقيا مع اليهود البرتغاليين . وفى القرن الخامس عشر كان الطبيب الخاص لملك البرتغال دوارته Duarte استاذاً من الجدالة ، وكان فى الوقت نفسه فلكياً يعمل فى القصر الملكى ، ويقال إنه هو الذى استخدم خريطة البروج ليكشف عن طالع الأمير هنرى الملاح . وقد ورد هذا فى كتاب « تاريخ غينيا » . ومؤخراً فى القرن التاسع عشر كان البيت التجارى الأساسى فى مراكش هو الجدالة وشركاؤه Guedalla and Company .

اصبحت البلدة اهم سوق فى القسم الداخلى من افريقيا ، واشتهرت بوصفها المستودع الاساسى للتبر أو غبار الذهب ، وتوجهت اليهـا التجارة من جميـع الانحـاء ، من دراعـة ، ســوس ، سيجلمـاســة ، ومن فـاس فى المغــرب الاقصى ، ومن طـواط Tuat ، غدامس ، الفـزان ، وعجيلة فى الصحراء ، وكذلك من مصر التى نشطت تجارتها مع السودان على أثر زيارة الحج التى قام بها منسا موسى . وجاء مع التجار رجال الادب وعلماء الدين من بلدان عديدة ليجتمعوا حول العلماء البارزين من الجدالة فى جامع سنكور Sankore .

وتوفى منسا موسى فى سنة 1332 ، تاركاً وراءه امبراطورية تعد فى تاريخ الدول الافريقية الخالصة ، جديرة بالملاحظة فى سعتها وفى ثروتها ، كما تعد مثـلاً بارزاً على قـدرة الزنـوج فى مجال التنـظيم السياسى . فقـد امتدت من تكرور فى الغرب الى جاو وما بعدها فى الشرق ، واشتملت على قسم كبير من الصحراء . وامتدت الامبراطورية فى اتجاه الجنوب حتى الغابات . ومما يثير الغرابة ان البلدة الصغيرة جين Jenne ذات الاهمية التجارية والثقافية على صغر حجمها ، والتى تقع على مسيرة بضعة ايام فقط من نيانى ، والتى تحميها على نحو رائع شبكة من الانهار ظلت محتفظة باستقلالها .

لقد شاهد عهد منسا موسى توسعاً عظيماً فى تجـارة مالى ، يعـود على العموم الى مثابرته واهتمامه الشخصى المتواصل برعاية العلاقات الخارجية . فبالاضافة الى علاقات الصداقة مع مصر والجزيرة العربية التى ترسخت برحلته الشهيرة الى الحج ، كانت له علاقات ودية مع سلطان فاس المرينى . والواقع أنه كان أول من اخترق الستار الحديدى من التحيز اللونى الذى فصل الزنوج من العالم المتمدن ، وان يكسب للافريقى الحقيقى قدراً صغيراً من الاحترام الذى لا يمنح له غالباً حتى الوقت الحاضر إلا على مضض .

ويجـد المرء قـدراً وافراً من الادلـة على ما يقـرن ويلحق من السمعـة والشهرة بمالى وعاهلها الكبير فى خرائط الارض التى وضعها رسامو الخرائط الاوربيون الذين كانوا فى ذلك الوقت يبذلون الجهـود الجديـة الأولى لعرض

القسم الداخلى من افريقيا . ومن الخرائط الأولية التى تشير الى مالى وملكها الخارطة التى وضعها انجلينو دلسيرت Angelino Dulcert من اهالى ماجورقة ، تاريخها 1339 ـ اى بعد سبع سنوات فقط من وفاة منسا موسى . هناك فى وسط الصحـراء الغربيـة يبدو ملك مـالى جالسـاً على العرش ، مكتسيـاً المـلابس الملكية والتاج ، وبيده الصولجان (6) . ومع رغبة رسامى الخرائط فى التعرّف على منسا موسى نشـأ الاهتمام بكيفيـة الوصـول الى بلاده . فبيّن الخـرائطى دلسيـرت جبال الاطلس وهى مقـطوعة بـوادى سوس حيث يتفـرع منه طـريق يـذهب الى ارض الزنـوج . على أن اهتمام الأوربيين بـالقسم الـداخلى من افريقيا كان يقوم على اسس تجارية محضة . وفى اوائل القرن الخامس عشر بيّن خرائطى من فلورنسا ، جبال الاطلس يشقها نفس ذلك الطريق ويذكر «عن طريق هذا الممر يسافر التجار الذاهبون الى ملك مـالى»(7) . ويبين الاطلس المشهـور باسم شـارل الخـامس الـذى رسمـه ابـراهـام غـريسـك Abraham Cresques من اهالى ماجورقا فى حوالى سنة 1375 ، صورة تمثل الصحراء وفى وسطها رجل ملثم على جمل يسير متجهاً نحو ملك جالس على العـرش (8) . وتظهر هذا الأخير مرتدياً الملابس الملكية والتاج ، وهو يقبض على الصولجان باحدى يديه ، وفى اليد الأخرى كتلة من الذهب يقدمها الى راكب الجمل . وتقول الكتابة المنقوشة «هذا العاهل الزنجى يسمى موسى المالى ، وهو عاهل الزنوج فى غينيا . ان وفرة الذهب فى بلاده لهى من السعة بحيث جعلته اغنى وانبـل ملك فى جميع انحـاء الارض» * . واستمرت شهـرة العاهـل الزنجى الكبير زمناً طويلاً . حتى ظنه العديد أنه شخصية اسطوريـة لا تقل عمـا نسج حول بريستر جون Prestor John . ومن الخرائط الاخيرة التى يظهر فيهـا اسم منسا موسى خارطة والدسيملر Waldseemuller المرسومة سنة 1516 ، ويبدو أنها تلاشت من بين الخرائط لسبب واحد فقط ، هو النور الباهـر الذى سلطه ليـو

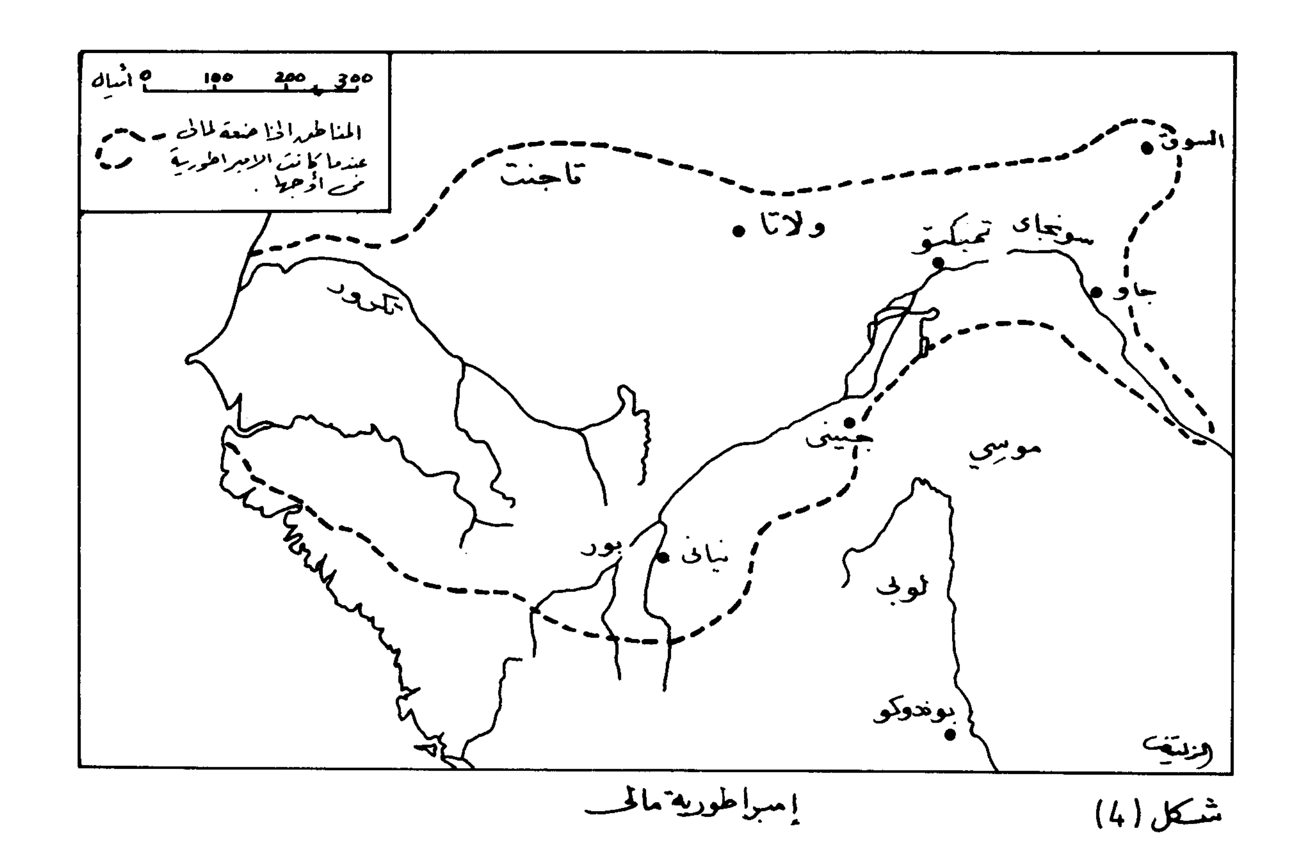
---

* توجد مثل هذه العبارات فى صورة نصف الكرة السماوية المرسومة فى ماجورقـة سنة 1413 وفى صورة أخرى رسمت فى البندقية سنة 1433 .

الافريقى على القسم الداخلى من افريقيا* (10) .

---

* كان رسامو الخرائط يجدون بعض الصعوبة فى التوفيق بين بعض سمـات الزنجى ، وبخـاصة شعـره القصير وتجـرده من الملابس ، وبين أفكـارهم عما ينبغى أن يكـون عليه مـظهر الملك الكبير . ففى رأيهم كانت اللحية مظهـراً أساسيـاً من مظاهـر شخصية الملك . وكـان دلسيرت يتمسك بالحذر حين جعل لمنسا موسى لحية قصيرة جداً . ولم يكن هذا ينـاسب المقام لـدى الرسامين التالين ، ولذلك جعلوا له لحية متدلية . وبمرور الزمن ظهر شعور آخر وهـو أن منسا موسى ، بالرغم من بشرته السوداء قد جعل دائماً يبدو قريب الشبه بالأوربى . ولذلـك اخذت صورته تظهر (على سبيل المثال فى نصف الكرة السماويـة التى رسمها جيم بـرترانـد Jayme Bertrand سنة 1482) وهو جالس على العرش ، متوج وعليه كسوة ، ولكن الرداء الملكى قد جعل بشكل معطف قصير ، والأقسام الأخرى تركت عارية تماماً . ولم يهمل رسـامو الخـرائط هذه الفرصة التى تهيأت لهم فى هذا المجال للتأكيد على صفة جسدية متميزة مزعومة للزنجى .



شكل (4) إمبراطورية مالي

الفصل العاشر

ابن بطوطة : رحالة الى السودان منذ القرن الرابع عشر

« من لا يسافر لا يعرف قيمة البشر »

مثل مغربى

بعد وفاة مانسا موسى تدهورت أوضاع مالى بسبب ما ظهر لدى خلفائه من الأسراف والعجز وجوانب الضعف. وانتقل العرش أولاً الى ابنه ماغان الذي سمح خلال أربع سنوات من حكمه أن يتعرض ميراثه العظيم الى نكستين كبيرتين كانت احداهما كارثة شديدة . فبعد زمن يسير من توليه الملك قام موسى Mossi من ياتنكا فى فولتا العليا بالاغارة على تمبكتو ، وقضى على حامية مادنجو وحرق المدينة [1] . ومن الصدف السيئة أن وفداً من أبى الحسن أعظم سلاطين فاس المرينيين كان متواجداً فى تمبكتو خلال ذلك الوقت . (كانت تجارة فاس تهم كثيراً أهالى مادنجو) .

ثم حصلت حادثة كانتِ لها آثار بعيدة المدى . فقد أعاد ماغان بدون تحفظ أو احتياط الحرية التامة للأميرين السونجايين Songhai على كولين وسليمان نار اللذين كان أبوه قد احتفظ بهما رهينين بعد الاستيلاء على جاو Gao . وقد شعر الشابان أن تغير الحاكم قد يعنى فرصة مناسبة يتاح فيها لبلدهما أن يسترد حريته . فأفلحا فى الهرب الى جاو واستردا مادنجو من سيطرة العاصمة . وأعلن على كولين نفسه ملكاً على سونجاى ، ونجح فى ترسيخ ملكه وأقام فى عاصمة أبيه القديمة ولم يعد فى مقدور أحد أن يصرفه عنها .

وتولّى بعد ماغان عمه سليمان ، أخو منسا موسى ، وقد بذل كثيراً لاصلاح الشوائب والمفاسد التى ارتكبها أبن أخيه . ومع أنه أخفق فى استرجاع جاو ، فقد أعاد السيطرة على معظم أقاليمه . وقد سعى سليمان حثيثاً لتعزيز الاسلام وتقوية شوكته ، فبنى المساجد ، وأقام ممارسة الصلاة الاسبوعية ودعى الفقهاء والعلماء الى بلاده . واحتفظ بعلاقات ودّية مع المرينيين فى المغرب ، وأرغم العديد من المجتمعات فى جنوب الصحراء على الاعتراف بسيادته (2) .

ومن أهم المناطق أهمية لمالى بلدة تاكيدا Takedda وكانت مركزاً مزدهراً لتجارة القوافل . واسم البلدة مقتبس من الكلمة الطوراقية تجدا Teguidda التى تعنى « الربيع » . أما موقع هذه البلدة فقد كان بالقرب من الخرائب الواسعة الموجودة فى منطقة أزيلك Azelik التى تبعد قرابة 150 ميلاً فى الجنوب الغربى من أغادس Agades . وتبعاً لما أورده ابن خلدون فان البلدة كانت تبعد مسيرة 70 يوماً فى الجنوب الغربى من مدينة ورغلا Wargla التى كانت لها معها علاقات تجارية وثيقة . وكان المعتاد أن تخرج قافلة من 12000 جمل مرة فى السنة تمر ببلدة تاكيدا فى طريقها من نيانى Niani الى القاهرة . وحتى لو تجاوزنا عن بعض هذا الرقم لاحتمال المبالغة ، فان المتبقى يشير الى أن التجارة بين مالى ومصر كانت واسعة بدرجة ملحوظة . ومع ذلك فان تاكيدا ما كانت تعتمد فى رخائها على تجارة المرور بل على ما لديها من مناجم النحاس التى كان المغرب ،مصر مالى، الهاوسا، وبورنو تعتمد عليها فى سد حاجاتها الى هذا المعدن الثمين . وقد ذكر منسا موسى مرة أن هذه المناجم هى أهم مصدر للموارد فى بلاده . وقد وجدت أعمال قديمة لاستخراج النحاس من المناجم على بعد بضعة أميال من شرق أزيلك وفى مواقع أخرى فى المنطقة نفسها (3) .

وأهم حدث يهمنا فى عهد سليمان هو زيارة الرحّالة الشهير ابن بطوطة لمالى ، فنحن مدينون فى الكثير من معلوماتنا عن العالم الاسلامى فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الى ما أورده من الأخبار والروايات . فقد أرسل

ابن بطوطة الى السودان من قبل ابى عنان الذى استولى على العرش المغربى من أبيه أبى حسان . لقد خرج للرحلة سنة 1352 ، وسار فى طريقه ماراً ببلدة سيجلماسة حيث أعد هناك قافلته الموسومة تاغازا Taghaza، ومر بمكان يسمى تاسارحلة Tasarahla ، الذى كان آنذاك مكاناً صحراوياً مهماً للتوقف فيه . واستراحت القافلة فى هذا الموقف عدة أيام حتى تصلح القُرب ويعاد ملؤها بالماء . ومن هذا المكان ايضاً ارسل التكشيف ، وهو رسول جرت العادة أن يذهب قبل القافلة الى والاتا Walata ليعلن فيها اقتراب القافلة ، ولكى ترسل منها المياه الى القافلة فى الصحراء ، واذا حصل أن أخفق التكشيف فى الوصول ، وكان ذلك يحصل فعلاً أحياناً ، ولم تصل المياه فذلك يعنى احتمال هلاك القافلة فى الصحراء .

وفي هذه المناسبة ، كان « التكشيف » ، الذى دفع اليه مئة مثقال من الذهب ثمناً لخدماته ، لا يبصر تقريباً . وليست هذه الملاحظة خالية من القيمة . ذلك أن ليو الافريقى الذى سلك هذا الطريق نفسه بعد قرن ونصف القرن يشير الى أن احدى القوافل قد فقدت طريقها وأن دليلاً أعمى هو الذى أنقذها ، فقد كان يركب جمله ، ويطلب أن يجلب اليه بعض الرمل كلما قطعوا ميلاً واحداً ، وبشمه الرمال كان يبين موقع المكان فى الطريق * (4) .

---

* وفى السنوات الحديثة استخدم دليل أعمى لأرشاد القوافل عند عبورها 90 ميلاً خالية من المياه بين أم قبور فى تلال البحر الأحمر وبين وادى النيل (Sons of Ishmael, P. 69 W.G. Murray) . وفى خبرة الكاتب الحاضر ليس الأفارقة بأفضل حالاً من الأوربيين فى العثور على طريقهم أثناء عبورهم بلاداً لا يعرفونها . ولكن يبدو أن الذين اعتادوا الأسفار الطويلة جداً ، وهم مثل معظم البدو ، يحتفظون باحساس الأتجاه والشعور به ، وهذا يجعلهم الى حد كبير مستقلين عن الأعتماد على البصر . وليس بمحتم أن يفقد الأنسان المتحضر هذا الأحساس وقد ظهر ذلك جلياً فى الحرب العالمية الثانية حين كان أحد البحارة بعيداً فى بحر الشمال ولكنه فاجأ البحرية الملكية بعثوره على طريق العودة الى الميناء خلال الضباب الكثيف بدون أن يستخدم أية آلة . ففى بعض الظروف ، كما يتبين مما أورده ليو Leo ، يمكن أن تكون حواس اللمس والشم أكبر قيمة لأحد الأدلاء من بصره . وعلى سبيل المثال يبين ملدرد كابل Mildred Cable (The Gobi Desert, P. 11) أنه فى صحراء جوبى يمكن بواسطة الحصى الملتقط من الفضاء الواسع أن يبين الموقع الفعلى الذى التقط منه ذلك الحصى . وعلى هذا المنوال

ومن حسن الطالع أن كل شيء كان يجرى على ما يرام أمام ابن بطوطة الذى بيّن مدى ابتهاجه فى اليوم السابع من مغادرتهم تاساراحلة حيث شاهد هو وأصحابه النيران التى اوقدها أولئك الذين قد جاءوا لمقابلتهم .

وبعد شهرين من مغادرتهم سيجلماسة وصلت القافلة والاتا ، وهى أبعد مركز فى شمال مالى وبمنزلة العتبة للسودان ، وكان لأبن بطوطة صديق تاجر هناك من منطقة سالى Salee ، وكان قد كتب اليه طالباً أن يستأجر له منزلاً . ولذلك فقد يحملنا الاعتقاد على أن كل شيء سوف يوفّر لتكريم هذا الزائر الوجيه . ومع ذلك فقد كشفت الأيام أنه كان ضيفاً شاذاً غريب الأطوار . فلم يكد يصل المدينة حتى أخذ بالتأسف على قدومه ، لا لشيء إلا لأنه اشمأز من مشاهدة الزنوج يتصرفون تصرف السادة فى بلدهم وملكهم ، ولم يكن قد عرف عنهم حتى ذلك الوقت سوى أنهم مجموعة من الرقيق . وكان يعبر عن مشاعر الألم التى تواجه شخصاً قدّر له أن يزور كل الأقطار الاسلامية من المغرب الى الصين ، ثم إذا به يزور بلداً كل أهله من السود . وعندما دعاه موظف من مادنجو ودعا أصحابه أيضاً لزيارة بيته رفض الدعوة . ومع أن أصدقاءه أقنعوه بالذهاب فان الحفلة لم تحقق نجاحاً يذكر . وهو يقول « قدم

= ذكر شو Shaw مرة للمؤلف أن الألواح المتداخلة الموجودة فى ساحل جيزل Chesil Beach كانت تتيح لصيادى الأسماك النازلين هناك فى الظلام أن يخبروا أين هم من الساحل بلمسهم تلك الألواح . ويشير المستكشف دنهام Denham (J. of R. African Society, XXXV, 1936, P. 159) الى أنه فى الصحراء فى جنوب فزان يستطيع العرب احياناً ان يعرفوا بشمهم الأرض أين تقع الينابيع ، ولم يذكر عنهم أنهم كانوا يخطئون فى تعيين الموقع .

إن الإستعانة فى الصحراء الغربية بالأدلاء العميان الذين كانوا يجدون طريقهم عن طريق حاسة الشم قد أورده أيضاً توماس بيلو Thomas Pellow (Adventures, 1890, PP.195-9) وأورده جاكسون J.G. Jackson (An Account of Morocco, 1809, P.240, and An Account of Timbuctoo, 1820, P.5) .

أن الأدلاء العميان الذين قد يتصور المرء انتفاء الحاجة الى استخدامهم ، قد ورد ذكرهم عدة مرات فى أخبار متفرقة حول أسفار الصحراء ، وهذا يوحى أنهم كانوا يقدمون بعض الفوائد والمزايا التى يتفوقون فيها على الأدلاء المبصرين .

الطعام وكان يتألف من مسحوق بعض الحبوب المخلوط بقليل من العسل والحليب المعبأ فى قشرة من نصف يقطينة جعلت بشكل آنية واسعة . وتناول الضيوف وجبتهم ثم انسحبوا» . وقلت لهم «ألهذا كان السود قد دعوكم ؟» أجابوا «نعم» وأنه فى رأيهم من أعلى أشكال الضيافة ، وقد حملنى هذا على الأعتقاد أنه ما من خير يرتجى من هؤلاء الناس (5) .

ولهذا السبب قرر العودة فوراً الى المغرب مع قافلة للحج كانت على وشك المغادرة . ومع ذلك ومن حسن الحظ فقد قرر بعد أن وصل الى هذا الحد ، أنه من الأفضل له أن يذهب أولاً ويشاهد بنفسه كيف كانت عاصمتهم .

وقبل أن يواصل رحلته أنفق بضعة أيام أخرى فى والاتا . وهو يقول فى أخباره أن معظم الناس هناك كانوا من مصوفة Mesufa يرتدون ملابس مصنوعة من القماش المصرى الرقيق . كان لحم الضأن متوفراً لديهم ، وكانت نساؤهم يمتزن بجمال فائق ، ولكنه اعتقد أن المركز الاجتماعى المهم والحرية الممنوحة لهن تؤلف أموراً على جانب كبير من الغرابة ، أما العادة المحلية فى تواجد عدة أشخاص من أم واحدة وآباء متفرقين فقد كانت من أكثر الأمور اثارة لاستغرابه .

وارتحل ابن بطوطة الى نيانى Niani يرافقه ثلاثة فقط من أصحابه مع دليل ، فقد كانت البلد على جانب من الأمن والاستقرار بحيث لم تعد من حاجة للسفر ضمن مجموعة . ومع أن السفر الى نيانى كان يستلزم مسيرة أربعة وعشرين يوماً فانهم لم يحملوا طعاماً ولا ذهباً ولا فضة . كانوا يحملون للمقايضة الملح ، والخرز ، والمواد العطرية ، وكانوا يحصلون بها على أنواع الأطعمة المختلفة فى كل قرية يصلون اليها . ولما عبر ابن بطوطة نهر النيجر تصوره نهر النيل الجارى فى مصر . وقد وصف جريانه ومروره بمدن تمبكتو ، جاو ، ومولى فى بلاد الليمس Limis ، ومن هناك الى يوفى Yufi ، التى قد تكون مدينة نوب Nupe فى نيجريا . وهذا الاعتقاد بأنه كان يصف النيل آنذاك

قد جره الى خطأ محزن . واستمر فى وصفه قائلاً : «ومن يوفى ينحدر النيـل الى بلاد النوبة التى يدين أهلهـا بالمسيحيـة ، ومن هناك يتجـه الى الدنقلة (الدونقولا Dongola) التى هى البلدة الرئيسة[6] .

وفى نيانى وجد ابن بطوطة نفسه بين أبناء جلدته الذين فرحوا به وأدخلوا السرور الى نفسه . وكـان من سوء طـالعه أن داهمـه المرض فـور وصولـه ، فاعتنى به طبيب مصري . ولما استرد صحته بدرجة كافية تتيـح له أن يحضـر بلاط سليمان وجد أن الحفلات هناك ممتعة بحيث تستلزم الاشارة اليها ببعض التفصيل . فهذه المهرجانات كانت تشبـه من حيث أبهتها مـا كان يجـرى فى كمبى Kumbi . وكان الذين ينشدون المقابلة يتقدمون ملتفين ببعض الخـرق وينثرون التراب على رؤوسهم . وكان يعبر عن الاستحسـان بالـرنين من أوتار الأقـواس ، وتشاهـد هناك عنـزتان الغـرض منهما وقـاية المكـان من العيـون الشريرة . وبين الذين كانوا يزورون البلاط عند تواجد أبن بطوطة هناك جماعة من أكلة لحـوم البشر جـاءوا من وانغارا Wangara ، ويصف حفلتهم بقـوله : «استقبلهم السلطان بـدون شيء من مظاهـر التكريم ، وأعـطاهم هديـة رمـزاً للضيافة خادمة سوداء . فقتلوها وأكلوها ، وبعد أن لطخوا وجـوههم وأيديهم بدمها جاءوا الى السلطان ليشكروه . وأعلمونى أن ذلك هو الأمر المعتاد كلما جاءوا لزيارة بلاط السلطان» [7] .

ولا ريب فى أن طريقة سليمان فى الترحيب برعاياه من وانغارا قد أكدت مـا كان يحس بـه أبن بطوطـة من المخاوف الشـرسة ، ولكن زيـادة معـرفتـه بـالسودانيين قـد حملته على الاعتـراف ببعض سجايـاهم ، وبخـاصـة حبهم للعدل ، والأمن المستتب فى طرقهم . وقد شهد فى الواقع بمـا كان لهم من سحر ورقة ولطف فى الشمائل ، وكان فى هذا ، كما سوف نرى من بعد ، مثل شاهد آخـر من أبناء جلدتـه هو ليـو الافريقى ، وكـذلك كبـار المستكشفين الأوربيين الذين جاءوا فى الأزمنة التالية .

فقد كتب أبن بطوطة إن الزنـوج لديهم بعض السجـايا والصفـات التى

تـدعو الى التقـدير والاعجـاب . فقلما يتـورطون فى الـظلم ، وهـم يمقتـون الأعمال الظالمة ويشمئزون منها أكثر من أى قوم آخر . ولا يبدى سلطانهم ذرة من الرحمة تجاه أى واحد يرتكب أقل عمل مشين . ويسود بلدهم أمن تام . فـلا المسافـر ولا الساكن فى البلد يشعـر بالخـوف من اللصوص أو الاعتـداء عليه . وهم لا يصادرون ملكيـة أى انسان أبيض يمـوت فى بلدهم ، وإن لم تكن من قبيل الثروة ، بـل على العكس من ذلك ، أنهم يضعـونها أمـانة فى عهدة شخص آخر من البيض الى أن يأتى الوريث الشـرعى فيتسلمها . أنهم حريصون على رعاية أوقات الصلاة ، وهـم يـواظبون على أدائهـا مجتمعين ، ويربون أولادهم على التمسك بها . . . ومن بين عاداتهم السيئة ما يأتى : إن الخدم من النساء ، والبنات الرقيقات ، والشابات ، يخرجن ويمشين أمام كل انسان وهن عاريـات ، وليس عليهن أية قـطعة من الملبس . وتحضـر النساء مجلس السلطان وهن عاريات وليس عليهن شىء من الغـطاء ، كما أن بنـاته يتجولن وهن عاريات . وبالاضـافة الى ذلـك تورد عـادتهم فى وضع التـراب والرماد على رؤوسهم كعلامة على الاحترام . . . وعمل آخـر يثير الاشمئـزاز شائع بين العديد منهم هو أكلهم الجيف ، والكلاب ، والحمير[8] .

ويبدو أن ابن بطوطة قد تمتع فى نيانى ، فقد بقى هناك ثمانية أشهر . وفى نهاية فبراير من عام 1353 شرع فى الارتحال الى تمبكتو مستخدماً جمـلاً لأنه لم يكن يملك 100 مثقال من الذهب اللازم لركوب الفرس . ومن الواضح أن ابن بطوطة لم يفكر كثيراً ببلدة تمبكتو فهو لا يخبـرنا عن شىء يجـاوز أن الناس هناك هم من قبيل المتواجدين فى والاتا ، أى أنهم من البربر ، ويشير كذلك الى قبر الساحلى الشاعر المعمار من الأندلس . ومن هناك واصل رحلته بالماء فى اتجاه مجرى النيجر راكباً زورقاً شجريـاً (زورقاً مصنـوعاً بتجـويف جذع شجرة) ، وكان يتوقف فى قرى سـونجـاى ، حيث يحصل على اللحم والزبدة فى مقابل ما يقدمه من الملح ، والتوابل ، والخرز الـزجاجيـة . وفى أحدى هذه القرى أعطى غلاماً رقيقاً بقى معه سنوات طويلة من بعد عندما شرع فى تدوين قصة أسفاره .

واعتبر جاو واحدة من افخر مدن السودان ، ولكن لم يـوجد فيهـا شيء يجلب الانتباه ويستلزم التحدث عنه . وبعد أن قضى شهراً هناك ارتحـل الى تاكيدا مع قافلة من التجار كانت قد خرجت من غدامس Ghadames .

وقد تحدث عن سكان تاكيدا قائلاً أن ليس لهم من حرفة سوى التجارة . أنهم يرحلون الى مصر كل سنة ويستوردون كميات كبيرة من جميع الانسجة الرقيقة والجيدة المتواجدة هناك بالأضافة الى السلع المصرية الأخرى . وهم يعيشون فى ترف ويسر ويتنافسون حول ما يملكونه من عدد الرقيق ومن النساء اللواتى يخدمنهم . والناس فى مالى ووالاتا يسيرون على المنوال نفسه . وهم لا يبيعون أبداً الأناث المتعلمات من الرقيق ، واذا بيعت بعضهن ففى أحوال نادرة جداً وبأسعار عـالية . . . ويتـواجد منجم النحـاس فى ظاهـر البلدة من تاكيدا . ويستخـرج الناس المعـدن الخام من بـاطن الأرض ثم يجلبونـه الى البلدة ثم يصبونه فى بيوتهم . . . ويصدر النحاس من تاكيدا الى بلدة جوبيـر Gobir فى بـلاد الوثنيين ، ويصـدر الى زاغاى * Zaghay والى اقليم بـورنـو Bornu الذى يبعد مسيرة اربعين يوماً من تاكيدا (9) .

وعندما كان ابن بطوطـة فى هذا المـوقع دعى للعـودة الى فاس فشـرع بالرحيل ضمن قافلة تحمل 600 أمرأة من الرقيق وتمر فى طريقها ببلدان الأيـر Air ، الطواط Tuat ، وسيجلماسـة .

ومن المتعذر أن نقرأ أخبار ابن بطوطة عن غربى السودان بدون التأثر بما كان لهذه المنطقة من نشاط تجارى واسع . ويبدو أن تجارة القوافل التى تعبر الصحراء فى تلك الأزمنة كانت على جانب كبير من الضخامـة ، وأن الروابط بين المغرب والسودان كانت وثيقة وقوية .

---

* من المحتمل أن تكون هي مدينة زاغاري Zaghari التى ذكرها ابن بطوطة بأنها تقع فى الجنوب الغربى من بحيرة ديبو على النيجر . وتعرف المنطقة ايضاً باسم دياغا (Trimingham, Dyaga . 54, n2)

ويمكن أن نعرف شيئاً عن تنظيم التجارة مع السودان بالرجوع الى ما ورد عن بيت تجارى مهم فى تلمسان كان يتولى ادارة تلك التجارة . كانت المؤسسة التجارية تتألف من خمسة أخوة ، يطلق عليهم اسم المكّارى ، وكانوا خمسة شركاء متساوين . كان اثنان منهم يقيمان فى والاتا ، حيث يجمعان العاج والذهب ، وكانا احياناً يزوران الاسواق المهمة الواقعة فى الجنوب من مقرهما . وكانا يتزودان على وجه الاستمرار بالسلع التجارية الأوربية المرسلة من أخويهما الآخرين المقيمين فى تلمسان . أما الأخ الخامس وهو رئيس المؤسسة فقد كان يقيم فى سيجلماسة ، التى كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز شمالى فى تجارة القوافل ، وكان فى مقدوره وهو هناك أن يراقب عن كثب الأسواق وأن يخبر أخوانه بما يجرى حول تذبذبات الأسعار . ولا بد أن يكون أبو حامين ، ملك تلمسان ، فى ذهنه صورة من قبيل الأخوة المكارية حين قال إنه قد يطرد غير آسف جميع التجار عدا الذين كانوا يتاجرون مع السودان . فالأخيرون كانوا يجلبون ثروات كبيرة لمملكته ، ولكن الآخرين ما كان يأتى من ورائهم سوى الأفقار والأملاق [10] .

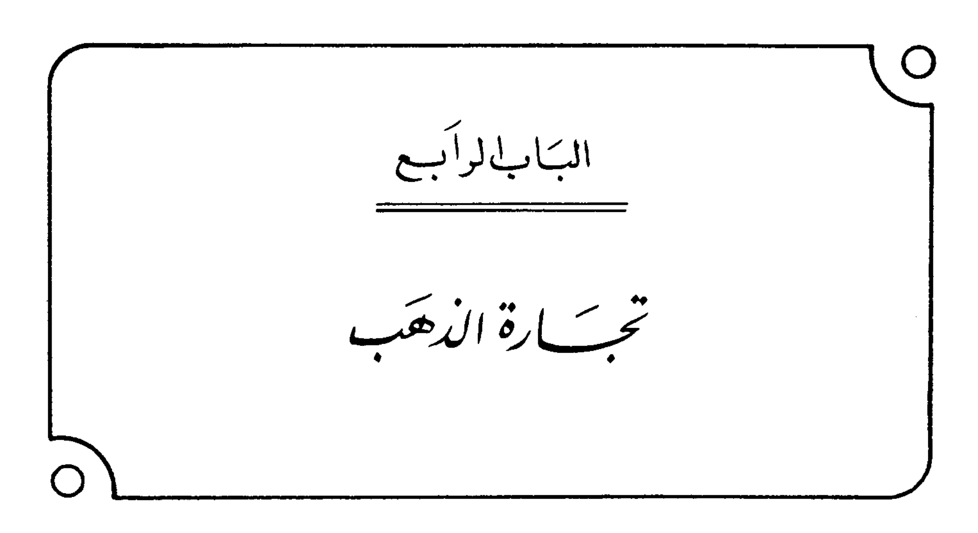
وفى مستهل القرن الخامس عشر لم يكن قد تبقى من سلطة مالى واقتدارها سوى ظل باهت عما كانت عليه فى زمن منسا موسى . ومن المحتمل أن جماعة مادنجو قد فقدت سيطرتها على تكرور Takrur ، ومن المحتمل ايضاً أنها لم تعد تسيطر على القسم الأعظم من سونجاى ، وإن ظلت ماسكة بزمام الأمور فى تمبكتو . أما مدى سيطرة هذه الجماعة ، أى جماعة مادنجو ، على الصحراء فقد كان دائماً عرضة للشك . وتبعاً لما يرويه ابن خلدون فقد كانت بعض القبائل البدوية من البربر مستمرة على دفع الجزية لملك مالى الذى يسميه بملك السودان ، أو ملك بلاد الزنوج * ، ويقول أنهم كانوا يجهزون جيش مادنجو بالرجال والجنود . أن ما نعرفه عن كرامة أهل

---

* إن أحد الألقاب الوراثية التى يحملها أمير كونتاغورا Kontagora فى نيجريا هو سركين السودان Sarkin Sudan الذى يعنى فى لغتهم ملك السودان .

الصحراء وكبريائهم قد يأذن لنا باثارة الشك حول مـدى السلامـة والصحة فى العلاقة الحقيقية بينهم وبين جيرانهم الزنوج .

وفى نهاية القرن الرابع عشر شـوهدت أوائـل الضعف والانحطاط التى اكتنفت مـالى . فقد أنهكت الحكـومة المـركزيـة بالمنـازعات العـائليـة على السلطة ، وأعلنت الولايات التابعة لها استقلالهـا ، أو وجدت نفسهـا مرغمـة على تقـديم الولاء والـطاعة لجمـاعة من الأسيـاد الجدد مثـل الـطوارق ، أو السونجاى ، أو المـوسيين Mossi . ومع أن الامبـراطوريـة كانت تتمـزق فى الشمـال والشرق ، فقـد ظلت سيادتهـا قائمـة فى الغـرب . وعنـدمـا وصـل البرتغاليون غامبيا فى سنة 1450 والسنوات التالية وجدوا أن جماعات المادنجو المحليين يعترفون بأن حاكم مالى هو سيدهم المطلق . وفى أواخر العقد من التسعينات (1490) وكذلك فى عقد الثلاثينات (1530) طلب حكام مالى من البرتغاليين أن يساعدوهم على أعدائهم . ولكن ما من شىء كان فى مقدوره أن يوقف تدهور الامبراطورية . واستمرت عملية التجزئة تمضى بخطى سريعة ، حتى إذا حلت نهاية القرن السابع عشر كان القسم المركزى والحيوى من مالى قد امتلأ بمئات الدويـلات القرويـة التى كان أحفـاد سن دياتـا Sun Dyata لا يحكمون سوى واحدة منها (11) .



الباب الرابع

تجارة الذهب

الفصل الحادي عشر

الهلال والصليب

« ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركـوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى »

القرآن ، سورة المائدة ، الآية 82 .

أن فتح شمالى أفريقيا على يد العرب المسلمين لم يؤد الى اختفاء المسيحية بسرعة ، فقد سمح للبربر المسيحيين التمتع بالحرية المدنية والدينية ، ما داموا يدفعون الجزية للفاتحين . فلم يفقدوا صلتهم بروما ، واعتاد البابوات ارسال القسس للقيام بالمهام الدينية بدون خوف من مضايقة المسلمين . وما أغرب تسامح العرب بالقياس الى تعصب شارلمان الشديد الذى كان فى ذلك الوقت نفسه ، يعرض على السكسون البرابرة من سكنة نهرى الألب والويزر أن يختاروا بين الموت أو التنصّر . وفى نهاية القرن التاسع وجد ما يقرب من اربعين مدينة أسقفية فى الأقاليم العربية . وما زالت قرطاجة حتى الآن المقر الرئيسى لكبير الأساقفة فى جميع أفريقيا . وفى بعض الأحيان كانت الحاجة أو المجاعة تدفع بعدد من رجال الدين الأفارقة المتسمين بالسماجة وغرابة الأطوار الى العبور الى ايطاليا ، وكان هؤلاء يسببون الكثير من الحرج للبابوات بسبب الغرابة فى طرقهم وتصرفاتهم ، وليس بأقلها شأناً أنهم ما كانوا يعتبرون العزوبة من الفضائل (1) .

ومع ذلك فان الظروف ما كانت تساعد على بقاء واستمرار هذه

الجماعات المسيحية المتناثرة . فلم تكن أمامهم من فرصة لتعزيز عددهم بآخرين من الخارج ، ولذلك فقد توجب عليهم فى آخر المطاف أن يندمجوا ويذوبوا فى الجماهير الواسعة من السكان المسلمين الذين كانوا يحيطونهم . كانوا يعيشون فى ظل التسامح ولكنهم كانوا مهملين . ولذلك فقد تحولوا تدريجاً الى طبقة راكدة لم يكن أمامها من أمل للتقدم الدنيوى إلا بالردة والتخلى عن العقيدة ، ولذلك أخذت بالميل الى هذا الاتجاه .

وكان من آثار الحروب والقرصنة جلب أعداد من الأسرى المسيحيين الى شواطىء أفريقيا وبيعهم ، كما يباع الرقيق . وقد أفلح بعضهم فى شراء حريته ، وعاد معظم هؤلاء الى بلدانهم الأصلية . ومع ذلك فان قلة من هؤلاء قد آثرت البقاء فى أفريقيا حيث وجدوا بعض الأعمال فى الموانىء ، وكان بعضهم يتفق احياناً مع زملائه لتكوين مستوطنات زراعية فى الداخل . وانشئت مستوطنة من هذا القبيل قرب القيروان وكانت تتألف من أهالى ساردينيا [2] . على أن هذه المستوطنات اتخذت فى الأخير لغة البلد ودينه واندمجت بالسكان المسلمين .

على أن هذه الجماعات المسيحية المتناثرة التى نشأت قبل الفتح العربى أو بعده لم يكن لها سوى دور ضئيل فى حياة المغرب . ومع ذلك فان طبقتين أخريين من المسيحيين تهيأ لهما تدريجاً نفوذ واضح . وهاتان الطبقتان هما طبقة المرتزقة وطبقة التجار اللتان قدر لهما تأثير بالغ فى الحياة السياسية والأقتصادية للبلد .

وما من سمة فى العلاقات بين أوربا وأفريقيا خلال العصور الوسطى قدر لها أن تلفت النظر مثل السمة التى كانت للمرتزقة المستخدمين فى المغرب . ويبدو أن العرف فى تكوين المرتزقة قد نشأ فى القرن الثانى عشر عندما استخدم المرابطون وكذلك الموحدون جنوداً من المسيحيين . واعترف الجميع بقيمتهم . ولم يمض بعض الوقت حتى غدت القوة العسكرية الفرنجية ، كما كانت تسمى ، نظاماً مستقراً يشمل جميع بلاد المغرب .

وكان الاهتمام الأول لكل سلطان تقريباً أن يعد لنفسه حرساً شخصياً من هؤلاء الفرنجة . كانوا يعتبرون صفوة مختارة فى كل مكـان . وما أثيـرت أبداً مسـألة المـطالبة بتغييـر دينهم . بل كـان العكس ، فقد وفـرت لهم الكنائس والقسس ، وكـان الغالب أن يـرأسهم ضباط من بنى جلدتهم وعقيـدتهم * . وكان البابوات يعنون دائمـاً برخـاء هؤلاء المرتـزقة وراحتهم ، وكـانوا أحيـاناً يجلبـون السخريـة لأنفسهم بافـراطهم فيما يـطلبونـه من الامتيازات الخـاصة لأولئك المرتزقة . ولم يكن هؤلاء المرتزقة شراذم من المرتدين والفـارين من وجه العدالة ، كما قد يتبادر الى الذهن ، بل كانوا على جانب كبير من التنظيم وحسن الانضباط ، وكان بين صفـوفهم العديـد من أشراف الـرجال من ذوى المحتد الكريم . ويحسن أن نتذكر أن الفارس المنوه عنه فى قصص كانتربرى Tales Canterbury بقلم جوسر Chaucer قد عمل ذات مرة فى بلاد المغرب . والكثير من هؤلاء المرتزقة كانوا ممن أصيبوا بالخيبـة فجاءوا الى أفـريقيا وهم جنود لهم حظ من الثراء ، أو فرسان وأمـراء يشعرون بـالسخط ، فتركـوا هم وأتباعهم بلدانهم التى تنكرت لهم ، وراحـوا ينشدون العمـل الذى يـلائمهم ويليق بهم لـدى سلاطين أفـريقيا . وكـان من هؤلاء فـردريـك من كـاستيليـا وفردريك لانزا الذى كان قد انبرى هو والعديد من المسيحيين الآخرين لمقاتلة سنت لويس عندما حط هذا ركبه فى البر التونسى عام 1270 (3) .

وكـان الناس من ايـطاليا ، وفـرنسا ، وكـاستيليا ، وانكلتـرا ، والمانيـا يخـدمون فى جيـوش مختلف السلاطين الأفـارقة ، وبخـاصة فى مـراكش ، وتلمسان ، وبوجى وتونس . وكان هؤلاء يجمعون بانتـظام فى أوربا بمـوجب ترتيبات تجرى مع الملوك المسيحيين المعنيين وبموافقة تامة من لدن السلطة البـابويـة . وفى سنة 1128 حصـل عبد المؤمن ، وهـو من الموحـدين ، على 12000 فارس من فرديناند الثالث لكى يخدموا لديه ضد المرابطين . على أنـه

* ومع ذلك ينبغى أن يلاحظ أن ليو Leo ، وهو من كتاب أوائل القرن السادس عشر ، قـد أشار الى «أن ملك تونس كان لديه 1500 جندى ممتاز ، معظمهم ممن تخلوا عن العقيدة المسيحية» (Leo Africanus, 1896, III, 724) .

كان من ضمن هذا الاتفاق وجوب التخلى فى مقابل ذلك عن عشر مدن حصينة بالقرب من حدود كاستيليا ، وأنه عند الاستيلاء على مراكش ، وهو الغرض الأساسى من جمع هذه الجيوش ، ينبغى أن تبنى لهم كنيسة ، وأن يمنح لهم هذا الامتياز الفريد وهو السماح بدق أجراس الكنيسة عند إقامة شعائر الصلاة (4) . ومن المرجح أن هذا العدد الكبير من الجيوش المسيحية كان أمراً استثنائياً ، ومع ذلك فان ملوك تلمسان وتونس كانوا يحتفظون على الدوام بقوات تتراوح بين 2000 و 3000 من الفرنجة . وقد تهيأ لهؤلاء فى تلمسان أخيراً أن يحظوا بنفوذ سياسى واسع الى حد أن السلطة أقدمت على تسريحهم وحل تنظيمهم .

وكانت هذه القوات المسيحية تتفوق كثيراً من حيث الشجاعة والانضباط على الجيوش المحلية ، ولكن أهميتها الأساسية كانت فى ولائها الثابت لأسيادها . أنهم كانوا على غرار المرتزقة الأجانب فى أوربا ، يستخدمون غالباً كحرس شخصى للحكام الذين كانت حياتهم معرضة دائماً للمخاطر بسبب مشاعر الحسد السياسى والمنازعات القبلية التى لم تكن ذات أهمية بالنسبة للأجانب . وكان سلوك هذه القوات المسيحية فى الغالب مرضياً ، إذا ما قيس بسلوك الغوغاء من العرب والبربر الذين لا يلتزمون بالانضباط والذين كانوا يؤلفون القسم الأكبر من الجيوش ، ويضاف الى ذلك أنه كان فى الوسع الأعتماد عليهم فى المقاومة طويلاً إذا ما انهارت صفوف الآخرين من الجنود .

وكان لهذه الجيوش الفرنجية أهمية ملحوظة فى الحياة السياسية للمغرب ، فقد عززت الروابط كثيراً بين أوربا وأفريقيا . وقد ساعدت على الالتزام برعاية العديد من المعاهدات التجارية التى كانت تعقد باستمرار بين المسيحيين والمسلمين لتقوية وتوسيع المصالح التجارية المتبادلة . وفى هذا الخصوص كان الضباط فى هذه الجيوش يدعون غالباً للقيام بدور المفسر والمترجم والشاهد على تواقيع المبعوثين السياسيين من ذوى الصلاحية المطلقة .

وفى خلال المنازعات الطويلة بين البربر والعرب انحسرت الزراعة عن مناطق شاسعة من المغرب ، وقد ادّى ذلك الى حدوث مجاعات فظيعة وبخاصة فى سنوات الجفاف . وكانت أوربا الجهة الوحيدة التى لديها قمح يمكن أن يصدر الى أفريقيا ، ولذلك وجد العرب أنفسهم مضطرين الى إعادة التجارة القديمة التى كانت تجرى مدة طويلة بين الشاطئين المتقابلين للبحر الأبيض المتوسط . ومن النتائج الأخرى التى جلبتها تلك المنازعات المخرّبة حصول النقص فى الأخشاب الملائمة لصنع السفن . فما إن أخذ العرب يعنون بالحياة البحرية حتى وجدوا من الضرورى أن يتوجهوا الى التلال الغنية بالأخشاب فى الشواطىء الشمالية من البحر المتوسط للحصول على ما يحتاجون اليه من تلك المادة . على أن ثقة التجار المسيحيين لم يكن من اليسير إعادتها . وفى خلال القرنين السابع والثامن كانت التجارة البحرية فى الأبيض المتوسط قد توقفت توقفاً تاماً تقريباً .

وقد حصل تغير ملحوظ فى عهد شارلمان الذى كانت صداقته مع الخلافة فى الشرق ودية بقدر ما كانت كراهيته للخليفة فى المغرب شديدة . وقد عمل هذا على زيادة الانشقاق فى العالم الاسلامى ، وعلى تشجيع رجال البحر المسيحيين الذين أخذوا ينطلقون مرة أخرى فى البحر ويتقدمون الى الأمام ، واستطاعوا بسبب تفوقهم فى الفنون البحرية أن يحولوا البحر المتوسط مرة أخرى الى بحر مسيحى . ولما وصل سفير هارون الرشيد الى شارلمان ، مدينة بيزا قادماً من أفريقيا ، كان يصحبه ضابط يمثل حاكم أفريقيا . ولم يكن هذا الحضور بدون مغزى سياسى . فقد أرسل من بعد حاكم قرطاج عظام القديس سيبريان الى شارلمان ، ثم أرسلت أفريقيا مرة أخرى الى شارلمان فيلاً كان جيء به من بغداد (5) . ومن العسير تجاهل هذه التصرفات وما تنطوى عليه من الدلالات . وهكذا أخذت الثقة تعود مرة أخرى ، ووجد التجار المسيحيون أنهم يقابلون مرة أخرى بالترحاب فى موانىء المغرب .

وشهد القرن العاشر فترة من الازدهار البالغ فى المغرب . فقد أعيدت مساحات واسعة من الأراضى المهجورة الى الزراعة مرة أخرى بفضل شبكات

الرى المنظمة التى أدخلت فى المنطقة . وزرع الزيتون مرة ثانية على نطاق واسع جداً . وصارت القيروان تنتج السكر ، ومسيلة تنتج القطن ، وسيباب تنتج النيلة ، وقابس تنتج الحرير . وأخذت صناعة الملابس القطنية والصوفية وصناعة الفخار تعيد الى كل من طرابلس ، وصفاقس ، وتونس ما كان لها من ازدهار سابق . وفى الغرب كانت مصائد الأسماك المرجانية فى سيتا (سبتة) Ceuta وتينس Tenes قد دب فيها النشاط مرة أخرى ، على أنه من المحتمل أن تكون التجارة التى كان المغرب يجريها مع السودان هى أكثر الأعمال ربحاً ، فقد كان يستورد من هناك العبيد ، والعاج ، وخشب الأبنوس ، وغبار الذهب .

ويصف ابن حوقل البلاد فى ذلك الزمن قائلاً «أن المغرب يشتهر أساساً بالرقيق الأسود . . . (الرقيق الأبيض يأتى من جهات الأندلس) . . . والمرجان ، والعنبر ، والذهب ، والعسل ، والحرير ، وجلود الفقمة» (6) . وكان للمشرق طلب ضخم للحصول على الرقيق ـ المسيحيين ، والسود ، والخلاسيين ـ وللحصول أيضاً على المخصيين الذين كانوا يجلبون بالدرجة الأولى من القسطنطينية والمغرب . ومعظم التجارة الأفريقية الخاصة بالرقيق كانت تتم عن طريق القيروان التى كانت أغنى مدينة فى هذه البلاد .

وهذا القدر الواسع من الرخاء قد جذب اليه بطبيعة الحال التجار المسيحيين الذين تبين لهم امكانية الحصول على أرباح طائلة من التجارة الأفريقية . وهكذا أخذت السفن الشراعية الكبيرة تنطلق من نابولى ، والبندقية ، وجنوا ، وبيزا ، ومارسيليا ، وكاستيليا الى موانىء المغرب ، وبخاصة بونا ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس حيث تجرى مقايضة السلع المصنوعة بالرقيق ، وزيت الزيتون ، والمرجان ، والمنتجات الأخرى . وكان الأيطاليون فى هذا المجال هم أكثر الجميع نشاطاً . وهذا الرخاء التجارى الكبير الذى حققه عرب المغرب فى ذلك الوقت كان يعزى الى حد كبير الى التجارة مع ايطاليا من جهة ، والى التجارة مع السودان من جهة أخرى (7) .

أن الحروب الصليبية التى أساءت كثيراً الى العلاقات بين المسيحيين

والمسلمين فى سوريا وفى اسبانيا كان لها أثر منشط فى تجارة المغرب . فعرب المغرب الذين تحولوا تماماً الى مغاربة فى مشاعرهم لم يعودوا يهتمون بالشئون السياسية التى تلازم أخوانهم فى الدين فى سوريا أو مصر أو اسبانيا ، وصاروا لا يبالون إلا قليلاً بالطلبات المتكررة من دمشق والقاهرة لارسال التعزيزات والمساعدات . وهذا الموقف قد عزز ثقة التجار الأوربيين الذين كانوا يتعاملون مع المغرب . بل أن البابوات الذين وجدوا من الضرورى أن يمنعوا المسيحيين من المتاجرة مع المسلمين ، ومن العمل فى أساطيلهم وجيوشهم ، قد وضعوا استثناء بخصوص عرب المغرب . وقد خطت التجارة بما فيه الكفاية لجعلها تقوم الى حد كبير على الثقة المتبادلة خلال هذه الفترة . كان الأئتمان يمنح عند طلبه دون ابطاء ، وأقامت كل دولة مؤسسات دائمة لها فى أفريقيا ، كما أن العديد منها قد عينت القناصل الخاصين بها . وكانت حماية مصالح التجار الأجانب أحد الواجبات الأساسية لرؤساء الكمارك العربية الموجودة فى كل ميناء .

وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر أنجز الموحدون فتح المغرب ، ودانت جميع البلاد من المهدية فى الشرق الى الساحل الأطلسى فى الغرب لحكم عبد المؤمن ، السلطان المحارب ، الذى كان يستهجن دائماً تواجد العدد الكبير من السفن المسيحية فى الموانىء الأفريقية . وكان من نتائج إجراءاته أن تقيدت التجارة المسيحية مع بلاد المغرب . ومع أنه كان يناصب المسيحيين العداء على العموم ، وكانت بحارته تهاجم السفن المسيحية دائماً ، فان عبد المؤمن لم يتخذ موقفاً عدائياً تجاه أهالى جنوا الذين أقر لمصلحتهم معاهدة صلح وسلام .

ولكن جنوا لم تتمتع طويلاً بما أتيح لها من مركز ممتاز . ذلك أن وفاة عبد المؤمن فى عام 1163 أتاح لسكان بيزا فرصة العودة الى الميدان الذى كان لهم فيه الغلبة وقصب السبق من قبل ، والى التنافس من جديد مع خصومهم المكروهين من أهالى جنوا . وبعد بضع سنوات استرد النورمان فى صقلية امتيازاتهم القديمة فى أفريقيا ، وقد كانت بينهم وبين الموحدين حرب ضروس

دامت عشرين سنة . ولم تلبث موانىء المغرب بعد ذلك حتى فتحت أبـوابها مرة أخرى عملياً أمام المسيحيين جميعاً .

ولما اصبحت التجارة المسيحية مع أفـريقيا عـامة ، وازداد عـدد الذين يتعاطونها زيادة كبيرة ، حاول الذين كانوا الأوائل فى هذا الميدان أن يضمنوا لأنفسهم المركز الممتاز الذى كـانوا قـد كسبوه وحققـوه بنشاطهم الخـاص ، فالتمسوا لذلك التفـاوض لأبرام المعـاهدات مـع سلاطين أفـريقيا . ومعـظم الأمتيازات التى حصلوا عليها كانت مجرد مجموعة من الاجراءات والترتيبات الكلامية . وكان من أوائل المسيحيين الذين دخلوا فى معاهـدات رسمية مـع المسلمين فى أفريقيا هم ملوك النورمان فى صقلية . ففى نهاية القرن الحادى عشر عزز هؤلاء روابطهم التجارية مع المغرب وذلك بابرامهم عقوداً ملزمة مع سلاطين المهدية والقيروان . وما إن أدرك أهالى بيزا وجنوا المزايا التى حصل عليها النورمان حتى سارعوا الى التفاوض لعقد معاهدات مماثلة حفـاظاً على امتيازاتهم .

وهذا النمط من المعاهدات التى كانت تضمن دائماً السلامة الشخصية لرعايا الأطراف المتعاقدة عند تواجدهم فى موانىء أحد الطرفين ، كانت تنفع المسلمين بقدر ما تنفع المسيحيين ، وكان الغـالب أن يدعـو اليها الأولـون . وفى سنة 1133 أرسل المرابطون سفينتين الى بيزا لعقد معاهدة من هذا القبيل ، وقد لبى الطلب على وجه السرعة . وقد كانت بيزا فى هذا الوقت تتمتع بمركز المسيطر على البحر ، وقد كان من قبل فى قبضة منافسيهم من أهالى أمالفى Amalfi ونابولى ، وكانوا الى جانب ذلك يتعاطون تجـارة واسعة مـع تونس ، ويمتلكون ما يزيد على مئة سفينة تحمل التجارة مع مراكش حيث سمح لهم أن ينشئوا فيها محطات لتجارتهم . وقد منحت مثل هذه الامتيازات لأهـالى جنوا ثم من بعـد لأهالى مـرسيليا . ثم أصبحت تـدريجاً جميـع التجارة الأفـريقية تنظمها مجموعة واسعـة من المعاهـدات التجاريـة التى أبرمت بين المـوانىء التجارية الأوربية والأفريقية .

ان زيادة الشعور بالأمن الذى نجم بطبيعة الحال عن هذه المعاهدات قد أتاحت الفرصة للتوسع في تنظيم المصالح المسيحية على الساحل الافريقى. والواقع ان كل بلد صار له قنصل خاص به يقيم في كل ميناء افريقى يتاجر معه، واغلب الاقطار كان لها ايضاً فنادقها الخاصة بها، التى لم تكن تختلف عن المحطات التجارية التى أنشأها الأوربيون على الساحل الغربى من افريقيا بعد عدة قرون. وكان من واجبات القنصل تسوية المنازعات بين مواطنيه المقيمين فى الخارج، والتأكد من انهم يعاملون بالعدل من لدن الجمارك العربية، والقيام بمهمة الوسيط بينهم وبين السلطان، وحماية ممتلكات التجار المتوفين، وصيانة مصالح الغائبين منهم. وكان القنصل يتولى مهامه لمدة محدودة، ويتوجب عليه أن يتخذ مقراً لأعماله يليق بالدولة التى يمثلها، وكان محل سكناه يضم دائماً واحداً من القسس.

واذا ما استثنينا حالات الانقطاع المتكررة بسبب الاضطرابات السياسية التى كانت افريقيا الشمالية تتعرض لها طوال تاريخها المشوب بالقلاقل، فان التجارة المسيحية مع المغرب كانت تجرى بدون أية صعوبة تذكر. كانت القرصنة هى السبب الرئيس لحالات الاحتكاك. لقد كانت القرصنة قوة لا يستطيع أحد السيطرة عليها. كانت شكلاً شعبياً متأصلاً من الخروج على القانون لدى رجال البحر من سكان أوربا الجنوبية، وكانت شكلاً مغرياً لا يقاوم ازاء غرائز السلب لدى العرب. ولم يأخذ هذا الشر بالانحسار حتى نشوء الحكومات المركزية القوية وظهور الأساطيل الضخمة بعد عدة قرون.

وكان القراصنة العرب يتفوقون من بعض الوجوه على اندادهم المسيحيين. فقد كانت القرصنة ذات مكانة مرموقة فى افريقيا، وكان السلاطين يشجعونها، ويهتمون أبلغ الاهتمام بنجاح أعمالها، كما كانت تستند على الدين اذا كانت موجهة ضد المسيحيين. كانت القرصنة صناعة شعبية على جانب كبير من حسن التنظيم، وينخرط فى نشاطها واعمالها، بشكل مباشر أو غير مباشر، ،جزء كبير من السكان. اما فى أوربا فيمكن القول بصفة عامة، وبصرف النظر عن الجمهوريات الايطالية الصغيرة الخطرة

التى كانت تنفرد بقصور وجهة نظرها ، إن الكنيسة والدولة والرأى العـام كان ضد القرصنة . وعلى أية حال فقد كان القراصنـة المسيحيون يمتلكـون سفناً افضل من أندادهم ، وكانوا أمهر في ركوب البحر ، وكانت لهم مقـدرة تامـة على الصمود والاحتفاظ بمراكزهم .

وإذا ظهر المسيحيون على المسرح أنهم كانوا غالباً ضحية للقرصنة اكثر من كونهم قائمين بها ، فذلك لأن سواحلهم كانت أقل ملاءمة للدفاع عنها ، ولأن تجارتهم كانت أوسع حجماً ومن ثم اكثر تعرضاً للخطر ، ولأن تاريخهم افضل تدويناً من تاريـخ العرب . وبـالاضافـة الى ذلك فـان تفوق القـراصنة المسيحيين فى فنون الملاحة والبراعة فيها قد جعلهم اكثر ارعاباً من انداده‍م المسلمين الذين لم يحظوا بالسطوة إلا بعد مجىء الأتراك وتنظيم امورهم على أساس قومي .

كان الناس من جنوا وبيزا والبروفنس قد أدمنوا جميعاً ممارسة القرصنة . ولكن ما من أحد من هؤلاء قد بلغ من الضراوة والتأصل فى نـزعة السلب مـا بلغه اليونانيون من سكان الجزر فى بحر إيجه الذين كانوا طوال قرون عديـدة بلاءً وشراً مستطيراً يخيم على شرقي البحر الأبيض المتوسط ، والذين علموا القراصنة المرعبين الأتراك من بعد ، اسرار حرفتهم الشائنة . ومع أن فعاليات القراصنة المسيحيين كـانت توجـه غالبـاً ضد المسلمين ، فـانهم فى حالات عديدة كانوا يهاجمون السفن المسيحية . وقد عرف منذ ازمنة مبكرة أن بعض الجمهوريات الايطالية ، وبخاصة جمهورية امالفى Amalfi كانت تضم قواتها الى جـانب القراصنـة العرب في الاغـارة على المسيحيين الآخرين . كـانت الأرباح جسيمة جداً ، وفى أوقات الركود التجارى لم يكن من الغريب أن يلجأ بعض التجار المعروفين بالوقار والاحترام فى سائر الأيام ، الى التماس بعض النصيب في القرصنة .

ولما ازداد حجم التجارة خلال القرن الثالث عشر كانت أوربا ترسل الى افريقيا سلسلة واسعة من السلع التي كان العديد منها يذهب فى تكوين تجارة

القوافل التى تعبر الصحراء الكبرى . ومن بين المعادن كان النحاس مـرغوبـاً كثيراً من أجل اعادة تصديره الى السودان حيث كان الناس يفتنهم لونه اللماع . وكان لصنّاع الزجاج الرئيسيين فى البندقية ممثلون فى بلاد المغـرب . وحتى زمن متأخر كان هنالك طلب واسع على الخرز والعقود الزجاجية التى يتاجر بها مـع السودان . كمـا أن الأقمشة الأوربيـة كانت تبـاع على وجه السـرعـة فى الجنوب من الصحراء الكبرى. وكانت الخمور من فرنسا ، واسبانيا ، واليونان تبـاع علناً فى جميـع أنحاء المغـرب ولم يكن استعمالهـا مقتصـراً أبـداً على الجمـاعات المسيحيـة وحدهـا . وكان المـوحدون يلومـون المرابـطين بأنهم يشربون الخمر ، ولكنهم كانوا انفسهم معرضين الى الملامة نفسها كما تؤيدها السجلات الباقية عن مرسلى الخمور من مرسيليـا خلال العصـور الوسـطى . وبالرغم من القوانين العديدة التى كانت تحظر على المسيحيين بيع السفن أو المواد اللازمة لصنع السفن الى المسلمين فإن المحلات الكبيرة لصنع السفن فى البندقية وجنوا كانت تصنع السفن للسوق الافـريقية . وكـانت هذه السفن اجود كثيراً من التى يبنيها العرب ، وكان السلاطين يبـدون رغبة شـديدة فيهـا ويشجعون على استعمالها حتى أنهم اعفوا بيع السفن المسيحية فى الموانىء الافريقية من دفع الضرائب .

وكانت السلع التي تتسلمها اوربا فى مقابل سلعها تتألف من أنواع شتى ايضـاً . وبالـرغم من منع السلطات البـابويـة وحظر احتجـاز الناس بمـوجب الاحكام الواردة في عدد لا يحصى من المعاهدات فقد استمر استيراد الرقيق ، بنوعيه الأبيض والأسود ، الى أوربا المسيحية ، وكانت بيزا وجنوا من المراكز الرئيسة لتعاطى هذه التجارة الجائرة . وفى القرن الرابع عشر صرنا نسمع لأول مرة عن فلفل ملقا الذى كان يستورد آنذاك الى نيم ومونبليـه من السودان عن طريق المغرب . وكان السودان يجهـز أيضاً العـاج ، وخشب الابنوس ،

---

* أن الأيطاليين الذين أخذتهم الحيرة لعدم معرفتهم منشأ هذا المنتوج الغريب ، أسموه «حبوب الجنـة» ، وقد عـرف من بعد بهـذا الأسم على نحو واسـع ، كما أن تسميـة «حب السـاحـل الغينى» ، قد اشتقت من ذلك الأسم ايضاً .

والجلد المراكشي ، وكل هذه السلع كانت مطلوبة لبيعها الى التجار المسيحيين ، وكانت الجلود ذات الألوان الزاهية والبهيجة مطلوبة بصفة خاصة فى اسواق انكلترا ونورماندى . على أن أهم الصادرات من شمالى افريقيا هو الذهب الذى كان يؤتى به من السودان .

ومن اللازم ايراد بعض الشرح عن اهمية هذه التجارة الذهبية بالقياس الى الاقطار المسيحية اللاتينية . فقد كانت مصادر الذهب الخاصة بأوربا محدودة جداً ، وكانت تقتصر على القليل من المستودعات والترسبات الطينية . وفي العصور الرومانية كان الأباطرة يقومون بضرب النقود الذهبية ، وقد استمر الأمر على هذا المنوال في عهد حكام الدول البربرية المتعاقبة . على أن الذهب أخذ يتعرض الى الضياع على نحو متواصل خلال النصف الثانى من الألف الأول بعد الميلاد. فقد استلب القراصنة الاسكندناويون جانباً منه ، وطمر جانب منه فى التراب فى اوقات الاضطرابات والفتن ، والظاهر ان القسم الأكبر منه كان يرسل الى المشرق ، وبخاصة الى الدولة البيزنطية التى كانت تستخدمه فى شراء السلع الترفية من بلدان الشرق . وكان من نتيجة هذا الاستنزاف الذى حل بالمعدن النفيس أن اختفت المسكوكات الذهبية من عملات الممالك فى أوربا الغربية عند حلول القرن الحادي عشر ، وقامت محلها المسكوكات الفضية التى كانت مرهقة وغير ملائمة . وقد ظهرت الامارات الأولى للعودة الى الذهب فى سنة 1254 عندما ضربت فلورنسا مسكوكاتها الذهبية . ثم تبعتها معظم الدول المسيحية اللاتينية .

وهذه المسكوكات الذهبية، كانت بمنزلة «المنادى» كما أشار الى ذلك سوثرن R. W. Southern ، «بأن حالة اقتصادية جديدة قد نشأت في أوربا وصارت بموجبها منطقة مهمة للتصدير . وانقلب الوضع الذي كان سائداً خلال قرنين من قبل رأساً على عقب : فبدلاً من ان يبحث المستهلك الأوربي في اعماق جعبته عما تبقى لكي يسدد قيمة التوابل والمواد الترفية المحمولة من الشرق ، اخذ التاجر الايطالى يبحث عن اسواق جديدة للسلع المتدفقة والمتزايدة الآتية من وراء الألب . كانت البندقية اولاً ، ثم تبعتها بشكل متزايد

كل من جنوا وبيزا فى القرن الثاني عشر ، تمثل العناصر الرئيسة التى نفذت هذا التغير فى الوضع التجارى الأوربي . . . وبما أن نشاط هؤلاء التجار من اوربا اللاتينية صار يمتد الى مناطق البحر الأسود ، والى أسواق سوريا وشمالى افريقيا ، فكذلك المدن التى يقوم فيها هؤلاء التجار انبثقت منها سياسات تجارية جديدة وعدوانية . فمع نشوء السلطة التجارية جاءت الخطط ، او بعبارة ادق جاء الاندفاع الغريزى نحو۔ الفتح والاستعمار»[8] .

وبخصوص المقدار الفعلي من الذهب المستورد الى أوربا من شمالى افريقيا يتوجب القيام بمزيد من البحث الكثيف فى الوثائق التجارية المتعلقة بدول حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن الواضح ان انتاج الذهب فى افريقيا الغربية كان يتزايد باطراد منذ القرن الثامن فصاعداً ، حتى اذا كان القرن السادس عشر قدر معدل الانتاج السنوى ، كما أورده ريموند مونى Raymond Mauny ، بحوالى 9 أطنان مترية * . ويقدر مونى أن قرابة ثلثى هذا المقدار كان يصدر الى الخارج . وما كان حمل هذا الوزن من الذهب يستلزم اكثر من خمسين جملاً . وكان الذهب يجلب من مناطق التعدين فى السودان ، وكان اغلبه بشكل غبار . ثم كان ينقى ويحول الى سبائك فى المراكز التجارية المهمة الواقعة فى الشمال او الجنوب من حدود الصحراء الكبرى ، فى سيجلماسة Sijilmasa أو أودوغاست Audoghast ، فى وارغلا Wargla أو تمبكتو Timbuktu . وكان الذهب ينقل من هناك الى فاس ومراكش ، والى تونس والقاهرة ، والى الموانىء التى يعرض فيها الأوربيون سلعهم [9] .

ان هذه التجارة الناشطة قد جعلت السفن المسيحية تألف كل بقعة من بقاع الساحل المغربى ، وجعلت العديد من الموانىء الافريقية منهمكة فى تعاطى الأشغال طوال الوقت ، وكان للتجار المسيحيين فى كل ميناء تقريباً

---

* بلغ انتاج الذهب فى أفريقيا الغربية سنة 1937 قرابة 21,4 طناً مترياً . وكان » 80% من هذا المقدار قد جاء من ساحل الذهب حيث سهلت اجهزة التعدين الحديثة استغلال الطبقات الأرضية العميقة .

مقرات دائمة . على أن داخل البلد كان مغلقاً امامهم إلا لعـدد يسير منهم ، وبقيت أوربا زمناً طـويلاً تجهـل تماماً ما كـان يجرى وراء القسم الأكبـر من الساحل . على أن بعض التجار المنفردين كانوا يتوغلون أحيانـاً الى الداخـل فيبلغون مراكش ، وتلمسـان ، وقسطنـطينية ، والقيـروان ، على أنه كـان من النادر جداً خلال العصور الوسطى أن يحصـل التجار الأوربيـون على موطىء قدم ثابت لهم فى تلك المواقع أو فى أى مكان آخر من الأسـواق المهمة فى داخل البلاد . وقد اورد الايطالي جيوفاني داكارغنانو Giovanni da Carignano وهو من رسامي الخرائط في أوائل القرن الرابع عشر ، على احدى خرائطه انه استقى بعض معلوماته من شخص جنوى يتعاطى الأعمال التجارية فى مدينـة سيجلماسة Sijilmasa مع تجار آخرين يزاولون المتاجرة مع والاتا Walata وغينيا Guinea [10] ومن المحتمل أن يكون التجار المسيحيون قـد أقامـوا لهم ايضاً مؤسسـات فى تلمسان ، التى كـانت دائماً بمنـزلة مستـودع مهم للتجارة مـع السودان ، ولكنها كانت قريبة جداً الى الساحل [11] ويمكن القول بصفة عامة إن نشاط التجار المسيحيين كان مقتصراً على المدن البحرية .

ويستنتج مما كتبه ليو Leo أن التجار المحليين فى الموانىء لم يكن لهم دور يذكر بخصوص التجارة الداخلية التى كانت فى ايدى الوسطاء الذين كانوا ينـزعجون بـطبيعة الحـال ممن يتطفـل ويقتحم عليهم سواء أكـان مسلمـاً أم مسيحياً . ولذلك فإن أى تاجر أوربى حاول أن يمد نشاطه الى الداخل ما كان يجد فائدة تذكـر من حقوقـه الواردة فى المعـاهدات بين قـوم يعدونـه شخصاً متطفلاً غير مرغوب فيه . فالتجارة كانت متعذرة بالقياس اليـه ، وبهذا الـوجه كان يؤثر العودة آمناً فى مقره المجاور على الساحل . وفى اوائل القرن الثالث عشر استطاع أحد سفراء البندقية أن يحصل على اذن لمواطنيه يتاح لهم بموجبه أن يسافروا مـع قوافلهم حيثمـا شاءوا من ممتلكـات سلطان تونس ، ولكن لا يوجد ما يدل على أنهم قد استفادوا كثيراً من هذا الامتياز . كان الحصول على موافقة السلطان أيسر الى حد بعيد من الحصول على موافقة التجار المحليين الذين يشعرون بالحسد .

الفصل الثاني عشر

البحث عن الذهب

«بالكرّ والفر فُتح الطريق وعُرف أين وكيف تقوم هذه التجارة الذهبية» .

ريشارد جوبسن

فى خلال القسم الأكبر من العصور الوسطى ، كان من المتعذر عملياً ، كما رأينا فى الفصل السابق ، أن يحصل المسيحيون رأساً وبدون واسطة على أية معلومات عن داخل افريقيا ، على أنهم وجدوا فى اليهود مصدراً ثميناً للاعلام والأخبار .

لقد كوّن اليهود منذ ازمنة بعيدة عنصراً مهماً من سكان المغرب . وقد كانوا مثل الأجانب الآخرين ، ينظر اليهم بعين الازدراء ، وقد يعاملون فى حالات غير قليلة معاملة مهينة . ومع ذلك فقد لعبوا دوراً فعالاً جداً فى تجارة البلاد ، وكانوا يشغلون احياناً مناصب رفيعة رسمية ، وبخاصة فى مراكش . وقد انتشروا ، كما رأينا من قبل ، من المغرب الى الواحات فى الصحراء الكبرى والى السودان . ولهذا السبب اصبح اليهود فى بلاد المغرب مستودعاً لقدر كبير من المعلومات حول داخل القارة الافريقية ، ولكن هذه المعلومات ظلت دهراً طويلاً قبل أن يتاح شىء منها الى العالم الخارجى .

وفى اواخر القرن الرابع عشر صنع فى ماجورقا Majorca سلسلة قيمة من الخرائط الافريقية التى كانت تمثل خطوة متقدمة ، وإن كانت يسيرة ، فى المعارف الجغرافية . وهذه الخرائط صنعتها جماعة من اليهود عرفت فى الأصل بأنها تصنع الساعات ، والاسطرلابات ، والربعيات ، وغيرها من

الأدوات ، ثم اكتسبت شهرة واسعة فى فن رسم الخرائط . وكانت خرائطهم تجارية اكثر من أن تكون سياسية، ويتبين منها انها كانت تعتمد على المعلومات التى أمرهم بها إخوانهم فى الدين فى افريقيا . وكانت تجارة مارجوقا مع افريقيا فى هذا الوقت على جانب كبير من الازدهار بفضل العلاقات الودية التي كانت قائمة بين دولة اراغون Aragon والمغرب ، والتى تعززت بالعديد من المعاهدات التجارية . ولذلك كان رسامو الخرائط اليهود في ماجورقا فى وضع ممتاز للحصول مباشرة على المعلومات المتعلقة بالطرق التجارية المؤدية الى السودان .

وكانت هذه الخرائط اليهودية بدائية وتفتقر كثيراً الى الدقة ، ولذلك لم تكن لها قيمة طوبوغرافية كبيرة ، ومع ذلك فقد القت بشعاع ، ولو كان ضعيفاً ، على ما كان حتى ذلك الوقت محاطاً بظلام دامس . فقد بنيت المواقع لعدد من الأماكن مثل تمبكتو ، وجاو ، ومالي ، وقد كانت معروفة آنذاك فى أوربا بأنها اسواق كبيرة وبعيدة غاية البعد ، وبذلك صار لهذه المنطقة شيء من الشكل والمظهر ، وكانت تصوّر حتى ذلك الوقت أنها مجرد مكان ينطوى على ثروات لا تعد ولا تحصى . وأهم هذه الخرائط هى المعروفة باسم أطلس كاتالان الذى وضعه ابراهام غريسك . ولا بد أن نتذكر أن هذا الاطلس قد عمل كثيراً على اشتهار اسم مانساموسى Mansa Musa في أوربا .

على أن اهتمام رسامي الخرائط اليهود بأفريقيا لم يتح له الاستمرار طويلاً . فاضطهاد اليهود من قبل فرديناند وايزابلا قد انتشر من اسبانيا الى افريقيا ، وكما ذكر من قبل ، فانه انتقل عن طريق الصحراء الكبرى الى السودان . ولذلك فان خرائط ماجورقة المتأخرة تنم عن ضياع تدريجى فى درجة المعرفة (1) .

ومع ذلك فان مدرسة ماجورقة قد احدثت تقدماً ملحوظاً في فن رسم الخرائط الأوربي ، وبخاصة فى ايطاليا . والاهتمام البالغ بأفريقيا الذى نشاهده فى الخرائط الايطالية خلال ذلك الوقت ، مرده العلاقات التجارية الوثيقة بين دول المغرب وبين الجمهوريات الايطالية الصغيرة . وبرغم ذلك

فان المعارف الأوربية عن داخل افريقيا كانت ما تزال سطحية ومستقاة من مصادر اخرى ، وإن كانت هذه المعارف قد اكتسبت في وقت دقيق كان فيه المسيحيون يتطلعون الى افريقيا وهم يبحثون عن حل لمشاكلهم الاقتصادية .

وفى اوائل القرن الخامس عشر كانت الطلبات المتزايدة على التجارة الخارجية وسلسلة الحروب المدمرة قد أدت الى تخفيض بالغ فى احتياطيات اوربا من المعادن الثمينة . وبما أن السلع التى يتاجر بها الغرب كانت كبيرة الحجم وثقيلة ويصعب نقلها على الجمال ، فقد كانوا يحتاجون الى الذهب لتسديد قيمة المنتجات الثمينة الواردة من الهند والصين ، وجزائر البهار ، وجميع هذه المنتجات كانت تنقل براً وعليها طلب متزايد . ولذلك أدى نضوب الاحتياطيات الذهبية الأوربية الى إرباك الصرافين فى اوربا ارباكاً شديداً ، فلا عجب إن اتجهت أذهان الناس الى افريقيا وهم يتساءلون عن المصادر التى يأتى منها الذهب الى بلاد المغرب .

ان هذا البحر اللانهائي الذي تضطرب امواجه بعنف على سواحله الغربية من العالم المعروف ، ما زال لم يستكشف بعد . وكان لا بد من مضى بعض السنوات حتى يتحدى البحارة المسيحيون هذا الاعتقاد السائد وهو أن الهلاك المؤكد فى انتظار كل بحّار يحمله التهور على الدوران حول رأس بوجادور Bojador . فلم يوجد اذن مجال للوصول الى مناجم الذهب الخفية الافريقية عن طريق البحر ، وهو احتمال لم يحظ بالتفكير الجدي إلا قليلاً منذ أيام هيرودوتس . على أن خرائط ماجورقة قد جعلت الناس يفكرون فى الطرق البرية التى كان برابرة المغرب يحرصون أشد الحرص على ابقائها سراً مكتوماً. فهذه الخرائط لم تكتف بالاعلان عن تواجد الثروة فى داخل افريقيا، بل انها كانت تشير ايضاً الى احد الطرق الذى يوصل الى مناجم الذهب الخفية. وفى موضع على جبال الأطلس فى خارطة كاتالان وجدت هذه الاشارة : «ومن هذا المكان يمر التجار الذين يسافرون الى بلاد الزنوج فى غينيا» . وهذه الاشارة التى وجدت فى خرائط اخرى تنطوي فى الواقع على دعوة صريحة موجهة الى المغامرين المسيحيين الى التملص من احتراس

البرابرة وحذرهم ، ان كان ذلك ممكناً ، والى اختراق قارتهم من الشمال .

ومهما يكن فقد وجب الانتظار حتى منتصف القرن الخامس عشر حيث دونت اول محاولة لاختراق افريقيا براً من الشمال لاغراض تجارية * . وليس غريباً ان يكون تاجر جنوى انطونيو مالفانت ، هو الذى قام بهذه المحاولة ، ذلك أن جنوا كانت فعالة منذ مدة طويلة فى التجارة مع شمالي افريقيا ، وكان حكام هذه المدينة يهتمون كثيراً بحاجتهم الى الذهب بوصفه القاعدة التى تقوم عليها عملتهم . وقد هبط مالفانت الى اليابسة فى حنين Honein وتوغل فى مسيرته حتى منتصف الصحراء الكبرى وهو يحاول أن يكتشف مصدر الذهب الافريقى . وقد ارسل من طواط Tuat تقريراً تضمن معلومات جغرافية مفيدة عن داخل البلاد ، ولكنه لم يحو شيئاً مجدياً بخصوص الغرض من رحلته . وكان قد سأل مراراً شيخاً كبيراً يعرف السودان جيداً عن المكان الذى يأتى منه الذهب ، ولكنه كان يتلقى دائماً الجواب نفسه : «لقد انفقت اربع عشرة سنة فى بلاد الزنوج ولم اشاهد أو أسمع رجلاً يمكنه أن يقول عن دراية تامة «هذا هو ما رأيته ، وهذه هي كيفية عثورهم على الذهب وجمعه» . ولا بد من الافتراض ايضاً أنه يأتى من مكان بعيد ، وفي رأيى أنه يأتى من منطقة محدودة

---

* فى سنة 1283سافر أوربى مجهول ـ كان واحداً من اثنى عشر شخصاً بعثهم احد الكاردينالات ليطوفوا ويكتبوا عن جميع الاقطار فى العالم ـ وكان سفره مع قافلة تحمل الملح وعبرت الصحراء الى بلد يحتمل ان يكون غانا القديمة حيث كان الزنوج يعبدون تنيناً عاش فى جزيرة تقع فى وسط بحيرة . يلاحظ :
(De la Ronciere , La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age ,I ,108 -12) .
يروى أنه فى اوائل القرن الخامس عشر زار أحد الفرسان من تولوز ، اسمه انسلم ديسالجيه ، بلدة جاو على النيجر وأنه تزوج سيدة افريقية من سلالة نبيلة ، وانه عاد الى بلاده مصحوباً بزوجته، وثلاث نساء افريقيات، وثلاثة من المخصيين أصبح احدهم فيها بعد طبيباً مشهوراً : والقصة لها من الطرافة ما تجعل المرء يتمنى صحتها ومن سوء الحظ أن مؤرخاً محلياً من تولوز قد وجد ادلة مقنعة تثير الشك فى صحتها . (ويورد دى لارونسير الوثائق التى تعتمد عليها القصة . ويشير مونى Mauny فى اللوحة الجغرافية Tableau Geographique ، 463 ، الى الفقرة المكتوبة بقلم غالابرت التى تنتقد فيها هذه القصة) .

جداً . وكل إنسان آخر طرح عليه السؤال كـان يجيبه ايضـاً بما لا يجـدى إما عمداً وإما بسبب جهله . ولم يسمع شيء آخر عن ملفانت وانقطعت اخباره» [1].

قام ملفانت برحلته فى وقت كان فيه اهـالى فلورنسا قـد بدأوا يهتمـون بأفريقيا . وكانت فلورنسا قد بقيت مـدة طويلة ، بسبب مـوقعها الجغـرافي ، بعيدة عن المنافسة مع البندقية وجنوا بشأن التجـارة البحريـة . ومن المحتمل أنها ما كانت تشعر بالحاجـة الماسـة الى مثل هـذا التوسـع ، ذلك أن بيـوتها المصرفية الكبيرة وما اتصفت به من الذكاء والدهاء قد جعلت لمدينتهم مركزاً ممتـازاً فى الشئون الأوربيـة يتيح لهم الشعـور بالـرضا والاطمئنـان . ومع أن مسيرتها قد تعرقلت بالسيطرة العدوانية التى جاءتها أولاً من بيـزا ، وثانيـاً من سينا Siena ، وان النزاعات الداخلية كانت تمزقها على وجه الاستمرار ، فإن المدينة برغم ذلك استطاعت الاحتفاظ بمركزها البارز فى العالم المالى .

وفى سنة 1407 انتزعت فلورنسا الميناء الـذى كان فى أيـدى منافستهـا بيزا ، ومن هذه القاعدة الجديدة اخـذ تجارهـا الأقويـاء يندفعـون بنشاط الى التوسع فيما وراء البحار . وقد حققوا على وجه الخصوص نجـاحاً بـاهراً فى افريقيا الشمالية ، فقد عقدوا عدة معاهدات تجارية ملائمة أتيح لهم بموجبها احتكار الأعمال التجارية فى تـونس ، بونـا ، بوجى ، الجـزائر ، ووهـران ، واستثنى بـذلك جميـع المسيحيين الآخرين . وحصلوا في تـونس على امتياز خاص سمح لهم بمقتضاه أن يمدوا تجارتهم الى الداخل .

لقد افلحت فلورنسا حيث اخفق الآخرون ، وانتفعت من الفرصة التى اتيحت لهـا بموجب المعـاهـدات الجـديـدة وعملت على استكشـاف القسم الداخلى من افريقيـا . على أنا لا نعـرف سوى القليـل عن نشاطهم فى هـذا المجال ، والشيء المدون الوحيد هو اشارة عابرة الى ما يمكن أن يعتبر اليوم سفرة قيّمة قام بها رحالة عظيم من فلورنسا . وهذا الرحالة هو بينيدتو دى Be-nedetto Dei الذي قام بسفرات عديدة لتعزيز مصالح فلورنسا التجارية . كان

وكيلاً لبيت تجارى كبير يسمى بوريتناري Portinari ، ويمكن مقارنته ، بالنظر الى سعة أعماله التجارية الخارجية ، ببيت تجارى فى جنوا اسمه سنتوريونى Centurioni .

ويبدو أن مهمة دى هى اقامة التجارة مع الشرق بتفادى الأتراك والالتفاف حولهم ، على أن افكاره لم تكن كلها مقتصرة على التجارة . ففى بيروت وجد حية لها مئة سن وأربعة اجنحة . ومن القدس ، التي دفعته الى التفكير على نحو أرقى ، ارسل الى بلده كتلة من بقية شىء مقدس . وفى قرطاج وجد حُرباء تعيش فى الهواء . واعجبته تونس بما فيها من صرّار الليل . وصفاقس حرّكت فيه التأمل في الحروب البونية Punic wars ، ولكنه اعيد الى الأرض فى منطقة ارجوديا Archudia حيث أثار اهتمامه منظر القردة التى كانت تباع كالدجاج وأرجلها مربوطة معاً . ومن بعد ذلك ذهب الى باريس ، وفى سنة 1470 قصد تمبكتو ، ولكنه يقلل بعض الشىء من شأن هذه الزيارة ويعتبرها مجرد سفرة تمت عرضاً . وقد كتب عنها يقول : « نزلت في تمبكتو وهى مكان يقع وراء حدود المغرب فى منطقة قاحلة جداً . والكثير من الأعمال تدور هناك حول بيع الملابس الخشنة ، والصرج (نسيج صوفى متين) ، والأقمشة المشابهة لما يصنع فى لمباردى »[3] .

ليس غريباً على رجلٍ ذى نزعة قوية الى علم الحيوان ، وإن كان غريب الأطوار بعض الشىء ، أن يشعر بالخيبة عند زيارته تمبكتو ، على أن المؤسف أن لا تحظى الزيارة المدوّنة الوحيدة التى قام بها أحد الأوربيين الى تلك المدينة البعيدة ، إلا بنظرة عابرة . لقد ذكر ما يشير ، وله ما يبرره ، أنه لم يظهر ، حتى سنة 1470 ، فى رحلة دى أى شىء جدير بالملاحظة ، كما أن آخرين من مواطنى بلاده قد سبقوه فى هذا المجال . وتشير المعلومات الى أنه لم تمض غير سنوات قليلة على رحلة دى حتى أنشأ البرتغاليون محطة تجارية لهم فى وادان Wadan ، ومنها أرسلوا وفداً الى تمبكتو ، ولكن هذه الأحداث تتعلق بالقصة المثيرة الخاصة بالاستكشافات البحرية واستكشاف السواحل الغربية من القارة .

الفصل الثالث عشر

اكتشاف غينيا

« لن تجد خطراً مهما بلغ ، إلا وجدت أملاً بالمكافأة عليه أكبر كثيراً . . . فامض قدماً ، ثم . . . ولتقم برحلتك من فورك » .

الأمير هنرى الملاح

ما من شىء من معالم العالم المعروف فى الأزمنة القديمة كان يعطى فكرة تامة عن تصّور اللانهائى مثل الاوقيانوس غير المحدود فى الغرب . وفى جميع الإتجاهات الأخرى كانت الأقسام الكبرى من اليابسة تنطوى على احتمال الإكتشاف والتوسع . فما كانت مناطق التندرا المتجمدة فى الشمال، ولا المناطق الصحراوية غير المسكونة فى الجنوب توحى نفس الدرجة من الرعب الذى يساور الناس عند تأملهم فى المحيط غير المحدود الذى تضطرب أمواجه بدون انقطاع عند شواطئهم الغربية من عالمهم . وكان الجغرافيون العرب يطلقون عليه فى فترة اسم بحر الظلمات الأخضر ،واستمرت آراؤهم بهذا الخصوص حتى نهاية العصور الوسطى . ووصفه ابن خلدون بأنه محيط وسيع لا حدود له ، وأن الملاحين لا يجرأون على الابحار فيه خوفاً من أن يتيهوا ويضيعوا فى الضباب والبخار (1) .

وحتى سنة 1434 لم يعرف أىّ ملاح ، لا مسيحى ولا مسلم ، شيئاً عن الساحل الأفريقى وراء رأس بوجادور Bojador ، وهو نتوء من الجبل داخل فى البحر ، ويبعد قرابة 200 ميل عن حدود المغرب الجنوبية . ولم يكن جهلهم

هذا بمستغرب ، فساحل المنطقة الصحراوية بحد ذاته ما كان يستهوى أحداً ، ولم يكن فيه ما قد يحتاج اليه المسافر من ماء أو طعام . وأخطر من ذلك بالقياس الى الملاحين فى عصر المراكب الشراعية هى الصعوبات التى كانت تسببها الرياح والتيارات . فعلى طول الشريط الساحلى الممتد بين رأس بوجادور ورأس بلانكو تهب الرياح دائماً تقريباً طوال السنة من الشمال الشرقى ، ويجرى التيار من الشمال الى الجنوب . والابحار جنوباً حول النتوء الأفريقى ما كان ينطوى على صعوبة خاصة ، ولكن ملاحى العصور الوسطى كانوا يعرفون أنه من المتعذر عليهم ، فى وجه تلك الرياح والتيارات ، أن يبحروا شمالاً مرة أخرى على طول الساحل [2] .

ولم يكن هناك من دافع حقيقى يحمل المسلمين فى أفريقيا الشمالية ، وقد كانوا يعرفون طرق القوافل التى تعبر الصحراء الكبرى ، على أن يحاولوا العثور على طريق آخر حول الصحراء . ويورد الجغرافيون العرب ثلاث مناسبات وجد فيها البحارة المسلمون أنفسهم على الساحل أبعد من جنوبى المغرب ، وفى كل من هذه المناسبات كانت الرحلة تنتهى بتحطم السفينة . ومن الواضح أنه فى أثنتين من هذه المناسبات الثلاث تدور الرواية على أن العواصف كانت قد قذفت بالسفينة بعيداً عن خط سيرها ، وأما المناسبة الثالثة فهى قصة الأدريسى عن ثمانية من المغامرين المسلمين الذين أبحروا من لشبونة (لم تسقط هذه المدينة فى أيدى المسيحيين حتى سنة 1147) وبلغوا جزيرتين كانتا مجهولتين حتى ذلك الوقت . وهذه القصة أما أنها تمثل حكاية مشوهة عن رحلة سابقة الى جزر الكنارى ، وأما أن تكون رواية خرافية تأثرت الى حد بيعد بذكريات السندباد [3] .

واول رحلة مسيحية موثوقة جاوزت اسفل الساحل المغربى قد جرت فى سنة 1291 . وقد موّلت الرحلة جماعة من رجال الأعمال من جنوا الذين ارسلوا سفينتين شراعيتين كبيرتين بقيادة الأخوة فيفالدى Vivaldi ، أملاً فى العثور على طريق بحرية تقود الى الأنديز Indies (الهند والمناطق المجاورة) . ولم يسمع شىء أبداً عن أخوة فيفالدى وسفنهم بعد اجتيازهم رأس نون Cape Nun . وفى

القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر أبحر مجموعة من البحارة الاوربيين ـ لم يكونوا من البرتغاليين فقط ، بل كانوا ايضاً من جنوا ، كاستيليا ، أراغون ، ومن نورماندى البعيدة ايضاً ـ فوصلوا واكتشفوا مجموعة جزر الكنارى وجزيرة ماديرا . وبالنسبة للأوربيين المغامرين فى عصر كانت فيه «الأرض وكل الذين يشتغلون فيها» تؤلف «المصدر الرئيسى للثروة» ، وجدوا فى جزر الكنارى وسكانها الأصليين مجالاً مغرياً تماماً للاستعمار [4] . على أنه وجدت عوامل اخرى تثير اهتمامهم . فنجد مثلاً جان دى بتينكورت Jean de Bethencourt ، قائد الحملة النورماندية فى سنة 1402 كان مدفوعاً الى حد ما بالأمل فى اكتشاف «نهر الذهب» الذى كان يدوّن بشكل مغرٍ فى جنوبى رأس بوجادور على بعض خرائط القرن الرابع عشر [5] .

ومن بين جميع الدول البحرية الأوربية ، كانت البرتغال بطبيعة الحال ، هى التى قدر لها أن تلعب الدور البارز فى اكتشاف الطريق البحرية فى أسفل الساحل الأفريقى . ويعود اتصال البرتغال بأفريقيا الى القرن الثانى عشر . ففى تلك الأوقات كانت الغارات تشن على الساحل المغربى وكانت تمثل المرحلة الأولى مما أطلق عليه اسم « العمل المعاكس لفتح المسلمين شبه الجزيرة الأيبيرية » [6] . وفى خلال القرن الرابع عشر اصبحت البرتغال دولة بحرية قوية . وفى سنة 1415 حصلت الواقعة الحاسمة التى تسجل البداية لمرحلة التوسع البرتغالى الكبير ، وذلك بالاستيلاء على سيتا (سبتة) الميناء المغربى .

وكان بين الذين قاموا بدور بارز فى الحملة على سيتا (سبتة) شاب فى الحادية والعشرين من عمره هو الأمير هنرى ثالث ابناء جون الأول ملك البرتغال . وفى خلال الحملة سمع الكثير عن أخبار القوافل المحملة بالذهب التى تعبر الصحراء والتى كان قد قرأ عنها فى أيام طفولته . وعاد الى البرتغال وهو عازم على البحث عن أرض غينيا الذهبية عن طريق البحر ، وأن يحوّل الى الساحل تجارة الصحراء الغنية التى كانت تبقى العديد من موانىء المغرب مملوءة بالسفن المسيحية الشراعية الكبيرة . أن افتتاح طريق بحرية الى الهند ، واكتشاف القسيس ـ الملك برستر جون Brester John الذى تكتنفه الأسرار ،

وهداية الوثنيين ، قد أصبحت من بعد أهدافاً علنية للرحلات التى قام بها هذا الأمير ونجح فى ادارتها نجاحاً باهراً ، على أن اكتشاف ذهب غينيا كان يمثل الهدف الأول (7) .

لقد استطاع الأمير هنرى أن يجمع حوله الكثير من الماهرين فى الفنون البحرية ، وأن يحظى بمساعدة أخيه دون بيدرو Don Pedro* المعروف بكثرة أسفاره ، وبذلك تهيأ له أن يخطط وينظم الرحلات التى جعلته مشهوراً ، كما أن وضعه أسس الاستكشافات العلمية قد يسرت السبيل للقيام بالاكتشافات المهمة فى العالم القديم ومن بعد فى العالم الجديد فى أواخر ذلك القرن .

وبسبب صعوبات الملاحة والفزع من القوى الخارقة للطبيعة ، فقد أخذت أعمال الاكتشافات تتقدم على مهل . على أنه فى سنة 1434 عاد غيل اينس Gil Eannes ، أحد مرافقى هنرى ، الى سيده وهو يحمل معه غصناً من أكليل الجبل كان قد التقطه من البر الرئيسى فى جنوب رأس بوجادور . كان هذا يمثل نقطة تحول فى تاريخ الاكتشافات الجغرافية . ذلك أن غيل إينس قد برهن لكل الأوقات سخافة المخاوف الخرافية التى كان البحارة يجعلونها لكل شيء مجهول . أن الضباب الكثيف الذى لا يمكن اختراقه والذى لا يمكن للملاح مهما كان شجاعاً ، أن ينجو منه إن هو أراد الدوران حول الرأس ، والشياطين المختبئة خلف الرأس الداخل فى البحر ، تنتظر لتدمر من يقترب منها ، والنار السائلة التى تلتهم الأجساد ، ثبت أنها جميعاً لا أساس لها من الحقيقة ، كما كان هنرى يعلن ذلك مراراً فى أقواله الحكيمة .

وأخذت الاكتشافات بعد ذلك تمضى قدماً بسرعة ، وبخاصة بعد سنة 1440 عندما شرع البرتغاليون يستعملون نوعاً من السفن الشراعية الصغيرة السريعة التى صممت حديثاً . وكانت هذه المراكب الشراعية أفضل من

---

* تشير البحوث الحديثة الى أن دون بيدرو يرجح أن يكون الشريك الاهم فى تلك الاعمال الاستكشافية ، وأنه جدير بقيمة اكبر مما جعلت له .

المراكب السابقة من حيث قدرتها على المناورة والتحرك . وقال عنها كاداموستو Cadamosto البندقى أنها أفضل المراكب التى يبحر فيها * . ويبدو من الراجح أن استخدام هذه المراكب الشراعية الجديدة (الكرافيل Caravel) قد أتاحت للبرتغال أن تحقق اكتشافاً كبير الأهمية : فقد صار من الممكن العودة من ساحل أفريقيا الغربية دون الاضطرار الى الابحار شمالاً بمحاذاة الساحل ومكافحة الرياح المعاكسة ، بل بالاتجاه غرباً بشجاعة مسافة عدة مئات من الأميال فى المحيط الأطلسى حتى الوصول الى جزء من المحيط تهب فيها رياح مواتية من الجنوب والغرب . ولا يعرف على وجه الدقة متى اتيح للبرتغاليين هذا الاكتشاف ، ذلك أن مؤرخى الأحداث المعاصرين لم يشيروا اليه ، وصمتهم فى هذا الخصوص لا يدعو الى الاستغراب ابداً ؛ فالمعلومات حول هذا الطريق الجديد كانت تعد من قبيل « الاسرار الرئيسة » ، ومن الراجح أن هذا الاكتشاف قد حصل حوالى سنة 1440 (8) .

وعلى هذا النحو شقت المراكب الشراعية الجديدة (من نوع الكرافيل) تدريجاً طريقها بالتقدم الى جنوب الساحل . وتبين مما شاهدوه من آثار الأقدام الخاصة بالناس والجمال أن الصحراء نفسها كانت مسكونة . وأسر ذات مرة بعض الأفراد الرحل من سان هاجا Sanhaja وجيء بهم الى بلدهم بالاضافة الى قدر من غبار الذهب الذى عزز لديهم الأمل فى أن بلاد الذهب التى طال بحثهم عنها ربما لا تقع بعيدة . وفى رحلة تالية نقلوا شحنة كاملة من الأسرى الى لشبونة حيث تم بيعهم بشكل رقيق ، وكان لهذا العمل نتائج مأساوية عميقة ، فقد علّم الأوربيين كيف يمكن جمع الأموال على وجه السرعة باسترقاق الأفارقة . وأخذت سمات الرحلات تتغير سريعاً .

---

* استخدم غيل اينس فى رحلته سنة 1434مركباً ثقيلاً حمولته 25 طناً (تعادل 50 طناً حديثاً) له شراع مربع اما هذه المراكب الجديدة فكانت حمولتها 50 طناً فصاعداً ، وكانت لها ثلاثة صوارى واشرعة مثلثة . يلاحظ :

(E . Prestage , The Protuguese Pioneers, 1933, 332- 3).

كان الرأى العام فى البرتغال عند البداية يناوىء هنرى الى حد أنه كان يجد صعوبة بالغة فى تزويـد سفنه بـالرجـال ، ولكن كل شىء قـد تغير بعـد ذلك . فقد ازدحم عليه المتطوعـون بأعـداد كبيرة فـاضطر الى رفض العـديد منهم . وأفضى ذلك الى ظهور الرحلات المغامرة من أجل القرصنـة ، وتبين سـريعاً أن الغـارات للحصول على الـرقيق كانت أوفـر ربحاً من الاكتشـافات الجغرافية . على أن هنرى لم يدع فرص الحصول على المكاسب الشخصية لتصرف ربابنته عن عملهم الأساسى ، وظل دائماً مبقيـاً مصالـح بلاده نصب عينيه . ونظراً لادعائه أن تخليص أرواح الوثنيين كان أحـد الأغراض الـرئيسة لأعمال الاكتشافات ، فقد حصل من البابا لمصلحة التاج البرتغالى ، الموافقة على تملك جميـع الاكتشافـات التى يمكن تحقيقها بين بـوجـادور والمنـاطق الهندية ، وقد كان لهذه الموافقة آثار عميقة فى تقسيم أفريقيـا وأماكن أخـرى خلال القرون التالية .

وفى سنة 1445 أبحر نونو ترستان Nuno Tristan باتجاه الجنوب متجاوزاً الصحراء واكتشف أرضاً غنية وخصبة ، يعيش فيها الزنوج أحراراً ، وقد كانوا حتى ذلك الوقت فى تصور المسيحيين أنهم ليسوا سوى رقيق للآخرين . وكان العديد منهم يساورهم الشك فى وجود حدود للصحراء،ولذلك فقد كان من المثير والمحرك التصور أن الاستمرار فى الاستكشـاف أبعد من الصحـراء قد يؤدى الى أرض كثيـرة الخيرات ، وهـذا يعنى أن المستكشف سوف يحـظى بمكافآت سخية . وكان الاكتشاف المهم الثانى هو مصب نهر السنغال ، وكان يظن أولاً أنه نهر النيجر الذى قال عنه هيرودتس وآخرون أنه فرع غربى لنهـر النيل فى مصر . ولذلك أطلق عليه مكتشفوه اسم النيل ، وحفروا على شجرة هناك علامـات أمارة هنـرى وشعاره « مـوهبة لعمـل الخير » Talent de bien faire » . وقد علّق المؤرخ المعاصر لتلك الاحداث زورارا Zurara بقوله «إنى لأشك تماماً فى وجود أمير فى العالم منذ الدول العظمى التى نشأت فى أيـام الأسكندر والقيصر ، قد استطاع أن يضع آثار فتوحاته بهذا القدر من البعد عن بلده الأصلى» (9) .

وباكتشاف السنغال وصل البرتغاليون الى السودان ، بلاد المغاربة السود مقارنة بالمغاربة (البربر) ذوى البشرة السمراء المصفرة من سكان الصحارى ، واطلقوا على تلك الأرض اسم غينيا * Guina . أن العثور على هذه المنطقة التى يبدو أنها أحدى البوابات الى داخل أفريقيا قد ولّدت لديهم آمالاً كبيرة فى استيلائهم على طريق التجارة البرية .

لم يكن قد عرف حتى الآن إلا النزر اليسير عن التجارة الداخلية . ويعود هذا بعض الشيء الى الخطأ الفادح الذى ارتكب ، وذلك بشن الغارات من أجل العبيد الذى قضى تقريباً على أية علاقة ودية ممكنة مع السكان المحليين . وقد كتب جوبسون Jobson ، وهو ربّان انكليزى زار غامبيا فى سنة 1620 ، عن أهالى مادنكو : «أنهم يخشون جداً التحدث مع أية سفينة إلا إذا

---

* يورد غالباً أن اسم غينيا Guinea هو شكل منحرف عن اسم غانا Ghana الذى تعرف عليه البرتغاليون فى المغرب . ان الكاتب الحالى لا يجد ذلك مقبولاً . فاسم غينيا كان متداولاً فى المغرب وفى اوربا قبل زمن بعيد من عصر الأمير هنرى . فمثلاً يشاهد على خارطة يعود تاريخها الى حوالى 1320 ، رسمها الخرائطى الجنوى جيوفاني دى كارغنانو ، الذى استقى معلوماته عن افريقيا من مواطن من أبناء جلدته في سيجلماسة ، يشاهد اسم غونويا Gunuia ويشاهد فى أطلس كاتالان Catalan الصادر سنة 1375 اسم غينيا Ghinea . وتشير فقرة من كتاب ليو Leo (1896 ، الثالث ، 822) الى أن غينيا Guinea هى صيغة محرّفة من جين Jenne ، وأنها أقل شهرة من غانا Ghana ، ولكنها برغم ذلك كانت مشتهرة فى المغرب لعدة قرون بأنها سوق واسعة ومركز للعلم . وقد ورد فى الفقرة المعنية : أن مملكة غينيا Ghinea . . . يطلق عليها تجار بلادنا اسم غينيوا Gheneoa ،ويسميها السكان الأصليون هناك غنى Genni ، ويسميها البرتغاليون وغيرهم من سكان اوربا غينيا Ghinea . ويبدو أن الأرجح هو أن اسم غينيا مشتق من كلمة أغيناوو aguinaou وهى كلمة بربرية تطلق على الزنوج . وفى مراكش باب بنيت فى القرن الثانى عشر يطلق عليها باب أغيناوو ، أى باب الزنوج . يلاحظ :-(Delafossem Haut Senegal-Niger, II 277-8) .

ان اطلاق اسم غينيا Guinea على الساحل يعود تاريخه الى سنة 1481. ففي تلك السنة بنى البرتغاليون قلعة ساو جورج دا مينا (تسمى المينا في الوقت الحاضر) على ساحل الذهب، وسمح البابا لملكهم جون الثاني أن يلقّب نفسه عاهل غينيا، وقد ظل هذا اللقب حتى الغاء الملكية حديثاً.

ان المسكوكة الذهبية الانكليزية المسماة غينيا (جنيه)، قد سميت بهذا الاسم لأنها ضربت اولاً في سنة 1662 من الذهب المستورد من افريقيا الغربية بواسطة الشركة الافريقية التي أنشأها تجار لندن. (الكاتب الأول، دار الضرب الملكية، من رسالة الى المؤلف).

كانوا على معرفة تامة بها ، ذلك أنهم قد تعرضوا مرات عديدة الى الهجمات من دول أخرى كانت تباغتهم وتأخذ مجموعة منهم» [10] . وقد حصل بعض التقدم حينما انشأ البرتغاليون مستوطنة فى جزيرة ارغوين Arguin القريبة من رأس بلانكو ، وقد حوّلت اليها بعض القوافل التجارية الصغيرة . وكانت المعلومات التجارية التى امكن الحصول عليها قليلة الى أن ارسل الأمير هنرى بحاراً من البندقية اسمه الفيس كاداموستو Alvise Cadamosto لكى يكتشف نهر غامبيا الذى كان يعتقد أنه زاخر بالذهب . وقد وجد النهر ولكنه لم يجد الذهب . وكان كاداموستو بخلاف الربابنة البرتغاليين يقدّر الأهمية فى اكتساب ثقة السكان المحليين ، وبذلك استطاع الحصول على معلومات لم يحصل عليها سابقوه . فقد عرف ان تجارة الذهب القديمة التى يكثر الصمت بشأنها ما زالت مستمرة فى بعض الأماكن فى الداخل ، وأن الذهب يقايض بالملح كما كان فى الماضى . واستخلص من هذا الوضع ضرورة الاتصال بمركز معروف يتاجر بالملح مثل تمبكتو ، ولكن ما من أحد كان فى وسعه أن يدل على الأماكن التى توجد فيها حقول الذهب .

وحاول البرتغاليون بعد ذلك أن يتصلوا بمختلف الاقطار فى الداخل ، وبضمنها تكرور Takrur ، مالى ، وتمبكتو . ولم تسفر جهودهم عن شىء . على أن واحداً فقط من البعثة المرسلة الى تمبكتو قد نجح فى العودة الى الساحل ، ولكن التقرير الخاص برحلته لم يعثر عليه أبداً .

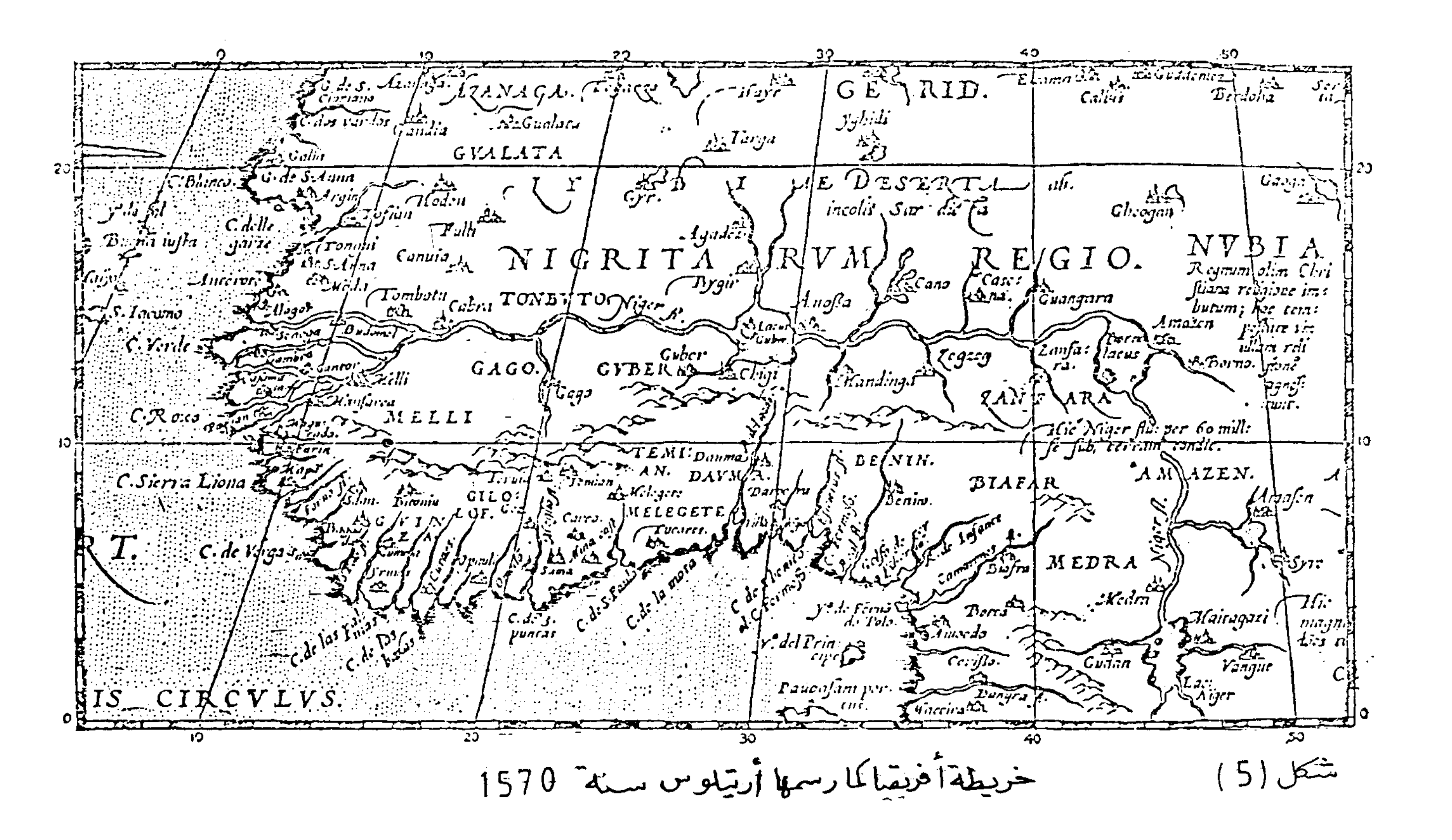
وبالاضافة الى ذلك فقد أفلح البرتغاليون خلال ذلك الوقت فى التعرف على مصدر آخر للذهب فى غربى أفريقيا . ففى خلال العقد من سنة 1470 تمكنوا من الاتصال بذلك الجزء من ساحل غينيا الذى عرف فيما بعد بساحل الذهب . وفى هذا المكان شيدوا فى سنة 1482 قلعة ضخمة اسمها ساو جورج دامينا (عرفت من بعد باسم المينا Elmina) . ويظهر أن البرتغاليين اعتقدوا أن الذهب الذى كان السكان المحليون يحملونه اليهم يؤتى به من منجم كبير واحد . والواقع أنه كان ينتج ويستخلص من ترسبات طينية لا حصر لها . وتوجد أدلة عديدة توحى بأن الذهب المستخلص من هذا الجزء من غربى

أفريقيا صار يصدر الى الشمال عند نهاية القرن الثالث عشر [11] . وقد اتضح للسكان المحليين الذين ينتجون الذهب أنه من الأفضل لهم أن يبيعوا ذهبهم الى البرتغاليين الذين كانوا على مقربة منهم بدلاً من قيامهم برحلة طويلة الى جين Jenne وتمبكتو . وفى مستهل القرن السادس عشر كان الذهب المستخرج من ساحل الذهب ، يقدر بنحو عشر مجموع العرض العالمى من الذهب فى ذلك الوقت . وهذه الحقيقة كانت تنطوى على أهمية بالغة . فالـذهب الآتى من كوستادا مينا كان يوفر أمرين فى وقت واحد ، كما أشار الى ذلك فاج J.D. Fage «فكـان محفزاً الى تجـديد الاهتمـام الملكى والمشـاركـة فى التـوسـع البرتغالى فيما وراء البحار» ، وكان أيضاً «مصدراً لرأس المال الذى أتاح لهذا التوسع من الوصول بسرعة فائقة الى تحقيق انتصارات باهرة» [12] . ولم تقتصر نتائج هذه الاكتشافات على البرتغال وحدها . فالمراكز البرتغالية المقامة على الساحل صارت تجتذب اليها تجار منطقة مادنجو Madingo من الداخل ، وكان لهذا أثره فى تـدفق الذهب عبـر الصحراء الكبـرى . ويبدو أن تـدهور تـدفق الذهب من السودان قد ترك أثراً بالـغ الخطورة فى اقتصـاد الدول فى أفـريقيا الشمالية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر [13] .

وبالرغم من أن البرتغاليين أشغلوا مراكز قوية على الساحل ، غير أنهم لم يستطيعوا التوغل بنجاح فى داخل البلاد . وقد وصف مركزهم فى فقرة مثيرة بقلم مؤرخ كبير للأحداث كان قد عاصرهم ، وهو جواو دى باروس Joao de Barros الذى كان هو نفسه قد خدم فى المينـا . «أنها (غينيـا) بلد مسالم ، وديـع ، طيع الى حـد أنه يعـطينا الـذهب ، والعاج ، والشمـع ، والجلود ، والسكر ، والفلفل ، وحبوب الفردوس (مالاغيتا) بدون أن نضع يداً على زناد البندقية ، ونشهر رمحاً بيدنا الأخرى ، وأنه قد يعطينـا المزيـد من الأشياء لـو تحركنا الى الداخل . . . ولكن يبدو أنه بسبب خطايانا ، أو بسبب تقدير الهى لا نعرف سره ، يقوم ملاك جبار على جميع المداخل الى هذه الارض الواسعة المأهولـة بذوى البشـرة السوداء ، بيـده سيف يتطايـر الشرر منـه ، وفى حده حميات مهلكة يمنعنا من النفوذ الى الداخل والوصول الى الينابيع فى البستان

الذى تجرى منه تلك الأنهار الذهبية المتدفقة الى البحر فى الكثير من الأجزاء التى فتحناها» [14] .

وفقد البرتغاليون مراكزهم على ساحل الذهب باستيلاء الهولنديين عليها فى عقد الثلاثين من سنة 1630 . وفى أوائل القرن الثامن عشر كان ساحل الذهب يزود الأوربيين ـ لا الهولنديين والـرتغاليين وحـدهم ، بل الانكليـز ، والفرنسيين ، وأهالى براندنبرك والدانمارك أيضاً ـ بحوالى 3500 رطل (بـاون) من الذهب فى السنوات الجيدة المحصول ، وهذه «كمية لا تختلف كثيراً عما كان يستحصل فى القرن السادس عشر» [15] . ومع ذلك فلم يوفق الأوربيون الى اكتشاف المصدر الفعلى للذهب . وقد كتب أحد الانكليز فى سنة 1758 ، «أن السكان المحليين كانوا يبدون أشد الحذر والاحتراس إزاء كل محاولة يقوم بها الاوربيون للوقوف على طبيعة بلادهم ومنتجاتها ، وبخاصة ما كـان يتعلق بالذهب» [16] . واستمر الوضع على هذه الحال حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما اتيح لبعض المسافرين الأوربيين أن يزوروا أول مرة المناطق التى تنتج الذهب فى ساحل الذهب وفى الأقطار المجاورة الأخرى .



شكل (5) خريطة أفريقيا كما رسمها أرتيلوس سنة 1570

الفصل الرابع عشر
ونغارة

WANGARA

«ومع ذلك فقد تنفرد أفريقيا وحدها بـالاشياء النـادرة ، واشتمالهـا على بعض الحقائق التى تبدو غير قابلة للتصديق»

صاموئيل برجاس Samuel Purchas

بقى مصدر الذهب فى افريقيا الغربية سراً مصوناً أحكم كتمانه . وظل العـالم الخارجى كله تقـريباً محتـاراً بهذا اللغـز اكثر من الفى سنـة . وكانت الجهود التى بذلت خـلال نصف تلك المدة للوقـوف على مصدر الـذهب قد باءت بالفشل وانعدام الجدوى . وكان العرب ملمين بوجود الذهب فى افريقيا الغربية منذ زمن مبكر ، ذلك أن حملتهم المعروفـة الأولى الى السودان التى تمت فى سنة 734 قد افـاضت عليهم بقدر واسـع من ذلك المعـدن الثمين . ويشير الفزارى فى كتاباتـه قبل نهـاية القـرن الثامن الى أن غـانا بلد معـروف بالذهب [1] . وبعد قرن من الزمان أورد ابن الفقيـه هذه العبـارة أن غانـا ينمو الذهب فى ارضها كما ينمو الجزر [2] . وكان البكرى فى القرن الحادى عشر أكثر دقة ، فقد ذكر أن أجود الذهب فى غانا ياتى من مدينـة خيارو . وكـانت هذه المدينة تقع على بعد اثنى عشر ميلاً من «النيل» * ، وأنه يمكن الوصول اليها خلال ثمانية عشر يوماً بالسفر من عاصمة غانا ، وانها كانت تشتمل على عدد كبير من المسلمين [3] . ويشير البكرى ايضاً الى مصدر آخر للذهب هو

* يبدو أن تسمية «النيل» كان يطلقها الجغرافيون المسلمون على كل نهر واسع فى افريقيا الغربية ولم تقتصر على نهر النايجر .

بلدة ايريسنى Iresni التى تقع على «النيل» فى مقابل بلاد ماليل (مالى) . واشار البكرى ايضاً الى «أن الوثنيين المعروفين باسم نونغا ماتر هم تجار ، وانهم يحملون الذهب الى جميع الاقطار» [4] . ومن بعد اورد الادريسى فى القرن الثانى عشر أن ذهب افريقيا الغربية كان يأتى من مصدرين ، تكرور Takrur فى جهة الغرب ، ووانغارا ابعد منها فى جهة الشرق ، وهى بلد « اشتهرت بكمية ونوعية الذهب الذي ينتج فيها»[5] .

واشار الجغرافيون العرب خلال العصور الوسطى مرات عديدة الى الثروة الذهبية التى كانت فى حوزة كبار الحكام فى افريقيا الغربية ، ولكنهم لم يضيفوا حول مصدر الذهب شيئاً اكثر دقة مما اورده الادريسى . ويحسن أن نتذكر أنه فى القرن الخامس عشر كان الرحالة الايطالى مالفانت Malfante قد اخبره شيخ كبير من طواط Tuat أنه بالرغم من قضائه اربعة عشر عاماً فى السودان ، فانه لم يصادف احداً يعرف بحكم تجربته الشخصية من اين يأتى الذهب السودانى[6] . ولا ريب فى وجود عدد كبير من التجار المحظوظين الذين يعرفون اين تقع وانغارا ، ولكنهم كانوا يحترسون دائماً من المتدخلين . وفى البحث عن وانغارا ، كما رأينا ، اشتبكت من اجلها السفن المسيحية والجيوش الاسلامية ، وفقد الكثير من الملوك عروشهم ، وفقدت الشعوب حريتها ، وازهقت الآلاف من الارواح . وفى آخر المطاف لم يستفد أحد درساً أو حكمة .

وبالرغم من أن الاشارات القديمة الى هذه التجارة ، وهى اشارات هيرودتس عن فتيات سيرونس Cyraunis ، واشارات القرطاجيين الى التجارة الصامتة ، لا تنطوى على أى ارتباط مباشر بمشكلة وانغارا ، فانها ذات علاقة بالموضوع لأنها تبين أن هذه التجارة كانت منذ الازمنة القديمة تتميز بسمتين بارزتين : الصمت والكتمان بشأنها والدور المهم الذى تلعبه النساء فيها . وهذه الاشارات تبين كذلك أنه ليس من الصواب أن يستبعد ما يرد حول هذه التجارة باعتباره من صنع الخيال حتى إن كان من القصص البعيدة جداً عن الاحتمال . فهل من شيء ابعد فى الخيال من تلك القصة العجيبة حول

الفتيات اللواتى كن يسحبن الذهب من ريش الطيور المطلى بالقار ؟ وهذا ينطوى على أنه حتى فى تلك الازمنة البعيدة كانت النساء يحفظن ما لديهن من تراب الذهب فى تجاويف الريش ، كما يفعلن فى الوقت الحاضر ، وكن يندفعن الى ذلك برغبة قوية لا تقاوم بقدر ما هى مثيرة للخيال .

ولما اخذ مصدر الذهب فى افريقيا الغربية ، بعد الف وخمس مائة سنة ، يدفع العرب الى التفكير والتساؤل ، كانت تلك التجارة قد تناولها التغيير من جانب مهم واحد فقط . ففى نظر هيرودتس كانت تجارة بحرية . وفى نظر العرب كانت تجارة برية بين السودان والمغرب الأقصى . ومع ذلك فان المقايضة الخرساء كانت لا تزال سمتها الأساسية ، كما أن اعتمادها على النساء ظل مستمراً. ان التجارتين البحرية والبرية، بالرغم من مرور 1500 سنة عليها ، تشتركان فى هاتين النقطتين ، كما انهما توحيان بان كلتا التجارتين كانتا تحصلان على الذهب من مناجم ذهبية واحدة وليس من المحتمل أن نعرف أبداً إن كانت الأمور على هذا المنوال . فبالرغم من أن القرطاجيين كانوا يتاجرون فى احد الاماكن على الساحل فى جنوب المغرب ، فانا لا نعرف كيف كان الذهب يؤتى به الى الساحل . وغرضنا الحالى هو أن نكتشف اين يقع الاصل والمصدر لتلك التجارة البرية . كان كل واحد يقول إن مصدرها هو فى وانغارا . ويتوجب علينا أولاً أن نتبين اين تقع هذه البلاد التى تكتنفها الأسرار .

لقد عثر على الذهب فى اقسام عديدة من افريقيا الغربية ، على أن بحثنا عن وانغارا ، التى كانت تدر الذهب بكميات كبيرة خلال قرون عديدة يمكن أن يقتصر على اربع مناطق تنتج الذهب بمقادير وافرة خلال مدة طويلة . وهذه المناطق هى بامبك Bambuk التى تقع بين السنغال العليا ونهر فاليم Faleme . ومنطقة بور Bure التى تقع عند ملتقى النايجر الأعلى مع رافده تنكيسو Tinkisso . ومنطقة لوبى Lobi فى فولتا العليا . ومنطقة اشانتى Ashanti فى القسم الخلفى من ساحل الذهب (7) .

ونستطيع من دراسة مادون سابقاً عن هذه التجارة أن نضيق مجال هذا

الاختيار ونزيد من تحديده . فقد ورد فى كتاب تحفة العلابى لمؤلف مجهول الأسم من القرن الثانى عشر :

فى رمـال ذلك البلد (غـانا) يـوجـد الـذهب على نحـو لا سبيـل الى وصفه . يمتلك فيه الناس ذهباً كثيراً ، ويقدم التجار الملح للحصول عليـه ، وهم يحملون الملح على الجمال من مناجم الملح . وهم يبدأون من مدينـة اسمهـا سيـجلماسة . . . ويسافـرون فى الصحراء وكـأنهم يـركبـون البحـر ، ويرشدهم فى سفرهم الادلاء الذى يستعينون لمعرفـة طريق سيـرهم بالنجـوم وصخور الصحراء . ويأخذون معهم من المتاع والذخيرة ما يكفيهم لمدة ستة اشهر ، وعندما يصلون غانا يزنون ملحهم ويبيعونـه فى مقابـل وزن معين من الذهب ، وفى بعض الاحيان يبعيـون ملحهم بما يعـادل وحدتين او اكثـر من الذهب تبعاً لظروف السوق والعرض [8] .

وكـان «الكتاب» الـواحـد تلو الأخـر ، يؤكـدون اهميـة الملح فى تلك التجارة . وقد كتب ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر «ان المبادلة كانت تجرى فى تاغـازة Taghaza وبالرغم من ضئالة قيمة الملح فانه كان يستبدل بمقاديـر كبيرة من تراب الذهب»[9] . لقد كانت وانغارا بلداً يفتقر الى الملح على نحو مزمن ، وظل على هذا المنوال قروناً عديدة .

لم يكن هذا البلد بعيداً كما توحى به الاسرار التى حيكت حوله . وليس من المؤكد أنه كان دائماً جزءاً من مملكة غانا ، ولكن هذا محتمل . ولا ريب فى أن البلد قد خضع مرة لحكم مالى ، ذلك أن سندياتا Sundiata قد فتح هذا البلد ، ولما حاول أن يحمل منتجى الذهب الـوثنيين على اعتناق الاسـلام ، تركوا ادواتهم ولم تحصل المادنجو Madingo على شيء من الذهب[10]. وهكذا يتضح أن وانغارا ما كانت تقع فى الجنوب من سهوب السودان ، فمع أن غانا ومالى قد توسعتا باتجاه الشمال الى الصحراء ، وباتجاه الغرب الى المحيط الأطلسى ، غير أنهما لم يحاولا أن يخترقا حزام الاشجار الكثيفة التى تفصل السهوب من الغابة الساحلية الممطرة فى الجنوب . وبالاضـافة الى ذلـك ،

واستناداً لما يورده البكرى فان مناجم الذهب كانت لا تبعد اكثر من مسيرة ثمانية عشر يوماً من كمبى ، عاصمة غانا .

إن انعدام الملح فى وانغارا ، وامكانية الوصول الى هذا البلد من اسواق السودان الكبيرة ، تبين بوضوح أنه ليس باقليم أشانتى . ومناجم الذهب هناك قريبة جداً من الساحل ويمكن الحصول على الملح بسهولة . وما كان ليصبح مشكلة خطيرة أبداً * ، وبما أنها محاطة بحزام الغابة فقد كانت بعيدة جداً من السودان وما كان من اليسير الوصول اليها من الشمال . ومع ذلك فان جوزيف دوبوى Joseph Dupuis الذى زار فى سنة 1829 كوماسى Kumasi بمهمة دبلوماسية يظن غير ذلك . انه اعتقد أن أشانتى بالاضافة الى شريط ساحلى طويل يقع الى الشرق منها تؤلف «وانغارا الحقيقية والوحيدة المعروفة لدى شعوب افريقيا الشمالية . ولقد يبدو من الغريب أننا استعمرنا البلد زمناً طويلاً فيما مضى ، ومع ذلك لم نعرفه ولو بالأسم فقط»(12) . ولا ريب فى أنه كان على خطأ .

وعلى هذا الاساس ليس لدينا الآن سوى أن ننظر فى الادعاءات المتنافسة التى تنسب الى كل من بامبك ، بور ، ولوبى . ففى مستهل القرن العشرين ، وقبل أن تأتى الى هذه الأقطار التجارة الساحلية الاوربية ، كانت هذه الاقطار تحصل على ملحها من مكان بعيد من الصحراء ، من تاغازة ومن ادجيل Idjil وبالاضافة الى ذلك كانت هذه الاقطار الثلاثة قريبة من اسواق الذهب السودانية الرئيسة ، وكان تجار البربر فى الأزمنة السابقة يستخدمون

---

* ولكن الساحل لم يكن قريباً ، ولذلك فقد استطاع الوسطاء الغيورون أن يحولوا دون وصول التجار الاوربيين على الساحل الى تلك المناجم . وقد كتب وليم بوزمان فى نهاية القرن السابع عشر «ليس بالعدد القليل من الناس فى اوربا ممن يعتقد أن مناجم الذهب هى فى متناولنا . واننا مثل الاسبان فى الهند الغربية» ما علينا الا استخدام الرقيق فى انتاجها . وإن كنتم تعلمون حق العلم أنه ليست لدينا أية وسيلة للوصول الى تلك الكنوز . كما أنى اعتقد أنه ما من احد من قومنا قد رأى يوماً ما أيّاً منها . ومن اليسير أن تصدقوا ذلك اذا علمتم أن الزنوج يعتبرون تلك الكنوز مقدسة ، ولذلك فهم يتخذون كل الاحتياطات الممكنة لجعلنا بعيدين عنها» .

تلك الاسواق لجمع الذهب . على أن الافضلية تقع الى جانب بامبك وبور اللذين كانا اقرب الى كومبى القديمة ، وبفضل نهر النيجر كانا أيسر وصولاً من لوبى عند الخروج من جين Jenne وتمبكتو . ومن المحتمل أنه فى بعض الاوقات كان كل من بامبك وبور قد خضع لحكم غانا ، ومن المؤكد أنهما خضعا لحكم مالى : أما لوبى فلا يمكن أن تكون قد ارتبطت بواحد منهما . ومما له اهمية خاصة أن بامبك وبور كانا ، بخلاف بور ، جزءاً لا يتجزأ تقريباً من بلاد مادنجو . ان وانغارا ، الى جانب انها اسم لقطر ، كانت ايضاً الأسم الذى يعرف به شعب مادنجو ، وبخاصة فرعاه من السونيك Sonike والديولا Dyula لدى غربى السودان . وفى الاوساط المغربية والاوربية كانت تجارة الذهب مرتبطة على وجه الخصوص بمادنجو التى كان ثراؤها مضرباً للأمثال . وقد كتب برجاز Purchas «ما من قطر فى العالم اغنى فى الذهب والفضة من ممالك ماندنجا [13] . وقبل ذلك بكثير فى القرن الرابع عشر ، أشير فى خارطة رسمها ابراهام كريسك Abraham Cresques الى رحلة قام بها جيم فيررJaime Ferrer وهو يبحث عن ريو دو أورو ومملكة ماندنجا وذهبها [14] .

والخبر المبكر الوحيد بين ايدينا حول وانغارا هو الوصف الموجز الذى كتبه الادريسى . قال عنها انها جزيرة طولها 300 ميل وعرضها 150 ، تحيطها مياه «النيل» . وكان الفيضان يغمر الجزيرة خلال فترة طويلة من السنة ، واذا ما انحسرت المياه ، كان الزنوج المحليون ينتقلون اليها ويجمعون الذهب الذى خلفته المياه ، ويظلون هناك حتى ترتفع المياه مرة اخرى [15] .

على أن ما كتبه الادريسى لا يرقى فى قوته الى ما كتبه ابن بطوطة وليو الافريقى ، لأنه لم يشاهد الاقطار التى وصفها . ومع ذلك فقد كان حسن الاطلاع ، وقلما يجاوز هذا الوضع حين يصف وانغارا . وينطبق وصفه انطباقاً دقيقاً تقريباً على مناجم الذهب فى بور . وهذه المناجم من الذهب التى ما زال السكان المحليون يستغلونها بانتظام ، لا تقع فى الحقيقة على جزيرة ، بل تقع فى بلد محاط بالانهار ـ نهر النيجر وروافده ـ ومن السهل التوهم بانها نهر واحد . وما زال الذهب يستخرج بانتظام بين هبوط الفيضان وارتفاعه من يناير

حتى مايو مثلما وصفه الأدريسى تماماً . * ويضيف ياقوت ، وهو من جغرافى القرن الثانى عشر بعض التفصيلات المقنعة . فيقول إن مناجم الذهب تقع قريبة من احد الأنهار . وعندما يصل التجار من بلاد البربر الى النهر ، يشرعون بالضرب على طبول كبيرة لجذب السكان المحليين الذين كانوا عراة تماماً ، وكانوا يعيشون فى «حفر فى الارض» (17) . وهذه الحفر هى الأماكن التى ما زال السكان المحليون يحفرونها فى بحثهم عن الذهب . واخيراً فهناك هذه الحقيقة وهى أن جزءاً صغيراً من المنطقة التى ينتج فيها الذهب تسمى اليوم بعدة اسماء مختلفة هى : جبانغارا Gbangara جوانغارا Guangara ، جانغارا Gangara أو جانغاران Gangaran (18) .

ومناجم الذهب الموجودة فى بامبك تشبه كثيراً المناجم الموجودة فى بور . وبامبك هى ايضاً بلد تكثر فيه الانهار ، وهى محاطة بنهرى السنغال وفاليم ، ويستخرج منها الذهب بنفس الطريقة المستخدمة فى بور . ويحسن أن نتذكر أن كلًا من الادريسى والبكرى يشير الى منطقتين تنتجان الذهب ، الادريسى يشير الى تكرور ووانغارا ، والبكرى يشير الى ايرسنى Iresni وغيارو Ghiarou . ويبدو على هذا الوجه ، أن وانغارا وايرسنى التى تقع باتجاه الشرق ، تنطبقان على بور ، وأن تكرور وغيارو تنطبقان على بمبك (19) . وبما أن المسافة بين بمبك وبور لا تزيد كثيراً على مائة وخمسين ميلاً ، وان المنطقتين متشابهتان كثيراً ، فمن المحتمل حصول بعض الخلط بينهما .

ولم تكن بمبك وبور بالمنطقتين الوحيدتين اللتين كانتا تنتجان الذهب

* ان هذا العمل الموسمى المتعلق بذهب الفيضان والترسبات والذى كان بطبيعة الحال فى مستهل الموسم أوفر مقداراً مما فى نهاية الموسم السابق ، قد أدى الى نشوء بعض الاعتقادات الغريبة جداً . ومن هذه العقائد ، تبعاً لما يذكره ياقوت ، أن الذهب ينمو فى رمال وانغارا كما ينمو الجزر ، وعقيدة اخرى تقول انه ينمو مثل المرجان ، وثالثة تذهب الى ان الذهب ينتقل بصورة سرية تحت الارض ، والعقيدة الرابعة هى الاسطورة المشهورة عن الذهب الذى يعثر عليه فى أوكار النمل الذى كان بحجم القطط كما يورد ذلك مؤلف كتاب Libro del Conoscimiento المجهول الأسم . وهذا الصنف من النمل يظهر فى الخارطة الشهيرة التى رسمها هيرفورد Hereford فى القرن الثالث عشر.

فى افريقيا الغربية . وينبغى أن تبحث ايضاً ادعاءات لوبى . يحسن أن نتذكر أن كاداموستو القائد البحرى من اهالى البندقية الذى كان فى خدمة البرتغال خلال القرن الخامس عشر ، كان قد نجح على نحو بارز فى الحصول على المعلومات من السكان الأصليين . وليس من مثل افضل فى هذا المجال من اخباره حول تجارة الذهب . فهو يقول : «إن قوافل الملح القادمة من تاغازة كانت ترحل الى الجنوب عن طريق تمبكتو الى مالى حيث يحوّل الملح من ظهور الجمال الى رؤوس الناس ، لأن المراعى لا تلائم ابداً الحيوانات التى تمشى على اربع . . . ولا يوجد فى هذا البلد حيوانات من ذوى القوائم الاربع لأنها تموت كلها . وفى مالى تكسر كتل الملح الكبيرة الى قطع صغيرة .

ولهذا يحمل كل شخص قطعة واحدة ، ويؤلفون جيشاً كبيراً يمشون على الاقدام وينقلون الملح الى مسافة بعيدة . . . حتى يصلوا بعض المياه . . . فاذا بلغوا تلك المياه ومعهم الملح تصرفوا على النحو التالى : انهم يكدسون الملح فى صفوف وكل يؤشر على ما يعود اليه . وبعد الفراغ من تلك الاكوام الملحية تعود القافلة كلها فى مسيرة تستغرق نصف يوم . ثم يأتى بعد ذلك جنس آخر من السود ، لا يرغبون فى أن يراهم أحد ولا يريدون الكلام . يصلون فى زوارق كبيرة ، يعرف منها أنهم قدموا من بعض الجزر ، وينزلون الى البر ، ويضعون كمية من الذهب امام كل كومة من الملح ، ويعودون بعد ذلك تاركين الملح والذهب . . .

وهكذا تتكرر الأمور تماماً كما وصفها هيرودتس والكتاب الذين جاءوا بعده . ويختم كلامه أنهم بهذه الطريقة ، وبموجب عاداتهم القديمة والمستمرة ، يديرون تجارتهم بدون أن يشاهد أو يحدّث احدهم الآخر . ومع أنه من العسير أن يصدق المرء هذه الأمور ، فانى قد سمعت هذه المعلومات من عدد كبير من التجار العرب ومن تجار الازناغى Azanaghi (السنهاجة) ، وسمعتها ايضاً من أناس يمكن الوثوق بهم [20] .

وتختلف رواية كاداموستو عن الآخرين من وجه واحد . وهو أن التجارة

الصامتة او الخرساء ما كانت تجرى فى مناجم الـذهب ، بل فى مكـان آخر يجلب اليه الذهب فى الزوارق ، ويقع ذلك المكان فى بلد ذبابة النوم . على أن هذا ليس بالأمـر المهم ، لأن كلاً من بـامبك ـ بـور ولوبى تقعـان فى بلد الذباب ، كما أن الذهب يمكن جلبه بالزوارق من كل من البلدين .

ويـذهب كادامـوستو فيصف مـظهر هؤلاء الـذين يحفـرون بـاحثين عن الذهب والذين يتميزون بالخجل ، تبعاً لرواية كان قد تلقـاها من أحـد اهالى مادنجو الذى كان قد انقض على اربعة منهم فى هجوم غادر من كمين كان قد اختبأ فيه : لونهم شديد السواد ، لهم اجسام حسنة التكوين ، وهـم اطول منا بنحو شبر واحد . وشفتهم السفلى ، التى يزيد عرضها على شبر ، متدلية الى الاسفل نحو الصدر ، وهى عريضة حمراء تكشف الجزء الخلفى الذى يتلألأ مثل الدم . . . ويظن أن شفاههم قـد فسدت وتعفنت لأنهم يعيشـون فى بلد اشدّ حرارة من بلدنا [21] . . .

وبعـد ما يقـرب من مائتى سنـة عاد أوربى آخـر هو ريشـارد جوبسـون Richard Jobson من افريقيا الغربية ومعه قصة مشابهة . فقد تجول فى شمال نهر غامبيا بدون ان يكتشف شيئـاً مهماً ، ولكنـه عاد مـع نظريـة جديـدة عن التجارة الخرساء التى يجريها اناس لا يشاهدون .

فقد كتب : والسبب فى أن هؤلاء الناس يتعذر رؤيتهم هو أنهم يولدون وشفاههم السفلى لها من الكبـر بحيث انها تـرتد الى الخلف وتغـطى القسم الاكبر من صدورهم وفى حالات الحرارة الشديدة تتعرض الى التعفن ، وبما أنهم لا يملكون وسيلة لصيانة انفسهم إلا برش الملح عليها بصورة مستمرة ، فان الملح قد اصبح شيئاً ثميناً لديهم : ان بلدهم بعيـد فى الداخـل ولا يغل شيئاً من الملح [22] .

ان التشابه بين الفقرتين كبير جداً بحيث من الممكن أن يكون الانكليزى قد سطا على ما كتبه البندقى . فكل منهما يشير بوضوح الى استعمال اقراص الشفة ، وهى على انواع مختلفة توضع فى ثقب فى الشفة ، وتستعمله النساء

فى افريقيا على نحو واسع . ان قرص الشفة لهو من الكبر احياناً بحيث ان رفعه لاسباب منزلية أو فى المناسبات والاحتفالات يؤدى الى تدلى الشفة حتى اسفل الحنك كما ورد فى وصف كادامـوستو وجـوبسون .* ولا نجـد اليوم اقراص الشفة فى بامبك أو بور ولكنها ما زالت تستعمل فى لوبى حيث تلبسها النسـاء من قبائـل بيريفـور Birifor ولوبى [23]. وقـد حمـل هـذا البعض على الاستنتاج أن مناجم الذهب التى وصفها كاداموستو وجوبسون كانت فى لوبى ، ولهذا السبب فلا بد أن تكون لوبى هى وانغارا التاريخية [24] .

وليس من السهل أن تؤيد هذه الحجة . فقبل أن تعمل الادارة الاوربية على استقرار القبائل بصفة عامة ، كانت القبائـل تسيل هنـا وهناك ، وكـانت الهجرات بسبب الدوافع السياسية او الاقتصادية متكررة الحدوث . ولذلك من الحكمة الافتراض أن ما يمارس محلياً فى الوقت الحاضر قد كان عادة محلية قديمة . ففى لوبى ، على سبيل المثال ، نجد أن اللوبيين انفسهم قد تواجدوا على ما يبدو فى بلدهم الحالى منذ القرن الرابع عشر ، فى حين أن جيرانهم من جمـاعة البيـريفور لم يصلوا هنـاك حتى القرن التـاسع عشـر ، وليس من الصواب الافتراض أن قرص الشفاه كان يستعمل دائماً في لوبى ، كما انه ليس من الصواب الافتراض انه لم يستعمل أبـداً فى بامبـك وبور ، وبخـاصة أنـه يتواجد فى احيان كثيرة ضمن المنطقة الممتدة عبر افريقيا من المحيط الأطلسى الى المحيط الهندى ، وأنه مستخدم لدى القبائل المتباعدة من لوبى فى غينيا الغربية الى ماوية Mawia فى الموزمبيق .

وبمـا أن كادامـوستو لم يبحـر ابعد من ريـوغـرانـد Rio Grande ، وأن جـوبسون اقتصـر فى ابحاره على غـامبيا ، فليس من المحتمـل أن يكون أى

---

* فى حوزة المتحف البريطانى زوج من اقراص الشفة اخذا من الشفة العليا والسفلى لأمـرأة من قبيلة سارا فى ارض شاد ، قطر كل منهما 5,1 و 6,9 بوصة على التوالى . (اوردهـا فاغ Fagg من موظفى المتحف البريطانى فى رسالة الى المؤلف) .

منهما قد سمع بلوبى ، كما أنه من المحتمل أن يكون الاثنان قد سمعا بمناجم الذهب فى بامبك وبور .

والاستنتاج المناسب الذى يمكن أن يستخلص مما كتباه هو أن اقراص الشفاه كانت تلبس فى الاقطار الأخيرة خلال تلك الايام .

ومع ذلك توجد اسباب وجيهة للاعتقاد أن التجارة عبر الصحـراء كانت تعتمد على لوبى فى بعض ذهبها ، وهذا اكثر اهمية فى هـذا الخصوص من تحديد وانغارا وتعيين تواجدها التاريخى .

ويرتبط على نحو وثيق بحفريات الذهب القديمة فى لوبى عدد ملحوظ من المبانى الحجرية التى ليس لها مثيل فى أى مكان آخر من افريقيا الغربية ، ومن الواضح انها من عمل أناس أقل بدائية من سكان البلد الحاليين . من كان اولئك البناة ؟ سؤال سيظل مشكلة ، وسوف يؤدى حلها الى القاء ضوء جديد على الايام الأولى لتجارة الذهب . ومهما كانوا ، فمن الواضح أنهم كانوا من منتجى الذهب البارزين ، ومن المرجح أنهم كانوا يبيعونه فى اسواق السودان اكثر مما يبيعونه على الساحل . فبينهم وبين البحر يقع شريط من الغابـة التى يصعب اختراقها ، وفى قلب هذه الغابة تتواجد مناجم الذهب فى أشانتى التى تسد حاجات الساحل [25] .

ويعاد الى الذهن أن ليو قد ذكر أن الذهب كان احياناً على قدر من الوفرة فى جاو Gao بحيث ان التجار كانوا يعودون الى بلدهم وهم يحملون ثلث او نصف ما كانوا قد جلبوه الى السوق . واذا كان هذا الـذهب قد جىء بـه من بامبك أو بور ، فلا بد أن يكون قد جلب من جنوب النيجر على يد تجـار من تمبكتو أو جين Jenne وهى اسواق مهمة لا يصح اهمـالها أو التغـافل عنهـا . والتجار الماهرون من هذه المنطقة يعرفون جيداً طبيعة عملهم ولا يحتمل أن يغمروا سوق جاو بما يجلب لهم الضرر . والتجار الجاهلون بهذه الاوضاع لا بد أنهم كانوا يأتون من مكان آخر ، يحتمل من لوبى ، وهى بعيدة كما نعلم ، وكانت المصدر البديل الوحيد المتاح امام جاو للحصول على الذهب .

وهكذا يتضح ان التجارة التى تعبر الصحراء كانت تحصـل على ذهبها من مناجم الذهب فى بامبك ـ بور وفى لوبى ايضـاً . ولا نعرف أى المنـاجم كانت اهم من الأخرى ، وهذا أمر لا يهم كثيراً . ومع أنه لا يوجد سوى القليل من الشك فى أن المناجم الأولى كانت هى وانغارا لدى جغرافى العرب ، فانه يحتمل أن تكون لوبى هى وانغارا خلال الأزمنة التالية .

على ان اصحاب الجغرافية فى بحثهم عن وانغارا الحقيقية يذهبون أبعد كثيراً من المياه العليا للسنغال ، والنيجر ، والفولتا . واضيف الى الارتباك فى رسم الخرائط الذى استمر عدة اجيال ما اورده ليو الافـريقـى وهو رحـالة من المغرب سافر الى السودان فى اوائل القرن السادس عشر ، فقد جعل وانغارا فى منطقة الهاوسا Hausa . فقد كتب: «إن غوانغارا تجاوز زامفـارا Zamfara من الجنوب الشرقى، وهى مدينة آهلة بالسكان، يحكمهم ملك له حامية من سبعة آلاف يرمون السهام ، وخمس مائة من الفرسان ، ويحصل سنويـاً على اتاوات كبيرة» (26) . وهذا قد يعنى أن وانغارا كانت فى الجنـوب الشرقى من زامفارا ، أو أن زامفارا كانت فى الجنوب الشرقى من وانغارا . وهذا الغموض حيّر راسمى الخرائط ، فبعضهم قرأه بوجه ، وقرأه آخـرون بوجـه ثان . على أنهم جميعاً ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، قد وضعوا وانغـارا فى منطقـة الهاوسا التى تبعد عدة مئات من الاميال فى شرق المنطقة التى تعود اليها ، وبهذا الوجه زادت كثافة الضباب الذى كان يغلّف هويتها* .

وكان لدى ليو اشياء اخرى يقولها عن وانغارا .

فقد كتب : « إن السكان على جانب كبير من الثراء ولهم تجارة متواصلة مع الأمم المجاورة . فى الجنـوب من ذلك المكـان تقع منـطقة زاخـرة كثيراً

---

* عندما خطط منجو بارك Mungo Park رحلته الأخيرة الى جنوب النيجر كان يتوقع أن يمر بنوب Nupe وكاتسينا Katsina قبل أن يصل وانغارا .

وقد وضع ريتر Ritter واوتزيل Oetzel فى خارطتهما المرسومة سنة 1822 ، وانغارا فى المكان الذى وجد فيه من بعد دلتا النيجر .

بالذهب . . . ويذهب غالباً التجار من غوانفارا الى تلك المنطقة الزاخرة بالذهب . وبما أن الطرق وعرة وعسيرة ولا تستطيع جمالهم السير فيها فانهم يحملون امتعتهم على ظهور الرقيق » .

وهذا التأكيد الذى يورده ليو حول ثروة وانغارا ، يبين أن ليو كان يظن أنه يصف وانغارا التى ذكرها الادريسى : ولكن بينهما اختلاف . فالاخيرة كانت تنتج الذهب ، فى حين أن وانغارا التى فى ذهن ليو كانت تحصل على الذهب من مكان أبعد فى الجنوب ، من بلد «الذباب» (كما ذكره الآخرون) .

وبما أن ليو قد جاء من الغرب ، وأنه قد شاهد قدراً واسعاً من تجارة الذهب ، فان وضعه وانغارا فى المكان الذى اختاره يثير الدهشة حقاً . ومن المحتمل أن الخطأ قد نشأ من المعنى المزدوج لأسم وانغارا، الذى يطلق على أحد البلدان، وأحد الاقوام. ففى الهاوسا عاشت منذ مدة طويلة جماعات من مادنجو تعرف محلياً باسم وانغارا أو وانغاراوا . وفى القرن التاسع عشر ، وتبعاً لما يورده بارت Barth [27] ، كان هؤلاء يؤلفون اهم التجار فى كاتسينا ، التى لا تبعد كثيراً عن زامفارا ، ومن المحتمل انهم كانوا أناساً لهم اهمية محلية فى زمن ليو . ومن المحتمل أن ليو حين كان فى زامفارا قد سمع بقرى وانغارا أو مادنجو فى بعض الاماكن من الجنوب . وربما كانت هذه القرية فى بلد غوارى Guari أو على نهر زامفارا حيث يمكن حتى الآن العثور على الذهب الغرينى . والواقع ان الرؤساء المحليين قد اعتادوا حتى فترة ملحوظة من القرن العشرين أن يجعلوا نساءهم يغسلن الذهب فى مجارى الانهار* . والوجه البديل الآخر هو أن وانغارا التى فى ذهن ليو قد تكون ابعد كثيراً الى الجنوب الغربى فى المناطق التى تنتج الذهب فى أشانتى أو لوبى [28] . وفى

* ومن ناحية اخرى إن غانغارا التى تعنى بلغة الهاوسا المنحدر (او الارض المنحدرة) اسم شائع يطلق على اماكن عديدة فى الشمال الغربى من الهاوسا. وقد ذكر كل من السير رجموند بالمر Sir Richmond Palmer ودانيال ، لمؤلف هذا الكتاب أن غوانغارا التى أشار اليها ليو يحتمل أن تكون منحدراً (غانغارا) فى مقاطعة كاتسينا لاكا Katsina Laka فى الشمال الغربى من زاريا Zaria .

القرن التاسع عشر كان الطريق التجارى بين الهاوسا وأشانتى يطرق كثيراً ، ولكن جوزة الكولا كانت المادة الرئيسة فى التجارة . ومن المحتمل أن هذا الطريق التجارى قد انشىء فى القرن الخامس عشر ، لأن تاريخ كانو Kano chronicle يشير الى أنه فى عهد يعقوبو Yakubu 1452 ـ 1463 أصبح الملح شائعاً فى بلاد الهاوسا، وأن تجار غوانجا (غونجا فى شمال غانا) أخذوا يأتون الى كاتسينا [29] . ومهما كان المكان الصحيح لموقع وانغارا التى هى فى ذهن ليو ، فالظاهر أنها قد اختلطت فى تصور ليو بوانغارا التى وصفها الادريسى .

وفى منتصف القرن السادس عشر قاربت مشكلة التحقق عن هوية وانغارا من الحل بصورة نهائية . فقد ارسلت البرتغال عدداً من البعثات الى الداخل ، الى تمبكتو والى عاصمة مملكة مالى . ولم يعثر على أية رواية مفصلة عن تلك البعثات اكثر من الاشارة الموجزة التى اوردها عنها مؤرخ معاصر هو دى باروس de Barrso ، على أنه من غير المحتمل أن يكون البرتغاليون قد استطاعوا جمع معلومات وافرة عن تجارة الذهب فى الداخل . ذلك أن الترسبات الذهبية فى ساحل الذهب قد زودت البرتغاليين بمصدر ممتاز للحصول على الذهب ، ولم يجدوا لديهم حافزاً قوياً يحملهم على تنمية التجارة مع الداخل[30] .

وفى القرن السابع عشر حصل الانكليز فى غامبيا والفرنسيون فى السنغال على المعلومات المتعلقة بالذهب فى الداخل . ومنذ اوائل سنة 1660 خرجت حملة بقيادة الضابط فرمويدن Vermuyden ، وبتمويل جماعة من البريطانيين من ضمنهم جيمس James ، دوق أوف يورك Duke of York ، وذهبت الى أعالى غامبيا وادعت أنها اكتشفت قدراً واسعاً من الذهب . وبعد عشرين سنة افلح ضابط بحرى انكليزى هو كورنليوس هوجز Cornelius Hodges فى الوصول الى مناطق الذهب فى بامبك ، ولكنه وجد أن المجاعة فى البلد المحيط بها قد دفعت الناس الى ترك المناجم موقتاً . وقام احد الفرنسيين ، هو سير كومبانون Sieur Compagnon عام 1714 بمزيد من الاستكشافات والتحريات فى بامبك . وفى هذا الوقت تحرك الفرنسيون فى

شمال السنغال وافلحوا فى اقامة مركـز تجارى يسمى حصن القـديس يوسف Fort St . Joseph على حدود بامبك . ومع ان الفرنسيين احتفظوا بذلك المركز الحصين اربعين عـاماً فـان مقدار الـذهب الـذى كسبـوه كـان ضئيـلاً مخيبـاً للآمال (31) .

واستـطاع منجو بـارك Mungo Park خلال حملتـه الأولى على افـريقيـا الغربية (1795 ـ 7) أن يحصل على قدر واسع من المعلومات عن انتاج الذهب فى البلاد الواقعة بين الفاليم Faleme والنيجر (32) . وبعد ثلاثين عاماً قدم رينه كاليه Rene Caillie واقترب من بلاد البـور . وعلم أن بلاد البـور تشتمل على مناجم غزيرة بالـذهب ، ولكنه اعتقـد أن الأهالى الـذين يشتغلون فيها كـانوا يجهلون سعة تلك الثروات (33) . ويبدو أنه لم يخطر لا فى بال بارك ولا كاليه أن المناطق التى تنتج الذهب والتى رأياها أو سمعا عنهـا كانت تمثـل وانغارا التاريخية التى ظل الناس يجدون فى البحث عنها قروناً طـويلة . وربما كـان ذلك يعود الى أن حقول الذهب فى مستهل القرن التاسع عشر كانت تقترب من النفاد ، وكان الانتاج ضئيل الاهمية .* كما أن التجارة الصامتة التى كان من المؤكد أن تجلب الانتباه اليها ، كانت ايضاً قد توقفت فى المنطقة . +

وفى الـوقت نفسه ظـل المستكشفون والجغـرافيون يتـأملون فى هـويـة

* فى مستهل القرن التاسع عشر وجد جاكسون J . G . Jackson أن الـذهب كان يتـدفق بحريـة ملحوظة الى المغرب ، وكان يعتبر حتى ذلك الـوقت أنه ذهب وانغـارا . ويشير فى كتـابه الى حلقات ذهبية ملتوية من وانغارا (حديث عن امبراطورية المغرب ، لندن ، 1814 ، ص 290) . واشار من بعد الى قائمة من السلع مؤرخة عام 1790 ، ومرسلة من تمبكتو الى تاجر فى فاس ، وكانت تشتمل على « 500 جلدة من تبر وانغارا» و « 100 سبيكة ذهبية من وانغارا» (تقرير عن تمبكتو والهاوسا ،لندن ، 1820 ، ص . 347) . ومع ذلك ، وتبعاً لما يورده رولفـز Rohlfs ، كانت هذه التجارة ، فى منتصف القرن ، قد اصبحت ضئيلة الاهمية .

*يبدو من المحتمل فى الواقع ، أن التجارة الصامتة فى بامبك وبور ، وهما منطقتان يسهل نسبياً على التجار المسلمين الوصول اليهما ، كانت قد توقفت بعد بداية القرن الحادى عشر . والتجارة الصامتة التى وصفها الكتاب البرتغاليون كانت تجرى فى المناطق البعيدة التى ينتج فيها الذهب .

وانغارا وموقعها . فقد بحث عنها ليون Lyon الذى لم يذهب أبعد من فزان فى محاولته الوصول الى السودان منطلقاً من طرابلس . ويظهر مما عرفه أنه كان من السهل على ليو أن يقع فى الخطأ بسبب استعمال الأسم على نطاق واسـع ، واشار كذلك الى أن الناس فى قلب الصحراء ، وحتى فترة متأخرة تبلغ القرن التاسع عشر ، كانوا يربطون وانغارا بتجارة الذهب الصامتة .

وهو يقول : آن وانغارا مكان ليس فى وسعنا أن نحصل على أى تقرير محدد عنه . ومع ذلك يورد بصفة عامة أنه بلد منخفض تغمره المياه احياناً . ويقول بعض الاشخاص إنه يقع على بعد عشرين يوماً جنوب تمبكتو . ويضعه آخـر فى جنوب كـاشنا (كـاستينا) . وتـزعم فئة اخـرى أنـه أبعـد من واداى Waday : والواقع أنه من المتعذر أن نخرج باية فكرة من هذه الاخبار المختلفة بشأن الموقع الفعلى لهذا المكان ، وحتى بشأن وجوده .

ألا يصح وجود ثلاثة اماكن بهذا الأسم ، أو ليس من المحتمل أنه اسم عام يطلق على المستنقعـات والاراضى المغمورة بـالماء ؟ وفى احـد البلدان التى قيـل عنها إنهـا تقـع خلف تمبكتـو ، ذكـر أن عـاصمتـه تسمى بـاتـاغـو Battagoo ، وأنه بلد واسع ، وتورد الاخبار أن الذهب يوجد بكثرة على مقربة منه . وتبعاً لما يسرده راويتنا ، يسكن بالقرب من ذلك المكان قوم محجوبون لا يـراهم أحد ، ويقـال انهم يتاجـرون ليلاً . والـذين يأتـون للحصـول على الذهب يضعون سلعهم بشكل اكوام وينسحبـون . وفى الصبح يجـدون كمية كبيرة من تراب الذهب قد وضعت فى مقابل كل كومة من السلع . فاذا وجدوا تراب الذهب كافياً تركوا السلع ، وإلا أبقوا الكومتين حتى يضاف المزيد من المعدن الثمين . ويزعم العديد أن هؤلاء الذين يقدمون تراب الذهب هم من الشياطين الذين يحبون النسيج الأحمـر حباً جمـاً . وهو المـادة المفضلة عند المبادلة [35] .

وبعـد بضـع سنـوات قـام الضـابط المستكشف دكسـون دنهـام Dixon Denham بتحقيقات وتحريـات مماثلة قـادته الى مـا يعد الاستنتـاج الصحيح

تماماً . وقد كتب : «ان جميع الاقطار التى تنتج الذهب ، وكذلك كل الاقوام التى تأتى من اقطار الذهب يطلق عليها اسم وانغارا» [36] .

***

وينبغى أن تضاف خاتمة حديثة الى هذه الروايات التاريخية الخاصة بالبحث عن وانغارا ، ذلك أن الذهب ما زال يلعب دوره فى اقتصاد افريقيا الغربية . ومع ذلك فالقطر الوحيد الذى يصدر الذهب فى الوقت الحاضر هو غانا ، ومعظم الذهب الغانى يستخرج من مداخل قد يبلغ عمقها 3700 قدم [37] . على أن استخراج الذهب ما زال مستمراً فى بور ، وانغارا القديمة ، ويلعب دوراً مهماً فى الاقتصاد المحلى للمنطقة . ان ما بين اثنى عشر وخمسة عشر الفاً من العمال يشتغلون بوقت كامل فى التنقيب عن الذهب . وفى كل سنة يأتى من الخارج الى هذه المنطقة قرابة مائة الف من الآخرين . ويقدّر الانتاج بحوالى 30000 أونس فى السنة ، بالقياس الى صادرات الذهب من غانا المقدرة بنحو 851000 أونس (1958) [38] .

فى سنة 1960 قام عضوان من جامعة غانا «بحملة الى وانغارا» . فزارا منطقة يستخرج منها الذهب على مقربة من الحدود بين غينيا ومالى . ان الوصف البارع والدقيق الذى قدّم عن الطرق التى يستخدمها عمال المناجم المحليون يساعد على توسيع الروايات التى انحدرت الينا من كتاب العصور الوسطى .

تشق صفوف متوازية من الحفر قطرها حوالى قدمين ونصف القدم ، وعمقها حوالى 40 قدماً . مفصولة بعضها عن بعض بنحو ثلاثة أو خمسة اقدام ، تبدأ من قشرة الارض الصخرية الصلبة الى الطبقة الغرينية فى الاسفل . فاذا صار العمال تحت الارض ، عمدوا الى الوصل بين كل حفرة وما يجاورها من الحفر الأخرى ، الى أن تصبح المنطقة كلها متصلة بعضها ببعض بشبكة من الانفاق . ان الغرين الناعم الذى يحمل الذهب والذى يعرف بوجود الصخر الكوارتزى quartz الناجم عن انحلال الصخر الكوارتزى الأصلى

الحاوى على الذهب ، يجـرى رفعه من قبـل المنقبين باستخـدام معول حـاد قصير المقبض . ولا بد أن يكـون المعول قصيـر المقبض لأن الدهـاليز التى تصل بين مختلف المداخل لا يجاوز ارتفاعها ثلاثة اقدام . ويعمل المنقب فى هذه الدهاليز وهو جاثم والماء يصل الى خصره . وبعد أن ترفع التربة الغنيـة بالمعدن الثمين توضع فى طاسة واسعة متخذة من يقطينة يابسة ، وتغمر بالماء على طول الدهليز فى قعر المدخل حيث يقـوم عامـل آخر بـالغسل الأولى . وبعد هذا الغسيل الأولى ينقل التراب الغنى بالمعدن الثمين الى طاسة اخرى (وتعاد الطاسة الأولى الى العامـل المقابـل) ويّرفـع الى سطح الارض حيث يكدّس اكواماً ، وينتظر وصول النساء بعد الظهـر . والنساء هم اللواتى يقمن بـالغسل الأخيـر ، وهن واقفات فى احـواض من الماء يصـل حتى الركبـة ، والاحـواض قريبـة من مداخـل المنجم . ومن كل طـاسـة من التـراب الغنى بالمعدن الثمين يحتمـل أن تستحصل حبـات قليلة من الذهب بعـد أن تكون الطاسة قد حركت دائرياً بسـرعة وخفـة ومهارة . ويبـدو أن كل مجمـوعة من العاملين فى المناجم تؤلف فرقة ثابتة ومتوازنة ، وتتكـون من الذين يحفـرون وينقبون فى المنجم ، ومن الذين ينقلون التـراب الغنى بالمعـدن الثمين الى السطح ، ومن الزوجات والبنات اللواتى «يغسلن» ومن حداد يصون المعاول ، ومن رئيس المنجم الذى يدير العمليات ، ويجمع الانتاج اليومى من الذهـب ، ويبيعه الى التجار المتجولين الذين يقومون بتجهيز الصاغة فى المدن القريبة .

والظاهر أن الأمور كانت تسير على هذا المنوال دائماً . كـان ذلك يبين كيف كان الذهب يستخرج ويتدفق من امبراطوريات مالى وغـانا فى العصـور الوسطى ، فيعبر الصحراء سيجلماسة مثلاً ، ومن سيجلماسة الى ، سبتة مثلاً ، ومن سبتة الى جنوا مثلاً ، ومن جنوا الى مكان آخر لا يعلمه الا الله[39] .

الباب الخامس

امبراطورية السونجاي
نشوؤها وسقوطها

الفصل الخامس عشر

السونجاى

« تسمى لغة هذه المنطقة بالسونجاى ، سكانها من السود ، وموقفهم من الأجانب فى غاية الود »

ليو الأفريقى

يعاق المجرى الاوسط لنهر النيجر فى موقعين بسبب منحدرين فى كينية (اسفل باماكو) وفى بوسة Bussa حيث غرق هناك منجو بارك . وبين هـذين الموقعين يمتد مجرى مائى صالح للملاحة قرابة الف ميل ، ويشمل المنعطف الشمالى الكبير لنهر النيجر . وتنبت على حافة النهر هنا على العموم ، أعشاب مائية مغذية واليها يجلب الناس ماشيتهم من مسافـات بعيدة . وضفـاف النهر كثيرة التقطع بالجداول والخلجان الصغيرة ، وعلى مجراه تتناثر الجزر . أمـا شمال النهر وجنوبه فمنطقة واسعة من الصحراء تسكن فيها القبائل السلابة من الطوارق . وكان القسم المتوسط من نهر النيجر ملجأ يلوذ به دائماً المقهورون خلال الفترات المضطربة من تاريخ السـودان الغربى . فقـد كانت الممـرات الضيقة العديدة والجزر الصغيـرة التى يتعذر الـوصول اليهـا توفـر مكانـاً أميناً للهاربين ، وتوفر المأوى والغذاء لقطعانهم .

وكـان السونجاى يتألفـون من عـدة جمـاعـات مختلفـة ، كـانت تـزاول الزراعة ، ويظهر أن بعضها ترتبط بقبائل الموسى التى تمارس القنص وصيـد السمك ، والتى انتقلت الى شمال النيجر من مكان من الجهة الشرقية وامتدت اخيراً الى تمبكتو والبحيرات الكبيرة التى وراءها . وفى زمن غير محدد قبل سنة

900 للميلاد جاءت اسرة اجنبية تسمى (ذا) ولا يعرف أصلها ، واستقرت بين السونجاى . ويبين السعدى ، المؤرخ من تمبكتو ، كيف قام ذو الأيمان الأول بقتل إله النهر لدى السونجاى* [1] .

كانت عاصمة السونجاى أصلاً فى كـوكيا (بنتيـا حديثـاً) التى تقع عنـد النهاية الشرقية القصوى من امتداد النيجر الأوسط . ونقلت من بعد الى جاو ، وهى بلدة عرفها جغرافيو العـرب منذ القـرن التاسـع . وكانت جـاو تقع على الضفة اليسرى من نهر النيجر حيث يلتقى بوادى تيليمسى Tilemsi المنحدر من قلب الصحراء .

وعلى مسيرة بضعة أيام فى شمال تيليمسى ، وفى المنطقة الجبليـة من أدرار Adrar كـانت تقع تـادميكا Tadmekka ، وهى سـوق صحراويـة قديمـة ومهمة . واطلق عليها العرب اسم السوق ، وما زالت أطلالها الواسعـة تعرف بهذا الأسم . وفى القرن الحادى عشر كـانت هذه البلدة تتـاجر مـع القيروان وغدامس فى الشمال ، ومع السودان فى الجنوب ، وكانت نقودها من الذهب غير المختوم . وعلى الجانب الشرقى من جاو ، وفى الصحراء ايضاً تقع سوق ثالثة مهمة فى هذا الجزء الداخلى من أفريقيا ، وهى بلدة تاكيدا Takedda التى فيها مناجم النحاس . وهكذا كـانت جاو واقعـة على طريق عـام كبير صـالح للملاحة+ ويمكن الوصول منها بسهولـة الى الأسواق المهمـة ، مثل تـادميكا

---

* ذكر المؤرخ الفرنسى ديلافوسDelafosse أن جماعة (ذى) اصلها من لمتة البـربر . وهـذا هو مجرد حدس فقط . ويذكر السعدى أن ذا الايمان جـاء من اليمن ويضيف أن المتحدرين منـه كانوا طوالاً ، اقوياء ، حسنى البنية ، ولكنه لا يشير الى لون بشرتهم «2» .

+ لو كان النيجر الأوسط احسن تجهيزاً بالاخشاب لزادت قيمته لدى السونجاى. فمعظم الطريق من تمبكتو الى جاو تمس الصحراء كلتا الضفتين من النهـر ، والاشجار التى فيهـا قليلة جداً عـدا اشجار النخيل المروحية ، وهى مادة رديئة جداً ويصنع منها بحكم الاضطرار كـل الزوارق فى النيجر الاوسط تقريباً . وفى بعض الاحيان ، مثلاً عندما بنى أسكية داود مسجداً فى تمبكتو ، كان الخشب يستورد من القسم الجنوبى من مجرى النهر .

وتاكيداً، وأتاح لها هذا الموقع مركزاً مهيمناً فى التجارة مع السودان الغربية[3].

وكانت جاو ، كما وصفها البكرى فى القرن الحادى عشر ، تتألف من بلدتين ، « بلدة الملك وبلدة المسلمين » ، وهذه حقيقة أيدتها البحوث الآثارية الحديثة . كانت عامة الناس من الوثنيين ، ولكن الحاكم كان مسلماً . وحسبما ذكره السعدى ، اعتنقت السلالة الحاكمة الاسلام عام 1009 للميلاد . وكان الحكام على تماس بالعالم الاسلامى الواسع . وعند ارتقائهم العرش ، كما أخبر بذلك البكرى ، كانوا يتسلمون القرآن من الخليفة الأموى فى قرطبة[4] .

ولا نعرف إلا النزر اليسير عن مصاير السونجاى بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر ، ولكنه يتضح من الأهمية التى جعلها منسا موسى عند استيلائه على جاو ، أن أحوال السونجاى كانت مزدهرة . واكتفى السونجاى فى جاو خلال قرن بعد تحرير مدينتهم على يد كولين وأخيه ، بالدفاع عن حريتهم ضد جماعة المادنجو فى مالى . ومع ذلك فان سلطة هؤلاء الأخيرين كانت تنحدر باطراد الى الأفول ، واستطاع الطوارق بقيادة عقيل ملوال أن يدفعوهم عن تمبكتو . وبهذا الوجه فتح المجال أمام السونجاى لكى يستردوا المدينة التى كانت مدينتهم على نحو تقليدى ، ولكن طمع الطوارق وغدرهم هما اللذان يسرا ذلك .

وعندما ابعد الطوارق جماعة المادنجو، عينوا شخصاً من السونجاى اسمه عمر ليحكم المدينة. وكان أجره الأساسى أن يأخذ ثلثاً واحداً من الضرائب التى يجمعها ، وارسال الباقى التى تابعيه ومؤيديه . ولكن سيده الصحراوى عقيل اعتاد النزول الى المدينة فى الوقت الذى تجمع فيه الضرائب ويأخذ لنفسه حصة الحاكم . وازدادت الأحوال سوءاً عندما أخذ عقيل واتباعه يقتحمون بيوت الناس ويعتدون على نسائهم ، فأرسل عمر سراً رسالة الى السونجاى يعرض عليهم تسليم المدينة اليهم إذا هم جاءوا لانقاذها.

وكان ملك السونجاى فى ذلك الوقت ، رجلاً مقتدراً طموحاً اسمه سونى على ، ولم يتباطأ فى اغتنام الفرصة التى عرضها عليه عمر . فجعل نفسه على

رأس فرسانه وسار فوراً لى تمبكتو. وعندما رأى عقيل وعمر أن جيش السونجاى آخذ بالاقتراب، هرب الأول فوراً الى والاته، وتبعه عن قرب العلماء من مسجد سنكور الذين شعروا بالخوف والفزع. أما عمر الذى كان يتوقع مكافأة ضخمة على خيانته فقد تملكه الرعب فجأة ولاذ بالفرار أيضاً. ودخل سونى على تمبكتو فى يناير 1468 وأعمل السيف فى رقاب عدد كبير من مواطنيها.

وأهل تمبكتو لهم بشرة سوداء، ولكن الكثير من دماء البربر تجرى فى عروقهم، وكانوا يفخرون بذلك الى حد أنهم كانوا يزدرون بالسونجاى الزنجانيين ويعتبرونهم همجاً غلاظاً، وإن كان حكامهم قد ينتمون الى أصل بربرى. وكان سونى على الذى يُحتمل فى ملامحه أثر ضئيل من دم الشمال، مكروهاً أشد الكره من قبل السعدى، المؤرخ من غربى السودان الذى يطلق عليه نعوتاً عديدة من قبيل، الطاغية، الفاسق، الوغد، ويعرضه شخصاً بنى شهرته على قتل العلماء والأتقياء [5]. ربما كان سونى على يستحق تلك المخازى التى كدسها السعدى على رأسه، ومن المؤكد أنه كان مسلماً بالأسم فقط. على أنه قد يعتذر عن قسوته على أهل تمبكتو على أساس صداقتهم مع الطوارق، الأعداء التقليديين للسونجاى. فمنذ الأزمنة الأولى كانت القرى على ضفاف الأنهار غنيمة دائمة للبدو، تظهر عاجزة عن رد غاراتهم، ولم يكن فى مقدورهم الهجوم على مأواهم فى الصحراء.

والنجاح الثانى الذى احرزه سونى على هو استيلاؤه على جين Jenne، التى تورد عنها التقاليد أنها صدّت بنجاح تسعاً وتسعين هجمة قام بها ملوك مالى. وكانت جين قد أنشئت فى القرن الثالث عشر على يد جماعة السونيك الذين بنوها فى موقع سكنى سابق بالقرب من نهر بانى Bani. كانت مركزاً للمنطقة الخصبة الأهلة بالسكان التى تجتمع عندها الأنهار والبحيرات والمستنقعات فى أعلى تمبكتو، وكانت تمر من خلالها مياه النيجر وبانى قبل أن يلتقيا ويتكون منهما ذلك الأندفاع الكبير المتجه الى الشرق. وحسبما رواه السعدى كانت جين أحدى الأسواق الرئيسة فى أفريقيا حيث يشاهد المرء

التجار القادمين من المغرب يقايضون ملح تاغازة بذهب الجنوب . وقد ورد فى كتاباته «بفضل هذه البلدة المباركة تأتى القوافل الى تمبكتو من جميع جهات الأفق» . وهذا تقدير يحمل على الأقناع ، لأن السعدى كان شديد التعلق بمدينته تمبكتو ويحرص على سمعتها فى وقت كانت فيه مدينة جين تنافسها فى التجارة والثقافة معاً [6] .

أن شهرة تمبكتو والبهاء الذى يحيط بها ، يعزى احدهما الى الصورة الزاهية التى رسمها ليو الافريقى فى القرن السادس عشر ، ويعزى الآخر الى الأندفاع العاطفى الذى تدفق من بعض الكتّاب فى القرن العشرين ، فهذان العاملان قد القيا ظلالاً كثيفة على مطالب جين فى الاعتراف لها بأنها مركز تجارى وثقافى من الدرجة الاولى . وبينما كانت تمبكتو خالية من الوسائل الدفاعية الطبيعية ، وكانت معرضة لكل من هب ودب من الغزاة ، كانت جين محاطة بشبكة من المجارى المائية التى جعلتها سهلة الوصول من جهة ووفرت لها الأمن من جهة أخرى حتى كان الناس من تجار وأرباب قلم من المغرب ينجذبون اليها خلال 800 سنة . وفى تمبكتو كانت التجارة والمعارف تتعرضان باستمرار الى ما يعيقهما أو يعطل سيرهما بسبب الحوادث السياسية فى الصحراء . أما جين ، من الناحية الأخرى ، فقد رسخت فيها التجارة والمعارف ، وأصبحت مركزاً ينتشر منها على الدوام ثقافات البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط الى المناطق المحيطة بها .

ولم يتم استيلاء سونى على على جين إلا بعد حصار استغرق عدة سنوات . ومن المحتمل أن ارتفاع المياه وهبوطها قد جعل الحصار الكامل أمراً متعذراً ، وأصابت المجاعة المحصورين كما أصابت القائمين بالحصار ، على أنه فى الوقت الذى بلغ فيه الأخيرون النهاية من تحملهم وكانوا على وشك الانسحاب استسلمت البلدة . وبهذه المناسبة عامل سونى على المغلوبين ، الذين لم يكونوا أصدقاء للطوارق المكروهين ، بابداء الرحمة بعكس ما أبداه من القسوة فى تمبكتو . ويحيط الشك بالتاريخ الذى سقطت فيه جين ، ولكن المحتمل أنه كان فى عام 1473 .

إن النجاح الذى أحرزه سونى على فى حملته الغربية قد أثار الحسد فى نفوس الموسيين فى ياتنغا الذين نتذكر غارتهم على تمبكتو بعد فترة قصيرة من وفاة منسا موسى . ففى سنة 1480 أقدموا على عمل أكبر جرأة إذ تحركوا نحو الشمال الغربى الى الصحراء واستولوا على والاته بعد حصار دام شهراً . وبعد نهب المدينة انسحبوا حاملين معهم عدداً كبيراً من النساء والأطفال وقدراً هائلاً من الغنائم .

وفى الوقت نفسه كان سونى على ، الذى استحوذت عليه مشاعر الحقد على الطوارق ، يفكر فى الانتقام من عقيل ومن بقية الذين ساعدوا على فراره عند سقوط تمبكتو ، وبقوا فى والاته بعد غارة الموسيين عليها . فوضع الخطط للقضاء على عقيل وضم والاته الى امبراطوريته . ولكى يحقق هـذا الغرض خطر فى باله مشروع غريب ، وهو أن يحفر قناة تمتد طوال الطريق من بحيرة فاجبين Fagbine الى والاته ، وهذه مسافة تبلغ حوالى 200 ميل . ربما كـانت البحيـرة فى القرن الخـامس عشر ممتـدة الى الغرب حتى مـدينة بـاسيكـونـو Bassikunu وبذلك تقصر المسافة بعض الشىء ، وحتى بهذا الأفتـراض ، لا يسع المرء إلا أن يعجب من رجل بمنزلة سونى على يبتغى مثل هذا المشروع الخيالى . ومن الممكن الأفتراض أن تجاربه خلال محاصرته جين قـد أقنعته بالمزايا العسكرية التى يوفرها المجرى النهرى الصالح للملاحة ، ولذلك تبادر الى ذهنه أن بناء القناة ستكون وسيلة مؤكدة يحقق بها جعـل والاته جـزءاً من امبراطوريتـه . ومهما كـانت الأسباب ، فقـد بوشـر بالأعـداد لهذا المشـروع الجبار . ولكن التخوف من هجوم الموسيين قد وفّر العذر فى الوقت المناسب للتخلى عنه مبكراً .

لم يكن تهديد الموسيين تافهاً ، وكان لا بد من إبعادهم . ولما وجدوا أن سونى على على جانب من القوة وقد لا يستطيعون التغلب عليـه ، وجهوا حماسهم العسكرى الذى لا ينضب ضد جماعة المادنجو فى مالى التى كانت تشعر بضغط السونجـاى عليها من الشمـال ، وضغط الفولانيين فى فـوتا من الغرب ، ولذلك طلبت العون من جيـرانها الأقـوياء الجـدد . وكان هؤلاء من

البرتغاليين الذين انشأوا لهم مراكز تجارية على الساحل الغربى من أفريقيا ، على أثر الرحلات العديدة البارزة التى قام بها هنرى الملاح . وأبعد هذه المراكز من ناحية الشمال كانت فى أرغوين Arguin ، ومنها توغل البرتغاليون فى الداخل حتى وادان Wadan حيث انشأوا لهم فيها محطة تجارية . ولكن البرتغاليين استخدموا الحكمة فرفضوا مدّ المساعدة لجماعة المادنجو [7] .

ثم نسمع بأخبار سونى على أنه قد عاد الى تمبكتو وأخذ يعذب أهلها ، وأن الناس صاروا يفرون أفواجاً الى الصحراء . على أنه لم ينتظروا طويلاً حتى يأتيهم الخلاص من الطغيان الذى ارهقهم زمناً طويلاً . لقد جاءهم بوفاة سونى على فى سنة 1492 .

وفى خلال حكمه البالغ سبعاً وعشرين سنة حوّل سونى على مملكته الصغيرة الى امبراطورية ضخمة حكمت جزءاً كبيراً من السودان الغربية . وإذا تركنا جانباً نشاطه ، ومغامراته ، وقدراته الأدارية التى لولاها ما استطاع أن يحقق ذلك الانجاز الضخم فى الميدان السياسى ، فإنّا لا نجد فى سلوكه ما يحببه الى شعبه . فمعظم رعيته كانت تشعر بالرعب والرهبة العميقة منه بسبب مهارته الفائقة فى السحر . فقد قيل عنه إنه كان فى مقدوره أن يحول نفسه الى نسر ، وإنه كان يمتلك تعويذة يحجب بها جنوده فلا يراهم أحد [8] . وبقى الناس طويلاً يتذكرون ضروب قسوته ، على أن أبشع جرائمه كان يليها فى الغالب ندم شديد ، وكان فى بعض الأحيان لا يتوانى عن العمل الحميد ، كما فعل مثلاً عند سقوط جين . وذات مرة أدهش وجهاء تمبكتو الذين كان يعاملهم غالباً بأشد القسوة ، وذلك باعطائهم عدداً من الفتيات الفولانيات الحسناوات اللواتى صار بعضهن زوجات شرعيات لدى أسيادهن ، وكان السعدى واحداً من الذين تحدروا من مثل هذا الزواج .

وانتقل العرش بعد ذلك الى ابن سونى على ، ولكنه فقد العرش بسرعة ، إذ أخذه أحد قواد ابيه وانتهى حكم السلالة السابقة بارتقاء هذا القائد العرش ، واسمه محمد طور ، وكان زنجياً من جماعة السَونيك ، واتخذ لنفسه

لقب « عشقية » ، وعرفت الأسرة الحاكمة التى انشأها بهذا اللقب ايضاً ، وأصبح هو يعرف باسم محمد عشقية الأول . وكان الحاكم الجديد يتمتع ببعض الخصائص العالية التى جعلته جديراً بالمقام الذى اغتصبه . فقد كان ذا موهبة فائقة فى التنظيم السياسى ، كما كان يبدى احتراماً عميقاً للدين والعلوم . وفى عهد عشقية انتعشت التعاليم الأسلامية بسرعة ملحوظة ، واتيح لرجال الأدب مركز لم يتمتعوا به أبداً من قبل . وقد كانوا فى زمن سونى على من أكثر طوائف المجتمع تعرضاً للظلم والاضطهاد ، أما الآن فقد صاروا من أكثرها حظوة ورعاية . وبانتعاش العلم والمعرفة نشأ الى جنبها ، كما هو الحال دائماً فى السودان ، نشاط كبير يحفز على التجارة الخارجية التى جاءت بثروة إضافية الى جاو وتمبكتو .

ولم يبق عشقية بعد اعتلائه العرش طويلاً حتى أخذ يفكر فى الحج الى مكة والأعداد له . وكانت قافلته تشتمل على حاشية من 500 فارس و 1000 من المشاة ، وحمل معه 300,000 قطعة من الذهب ، أخذها من الخزينة التى تركها سونى على . ومن هذا المبلغ أرصد ثلثه للمؤسسات الخيرية فى المدن المقدسة . وبالرغم من أن حج عشقية قد جرى على نطاق يضاهى حج منسا موسى قبل قرن ونصف القرن من هذا التاريخ ، فإنه لم يثر نفس الأهتمام فى الشرق الأوسط (وكل ما نعرفه انه لم يثر اهتمام أحد) . ولعل ذلك يعود الى أن عشقية كان أقل تكبراً وأكثر رشداً من منسا موسى الذى يحتمل أن يكون استخفافه بالعادات والتقاليد قد حرك من تعليقات الناس بقدر ما حركه ذلك العرض التفاخرى من ثروته. وبينما كان منسا موسى لا يكاد يوافق على القيام بالمجاملات المعتادة إزاء سلطان مصر ، نجد عشقية يسأل خليفة مصر أن يقلده « الخلافة على بلاد السود » . وهذا تصرف قصد منه رفع منزلته بين المسلمين فى امبراطوريته [9] .

وسرعان ما وجه عشقية اهتمامه الى توسيع ممتلكاته التى كانت تشتمل على جميع الأراضى الواسعة التى كان سونى على يحكم عليها . وكانت حملاته الأولية تشن غالباً ، كما كان المتوقع من شخص عاد لتوه من الحج ،

باسم الأسلام وكانت موجهة ضد جيرانه الوثنيين فى الغرب والجنوب . ففى الغرب اقتطع الكثير من أراضى مالى التى لم يبق من عظمتها الآن سوى ذكريات باهتة ، واستطاع الوصول الى المحيط الأطلسى تقريباً . على أن أهم حملات عشقية قد جاءت بعد بضع سنوات حينما فتح الهاوسا التى تقع وراء حدوده الشرقية .

كانت دول الهاوسا تمتد الى الشرق من النيجر حتى بحيرة تشاد، وهى بلاد وافرة المياه خصبة التربة . كانت موطناً للعديد من الأقوام الزنجانية المنتمية الى أصول شتى ، وكانوا وما زالوا يتميزون بصفات مهمة . كانوا من الفلاحين المجدين ، والتجار الفعالين الأذكياء ، وكانوا يشتهرون بصفة خاصة بمهارة صنّاعهم واصحاب حرفهم ، ولا سيما نسّاجيهم ، وصبّاغيهم ، وصاغتهم ، ودبّاغيهم . وكانوا يعيشون فى مدن وقرى مسوّرة . ومن مدنهم تذكر كانو التى كانت لها أهمية كافية على أقل تقدير لتجتذب اليها تجار البربر الذين اختاروا الأقاقة فيها. ولكن الهاوسا كانت تفتقر الى وسائل الدفاع الطبيعية ، وكان سكانها المعروفون بحب السلام والمصالحة ، على جانب كبير من تغلغل الروح الفردية التى كانت تقعد بهم عن القيام بأى عمل مشترك أو موحد . ولذلك سقط البلد غنيمة سهلة أمام غزو السونجاى الذين لم يلاقوا مقاومة جدية إلا فى كانو .

وبالاستيلاء على الهاوسا أضاف عشقية بلاداً غنية وآهلة بالسكان الى ممتلكاته الواسعة، ولكنه وضع السونجاى أمام منازعات جديدة مع أعدائهم التقليديين الطوارق ، الذين كان من عادتهم أن يغيروا على الفلاحين فى الهاوسا، كما كان أبناء جلدتهم فى الغرب يغيرون على قرى النيجر . وكانت اعتداءات الطوارق تبدو للسونجاى مشكلة معدومة الحل. ولم توضع حتى الآن خطة لايقاف الطوارق عند حدهم ، أو حتى كبح جماحهم ، لتعذر القيام بأية عملية انتقامية فعّالة . فلم يكن من المجدى مطاردة قوم عبر الصحراء لهم من القدرة على التحرك بحيث لا يمكن القبض عليهم ، وفى استطاعتهم أن يبقوا على قيد الحياة فى حين يتعرض الآخرون الى الهلاك جوعاً وعطشاً . لقد

تفاقمت مشكلة الطوارق بفتح بلاد الهاوسا. ولكنها ، كما تنبه الى ذلك عشقية ، قد فتحت الباب لحل جزئى . فكما كان الجرمنتيون ، فى أيام الرومان ، يمكن الايقاع بهم فى فزان فقط حيث تقوم منازلهم الدائمة ، فكذلك الطوارق يمكن الاغارة عليهم فقط فى ديارهم الدائمة فى الأيار أو فى الأسبن Asben ، وبخاصة فى بلدتهم اغادس Agades ، التى تقع ضمن مسافة ملحوظة من الهاوسا*. ولذلك أقدم عشقية على فتح الأيار ، ولكى يزداد ثقة بالتخلص من الاضطرابات فقد أبعد الطوارق الى الصحراء المجاورة . ولكن عشقية لم يتعلم بعد ، كما تعلمه الفرنسيون فى أوائل القرن العشرين ، أن أفضل طريقة لقطع دابر الاضطرابات فى المستقبل هى تجريد البدو من أراض الرعى الثمينة .

وقد اصطحب عشقية فى حملتيه الشرقيتين ضد الهاوسا وأيار ، كانتا Kanta ، ملك كبى Kebbi + ، وهى مملكة صغيرة تقع بين الهاوسا والنيجر ، وكانت دويلة تابعة للسونجاى. وبعد حملة الأيار، استاء كانتا من حصته من الغنائم (هكذا قيل) فثار على عشقية وأعلن استقلال كبى . وهذا التحدى من حاكم على مملكة صغيرة إزاء عاهل مخيف يستلزم قدراً وافراً من الشجاعة ،

---

* كان الطوارق الاوائل الذين استقروا فى الأيار من جماعة اللمتة التى قدمت من بورنو . وكان الذين سبقوهم فى سكنى الأيار جماعة الجوبيراوا Gobirawa التى كانت عاصمتهم فى تن شامان بالقرب من الموقع الذى بنيت فيه اغادس من بعد . وكانت الجماعتان من اللمتة والجوبيراوا تعيشان بصفاء حتى وصول جماعات اخرى من الطوارق ، مثل كيل غيريس Kel Geres والصنهاجة الذين اخرجوا جماعة الجوبيراوا أو استوعبوهم . كان ذلك فى اوائل القرن الخامس عشر . واصبحت الأيار عند ذاك مملكة مستقلة للطوارق عليها سلطان منهم . ولو كان سلطانهم الأول كما يزعم الطوارق فى الأيار ، قد عين من استامبول ، لترتب أن يكون التعيين من بيزنطى مسيحى وليس من تركى مسلم . وبما أن اسمه كان يونس أو جون ، واسم زوجته ايبوزاحيل أو ايزوباحيل وهما يشبهان كثيراً ايزابيل فان هذا أقل ضعفاً وشكاً مما قد يبدو على غير هذا المنوال .

* ذكر محمد بيلو من سوكوتو فى كتابه «انفاق الميسور» أن كانتا كان عبداً رقيقاً للفولانيين .
(E .J .Arnett , The Rise of the Socoto Fulani , Kano , 1929 , p . 13) .

ولكن كانتا كان يحسب لهذه المخاطرة حسابها وتروى فيها . فما من آحد كان أعـرف منـه بمـواطن الضعف فى جيش السـونجاى ، وفقـدان الاحتمـــال فى إحرازهم النصر من الهجوم عليه فى بلاده المحاطة بالمستنقعـات الواسعـة . ويضاف الى هذه المزية الستراتيجية ثقته بالتأييد الثابت من شعبه البـاسل ذى العزيمة القوية الذى كان يقف وراءه ويتبعه مخلصاً بـدون سؤال . وقد أثبتت الأيام أن ثقته كانت فى محلها . ومن خلف الجـدران السبعة الحجـرية التى تحيط بعـاصمته سـورام Surame ، والتى تشهد أطـلالهـا حتى الآن بعـظمـة مؤسسها ، قاوم كانتا السونجاى الذين انتهت محاولتهم الـوحيدة للقضـاء عليه بهزيمة نكراء .

لم يكن الخـطر الحقيقى الـذى يهـدد كـانتـا فى الغـرب حيث تحميـه مستنقعات بلده ، بل فى الشرق حيث كان جاره المرعب ، مـاى على حاكم بـورنو ، ينـظر بعين القلق والحذر نشـوء هذه المملكـة القـادرة على تحـدى السونجاى. ولم يكن بين كبى وبورنو من حاجز طبيعى ، سوى سهول الهاوسا المنبسـطة ، وقـد قـاد الآن مـاى على جيشـه عبـرهـــا ليقضى على قـوة كبى المتنامية . وكان مصيره مثل عشقية من قبـل ، فقد دحـر أمام جـدران سورام وأسرع فى التراجع والكبيون يجرون فى أعقابه . ولا يذكر كانتا فى قهره جيش بورنو بقدر ما يـذكر لتحـديه الصـونغة تحـدياً تكلل بـالنجاح ، وظـل من أعز الذكريات وأبقاها فى ذهن شعبه * .

وبعد ابعاد الطوارق من الأيار ، أسكن عشقية هناك جالية من السونجاى الذين استقروا على الأغلب فى أغادس وحولها . فقد ظـل نفوذ السونجاى فى

---

* يزعم الكباويون أن زورق كانتـا النحاسى مـا زال موجـوداً فى المستنقع فى الجنـوب من برين كبى . وظهر من سلالة كانتا شخصية شجـاعة جـديرة بـه ، هى ساركين كبى سـاما من مـدينة ارجنجـو الذى ، وجـده البريـطانيون عنـد فتحهم سوكـوتو ، صـامداً يقـاوم ببسالـة اعتداءات الفولانيين المتكررة الذين كانت عاصمتاهم المزدوجة ، سوكوتـو وجوانـدو ، على بعد بضعـة اميال فقط من عاصمته .

أغادس ثابتاً على نحو ملحوظ . وحتى سنة 1850 كانت لغة السونجاى هى السائدة فى المدينة وإن كانت ، كما ذكر بارت ، قد تأثرت كثيراً بالاتصال مع البربر . وفى حوالى سنة 1920 كان بعض المسنين فى أغادس يستطيعون التحدث بلهجة من لغة السونجاى[11] .

وفى السنوات الاخيرة من حياة عشقية ألمت به المآسى . فقد ثار عليه ثلاثة من أبنائه بقيادة أكبرهم موسى . وكان عشقية الآن قد بلغ منه الكبر ، وأبلته الأيام فى خدمة بلاده ، فدعا أخاه يحيى الى نجدته . ولكن الأبناء قتلوا يحيى وزحفوا الى جاو وأرغموا عشقية على التنازل عن العرش لموسى . وبهذا الوجه انتهى فى سنة 1528 حكم ملك قد يعد من أعظم الملوك الذين قدر لهم أن يحكموا فى السودان الغربية . ويذكر له شعبه ما أعطاهم من امبراطورية واسعة الأرجاء ، ولكنهم يذكرون له أكثر من ذلك بما علمهم من أصول الحكم المنظم الذى به وحده يمكن أن يتحقق الأمن والرخاء . وهذان الشرطان الضروريان للحياة ، أى الأمن والرخاء ، قد وجدا حيثما امتد حكمه . وفى فصل تال سوف نلتفت الى الوصف النابض بالحياة الذى كتبه ليو عن السودان فى عهد عشقية الكبير ، كما صار يلقب من بعد . ولكن الامور لم تنته كلها بتنازله . فمن سوء الطالع لهذا الرجل العظيم حقاً ، أن قدرت له سنوات اخرى من البؤس ، والمهانة ، واليأس .

أما موسى الذى كان طاغية سفاكاً للدماء ، فقد اغتاله شعبه الغاضب عليه . وخلفه على الملك عشقية بنجان كورى ، قائد الحملة الفاشلة على كبى ، وأمر بابعاد عشقية الطاعن فى السن من القصر الملكى حيث كان موسى قد سمح لأبيه بالبقاء فيه ، ونفاه الى جزيرة فى النيجر . وقد اطلق سراحه بعد ست سنوات عندما جاءت ثورة اخرى من ثورات القصر بابن آخر من اولاده الى العرش ، وهو اسماعيل . ولكن عشقية توفى بعد فترة وجيزة فى سنة 1538 .

كانت امبراطورية السونجاى ، من حيث السعة على الأقل ، اكبر من امبراطورية غانا ومالى . ولكنها كانت تعانى من الضعف الخطير فى جوانب

عديدة . فالسلالة الحاكمة لم تستطع أن تقيم نظاماً هادئاً خالياً من الاضطراب عند انتقال العرش ، ولذلك فقد كان تاريخها ، منذ خلع عشقية محمد ، مشحوناً بالصراعات الدموية بين الأخوة ، وبثورات البلاط ، والانقلابات . وبالاضافة الى ذلك فقد كان حكم السونجاى ممقوتاً أشد المقت من لدن العديد من الجماعات الخاضعة التى لم يكن لها سوى أن تتحمل ثقل مظالمها . واخيراً ، كما أشار اليه جان روج Jean Rouch ، فان تأييد الحكام الاسلام وتشجيعهم على نشره يحتمل أن يكون مظنة ضعف لهم ، لأن ذلك قد أدى الى تشديد التفاوت بين المحظوظين من سكان المدن وبين المزارعين فى الأدغال [12] . ولا ريب فى أن الجزية والأتاوات التى كانت تتدفق الى الخزينة فى جاو على أثر فتوحات عشقية قد أدخلت فى التجارة حافزاً كبيراً ، وجلبت التجار واحياناً رجال العلم والمعرفة الى السودان وبذلك زادت الاتصالات الناشطة مع عالم المغرب فى شمال أفريقيا .

ومن العلماء الذين قدموا الى جاو فى عهد عشقية محمد ، العالم محمد المغيلى الذى كان من أهل تلمسان . وقد أمضى المغيلى شبابه فى طواط Tuat ، فى الشمال الوسطى من الصحراء ، حيث اشتهر سريعاً بمقدرته فى الوعظ . ويقال إنه كان داعية قوياً الى الاسلام لدى الطوارق الذين يذكرون اسمه بالتجلة حتى الآن . وتعزى مذبحة الجالية اليهودية فى طواط الى الحماس المتقد فى مواعظه التى ربما كانت السبب ايضاً فى انزال مذابح مماثلة باليهود فى جورارين Gorarin وطوغورت Tuggurt حوالى الفترة نفسها . على أن قواعد الزهد والتقشف التى كان المغيلى يعظ بها لم تكن مقبولة لدى اهالى الصحراء كما لم تكن مقبولة ايضاً تعاليم ابن ياسين قبل خمسة قرون . ولذلك فقد اخرج من طواط وهرب نحو الجنوب عن طريق الأيار الى الهاوسا، وهو يعظ اينما حل ونزل ويضيف مزيداً الى شهرته [13] .

وقد اكتشفت نسخة من كتاب بقلم المغيلى فى سنة 1930 فى بلدة كاتسينا Katsina . والكتاب بحث عن فن الحكم له اسم يناسبه ، هو «واجبات

الامراء» . وقد وضع هذا الكتاب لملك كانو وينطوى على مثل عليا وتصورات حـادة ابداهـا الكاتب بشـأن المشاكـل العملية التى تحيط بفن الحكم . «ان احتجاب الملك عن رعايـاه لهو المصـدر لكل البـلايا» هـذه هى العبارة التى تتكرر غالباً . وخلافاً لهذا نجد فقرة اخرى بارزة تشير الى :

ان اقامة الأمير فى المدينة تخلق جميع الانواع من المشاكـل والاضرار فالطير الكاسر يسكن الاماكن المفتوحة والخالية فى البرارى . قوّى ذلك الديك الذى يمشى مختالاً حول منطقته . ولن يستطيع النسر الفوز بعالمه إلا بالعزيمة الـراسخة ، ويبقى صـوت الديـك قويـاً طالمـا كان يسيـطر على الـدجـاج . فاركب ، اذن ؛ خيول العزيمة على سرج من التعقل [14] .

وفى سنة 1502 ترك المغيلى كانو وذهب الى جاو حيث وافته الانبـاء أن اليهود الذين بقوا بعد مذبحة طواط قد انتقموا لأنفسهم بقتل ابنه . فحاول وقد امتلكه الحزن والغضب أن يحمل عشقية على طـرد اليهود من جـاو ولكنه لم يفلح فى شىء خلال ذلك الـوقت . وبعد بضـع سنوات اغلق عشقيـة ابواب تمبكتو على التجار اليهود ومنع رعاياه من المتاجرة معهم . ولا نكاد نعرف اكثر من هذا عن المغيلى . لقد توفى فى عام 1532 ، وظل نفوذه باقياً زمناً طويـلاً بعد وفاته . وما زالت هناك أماكن فى السودان الغربية يقدسها الناس لأنه كان قد تعبد فيها قبل اربعة قرون .

وقد جاء فى اعقاب المغيلى الى السودان زائر من الشمال اكثر شهرة . انه ليو الافـريقى الذى ظل الجغرافيون والخرائطيون يعتمدون على ما كتبه عن السودان حول جميـع ما عـرفوه تقـريباً عن القسم الـداخلى فى افريقيـا طوال القرون الثلاثة التالية .

الفصل السادس عشر

ليو الافريقي : رحالة إلى السودان منذ أوائل القرن السادس عشر

«وبالاضافة الى ذلك فعندما أتأمل فى تراثه الفائق الباهر . . . يأخذنى عجب شديد : كيف استطاع أن يفلت آلاف المرات من الاخطار المحدقة به . . . فكم من مرة كان عرضة لوقوعه فى الأسر ، أو قطع رقبته على يد السلابين من العرب أو المتوحشين من البربر ؟ وكم من مرة نجا باعجوبة من افواه الاسود الشرهة ومن فكوك التماسيح المفترسة ؟»

جون بورى John Poru

فى سنة 1518 وقعت سفينة شراعية عربية فى قبضة قراصنة مسيحيين على مبعدة من جربة ، الجزيرة التى تقتات على النيلوفر (اللوتس) ، عندما كانت تقترب من الشاطىء التونسى . وكان بين الذين على ظهرها فتى خارق الذكاء من المغرب ، ومع أنه كان فى العشرينات من عمره فقد سافر كثيراً الى اقطار ما كانت تعرفها اوربا آنذاك . وبدلاً من بيع هذا الفتى فى سوق الرقيق ، وهو النصيب العام الذى ينتظر الاسرى فى ذلك الوقت ، فقد حمله القراصنة الى روما وقدموه الى البابا ليو العاشر آملين أن يستفيدوا من عملهم هذا اكثر مما لو عرضوه فى اسواق الرقيق الكبيرة فى بيزا أو جنوة .

كان ليو العاشر من أهل مديشى وكان ابوه لورنزو الملقب بالعظيم. وقد حظى ليو بثناء معاصريه على كرمه لرجال الادب، ونال احترام الاجيال التالية لرعايته الفنون إن لم يكن لشىء آخر. وكان جميع الذين يتميزون بالتفوق العقلى يلقون الترحاب البالغ فى بلاطه . ومع ذلك فما من احد كان يتصور أن فتى مغربياً أسر من أحدى السفن يمكن أن يصبح شخصاً مكرماً فى البلاط

البابوى ، وأن يعّد «اكتشافه» من قبل البابا اهم مساهمة قدمها البابا فى خدمة الآداب والعلوم . كـــان الفتى يسمى الحسن بن محمـــد الـــوزانى ، ولكــن المحتمل أنه كان يفضل أن يدعى بالفاسى ، نسبة الى مدينة الفاس التى كانت مركزاً مرموقاً للعلم والمعرفة ، ويدين لها بما تلقاه من التعليم . وبما انه كان يعرف الاسبانية ويتحدث بها فلم يكن عسيراً على البـابا أن يكتشف مكـاسبه الادبية ، واهم من ذلك بكثير معرفته المذهلة عن الممالك الافـريقية البعيـدة التي يتعذر الوصول اليها * . فاقدم البابا من ساعته على تحرير الفتى ، ومنحه راتباً ، وضمن اعتناقه المسيحية. وعند تعميده منحه اسمه، جيـوفانى ليـون Giovanni Leone ، ومن هذا صار يعرف عادة باسم ليو الافـــريقى .

وعندما أسر ليو الافـريـقى كانت معه مخطوطة أولية بالعربية عن كتـاب اشتهر به من بعد «تاريخ افريقيا واوصافها والاشياء البارزة التى تشتمل عليها» . وقد اكمل هذا الكتاب باللغة الايطالية عام 1526 ، بعد ثلاث سنوات من وفاة حـاميه الـذى كان يـرعاه . وفى سنـة 1550 وقعت هذه المخـطوطة فى ايـدى راموشيوRamusio الذى نشرها فى مجموعته المساة «الرحلات والاسفار» . وقد ترجمت الى الانكليزية من قبل جون بورى John Pory احـد اصدقـاء ريشارد هاكوت المثقفين ، ونشرت فى لندن عام 1600 .

ولا نعرف إلا اليسير عن حياة ليو اذا صرفنا النظر عن اسفاره الافـريقية وعن الظروف التى احاطت بوصوله الى روما . فقد نجد هنا وهناك من كتـابه المنشور مفتاحـاً الى تاريخـه المبكر واسفـاره خارج افـريقيا ، ولكن هـذه لا

---

* يبدو فى هذا الوقت أنه لم يكن يعرف فى اوربا من شىء أو إلا اليسير عن اعمال الجغـرافيين العرب . فالترجمة اللاتينية لكتاب الادريسى قد طبعت فى باريس عام 1619 ، على أن ترجمة المؤلفات الأخرى التى كتبها الجغرافيون العرب فى القرون الوسطى لم تظهر حتى القرن التاسع عشر . وقصة كاداموستو عن رحلته الى افريقيا الغربية ، التى اشتملت على بعض المعلومـات عن القسم الداخلى فى افريقيا ، نشرت أولاً فى فيسـنـزا Vicenza عام 1507 ضمن مجمـوعة ادبية . وكانت خرائط القرن الرابع عشر التى وضعها الرسامون من ماجورقا لا يعرف بها إلا عدد صغير ومحدود من العلماء .

تنطوى دائماً على عون ملحوظ . فهو يخبرنا «اما من جهتى فعندما اسمع الناس يتحدثون بالسوء عن الأفارقة فانى اؤكد عند ذاك انى واحد من غرناطة» وعندما أجد اهالى غرناطة تلوكها الألسنة بالذم اقول إنى افريقى» [1] . هذه الصراحة جذابة من غير شك ، ولكنها شديدة الازعاج لمن يبتغى البحث عن المكان الذى ولد فيه .

وعلى أية حال فقد أستقر الآن بدون شكوك قوية أن ليو قد ولد فى غرناطة عام 1493 أو 1494 فى أسرة موسرة مغربية» . وقبل فترة وجيزة من مولده كانت الأسرة من رعية فرديناند وايزابيلا ، وهذا يعنى أن الاسرة قد خبرت الحكم المسيحي فى افضل اشكاله من الخير والكرم ولم يكن قد وصل ذلك اليوم الذى سمم فيه الكاردينال كزيمنس Cardinal Ximenes عقل ايزابيلا بالبدعة الفاسدة ، أن الوفاء بالعهد مع المنشقين هو خرق للعهد مع الله . واذن فقبل ذلك الحين كان الطفل وابواه قد انضموا الى قافلة المهاجرين المثقفين الذين كانوا يندفعون من غرناطة الى فاس وغيرها من مراكز الثقافة الاسلامية فى افريقيا . ولما وصلوا فاس وجدوا انفسهم جزءاً من جماعة واسعة من المنفيين الذين جاءوا حديثاً من اسبانيا وكانوا يستقرون باعداد كبيرة فى المدينة واحيائها المجاورة .

كان المغرب فى حالة من التفسخ السياسى . فقد كان البرتغاليون يحتلون الكثير من الساحل وكانوا يحاولون مد نفوذهم الى داخل البلاد . وكان الجنوب فى ايدى شرفاء السعدية الذين امتدت سيطرتهم على فاس بعد فترة قصيرة . ومع ذلك ففى نهاية القرن الخامس عشر كانت فاس مستمرة فى التمتع برخاء تجارى واسع ، وكانت فى ذروة شهرتها باعتبارها مركزاً للعلم والمعرفة ، وكانت مساجدها ومكتباتها ملجأ يقصده الطلاب من انحاء عديدة من العالم الاسلامى . ولذلك فقد كانت ملاذاً طبيعياً للمنفيين من غرناطة .

كان والد ليو رجلاً مثرياً فقد تهيأ له فى فاس نفس المكانة التى كان يتمتع بها فى غرناطة ، بالاضافة الى الوسائل غير العادية لتعليم ابنه برعاية عدد

من ابرز العلماء فى العالم الاسلامى . واستفاد الطفل من هذه الفرص على أتم وجه ، وسرعان ما اقام الأدلة على أنه موهوب بذكاء فريد . وبدأ يكسب عيشه فى سن مبكرة جداً بعمله كاتباً أو موثقاً للعقود فى المارستان ، مستشفى للاجانب فى فاس . ولكنه ما لبث أن بدأ بـرحلاته وجولاته التى جلبت له الشهرة . وفى اثناء سفره من مدينة الى اخرى فى المغرب كانت معرفته بالقوانين تتيح له الكثير من الوظائف . فكان فى بعض الاحيان قاضياً ولكنه فى الغالب كان يعمل كاتباً او موثقاً للعقود لدى التجار وموظفى الحكومة . وكان بين حين وآخر يمارس التجارة لحسابه الخاص . وفى بعض الاوقات خدم لدى السلطان واوفد فى مهام دبلوماسية . وفى اوقات اخرى كان يتكسب بعرضه القصائد الشعرية التى ينظمها بنفسه . وهذه الحياة المتنوعة حملته على ركوب الاخطار والقيام بالمغامرات والأسفار الى الأماكن البعيدة حتى أنه وصل القسطنطينية وبلاد التتر . وبهذه الاسفار الساحلية والرحلات الداخلية العديدة بصحبة التجار قد جعلته يلم ببلاد المغرب طولاً وعرضاً ، ويعرف تجارتها حق المعرفة .

وتبين بجلاء قصة اسفاره فى افريقيا الشمالية أن تجارة السودان كانت تلعب دوراً بارزاً فى الحياة الاقتصادية للمغرب . وتوجد اشارات متكررة الى التجار الذين يمارسون المبادلات الكبيرة فى داخل بلاد الزنوج ، ويشير ليو الى عشرين أو اكثر من المدن التى تغطى طول البلاد المغربية ، من المحيط الاطلسى غرباً الى طرابلس شرقاً ، والتى كانت تتعاطى التجارة العابرة للصحراء . ومن الجدير بالملاحظة أن اهم هذه المدن ، مثل فاس ، سيجلماسة ، تلمسان ، ورجلة ، وغدامس ، كانت مدناً داخلية ، وان التجارة كانت فى ايدى الوسطاء الذين كانوا يمنعون تجار الساحل المتعاملين مع المسيحيين ، من الاشتراك المباشر فى التجارة العابرة للصحراء .

وكانت السلع الرئيسة التى تصدر الى السودان الغربية تتألف من السلع الاوربية (وبخاصة الاقمشة) ، السكر من سوسة فى جنوب المغرب ، الملابس ، الأوانى النحاسية ، الخيول ، والكتب . وكانت البضائع الاساسية

التى تستبدل بها تلك السلع الذهب ، الرقيق ، والزباد . ويذكر ليو هدية اعطاها سلطان فاس وكانت تتألف كلها تقريباً من منتجات السودان :

خمسون من الارقاء ، وخمسون من الرقيقات جلبوا من اراضى الزنوج ، عشرة من الخصيان ، اثنا عشر جملاً ، زرافة واحدة ، ستة عشر سنور زبادى ، رطل واحد من طيب الزباد ، رطل واحد من العنبر ، وقرابة ست مائة قطعة من جلود بقر الوحش التى تصنع منها التروس ، وقيمة كل جلد فاس ثمانى دوكات ducates * . والعشرون من الارقاء يكلفون عشرين وحدة من الدوكات لكل فرد ، وعلى هذا المنوال تقدر قيمة خمس عشرة من الرقيقات . وكل مخصى كان يقيم باربعين ، وكل جمل بخمسين ، وكل سنور زبادى بمائتين من الدوكات ، وكل رطل من طيب الزباد أو العنبر يباع فى فاس بستين من الدوكات[3] . ومن حسن الطالع للأجيال التالية أن ليو كان يرى بنفسه الاقطار التى يأتى منها الارقاء ، والخصيان ، والذهب ، وطيب الزّباد .

ولعل اهم الاحداث فى حياة ليو من وجهة نظر معاصريه الأوربيين ، وان كان من المحتمل أن لا يكون كذلك فى نظره هو ، الاسفار التى قام بها الى السودان الغربية ، لانها مكنته من اعطاء اوربا أول صورة مفصلة عن القسم الداخلى من افريقيا التى كانت شديدة الغموض فى اذهان الناس ، حتى كأن الضباب يغلفها وما كانوا بقادرين على التمييز بين ما هو حقيقة وبين ما كان من قبيل الخرافات والاساطير .

وكان ما سرده من الأخبار ذات قيمة متميزة لأنها وصفت البلاد فى ذات الوقت الذى ارتقت فيه السونجاى الى الذروة السياسية والاقتصادية بفتوحات عشقية الكبير ، وقد سافر ليو على أثر الانتصارات التى احرزتها جيوش هذا العاهل العظيم . وبهذا الوجه اتيح له أن يضيف الى قصته ذات القيمة

* يصنع الطوارق تروسهم من جلد بقر الوحش . ويقال إن اليونان كانوا يستخدمون قرونها لصنع قيثاراتهم .

الجغرافية الكبيرة صورة تعدّ من اعظم التنظيمات السياسية التى قدر للزنوج أن ينجزوها فى كل العصور .

وكانت المناسبة فى رحلته الأولى هى البعثة التى ارسلها الى السونجاى شريف فاس ، مولاى محمد القائم ، مؤسس الأسرة السعدية ، وكان ليو عضواً فيها ، وعمه على رأسها . والظاهر أن تاريخها كان حوالى عام 1510 حينما كان ليو دون العشرين من عمره . وقام برحلته الثانية بعد ثلاث سنوات ، بصفته تاجراً على الاغلب . وفى كلتا المناسبتين اتخذ طريق سيجلماسة ـ تاغازة الى تمبكتو .

وبعد ان عبرت البعثة جبال الاطلس ومرت بمدينة سيجلماسة التى كانت فى ذلك الوقت تنحدر الى الأفول ، اقتحمت الصحراء . وكان اول موقف مهم لها هو تاغازة ، وسوف نلم بما وصفه ليو عنها بعد قليل . ويكفى أن نقول إنه وجدها سيئة الى ابعد الحدود ، وانه هو واصحابه قد تنفسوا الصعداء حينما وصلوا والاته سالمين وانهم قد تركوا وراءهم اشد المخاطر سوءاً . وفى والاته التى كانت ابعد مركز شمالى للسونجاى التقى ليو وعمه بالسودانيين فى بلادهم لأول مرة . ومعظم المسافرين الأولين فى الصحراء ، من مسيحيين ومسلمين على حد سواء ، كانوا يسجلون ارتياحهم فى تواجدهم بين الزنوج الطيبين الذين يختلف ترحيبهم الودى بالاجانب كل الاختلاف عن بدو الصحراء ذوى الجفوة والغطرسة . وكان ليو واحداً ممن اشاروا الى ذلك . فقد جاء عنه : «ان لغة هذه المنطقة تسمى السونجاى، سكانها لونهم اسود وهم من اكثر الناس وداً وطيباً مع الاجانب» [4] .

ولا يعرف على وجه الدقة الطريق الذى سلكته البعثة بعد مغادرتها والاته ، ولكن المحتمل أنها توجهت رأساً الى تمبكتو . وفى ذلك الوقت كان سكان تمبكتو يقدرون بنحو 25,000 . كانت اصغر كثيراً من بلدة جاو ، عاصمة امبراطورية السونجاي ، ولكن مناخها الجاف جعلها مركزاً اكثر ملاءمة لتجار المغاربة فى السودان [5] .

كانت تمبكتو تبدو حقيرة المظهر امام التجار المتحضرين القادمين من الشمال ، فقد كانت بيوتها مجرد «اكواخ مبنية من الطباشير ومغطاة بالقش» وبذلك كانت تختلف اختلافاً بارزاً عن المباني التي شيدها الساحلي للملك منسا موسى .

ومع ذلك يشاهد في المدينة معبد هو غاية في الفخامة ، بنيت جدرانه من الحجر والكلس ، وهناك ايضاً قصر ملكي قام بتشييده عامل بارع جداً من غرناطة . وفي المدينة العديد من مخازن العمال الماهرين والتجار ، وبخاصة مخازن الانسجة الكتانية والاقمشة القطنية . ويحمل تجار المغرب الاقمشة الاوربية الى هذا المكان . وجميع النسوة في هذه المنطقة ، عدا الفتيات الخادمات ، يخرجن محجبات الوجوه ، ويبعن جميع الانواع من الاغذية الضرورية . ان الاهالي وبخاصة الاجانب المقيمين هناك ، على جانب عظيم من الثراء ، حتى ان الملك الحالي قد زوج ابنتيه من تاجرين موسرين . وفي المنطقة آبار عديدة تشتمل على مياه ذات عذوبة بالغة . وعندما يفيض نهر النيجر تنقل مياهه في الغالب عن طريق بعض القنوات الى المدينة . وينتج القمح ، والماشية ، والحليب ، والزبدة في هذه المنطقة بمقادير كبيرة . ولكن الملح هنا على جانب كبير من الندرة ، فهو ينقل الى هذا المكان براً من تغازة التي تبعد خمس مائة ميل . وعندما كنت انا نفسي في هذا المكان ، رأيت حمل بعير من الملح يباع بثمانين مسكوكة ذهبية (دوكات) . . .

واهل البلدة اناس يتميزون بالرقة والمزاج المرح وينفقون جانباً كبيراً من الليل في الغناء والرقص خلال شوارع المدينة كلها . وهم يحتفظون بعدد واسع من الرقيق الذكور والاناث . ومدينتهم كثيرة التعرض لخطر الحريق : وفي عودتي الثانية الى هناك كان نصف البلدة تقريباً قد التهمها الحريق خلال خمس ساعات فقط . ولولا الضواحي لخلت المدينة تماماً من الحدائق أو البساتين .

لم تكن مهمة البعثة مع عامة الناس ، بل كانت مع تمبكتو ـ كوا ، حاكم المدينة ، الذي ، ونحن على ثقة ، لم يدخر جهداً للتأثير في رسل الشريف ،

بما له من الثروة والسلطان * [6] . وعلى أية حال فقد كان ليو على حق حين أبدى ذهوله من بهاء القصر وجلاله :

في حوزة ملك تومبوتو الغني (هكذا يسمى الحاكم) العديد من الصحون والصوالجة الذهبية ، وبعضها يزن 1300 رطل (باوند) ، وله قصر رائع حسن الاثاث . وحينما يسافر الى أي مكان يركب جملاً يقوده واحد من كبار حاشيته . ويكون على هذه الهيئة ايضاً حين يذهب الى الحرب ويرافقه جميع جنوده ممتطين ظهور الخيل . وكل من يبتغي التحدث الى هذا الملك ، ينبغي له أولاً أن يخر ساجداً عند قدميه ، ثم يأخذ بعض التراب وينثره على رأسه هو وكتفيه ، وهذا عرف يتقيد به عادة جميع الذين لم يسبق لهم أن حيوا الملك من قبل ، أو جاءوا بصفة سفراء من الامراء الآخرين . ولديه دائماً ثلاثة آلاف من الفرسان ، وعدد ضخم من المشاة الذين يطلقون سهاماً مسمومة ، وكلهم يلازمونه ويحيطون به . وكثيراً ما تحصل المناوشات بينهم وبين الذين يرفضون أداء الجزية ، ثم يبيعون غنائمهم الى التجار في تومبوتو . ولا تربى هنا سوى القليل جداً من الخيول ويحتفظ التجار ورجال البلاط ببعض الخيول الصغيرة التي يركبون عليها عند اسفارهم : ولكن افضل خيولهم تجلب من بلاد المغرب . وحالما يطرق سمع الملك أن بعض التجار قد جاءوا الى المدينة ومعهم الخيول ، يأمر بجلب بعضهم اليه ويختار لنفسه احسن الافراس ويدفع لصاحب الفرس ثمناً سخياً .

ويوجد هنا (ليو مستمر في كلامه) عدد واسع من الاطباء ، والقضاة ، والقسس وغيرهم من المتعلمين الذين ينفق عليهم الملك بسخاء . ويحمل الى هذا المكان مخطوطات وكتب متنوعة من بلاد المغرب وتباع باثمان تفوق أية سلعة اخرى . والنقود في تومبوتو من الذهب وليس عليها ختم أو كتابة أو

---

* لا سبيل الى الاعتقاد الجازم بان ليو قد لقي عشقية الكبير . ولكنه في احدى سفراته لقي اخا عشقية في ميناء كابارا على نهر النيجر ، وقد وصفه بانه «اسود اللون ولكنه جميل الى ابعد الحدود في عقله واحواله» .

نقوش : ولكن فى مسائل القيمة الصغيرة يستخدمون نوعاً من الصدفات جلب الى هنا من مملكة ايـران ، وكل اربـع مائـة من الصدفـات تعادل فى قيمتهـا دوقية * (دوكات) واحدة ، وكل ست قطع من مسكوكاتهم الذهبيـة مع ثلثى قطعة اخرى تزن أونساً واحداً (7) .

كان ليو يصف تمبكتو وهى فى ذروة رخائها . ومع ذلك فمن العسير أن نجـد فى كلام ليـو أى مبرر لاصـرار الاجيال التـالية على أن تقـرأ لهم صورة وصفية عن ذلك البهاء الخيالى . وكان من المقبول أن نشاطر ليو فيما اصـابه من الدهشة حينما وجد ذلك القدر الواسع من النشاط التجارى والعقلى ـ وهما الجانبان الرئيسان الأولان فى الحياة اللذان يشغلان باله واهتمامه دائماً ـ على أن لا يستنتج من ذلك ، كما فعل العـديدون ، أن تمبكتـو مدينـة رائعة . ان الفتنة والسحر اللذين خلعتهما اوربا خطأ ولمدة طويلة على المدينة يعود بعضه ايضاً الى بعدها والى ارتباطها الوثيق بتجارة الذهب . وكان التحرر من الوهم فى انتظار رينه كاليه Rene Caillie عند وصوله المدينة بعد ثلاثة قـرون . فقد كتب : «كانت قد نشأت لدىّ فكـرة تختلف كل الاختـلاف عن جلال وثـروة تمبكتو . فلم تقدم لى المدينة ، عند اول نظرة ، سوى مجموعـة من البيوت السيئة المظهر والمبنية من التراب» (8) . ومع ذلك فما زال بيننا من لا يستطيع الكتابة عن تمبكتو بدون أن تأخذه نوبة من التنهدات .

لقد كتب ليو فى اخبـاره عن السودان وصفـاً عن بلدتى مالى (نيـانى) وجين ، ولكنـه بين أنه وصـل اليهما بـالسير «مـع التيار» من تمبكتـو . وهذه الملاحظة تعنى ، ولا بد من التأكيـد على ذلك ، أن نهـر النيجر كـان يجرى باتجاه الغرب ، ولو أن ليو قد أخذ فعلاً زورقاً فوق النهر لكان من العسيـر أن يرتكب مثل هذا الخطأ . واذا لم يكن قد شاهد أبداً مالى وجين بعينيه ، فلا بد

---

* هذا الصنف من الصدف الاصفر جلب الى افريقيا من الشرق عن طريق القاهرة ، وكان يستعمل بصفة نقود فى السودان الغربية منذ القرن الحادى عشر ، وربما اطول من ذلك كثيراً . وفى زمن ابن بطوطة كانت قيمتها المحلية 1150 صدفة لكل دينار ذهبى واحد .

أنه لقى العديد من ابناء بلده الذين عرفوا كلا المكانين معرفة حسنة .

وفى الوقت الذى زار فيه ليو السودان كانت جين بلدة يحكمها السونجاى منذ بضع سنوات ، ولكن اهميتها بوصفها سوقاً ومركزاً للعلم ، لم تتأثر إلا قليلاً فى اغلب الاحتمالات . فحتى بعد قرن من ذلك التاريخ كان فى مقدور السعدى أن يصفها بانها احدى الأسواق الكبيرة فى العالم الاسلامي ، حيث يلقى المرء تجار الملح من تاغازة والتجار الذين يجلبون الذهب من مناجم بيتو Bitu (وهو اسم آخر يطلق على بوندوكو Bonduku التى هى مقاطعة فى شمال اشانتى)[9] .

وجد ليو بلدة جين تزخر بالشعير ، الرز ، الماشية ، السمك ، والقطن . وهو يقول : «انهم يبيعون قطنهم الى تجار المغرب فى مقابل الاقمشة الاوربية ، والاوانى النحاسية ، والدروع ، وما كان من قبيل هذه السلع . نقودهم من الذهب وليس عليها ختم أو كتابة أبداً» [10] .

وبالرغم من أن ليو وجد أن عشقية قد أنزل الظلم بملك مالى حتى أنه «ما كان يستطيع النهوض باعباء أسرته إلا بشق النفس» . فقد ذكر : وهناك قرية واسعة وفسيحة تضم حوالى ستة آلاف عائلة او اكثر تسمى مالى التى منها اطلق الأسم على المملكة كلها . والمنطقة نفسها تغل قدراً وافراً من القمح ، اللحم ، والقطن . وينتشر الصناع المهرة والتجار فى كل الاماكن . وما زال الملك يكرم الاجانب كلهم . والسكان اثرياء وفى حوزتهم سلع وافرة . وفيها عدد كبير من المعابد ، والقسس ، والاساتذة الذين يقرأون محاضراتهم فى المعابد فقط ، اذ لا توجد لديهم كليات أبداً . والناس فى هذه المنطقة يفوقون جميع الزنوج الآخرين ذكاءً وطيباً ونشاطاً [11] .

ويلاحظ أن ليو ، مثل جميع الرواد والمستكشفين الآخرين ، الذين ذهبوا الى السودان ، من مسلمين ومسيحيين ، سواء وصلوا اليها عن طريق الصحراء او عن الطرق الخطرة ايضاً من ساحل غينيا ، قد استسلم تدريجاً لفتنة السودانيين وسحرهم .

ويبدو أن ليو فى سفرته الأولى الى السودان قد عاد رأساً من تمبكتو الى المغرب . ولكن فى سفرته الثانية يبدو أنه ارتحل باتجاه الشرق ، ويحتمل عن طريق البر ، من تمبكتو الى جاو ، عاصمة عشقية . ووجد جاو مدينة كبيرة غير مسورة :

البيوت فيها حقيرة عدا التى يقيم فيهـا الملك وحاشيتـه . ويشاهـد هنا تجار على جانب كبير من الثراء : ويأتى الى هذا المكان باستمرار عدد واسع من الزنوج لشراء الاقمشة التى تجلب الى هنا من المغرب واوروبـا . . . وفى هذا البلد ايضاً مكان خاص يباع فيه الرقيق ، وبخاصة فى الايام التى يجتمع فيها التجار . فالرقيق الحدث من عمر خمس عشرة سنة يباع بست دوقيات ، وعلى هذا النحو يباع الاطفال ايضاً . وملك هذه المنطقة لـه قصر خـاص به ويحتفظ فيه بعدد كبير من المحظيات والرقيق الاناث اللواتى يتولى الخصيـان حراستهن . اما حراسته الشخصية فتقوم بها جماعة من الفرسان والمشاة . . . ومما يثير العجب مشاهدة هذا القدر الوافر من السلع التى تجلب يومياً الى هذا المكان ، ورؤية الاشياء الكثيرة ذات التكلفة الكبيرة . فالخيول تباع فى اوربا بعشر دوقيات ، ثم يباع الواحد منها هنا باربعين ، واحياناً بخمسين دوقية . وما من قماش أوربى مهما كان خشناً إلا ويمكن بيعه هنا باربع دوقيات لكل ذراع ، واذا كان القماش رقيق النسج اقبل الناس على اعطاء خمس عشرة دوقية لكل ذراع . والذراع الواحد من الاقمشة القـرمزيـة من البندقيـة أو تركيـا يباع هنـا بثلاثين دوقية . وقيمة السيف ثلاث او اربع كرونات ، وعلى هذا المنوال ايضاً المهاميز ، والألجمة ، وما شابه من السلع الأخرى ، وتباع التوابل ايضاً باسعار عالية . على أنه من بين جميع السلع الأخرى يباع الملح بأغلى الاسعار [12] .

وقـد وجد ليـو أن الذهب فى جـاو هو من الـوفرة بحيث أن الاهلين لا يستطيعون دائماً أن يبيعوا كل ما جلبوه الى السوق ويضطرون الى العودة مـع الكثير منه [13] .

واستمر ليو فى رحلته باتجاه الشرق ، ومن المحتمل أنه وصل بعد ذلك الى اغادس ، وهى بلدة كانت تدفع الجزية الى السونجاى. وكما كان الأمر مع

بلدتى جين ومالى، لا يسع المرء أن يتأكد على نحو قاطع أنه قد زار الهاوسا. ووصفه المدينة على ايجازه مفيد ، ومن الجائز أنه استقى معلوماته عنها بطريقة غير مباشرة . وكتب عن جوبير Gobir : «وهنا ايضاً قدر واسع من الصناع المهرة وناسجى الكتان ، وهنا ايضاً يصنع ذلك النوع من الاحذية التى كان الرومان القدماء يرغبون فى لبسها ، والقسم الاكبر منها يحمل الى تومبوتو وجاجو» . وفى الفقرة التالية تناول بالوصف زراعة الرز على نحو يشبه تماماً الطريقة التى تطبق اليوم فى سوكوتو وفى كمبى . وسوف نعود الى هذه النقطة من بعد عندما نتناول تأثير اعمال ليو فى خارطة افريقيا [14] .

وجاءت المعلومات الى ليو أن ممالك الهاوسا : زمفارا ، كاتسينا ، كانو ، وزاريا قد اصابها البؤس بعد أن غزتها السونجاى حديثاً ، وأنها قد تحطمت باعباء الجزية الباهظة التى فرضت عليها . ولكى يتم الدفع قام عشقية «بارسال الحكام الى هناك حيث ظلموا الناس وافقروهم بالعنف والقوة وقد كانوا اغنياء من قبل»[15]. والواقع أن الهاوسا كانت غنية دائماً، على أن غناها كان يعود الى الجد والعمل الفائق الذى اتسم به الفلاحون ، والصناع ، والتجار ؛ وأصحاب الحرف والمهن فى الهاوسا، اكثر مما يعود الى خصب تربتها ، وإن لم يكن هذا بقليل الشأن .

وجاء فى كتابة ليو: «وفى زمنى قتل ملك الهاوسا علي جوبير على يد عشقية ملك تومبوتو ، واخصى ابناؤه وجعلوا من جملة خصيان الملك . . . والقسم الاكبر من السكان نقلوا وجعلوا من الرقيق بامر الملك المذكور عشقية» . وقتل حكام كاتسينا ، زاريا ، وزمفارا ، ولكن حاكم كانو لقى حظاً افضل . فهو لم يستسلم إلا بعد مقاومة طويلة وباسلة اكسبته احترام الغالب بالاضافة الى الشروط السخية التى قدمت اليه . فقد سمح له بالاحتفاظ بمملكته على أن يدفع ثلث أمواله الى عشقية ، وعلى ، وهو ما يمكن أن يعد من قبيل التكريم ، أن يتزوج إحدى بنات عشقية .

ثم واصل ليو رحلته باتجاه الشرق فبلغ بورنو التى لم تصلها جيوش السونجاى. وتقع بورنو فى النهاية الجنوبية لما يعد من أقل المعابر الصحراوية

صعوبة ومشقة . وقد كانت المدينة منذ القرن التاسع فصاعداً على تماس منتظم مع اسواق الشمال . وفى زمن ليو كانت تجارتها مع المغرب تتناول فى الغالب الخيول ، ومع أن الذهب كان من الوفرة حتى أن الكلاب الملكية كانت تطوق بسلاسل ذهبية ، فان اهالى بورنو كانوا يصرون على تسديد اثمان الخيول بالرقيق الذين كان لديهم منهم ، بسبب الحروب المستمرة مع جيرانهم الضعفاء ، قدر اكبر مما يحتاجون اليه . وكانوا يقبلون اعطاء خمسة عشر او عشرين من الارقاء فى مقابل حصان واحد ، ولكن تجار المغرب كانوا يفضلون الذهب على ذلك كثيراً . وفى الاوقات التالية كانوا يأتون من اجل الرقيق فقط ، وما كانوا يتاجرون باى شيء آخر [16] .

ومن بورنو يبدو أن ليو واصل رحلته باتجاه الشرق عن طريق «مملكة جاوجا Gaoga» وهى دولة تكونت من شعب بولالا Bulala وتقع بين بحيرتى تشاد وفترى . وكانت جاوجا يزورها باستمرار التجار القادمون من مصر . ومن المحتمل أن ليو قد سافر بصحبتهم حتى بلغ بلاد النوبة Nubia ومدينة الدنقلة على النيل .

***

فى النصف الأول من القرن السادس عشر انشغلت عقول الناس بالاحداث المثيرة البعيدة انشغالاً شديداً بحيث لم تعد تهتم كثيراً بافريقيا . فقد انتهى القرن السابق باكتشافات عالم جديد من قبل كولمبس ، وطريق بحرى الى الهند والشرق الاقصى من قبل فاسكو داغاما . واوحى الاكتشاف الأول بامكانات لها من السعة بحيث لا يتيسر تقديرها . وقدم الاكتشاف الثانى مكاسب عظيمة تعد فى حكم المؤكدة . وفى بحر خمس سنوات توسعت فيها آفاق الرجل الأوربى بدرجة لم يعد قادراً على ادراكها . على أن ذلك لم يكن كل الأمور . فقد افتتح القرن الجديد باكتشاف البرازيل ، وبمشاهدة المحيط الهادى لاول مرة ، وبانشاء الامبراطورية البرتغالية فى الهند ، وباول ابحار حول الكرة الارضية .

وكل هذا قد حصل بين مولد ليو وبين كتابته عن اسفاره فى افريقيا ،

التى اذا قورنت بالاحداث الجغرافية العظيمة التى عاش خلالها ، لبدت له ولغيره ذات اهمية صغيرة نسبياً . ولذلك فلا عجب إن ظل كتابه مجهولاً تقريباً ، إن لم يكن كلياً ، حتى قيام راموشيو بنشره فى منتصف ذلك القرن . وقبل نهاية القرن قدّر لكتاب راموشيو «الرحلات والسفرات» أن يطبع عدة مرات ، كما أن أثر ليو قد ترجم الى اللاتينية ، والفرنسية ، والانكليزية .

وفى الوقت نفسه كان الخرائطيون قد بدأوا يعيدون رسم خارطة افريقيا على ضوء ما تركه ليو من كتابات مشحونة بالانفعال والتوقد ، وظل الاعتماد عليها كاملاً تقريباً حتى مجىء مونجو بارك وغيره من الكبار الذين عملوا فى استكشاف افريقيا بعد مرور ما يزيد على القرنين . ومن سوء الطالع أن الأثر الذى اعتمد عليه الخرائطيون اعتماداً بالغاً كان مشوهاً بتخبط كبير يتعذر تبريره ، بتخبط ذى حجم لا يصدق .

كان هيرودتس قد ذكر أن نهراً كبيراً يجرى من الغرب الى الشرق يقسم افريقيا كما أن الدانوب يقسم أوربا . وكان المعتقد أن المقصود به هو نهر النيجر الذى اشار اليه بلينيوس Pliny وبطليموس Ptolemy . وفى القرن العاشر أيد ابن حوقل ، وهو اول جغرافى عربى زار السودان ، أيدّ ما ذهب اليه هيرودتس وهو أن النيجر يجرى الى الشرق . وبعد قرنين نجد الادريسى الكبير الذى لم تقع عينه على النيجر أبداً ، يخلط بينه وبين السنغال ويقول إنه يجرى الى الغرب . وفى القرن الرابع عشر استطاع ابن بطوطة أن يعلن أنه شاهد النيجر يجرى الى الشرق . على أن الادريسى كان له من الاحترام البالغ الى حد أن العديد من الناس كان يفضل ما يورده نقلاً عن الآخرين على ما يورده الآخرون الاقل شأناً بالاعتماد على تجربتهم الشخصية . ولذلك فقد كان فى عقول الناس شكوك كثيرة حول وجه الصواب بين هذه الآراء المختلفة . وقد أتيحت الفرصة امام ليو حتى يبدد ذلك الشك ، ويزول معه الغموض الذى كان يحيط بواحد من أقدم الأسرار فى عالم الجغرافية . يا للأسى ، فقد فاتت الفرصة ووقع ليو في خطأ بالغ حين وصف :

يمر نهر النيجر من منتصف بلاد السود . ويبدأ النهر من صحراء تسمى

سو Seu حيث ينشأ من بحيرة واسعة . * ومن رأى الجغرافيين عندنا أن النيجر هو فرع من نهر النيل الذى يختفى تحت الارض ويظهر ليكون هذه البحيرة . وبعض الناس يقولون إن النهر ينشأ فى الجبال فى الغرب ويجرى باتجاه الشرق ليكون بحيرة . وهذا ليس بدقيق . فنحن بانفسنا قد ركبنا النهر من تمبكتو فى الشرق وسرنا مع التيار الى ممالك جين ومالى ، وكلتاهما تقعان فى الغرب من تمبكتو [17] .

تبين هذه الفقرة بوضوح أن ليو كان مهتماً بخلق الانطباع أن نهر النيجر ما كان يجرى باتجاه الشرق ، بل باتجاه الغرب . فكيف تهيأ له أن يتخبط فى الخطأ على هذا النحو الغريب ؟ ولو أنه ركب النهر فعلاً وسار فيه عدة مئات من الاميال لكان من العسير أن يخطىء فى معرفة مجراه . وحتى لو أنه لم يركب النهر ابداً فلا بد أنه قد رآه فى كبارة Kabara . من المحتمل أنه لم يهتم بمجرى النهر فى هذا الوقت ، وأنه عاد وفى ذهنه تصور غامض عن اتجاه سيره . ويمكن الافتراض أن الجغرافيين فى روما ما كانوا مستعدين لزعزعة ثقتهم بالادريسى على يد أسير شاب مغربى . وربما قد انتهى ليو الى الاعتقاد ، متأثراً باسئلتهم المتواصلة ، أنهم على صواب ، وان فكرته الغامضة وهى أن النهر يجرى فى اتجاه الشرق ، لهى فكرة خاطئة . ومن الجائز أنه ، لكى يتستر على ارتباكه وتشوشه ، قد اخترع قصة ركوبه النهر وقيامه برحلة مائية فى النيجر . ولكن هذا تخمين . فالمؤكد هو أن قرابة جميع الخرائطيين الأوربيين كانوا يعتمدون هم انفسهم على الادريسى وليو ، ولذلك جعلوا النيجر يجرى باتجاه الغرب ، وبهذا الوجه نجد النهر فى خرائطهم ينشأ مع نهر السنغال ونهر غامبيا ، وتصب مياهه فى المحيط الاطلسى . ولم يقم الدليل بوجه قاطع على خطأ ليو حتى كان ذلك اليوم العظيم من سنة 1796 حينما وصل منجوبارك الى سيجو ورأى النهر يجرى فى تدفقه نحو الشرق .

---

* يحتمل أن تكون سو Seuهى صيغة ثانية لكلمة ساو Sao أو سو So وهو الأسم الذى اطلق على سكان بورنو الأصليين . وفى هذه الحالة تكون البحيرة المقصودة هى بحيرة تشاد .

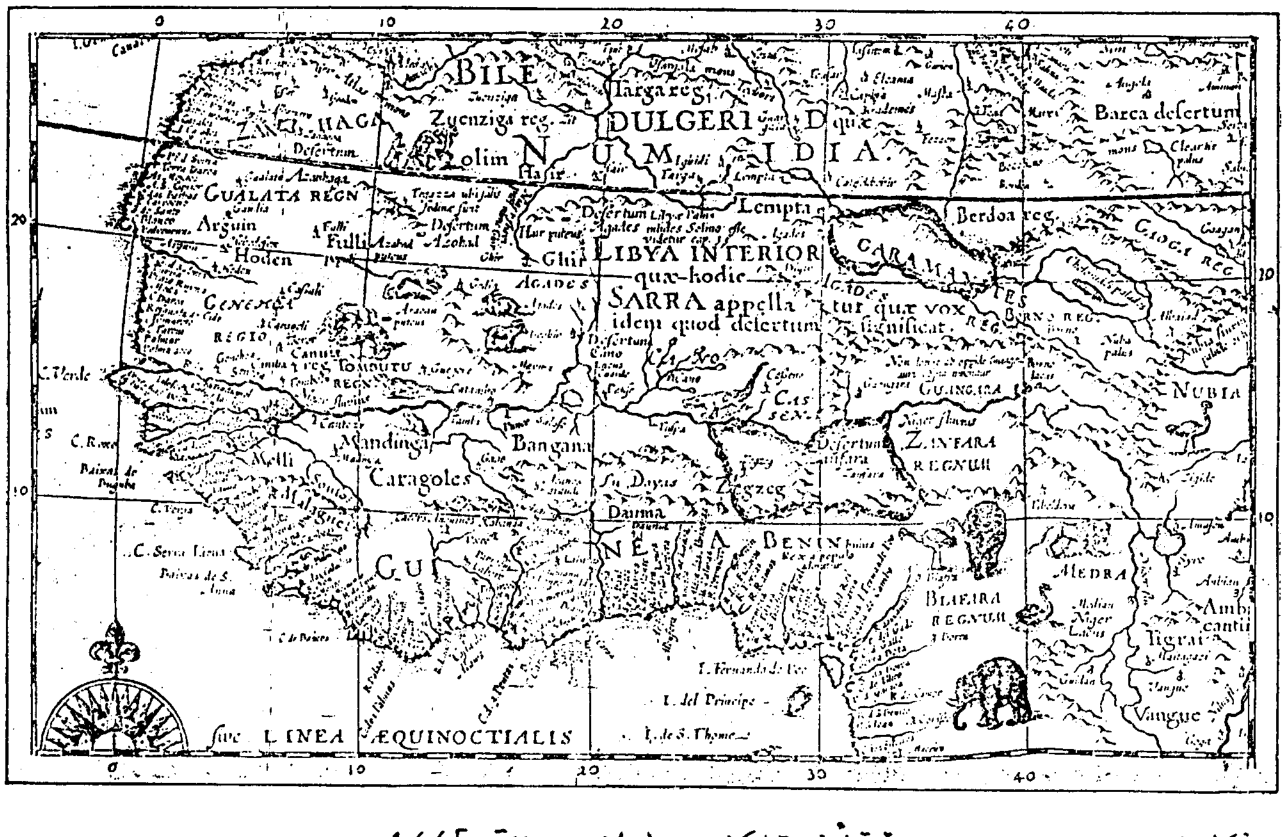
ولم يكن كتاب ليو المعنون «تاريخ افريقيا ووصفها» معجماً جغرافيا ، بل كان ، كما يشير اليه العنوان ، وصفاً للاقطار الافريقية التى سافر المؤلف الى معظمها . كان يكتب للقراء الذين يطلبون المعلومات عن افريقيا ، وليس لمن يرسمون الخرائط . ولذلك عندما بدأ الاخيرون بعملهم معتمدين على نص الكتاب لم يجدوا شروحه تفى دائماً بمقاصدهم بالسهولة المرغوبة . وفى بعض الاحيان كانت الفقرات من الكتاب تقرأ بوجوه مختلفة تبعاً لاختلاف رسامى الخرائط . وكان للغموض فى النص أثره فى وقوع الاخطاء . ولكن الملامة على مثل هذا الخطأ المهم تقع كلها على عاتق الخرائطيين .

ذكر ليو أنه فى مملكة جوبير التابعة للهاوسا وجد « قدراً وافراً من الرز . . . عند فيضان نهر النيجر تغرق جميع الحقول فى هذه المنطقة ، ثم يقوم السكان بنشر بذورهم في الماء فقط » . وفهم الخرائطيون من هذا بصفة عامة أن فى جوبير مستنقعاً واسعاً ، ولذلك فقد بينه ترامزينو Tramezino ، على سبيل المثال ، فى خارطته عام 1554 بشكل مستنقع كبير . ثم بدأ الشك يتسرب الى نفوسهم فى أن تلك الفقرة من كتاب ليو تشير الى البحيرة الكبيرة التى ذكرها فى القرن السابق ديغو جو ميز احد ملاحى الأمير هنرى ، وأنها تقع فى داخل افريقيا الغربية ، ومن المحتمل أن ذهنه كان منصرفاً الى البحيرتين الكبيرتين ديبر وفاجبين ، الموجودتين فوق تمبكتو[18] . ومنذ سنة 1564 التى ظهرت فيها خارطة جياكومو دى غاستالدى رسمت بحيرة كبيرة اطلق عليها اسم « بحيرة جوبير » فى ذلك المكان ، وظلت تظهر على هذه الصورة فى الخرائط حتى نهاية القرن الثامن عشر تقريباً(*) .

---

* وكانت البحيرة تسمى ايضاً احياناً (سيجسمس) واحياناً (غارد) . ولكن لماذا لم تعرف باسم واحد فقط . ويلاحظ أن بلاو فى سنة 1659 ، وسنكس فى حوالى سنة 1700 قد سمّى كل منهما نصف البحيرة باسم (سيجسمس) والنصف الأخر باسم (غارد) . ووجد كل من فير فى سنة 1698 ومول فى حوالى سنة 1710 أنه من الافضل التمسك بما ورد فى كتاب ليو . فسماها احدهما (مستنقعات غارد) وسماها الآخر (مستنقعات واهوار غارد) . اما دانفيل وروبرت فى خارطتهما الصادرة عام 1770 فقد عرضا البحيرة ولكن لم يجعلا لها اسماً .

ما من شيء يغاير الانصاف فى تقديرنا «ليو» من النظر اليه بما صنعه الخرائطيون من كتابه . ذلك أن كتابه (افريقيا ـ تاريخها ووصفها) كان مصدراً غنياً بالمعلومات الجديدة التي كان يتطلع اليها الناس منذ زمن بعيد، وظل على مدى قرنين ونصف القرن كتاباً اساسياً لجميع المعنيين بشئون افريقيا، كما هو اساسى فى الوقت الحاضر ضمن مجال اضيق فى الدراسات التاريخية . ولو أن غضضنا الطرف مترفقين عن تخبطه المذهل حول مجرى نهر النيجر، لما وجدنا من تعليق عن أثره أنسب من اشارته الظريفة هو نفسه الى بلينيوس : « لقد اخطأ قليلاً فى بعض الأمور المتعلقة بأفريقيا : ومع ذلك فما ينبغى لشائبة صغيرة أن تحجب كل الجمال والمحاسن فى جسم لطيف وبهيج »[19] .



شكل (6) خريطة أفريقيا كما رسمها بلاو سنة 1665

الفصل السابع عشر

مولاي أحمد المنصور

« أنه اكتسب بطرق شتى كميات هائلة من الذهب »

ر و . سي RO.C

لا يعد ليو مديناً فى شهرته الى أسفاره ، التى هى بالقياس الى فرد مغربى ليست بالشىء غير العادى المتميز ، بل تعود الى وصفه الرائع عن الأقطار التى زارها . ومع ذلك فان قصته المتدفقة بالحيوية لم تثر اهتمام أبناء بلده ، خلافاً للمسيحيين ، لأنهم كانوا يعرفون كل شىء عن الأماكن البعيدة التى وصفها ، ولم تكن معلوماتهم فى يوم أفضل مما كانت عليه خلال الوقت الذى قام فيه ليو بزياراته ، عندما كانت التجارة العابرة للصحراء مزدهرة على نحو لم يسبق له مثيل .

وقد أفضت فتوحات عشقية الكبير الى أن توضع ثروات طائلة بين أيدى السونجاى . ذلك أن ممتلكاتهم الواسعة الممتدة من الغابات الممطرة فى الجنوب ، الى الصحراء فى الشمال ، ومن الهاوسا فى الشرق الى المحيط الأطلسى تقريباً فى الغرب ، كانت تشتمل على موارد طبيعية تجاوز كثيراً ما يكفى لسد حاجاتهم . فبين ايديهم تربة خصبة تتولى زراعتها طبقة من الفلاحين المجدين تعمل فى ظروف مناخية واسعة التنوع ، ولهم سهول معشوشبة ممتدة توفر العلف لقطعان واسعة من الماشية ، والمعز ، والغنم ، ولهم أنهار وبحيرات لا حصر لها تزخر بالسمك ، وكلها تمدهم بمعين لا ينضب من أنواع الغذاء . ويعتمدون فى إشباع البقية من حاجاتهم الأساسية

على مـا لديهم من أصحـاب الحرف ذوى المهـارات العاليـة الذين يحـولون ثرواتهم المعدنية الضخمة ، وبخاصة الحديد والنحاس ، والمنتجات التى لا تؤكل من ارضهم ، الى سلع تنفعهم . ما كانوا يفتقرون الى شيء ، بل كـان لديهم فائض كبير من الذهب والـرقيق ، اللذين عليهما طلب من الخـارج لا يشبـع . وفى وسعهم أن يجهزوا من الاثنين بكميـات غير محـدودة تقريبـاً . فالذهب يسيطرون على المصادر الرئيسة من عرضه ، والرقيق لا يكلفهم سوى أن يقـوموا بغـارة على من هم أضعف من جيرانهم للحصـول على جميع مـا يريدون منهم .

وكان هذا الفائض من الثروة يستخدم بالدرجة الأولى لشراء السلع الترفية التى تعنى بالقياس الى السونجاى السلع التى تدخل فى تجارة البحر المتوسط. وعن طريق الجزية والأموال التى كانت تتدفق على جاو وتمبكتو أصبح السونجاى الآن قادرين على المتاجرة مع المغرب على نطاق لم يتيسر من قبل لأى شعب سودانى ، بما فى ذلك شعب مادنجـو فى مالى خـلال الفترة التى حكم فيهـا منسا موسى . ولم يكن الذهب والرقيق اللذان عليهما ذلك القدر الواسع من الطلب من الشمال قد توفرا بهذه الغزارة من الامدادات . ولـذلك فقـد كانت طرق القوافل التى تعبر الصحراء تنقل من السلع التجـارية أكثـر من أى وقت مضى . وعلى طول ساحـل أفريقيـا الشماليـة ، كما يخبـرنا ليـو كان التجـار يديرون الأعمال التجارية مع السودان ، وكان فى كل بلدة سودانية مغتربون من المغاربة واليهود يزاولون التجارة نفسها .

وعند نهاية القرن السادس عشر ، حينما كان الذهب يتدفق بلا قيد على المغرب ، وحينما كانت قصة ليو عن الأقطار الغنية فى قلب أفريقيا تقرأ على نطاق واسع فى أوربا ، حظيت المغرب فجأة بمكانة جديدة لم تكن متوقعة أبداً من حيث الثروة والغنى .

***

لا يقدم التاريخ سوى أمثلة قليلة تشبه الكارثة التى حلت بالبرتغاليين عام 1578 فى معركة القصر الكبير . فقد جروا على كره الى الحرب مع المغاربـة

على يد ملكهم الشاب الأبله ، دون سيباستيان . وما كانت خطة الملك تفتقر الى أى ظرف آخر حتى تتحقق الهزيمة . ولكن حجم الكارثة التى حصلت قد جاوزت اسوأ المخاوف التى أبداها أولئك الذين تبعوه على مضض الى المعركة . ففى مدى ست ساعات من يوم ساخن فى اغسطس أبيدت قوة من البرتغاليين تعدادها 26000 مقاتل . ولم يستطع النجاة من الهلاك أو الأسر سوى عدد لا يجاوز المئة . ولم تكن كارثة البرتغال مقتصرة على ذلك . فالى جانب فقدانها زهرة شبابها أضيفت خسارة سيادتها الى اسبانيا وانتقال امبراطوريتها الاستعمارية الكبيرة الى يد فيليب القاسى المتعصب . كانت هذه هى النتائج المباشرة للمعركة التى تغاضى عنها ادوارد كريزى على نحو بالغ من الغرابة . ولم تقتصر معركة القصر على تغيير مجرى التاريخ فى أوربا فحسب ، بل أن نتائجها فى أفريقيا قد أجتازت الصحراء ، وذلك بمدها يداً ملطخة بالدماء من فاس الى النيجر وزيادة .

وكان فى عداد الذين سقطوا فى المعركة قائدا الجيشين ، دون سيباستيان وعبد الملك الشريف على فاس . ولم تكن صورة الشريف الذى كان مصاباً أصابة قاتلة ولا يكاد يستقر على صهوة جواده ، ولا يدرى أنه يدنو من الموت ، بالصورة القليلة الأثارة من صور المعركة . لقد فارق الحياة فى لحظة النصر بعد أن عيّن بحكمة بالغة خلفاً له أخاه الأصغر مولاى أحمد ، البالغ تسعاً وعشرين سنة من العمر . وأضاف الشريف الجديد الى اسمه لقب المنصور .

ونال المغاربة من وراء هذه المعركة مقاماً فى العالمين المسيحى والاسلامى فاق كل شىء كانوا قد تمتعوا به من قبل ، ولم يرتفعوا الى مستواه مرة أخرى أبداً . ورغم ذلك فقد بدأ المنصور حكمه وهو مثقل بالهموم . فقد كان البلد مقسماً ، كما هو وضعه دائماً ، الى زمر يمكن أن يهرعوا فى أية لحظة الى تأييد أحد الثلاثة أو الاربعة المطالبين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أحق بالعرش من المنصور نفسه . والواقع أن اعتلاءه العرش لم يكن محظياً برضى الشعب على العموم . وبما أن مفخرة الهزيمة الساحقة التى الحقت

بالمسيحيين قد ذهبت كلها حقاً الى اخيه المتوفى ، فقد حرم من التأييد الذى يحظى به البطل الشعبى عادة . وبات واضحاً أن القلق الذى راح تحت السطح وكمن فى عهد اخيه الحازم يمكن فى أية لحظة أن ينفجر ويتحول الى لهيب . ولم يكن أمامه سوى القليل ممن يستطيع الاعتماد عليهم ، وأقلهم جميعاً من حيث الاعتماد سكان العاصمة ، ذلك أن أهل فاس كانوا يكرهون البيت الحاكم [2] .

ولم تكن الأخطار الأخرى بأقل وزناً فى ذهن المنصور . فلم يكن من المحتمل أن تسمح اوربا لمثل تلك الهزيمة المنكرة أن تذهب بدون انتقام . وأهم أداة مسيحية محتملة للأخذ بالثأر هى جاره المرعب ، فيليب ملك أسبانيا ، الذى ما كان يفصله عنه سوى بضعة أميال من البحر . وبالاضافة الى ذلك ، وعلى مقربة منه ، فى الجزائر ، كان الأتراك الذين ظلوا يشعرون بالامتعاض مما أبداه المغاربة من مقاومة عنيدة إزاء الانضمام الى الامبراطورية العثمانية ، وكانوا يشعرون بالمرارة والغيرة مما اتيح لشعب زرى أن يثأر لهزيمتهم الماحقة التى لحقت بهم فى معركة ليبانتو Lepanto قبل سبع سنوات لا غير . لم يبق من أحد يفخر بالانتصار فى معركة القصر الكبير ، وكان الخطر يهدد من كل جانب .

ومهما يكن فسرعان ما أخذت مواكب الوفود المهنئة تصل تباعاً ، وهى تحمل الهدايا الغالية ، التى كانت فى الغالب مقرونة ببعض المصالح المراد تحقيقها . وكانت الهدية الأولى من الباشا الحاكم على الجزائر . وكانت الثانية من البرتغال وهى تبتغى أن تفتدى أسراها . وكان بين الحاضرين سفير وليم اورانج الذى كان بعض رعاياه قد خدموا تحت أمرة دون سيباستيان . وكانت اليزابث ملكة انكلترا ترغب فى استمرار مبادلاتها غير الشرعية بتقديم الاسلحة فى مقابل أملاح البوتاسيوم المغربية ، فأرسلت سفيراً ولكنه لم يكن يحمل هدية ذات قيمة تستوجب ايرادها ، ولم يكن هذا مثار دهشة كبيرة فى ذلك الحين . ومع ذلك فقد كان فى بلاطها من يؤيد إبرام تحالف بينها وبين المنصور . وجلب سفير فرنسا هدية رائعة آملاً كسب التحالف مع المغرب ضد

الغادر هنرى الثالث الذى يسعى دائماً الى الارتباط مع أية جهة تعادى أوربا المسيحية . وكان أكثر المرسلين الذين أحيطوا بالتكريم سفير اسبانيا الذى كانت هديته الباهرة تتألف من ياقوتة بحجم كف الأنسان ، وزمردة بقدر التفاحة وعلبة من اللآلىء الفاخرة . وقد وجد فيها المنصور مدعاة للسرور والاطمئنان معاً . وكان الوفد التركى أقلها حظوة بالترحاب ، فقد أبقى عن عمد ينتظر طويلاً حتى جاء دوره للمقابلة ، ولم ينس مراد هذه الأهانة .

وفى الوقت نفسه كان المنصور يبرهن على جدارته وقدرته على الحكم . فقد جمع فى تصرفاته على نحو موفق بين الحزم وضبط النفس فتمكن بذلك من أن يعزز مركزه تدريجياً ، ولم يمض زمن طويل حتى كانت سيطرته على العرش محكمة بدرجة لا تثير فيه قلقاً يذكر . وكانت الأمور الخارجية تسير أيضاً على وجه يبعث المزيد من الاطمئنان . وأخذت الأيام تمر دون أن يهاجمه أحد ، عدا حملة تركية فاشلة أمر مراد بعودتها قبل أن تصل المغرب . وعلى هذا النحو فقد تبين له أن خطر العدوان الخارجى كان أقل مما تصوره .

وأراد المنصور ان يتمتع ببعض ثمرات الانتصار ، بعد أن ارتفع عن باله ما كان يشغله من وساوس القلق . وكان على رأس هذه الثمرات أموال الفدية عن آلاف المسيحيين الأسرى ، وما من أحد كان أعرف من المغاربة فى الاستفادة من هذه الفرصة ، فقد كان لهم باع طويل وتجربة لا تضاهى اكتسبوها من الغارات القرصانية . وليس من اليسير تقدير مبالغ الفدية ، ولكنها جعلت خزينة الشريف تفيض بالذهب الأجنبى لمدة عدة سنين بعد المعركة . وبعد أن خصصت الأموال الطائلة لكل مظاهر البذخ والاسراف فى الداخل ، تبقى ما يكفى لتقديم المساعدات المالية لمن يحتاج من الأمراء المسيحيين . وكان من بين هؤلاء الأخيرين ملك فرنسا ودون انطونيو المطالب بعرش البرتغال الذى سدت حاجاته بتدخل الملكة اليزابث ورجائها الملح .

وقد تركز اسراف المنضور الشخصى بالدرجة الأولى على بنائه قصراً

واسعاً فخماً فى مراكش استخدم من أجله الآلاف من المسيحيين . وقد شحنت سفن عديدة تحمل أثمن المواد الشرقية من الهند لأجل تزيين القصر وزخرفته . وجهزت ايطاليا وارلندا المرمر لتشييد الآلاف من أعمدته * . وأحيط بحدائق منسقة حتى تتمشى مع البهاء والجلال فى داخله . وأكمل القصر بعد ست سنوات من المعركة ، وأطلق عليه اسم البادى ، وكان آية بجماله الفريد+ .

ومع أن علاقات الشريف بجيرانه ظلت ودية فى الظاهر فان الاستعداد للحرب بقى حاجة ملحة . فقد كان الأتراك يضمرون العداء فى قلوبهم ، كما كانوا دائماً ، وكانت الدول المسيحية ، عدا فرنسا ، تناصب الاسلام العداء ، ولا يمكن الاطمئنان اليها . وكان فيليب يطالب بالتخلى عن ميناء لاراش الصغير على المحيط الأطلسى ، الذى له موقع ملائم جداً لحراسة الممرات الغربية الى المضيق . وكان الأتراك يشتهون أخذه أيضاً ، حتى فرنسا وهولندا كانتا تبديان اهتماماً غير ودى بمستقبله . وبالاضافة الى ذلك كانت الاشاعات تروج إن الأنكليز لهم مقاصد فى ميناء موغادور الأبعد الى الجنوب الذى يحصلون منه على السكر وكان مادة اساسية فى تجارتهم مع المغاربة .

وفى جميع هذه الظروف كان الاحتفاظ بالقوات المسلحة على أساس الحرب من أهم الأمور التى يعنى بها المنصور . وقد حصل عبد الملك على جميع الخشب اللازم لسفنه ، والأسلحة المطلوبة لجيشه من اليزابث ، وهى الملكة المسيحية الوحيدة التى أبدت استعدادها لتحدى الحظر البابوى على المتاجرة مع المسلمين فى المواد الحربية . وقد أقدمت على هذا العمل لسبب واحد هو حاجتها الملحة الى الملح الصخرى (نترات البوتاسيوم والصوديوم) لصنع البارود ، ولم يكن فى المقدور أن تحصل عليه إلا من المغاربة . ومع أنها كانت تشعر بآلام مبرحة فى إخفاء دورها فى التجارة المحظورة ، فقد كان

---

* بحسب ما اورده العفرانى ، كان الارلنديون يقايضون الرخام فى مقابل وزن معادل من السكر .
+ هذا القصر هدمه مولاى اسماعيل عام 1707 .

فيليب عالماً بها ، ومما زاد من شعوره بالاستياء كثيراً تحطيم أحد الجيوش المسيحية فى معركة القصر بأسلحة جهزتها انكلترا . ولذلك ، فعندما علم برغبة اليزابث فى استئناف التجارة مع المنصور اعترض بشدة حتى أن الشريف أحس بضرورة الأعراض عنها . ولكن استئناف التجارة كان ضرورياً للمنصور من أجل تجهيزه بالذخائر والأعتدة الحربية ، كما كان ضرورياً للملكة اليزابث من أجل حاجتها الى الملح الصخرى . ولم يمض زمن حتى علمت اسبانيا وبقية العالم الكاثوليكى أن المغاربة ما كانوا يكتفون بالحصول من انكلترا على خشب السفن ، وقذائف المدافع ، والمجاذيف ، بل كانوا يحصلون ايضاً على بناة السفن ومن يقوم بترميمها ، وهو أمر ما كان يجرى من قبل أبداً [3] .

وفى الوقت نفسه أخذ التصور بأن هذه المواد الحربية مطلوبة للدفاع عن المغرب يضعف تدريجاً . كما أن حملات الأتراك التى لا تنتهى ضد ايران ومشاكلهم الداخلية الخطيرة كانت تستنزف قواهم بحيث بات من الواضح تماماً أنه لا يوجد ما يشعر بالخطر من احتمال قيامهم بأية مغامرة خارجية جديدة . وبالقرب من بلاد المغرب لم يؤد الاتحاد بين التاجين الاسبانى والبرتغالى الى النتائج المخيفة التى كانت بقية العالم قد تكهنت بها . وكانت ثورة هولندا تستنزف قوى فيليب وإن كانت أقل استنزافاً من حملة الأتراك على ايران . ومع ذلك فقد كان فيليب يواجه احتمال الحرب مع انكلترا . ولذلك فلا داع للتخوف لا من اسبانيا ولا من الاتراك . ومع ذلك فبدلاً من أن يقلل المنصور طلباته من اليزابث كان مستمراً على تصعيدها .

والسبب الى كل هذا قد بقى سراً مكتوماً . لقد كان العرش مأمون الجوانب ، ولم يكن فى الأفق خطر من أى عدوان خارجى يشغل البال ، ولذلك فقد كان الشريف يخطط لاستخدام جيشه فى مغامرة مذهلة . لقد قرر أن يغزو السودان وأن ينتزع من قوم جاهل كالسونجاى مصدر الذهب الذى كان يتدفق على المغرب بمقادير جسيمة . ولا ريب فى أن احتمال القيام بذلك قد خطرت فى بال المغاربة قبل هذا ، كما خطرت فى بال الأمير هنرى فى القرن السابق . وبعد سنوات طويلة من التخطيط الدقيق والمساعى العقيمة

بيّن البرتغاليون أن مناجم الذهب لا يمكن الوصول اليها عن طريق البحر . أما المنصور فقد عقد العزم على إمكانية الوصول اليها براً . إن إرسال جيش الى الطرق الصحراوية المحفوفة بالمخاطر ، والتى تتناثر فيها عظام الناس والحيوانات المتبقية من القوافل التجارية الصغيرة ، ليعد حماقة كبرى فى نظر الغالبية من ذوى الرأى والعقل السديد ، ولكن المنصور ذهب فى ظنه الى أن مبررات هذا العمل تجاوز مخاطره .

الفصل الثامن عشر

تاغــازة

«يمكن للبشر أن يعيشوا بدون ذهب ، ولكن لا يستطيعون العيش بدون ملح»

كاسيو دورس

«ثمن الزنجى حفنة ملح»
مثل مغربى

ان المقايضة الخرساء مع جماعة خفية ، وامتنـاع الجماعـة الخفية عن التخلى عن ذهبها فى مقابل اى شىء عدا الملح كان يمثل اظهـر الخصائص المثيرة فى تجارة الـذهب لافريقيـا الغربيـة . وهذه المبـادىء الاساسيـة التى يفرضها اناس مجهولون وفى حالة بدائية تمامـاً ينبغى أن يتقبلها بـدون نقاش جميع الذين يدخلون هذه التجارة الفريدة . انها قيوذ قد جعلت هذه المعاملة محصورة فى أيدى الوسطاء السودانيين المحظوظين الذين كانـوا يعرفـون اين يذهبون في بحثهم عن الذهب وكيف يتصرفون حين يصلون الى هناك، وفى ايـدى تجار المغـرب الذين فى وسعهم أن يقـدموا الملح الضـرورى . وكان المصـدر الاساسى لهـذا الملح هو تـاغازة التى تقـع فى وسط الصحراء على الطريق الرئيس للقوافل بين المغرب وتمبكتو *. وبـالرغم من هـذه المكانـة

---

* وجد عدد آخـر من المناجم الملحيـة فى الصحراء الغـربية وبخـاصة فى عـدجيل ونـطيريـرت (أوليل) . وكان الملح المستخـرج من هذين المستـودعين ينقل الى اقـطار السودان الغـربية . ويبدو أن التجارة بالملح البحرى كانت محلية من حيث الأساس [١٢] .

الممتازة التى كانت تتمتع بها تاغازة فى تجارة اتاحت الثراء للكثيرين ، وكان كثيرون آخرون يأملون المشاركة فيها ، فنحن لا نعرف عنها تاريخاً سياسياً حتى القرن السادس عشر على أقل تقدير . فقد كانت مستمرة على انتاج الملح ، وما كانت تنعكس عليها الاضطرابات السياسية فى الصحراء او الاماكن الابعد منها . وربما توقع المرء تاريخاً مشحوناً بالاضطرابات فى مكان على هذا القدر الكبير من الاهمية لتجارة أثارت جشع العديد من الشعوب . ولكن طموح المنصور كان يفضى الى انهاء هذا الهدوء التقليدى فى تاغازة . وقبل أن نبحث فى هذا الهجوم الفظ وغير المتوقع الذى تعرضت له ، يحسن أولاً أن ننظر فى الخصائص التى تحيط هذا المكان . ومن حسن الطالع أن هذا المكان قد زاره ووصفه كل من ابن بطوطة وليو الأفريقى .

ففى منتصف القرن الرابع عشر ، وبحسب ما اورده ابن بطوطة كانت تاغازة :

قرية ليس فيها ما يجذب ، ذات سمة غريبة وهى أن بيوتها ومساجدها مبنية بكتل من الملح ومسقفة بجلود الجمال . وليس هناك اشجار ، لا شىء غير الرمال . وفى الرمال منجم للملح . وهم ينقبون عن الملح ويجدونه بشكل الواح سميكة . . . لا أحد يعيش فى تاغازة غير الرقيق المملوكين لقبيلة مسوفة الذين ينقبون عن الملح . وهم يعيشون على التمر المستورد من دراعة وسيجلماسة ، وعلى لحم الأبل ، وعلى الدخن المستورد من بلاد الزنوج . ويأتى الزنوج من بلدهم وينقلون الملح من هناك . ويأتى حمل البعير من الملح بثمن من ثمانية الى عشرة مثاقيل * . وفى مدينة مالى يباع الحمل بعشرين أو ثلاثين ، وأحياناً يصل الى أربعين ، ويستخدم الزنوج الملح كوسيط فى المبادلة ، كما يستخدم الذهب والفضة (فى الاماكن الأخرى) .

---

* فى نهاية القرن السادس عشر ، كان المثقال ، وهو قرابة 1/8 الأونس من الذهب ، تساوى قيمته 3000 كورى فى تمبكتو . وفى سنة 1912 ارتفعت قيمته الى حوالى 12000 كورى . (الكورى ودعة أو صدفة صفراء تستعمل كعملة فى بعض بلدان أفريقيا وآسيا . اضيف شرح الكورى من قبل المعرّب لزيادة الايضاح) .

وهذه الاعمال الجارية فى تاغازة ، على الرغم من تفاهتها ، تبلغ رقماً ضخماً من مئات الارطال من الذهب [2] .

أما ليو الأفريقى الذى مر بتاغازة وهو فى طريقه الى السودان ، فقد رسم صورة اكثر تلويناً واشد اثارة عن هذه المنطقة المنعزلة وعن سكانها وما هم عليه من البؤس . فقد كتب :

فى هذه المنطقة قدر كبير من الملح المستخرج بالحفر ، وهو انصع بياضاً من الرخام . ويستخرج هذا الملح من بعض الكهوف او الحفر وتقوم عند مداخلها الاكواخ التى يعمل اصحابها فى مناجم الملح . وجميع هؤلاء العمال هم من الاجانب ، وهم يبيعون الملح الذى يستخرجونه بالحفر الى بعض التجار الذين ينقلونه على الجمال الى مملكة تمبكتو ، ولولا ذلك لحصلت ندرة شديدة من الملح . وليس لهؤلاء الذين يحفرون ويستخرجون الملح من طعام أومؤونة غير التى يجلبها اليهم التجار . فهم بعيدون عن الاماكن المسكونة بما يقرب من مسيرة عشرين يوماً . وفى احيان كثيرة يهلك هؤلاء لفقدان الطعام عندما لا يأتى التجار اليهم فى الوقت المناسب . وفضلاً عن ذلك فان الرياح الجنوبية الشرقية تسبب لهم العمى غالباً ، فهم يعيشون هناك وحياتهم محفوفة باخطار جسيمة . وقد بقيت انا نفسى بينهم ثلاثة أيام كنت خلالها مرغماً على شرب الماء المالح المستخرج من بعض الآبار التى لا تبعد كثيراً عن مناجم الملح [3] .

وفى هذا القرن ، أى السادس عشر ، كانت المناجم يشتغل فيها ا رقيق من الزنوج لمصلحة البدو من قبيلة مسوفة .

وبالرغم من بعد تاغازة عن السودان وقربها من المغرب ، فيبدو أن المناجم لم تكن فى يوم من الأيام قد خضعت لحكام مراكش أو فاس . ولعلّ ذلك لم يكن بمهم ، لأن قبيلة المسوفة كان لها كل الحق فى رعاية التجارة التى تدر عليها خيراً كثيراً . فالى جانب ارباحهم من بيع الملح تضاف الرسوم والاشكال الأخرى من الابتزاز التهديدى التى تفرضها عادة القبائل الصحراوية

على القوافل المارة ببلدهم * . وفى هذا الوقت كانت قبيلة المسوفة من اتباع السونجاى الذين تقع فى اراضيهم مناجم الملح وكانوا حريصين على الاحتفاظ بسيطرتهم عليها .

وما كان المغربة يتخوفون من انقطاع تجارتهم مع السودان ، ومع ذلك فان الاستيلاء على تاغازة كان ذا نفع عظيم من وجهة واحدة بالقياس اليهم ، فهو يتيح لهم سيطرة اكبر على سوق الذهب . وربما كان احجامهم عن السيطرة على مناجم الملح يعود الى تخوفهم من التدخل فى الأمور السياسية الصحراوية وخشيتهم من اثارة الغارات الانتقامية على المغرب . وعلى أية حال ، ففى عام 1546 ، حاول محمد الشيخ * ، ابو المنصور ، أن يقنع اسحق عشقية ، الذى كان آنذاك حاكماً على السونجاى ، بالتخلى له عن المناجم . وقد رد اسحاق مظهراً عجبه من هذا الاقتراح الغريب وصدوره من حاكم كبير بمنزلة الشريف ، وجاء فى رده «ان اسحاق الذى يصغى الى هذا الاقتراح ليس انا . واسحاق الذى يصغى اليه لم يولد بعد» . ولم يكتف عشقية بهذا الرفض المشحون بالازدراء . فقد ارسل الفين من الطوارق للاغارة على مقاطعة دراعة المغربية التى تقع فى التلال السفحية من جبال الاطلس وفى غرب سيجلماسة . وكانت الاوامر أن يسلبوا من البلاد اكبر ما يستطيعون ، وأن يمضوا فى السلب حتى اسوار مراكش إن كان ذلك ميسوراً . ولم يذهب الغزاة أبعد من دراعة ، ومع أنهم أنزلوا خراباً كبيراً فقد حرصوا على أن لا يقتلوا أحداً . ويظهر أن اسحاق قد فرض هذا القيد غير العادى لأنه لم يرد أن يثير حرباً مع الشريف[4]. وقد أفلح فى هذا، ولكن بعد عشر سنوات انتقم محمد منه . فقد أرسل مفرزة للإغارة على تاغازة فقتلت حاكمها من السونجاى وعدداً من الطوارق الذين بوغتوا وهم يحمّلون جمالهم بالملح . والطوارق

---

* فى زمن ليو كان الصنهاجة يفرضون رسماً يعادل قيمة دوقية (دوكات) واحدة من الملابس أو القماش على كل حمل بعير يمر ببلدهم بين تاغازة ووالاتة .

* يقول السعدى خطأ إن الشريف كان آنذاك احمد العادج . فهذا الأخير قد خلفه محمد اخوه فى عام 1540 ، أى بعد اعتلاء عشقية اسحاق العرش .

الذين نجوا من المذبحة اخبروا عشقية أنهم يعرفون مستودعاً آخـر للملح فى الصحراء . وسموا ذلك المكان تاغازة الغزلان ، ويبدو أن ذلك كان فى غالب الظن تاودينى Taodeni [5] .

وحينما ارتقى المنصور العـرش ، كان اسحق عشقيـة ما زال على قيـد الحياة ، ولكن داود عشقية خلفه بعد فتـرة وجيزة من ذلـك . ولقد مضى زمن طويل وما دار حول تاغازة شىء من الاضطراب ، وكانت منزلة المغاربة تسمو شامخة على أثر الانتصار الذى احرزوه فى معركة القصر ، ولذلـك فقد وجـد المنصور الفرصة مناسبة للقيام بترتيب مفيد مع اسرة عشقية فاقتـرح على داود أن يؤجره المناجم لمدة عام واحد . ومن المحتمل أن عشقية ادرك أن الشريف يتمتع الآن بقوة ملحوظة تكفى للاستيلاء على تاغازة والبقاء فيها ان شاء ذلك ، فوافق على الطلب وبذلك اقيمت علاقات ودية بين القطرين [6] .

ولم يكن قد مضى على خلف داود ، محمد الحاج ، سوى بضعة اشهر من تسلمه العرش ، حينما وصل الى جاو سفير من الشريف يحمل هدية جميلة الى الملك عشقية الجديد . وقد لقى السفير ترحيباً حماسياً وعاد الى الشريف حاملاً معه الهدايا من الرقيق (بينهم ثمانون من الخصيان) ، وطيب الزباد ، وغير ذلك من المنتجات النادرة . ولم يعتقد ملك السونجاى أن الزيارة كانت تصـرفاً بـريئاً دعت اليـه آداب المجاملة ، بـل تصورهـا من قبيل الاسـتطلاع العسكرى .

ومن المحتمل أن المنصور قد بدأ يخطط لغزو السودان بعد فترة وجيزة من ارساله الحملة التأديبية ضد واحات طواط وجورارين التى بينت له الامكانية فى تحـريك اعـداد كبيرة من الجنـد حـول الصحـراء [8] . ان الهجـوم على السونجاى يستلزم القيام بمسيرة صحـراوية اطـول من تلك الحملة بمراحـل كثيرة جداً، ولكن المنصور اعتقد أنها ممكنة. وقد التزم العفرانى، المؤرخ المغربى ، جانب الصمت عن هـذا الجزء من حكم المنصـور ، ولذلـك فلا يعرف إلا القليل عن الاستعدادات لهذا الغزو . ومع ذلك فلا مجال للشك فى

أن ثلاثة الآلاف ذراع من القماش الانكليزى التى وصلت مراكش فى فبراير 1584 ، والتى كانت قد طلبت «لتبطين خيام حملة البنادق فى الجيش المنتصر» انما قد طلبت خصيصاً لهذا المشروع العظيم الذى كان المنصور فى سبيل اعداده [9] .

وبحسب ما يرويه السعدى، لم يمض زمن طويل على عودة سفير المنصور من السونجاى حتى وصلت الانباء الى جاو أن جيشاً من الشريف قوامه 20,000 رجل قد تم ارساله الى السودان . وقد أمر قائد الجيش أن يتبع طريقاً غير مباشر من خلال وادان فى الجنوب الشرقى من موريتانيا (وكان البرتغاليون قد احتلوها مرة فى الماضى) ومن هناك يجب عليه أن يتوجه الى نهر السنغال الأعلى ، ويستولى على كل ما يستطيعه من المدن ، ومن ثم يهاجم تمبكتو [10] . ومع أنه لا توجد اشارة عن هذه الحملة فى كتاب العفرانى ، فان اخبار السعدى تشتمل على بعض التأييد عنها ، كما يرويها جوليان C.A. Julien فى فقرة غريبة منشورة فى (تاريخ الاسرة السعدية بقلم مستعار) . وتشير هذه الوثيقة الى حصول تمرد فى الجيش المغربى وان المنصور قد عاقب المتمردين بارسالهم فى حملة الى السودان ، وأنه فى الوقت نفسه قد أمر الدليل الذى يرافقهم أن يتخلى عنهم فى وسط الصحراء . ومن بين هذه الجموع لم يفلح فى النجاة سوى شخص واحد . ويتساءل جوليان : «أليست هذه هى الرواية او الصيغة الرسمية او شبه الرسمية لكارثة نجمت عن حملة سيئة فى تصورها واعدادها ؟» [11] .

وأرسل المنصور بعد هذا ، احد قواده ومعه مئتان من حملة البنادق الخاصة (القربينة) للأستيلاء على تاغازة . ولما وصلت الحملة وجدت أن ما يقرب من جميع السكان ، وكان اغلبهم من الرقيق الزنوج ، قد لاذوا بالفرار . لقد كان انتصاراً اجوف ، فعدم وجود الزنوج يعنى ان المناجم لا يمكن استغلالها ، وليس هناك جدوى من الاستيلاء عليها . وللتأكد من هذه النتيجة عمد داود عشقية الى منع جماعته من العودة الى تاغازة . واضطر المنصور الى

تـرك المناجم ، وبما أن السونجاى لم يجـرؤوا على العـودة اليهـا فقـد ظلت مغلقة [12] .

وكان اغلاق تاغازة امراً سيء الوقع على اهالى النيجـر الأعلى ، ولكنه أدّى الى تنميـة مناجم الملح فى تـاودينى . وتفضل تـاودينى على تاغـازة من ناحيتين : فهى اقرب الى تمبكتو بما يعادل مائة ميل ، كما ان مستودعاتها مـا كانت قد مست حتى ذلك الوقت ، على حين أن تاغازة كانت تستغل منذ اكثر من ست مائة سنة . ونتيجة لـذلك تـركت تاغـازة تمامـاً ، ولكن المناجم فى تاودينى ظلت تستغل حتى هذا اليوم [13] .

وفى خلال هذه الفترة كان الشريف منهمكاً كثيراً بالشئون الخارجية ولم يكن لديه الـوقت الكافى لبحث خـططه بشأن السونجاى . فقـد كان الاسبـان والاتراك يتطلعون بنهم الى لاراش ، ولكنه ابدى براعة فائقة فى اثارة بعضهم على البعض الآخر . وذهب الى حد أنه وعد بتقـديم لاراش الى فيليب على شرط هدنة من عشرين سنة . ولكنه انكر الاتفاق حالما وقعته اسبانيـا . وكان يبدى نفس الشعور من فقدان الثقة فى معاملاته مع اليزابث ، فقد امتنـع عن تنفيذ وعده بتقديم المزيد من العون الى دون انطونيو . ولكن بالرغم من هذه وغيرها من مصادر القلق العديـدة فان المنصـور لـم ينثنِ أو يهن فى تصميمه على غزو السودان وقهر السونجاى .

الفصل التاسع عشر

جيش الصحراء

« شربة ماء أفضل من كسرة خبز »

مثل مغربى

فى سنة 1589 عندما كان المنصور فى فاس يحاول عبثاً القضاء على تمرد نشب فى شمال العاصمة ، وصل الى قصره رسول من مراكش ، وهو يحمل رسالة اليه . كان كاتب الرسالة ألد كيرنفل Uld Kirinfil ، وهو زنجى من السودان كان الحاكم عشقية Askia ، اسحق الثانى ، قد نفاه الى بلدة تاجهازا Taghaza . ومن هناك هرب الى مراكش . ولما خاب أمله فى العثور على الشريف ، فقد كتب الرسالة مبيناً أنه أخو عشقية الأكبر ، وزاعماً أن هذا قد اغتصب منه العرش . وقد التمس من المنصور أن يناصره ووعد بمكافأته مكافأة سخية * (1) .

* توجد اربعة مصادر رئيسة حول غزو المغرب للسودان . فمن الجانب المغربى بين ايدينا رواية موجزة كتبها العفرانى من مؤرخى القرن الثامن عشر . ويمكن اكمالها بالرواية الممتعة الخاصة بالمرحلة الأولى من الحملة التى كتبها اسبانى مجهول الأسم كان موجوداً فى المغرب فى ذلك الوقت . ومن الجانب السودانى لدينا مرجعان : تاريخ السودان بقلم عبد الرحمن السعدى ، وتاريخ الفتاش بقلم محمود ماتى . وكان السعدى قد ولد فى تمبكتو فى سنة 1596 ، اما محمود الكاتى فقد توفى فى تمبكتو سنة 1593 عن عمر يبلغ مائة وخمساً وعشرين سنة . وتنتهى رواية السعدى فى سنة 1653 . اما رواية محمود الكاتى ، التى انجزتها أيادٍ اخرى ، فقد انتهت بسنة 1599 .

ومع أن ألد كيرنفل قـد انتحل تلك المـزاعم ، فان رسـالته قـد زودت المنصور بالحجة والذريعـة للاسـراع وعدم التـأخر فى غـزو السودان . ولكن توجب عليه أن يتحرك بحذر بالغ . فهو لا يستطيع المبالغة فيما يطلبه من شعبه الذى يجنى أموالاً طائلة من التجارة مع السودان ، وهذه الحملة سوف تعرقل حتمـاً انتظام التجـارة وربما قضت عليهـا . وتبعاً لمـا رواه السعدى فـان هذا العمل المقيت قد كلف الشعب فقدان أحد جيوشـه فى الصحراء ، وأن أيـة محاولة لأرسال جيش آخر قد يثير مشاعر التمرد التى ظهرت حديثاً فى فاس ، والتى ما زالت تتجمع فى الخفاء وتحت السطح . ولذلك فقـد دعا الشـريف حكماء القوم فى مملكتـه الى الاجتماع . فلبى دعـوته الـوزراء ، والحكام ، ورؤساء القبائل المهمة ، وطلب اليهم أن يؤازروه فى حملتـه التى كان يتـوق كثيراً الى شنها . وقد أخبرهم أنه قد عزم على مهاجمة أمير جاو ، الحاكم على السودان ، لكى يوحد قوى الاسلام ، ويجمعها تحت رايـة واحدة . أن فتـح السودان الذى كان معروفاً بغناه الواسع ، سوف يعزز كثيراً جيوش الاسـلام ، وسوف يكون مفخرة يعتز بها حقاً جميع المؤمنين . وأعلن أخيراً ، أن اسحاق لا تتوفر فيه الصفات اللازمة لتولى الحكم ، وفوق ذلك فانه لا ينتمى الى قبيلة قريش ، وهذا يعنى أن ليس له حق فى الحكم أبداً .

وأبـدى المستشارون تخـوفهم وقلقهم ، وقرروا بـالاجمـاع معـارضتهم للخطة وبينوا الأسباب والحجج . فـذكروا أن بين بـلادهم والسودان صحـراء واسعة لا ماء فيهـا ولا مراعى وطـرقها لا تـلائم أبداً لمـرور الجيوش منهـا . وبالأضافة الى ذلك أوردوا المخاطر والأهوال الأخرى التى تتردد أشباحهـا فى الصحـراء ، وعلى رأسها الـطوارق . فما من أسـرة مالكـة من الأسر الثـلاث السابقة ، بالرغم من نفوذها وقدرتها قد فكرت لحظة واحدة فى الأقـدام على مثل هذا المشروع المحفوف بالأخطار ، ولذلك فقد اعترفوا بأن الخطة محكوم عليها بالفشل لا محالـة . وانتهوا من كـلامهم بلزوم الاسترشـاد بمواقف تلك الأسر لأنهم ليسوا اليوم بأوسع حكمة من أجدادهم الماضين .

أمـا المنصور فقـد ازدرى بمخاوفهم وسخـر منها . ورد عليهم بـالقول

«انكم تتحدثون عن الصحـراء الخطرة التى علينـا أن نقطعهـا ، وعن العزلـة الموحشة والمهلكة فيها ، وعن انعدام المياه والمراعى ، ولكنكم نسيتم التجار الذين لا ناصر لهم ولا يحملون سوى أبسط الأدوات ، والذين يجتازون على الدوام هذه القفـار التى لا تنقطع القـوافل ابـداً عن عبورهـا . فكيف بى وأنا أحسن جهازاً وعدة منهم ، إنه فى مقدورنـا حقاً أن نقـوم بنفس العمل ومعنـا جيش يزرع الرعب أينما سار وارتحل . أما قولكم أن الأسر السابقة لم تفكـر أبداً بمثل هذا المشروع الذى أعرضه ، فأنكم تعلمون حق العلم أن المرابطين كانوا منهمكين كلياً بفتح بلاد الأندلس وبـالمنازعـات مع المسيحيين . وكـان الموحدون مشغولين على نفس المنوال ، وكان عليهم أيضاً أن يحاربوا البـدو من الصنهاجة . وأخيراً فان المرنيين كانوا منهمكين فى مقاتلة عبد الوديد فى تلمسان . أما اليـوم فان الـطريق الى بلاد الأنـدلس قد سـدّ فى وجوهنـا لأن أعداءنا من الكافرين قد فتحوا البلاد كلها ، ولم نعد فى حرب مع تلمسان أو مع بقية مملكة الجزائر ، فكلها أصبحت فى أيدى الأتراك . وبـالأضافـة الى ذلك لو أن أسلافنا حاولوا أن يفعلوا ما نرومـه الآن لوجـدوا صعوبـة ومشقات بالغة ، ذلك أن جيوشهم كانت تتألف من الخيالة المزودين بالرماح والسهام وما كانوا يعرفون البارود ، أما نحن فلدينا أسلحة نارية ولها آثار مخيفة ومروعة . وليس لدى السودانيين فى الوقت الحاضر سوى الرماح والسيوف ، وهى أسلحة عديمة الجدوى فى مقابل الاسلحة الحـديثة . ولـذلك فمن السهـل علينا أن نشن حرباً ناجحة على هؤلاء الناس وأن نتغلب عليهم . وأخيراً فـان السودان أغنى من المغـرب ، ولذلـك فان فتحـه سيأتينـا بمنافـع أكبر ممـا لو أخـرجنا الأتراك ، وهو أمر يستلزم جهوداً عظيمة ليس من ورائها سوى مكاسب طفيفة . فلا تدعوا احجام أسلافنا يحملكم الى أن تعدوا ما هو فى متناول اليد بعيداً ، وأن تعدوا ما هو سهل وميسور صعباً وعسيراً» .

وكان لكلام الشريف أثر ملحوظ فى سامعيه . فقد كسبهم الى جانبه ، بل أنهم تحمسوا له ، وتفرقوا وهم يتحدثون بصوت خافت يستبين منه الرضا . ويعبر عن ذلك مـا أورده هوداس M. Houdas « أن نفـوس الأمراء لهى أمـراء

النفوس » . واستطاع الشريف بعد ذلك أن يعد التحضيرات الفعالة للشروع بحملته العظمى على السودان (2) .

لقد كانت حملات المغاربة ، مثل معظم الحملات الشرقية ، تعتمد فى انتصارها على التفوق العددى الساحق أكثر مما تعتمد على نوعية الجنود وأجهزتهم . وكان هذا قد حقق نجاحاً بارزاً فى معركة القصر Al^ Ksar ولكن غزو بلاد السونجاى استلزم أسلوباً يختلف كل الاختلاف . فقبل الوصول الى بلاد السونجاى لا بد من عبور الصحراء . وهذا الأمر الذى يعد أصعب جانب فى الحملة كلها لا يسمح باستخدام الأعداد الكبيرة من الجنود . ومن الواضح أنه كلما قلت القوة المرسلة زاد الأحتمال فى وصولها الى بلاد السونجاى . ولذلك فقد كانت الحاجة ماسة الى حملة صغيرة ولكنها على جانب كبير جداً من الفعالية والكفاءة ، بالاضافة الى تجهيزها بأفضل المعدات ووسائط النقل . وإذا تم الوصول الى أرض السونجاى فان التفوق العددى سيكون كله الى جانب العدو . ومع ذلك فقد كان من المعقول الذهاب ، الى أن تفوق المغاربة فى السلاح ، وبخاصة أسلحتهم النارية ، من شأنه أن يصحح التفاوت . على أن المقابلة الأولى مع العدو اذا انتهت فى غير صالح المغاربة فان الوضع قد يتدهور بسرعة تدفع الى اليأس . فليست لديهم احتياطيات يستدعونها ، وليست لهم قاعدة ينسحبون اليها . ولذلك ، فان كل شىء سوف يعتمد على إحراز نصر مبكر وحاسم يرجح أن يكون أمام أعداد ضخمة من الأفراد . ويمكن التوصل الى تحقيق هذا الغرض بارسال أقوى الجنود وأكثرهم ولاءً وانضباطاً . وقد كان المنصور مستحضراً فى ذهنه مخاطر السير فى الصحراء ، ومخاطر المجابهة الأولى مع العدو ، حين قرر أن يكون كل شىء يرسل الى السودان ، سواء أكان من الرجال أو الحيوان ، أو من الاسلحة أو الذخيرة هو من أفضل الأصناف .

أن الكثير كان يتعلق بالعثور على قائد يناسب هذا الغرض . وقد وقع اختيار المنصور لهذا المنصب المهم على قائد شاب مخصى اسمه جودار . كان اسبانياً أزرق العينين من لاس كوفاس Las Cuevas فى غرناطة ، وكان قد

أسر وهو طفل (أثناء غارة من القرصان على الشاطىء الاسبانى) وربى حتى بلغ أشده فى القصر الملكى فى مراكش . كان اختياراً أثار الدهشة ، فقد كان جودار حتى ذلك الوقت ، فى حدود علمنا ، لا يعرف شيئاً أو إلا القليل جداً من تجارب الحملات . كان جابياً متميزاً يحسن جمع الضرائب . ويبدو أن أمانته وقدرته على التنظيم وهما صفتان مرغوبتان كثيراً فى من يتولى القيادة ويصبح بحكم الضرورة بعيداً عن سيطرة الشريف وهو فى ساحات الجدال ، كانت من العوامل التى أخذت فى الحساب عند ترشيحه. وكانت التعليقات المعاصرة ، بالرغم من اشتمالها على الدهشة ، توحى بأن اختياره كان مبنياً بالدرجة الأولى على فتوته وشبابه .

ورقى جودار فوراً الى مرتبة الباشوية . وكان تحت أمرته عشرة من القادة ، كان أربعة منهم من الأوربيين الذين تخلوا ايضاً عن عقيدتهم السابقة طوعاً أو بالضغط والأكراه . وكانت القوة التى عهد بها الى جودار تتألف من 4000 مقاتل من الاقوياء الذين اختيروا بصفة خاصة لما كانوا عليه من الانضباط ، والصلابة ، والشجاعة . وكان بينهم 2000 من المشاة المسلحين بنوع من المدافع كان قد اخترع فى القرن الخامس عشر ، وكان نصفهم من الأندلسيين (المغاربة الأسبان الذين هاجروا الى المغرب) ونصفهم من الذين تخلوا عن عقيدتهم السابقة ، وقد كان معظمهم من أسرى الحروب ومن الفقراء العاجزين عن تقديم الفدية لتحرير أنفسهم . وكان بينهم ايضاً 500 من الفرسان الذين يحملون ذلك الصنف من المدافع . وكانوا جميعاً تقريباً من الذين تركوا عقيدتهم السابقة . أما البقية فالمحتمل أنهم كانوا أتراكاً من الجزائر قد ألفوا ترك وحداتهم والانضمام الى جيش الشريف . وبالأضافة اليهم كان الى جانبهم 1500 من الفرسان المسلحين بالرماح وكانوا جميعاً من المغاربة . وكان قسم المدفعية يشتمل على ستة مدافع من الحجم الكبير وعدة قطع من الحجم الصغير ، وكان كل اثنين منها يحملان على جمل واحد . ومن المؤكد تقريباً أن ضباط المدفعية كانوا فى الغالب من أصل أوربى ، ويحتمل أن آمريهم كانوا من المسيحيين الأحرار الذين كانت تدفع اليهم

رواتب عالية فى خدمتهم بجيش الشريف .

وتـورد الأخبار أنـه قبل نصف قـرن كان الفـرنسيـون الـذين تخلوا عن عقيـدتهم يصبون المـدافع للمغـاربة [3] . وكـان بين صفوفهم ايضـاً سبعون مسيحياً يحملون نوعاً من البنادق الكبيرة الحجم ، كانـوا قد اختيـروا من بين أسرى الحرب ، وهؤلاء هم من الذين بقوا بعد معركة القصر ، وكانوا يأملون فى أن تدفع عنهم الفدية يوماً ، ولـذلك لم يـرتدوا عن دينهم . وكـان جودار يعلق أهمية كبيرة على تواجد جماعة من الجنود المسيحيين لديه ، يستخدمهم على الراجح ضمن الحرس الشخصى ، وقد شعر بالخيبة حين رفض الشريف أن يوافق على مده بجميع العدد الذى طلبه منهم وهو مائتان .

وهذا التشكيل من جيش جودار يبين بجلاء ضآلة ثقة المنصور فى اتخاذ جنوده من صفوف أبناء جلدته . فمن بين 4000 رجل لم يكن سوى 1500 فارس من أهالى المغرب . وكان معظم البقية من الأندلسيين أو الأوربيين المرتدين ، وكان هؤلاء يؤلفون معاً خلال مـدة طويلة العمـود الفقرى أو الاسـاس لجيش الشريف * . ومن الجدير بالذكر أن الأسبانية كانت هى اللغة الرسمية لقـوات جودار .

وكانت جماعة غير المقاتلين التى ترافق الجيش تتألف من 600 شخص يعرفون أمور التحصينات و1000 من سواق الأبل . وكانت حيوانات النقل تتألف من 8000 جمل و1000 حصان لحمل المتاع . واستناداً الى ما أورده العفـرانى

---

* ان الاوربيين الـذين كانـوا يخدمـون فى جيش الشريف خـلال ذلك الـوقت لم يكونـوا بحكم الضرورة من المرتدين . وتبعاً لما يورده جون هاريسون ، كان مولاى عبد المالك ، وهو سلف المنصور ، يرغم الفتيان الانكليز على التحول الى مغاربة ، وذلك بقطعهم واخصائهم ، غير أنه (كما يقولون) قد ندم على ذلك من بعد ، وصار يقول إنه لن يرغم الانكليز على التحـول الى مغاربة ، لأنه وجد انهم يخدمونه كمسيحيين افضل مما لو كـانوا مغـاربة ، فبقـاؤهم مسيحيين يعنى أنهم سيقفون الى جانبه ويظلون معه ، اما اذا كانوا مغاربة فـانهم يهربـون منه اذ لـديهم المزيد من الحرية والفرص (4) .

فقد بذل فى اختيار الحيوانات من العناية ما بذل فى اختيار الرجال . فقد ركب الفرسان أفخر ما يمكن الحصول عليه من الخيول المناسبة للقتال ، واختيرت أحصنة الحمل من أفضل السلالات ، أما الجمال فقد اختيرت لقوتها وسرعتها [5] .

قد يبدو أن تسعة آلاف حيوان للنقل ذخيرة مفرطة لأربعة آلاف نفر ، ولكن لا بد من التذكر أن أمامهم مسيرة تقدر بنحو 1500 ميل ، بينها مراحل ومحطات طويلة يتوجب فيها عليهم أن يعتمدوا فى مائهم ، وطعامهم ، وعلفهم على ما يحملونه معهم*. وقد اشتملت الذخيرة بالاضافة الى القُرَب من جلود الثيران للمياه ، على 180 خيمة ، و31000 رطل من بارود المدافع ، ووزن مماثل من الرصاص ، وكميات من الخوذ ، والطلقات ، والخراطيش ، والقار ، والحبال ، والفؤوس ، والمساحى ، والعديد من المواد والأدوات الأخرى . وفوق ذلك فقد جمعوا ما يلزم من الطعام للانسان والحيوان ـ كالقمح والذرة ومقادير ضخمة من التمور المكبوسة .

أن المصدر الأساسى لمعلوماتنا عن جيش الصحراء وأجهزته هو شخص اسبانى كان يعيش آنذاك فى مراكش ، ومن المحتمل أنه كان واحداً من عملاء فيليب فى بلاط الشريف . ويستخلص من أقواله أنه قد بذلت جهود مضنية لكى يوفر لتلك القوة أفضل ما فى البلد من الرجال والمعدات .

وكان على المنصور أن يفكر ايضاً فى الطوارىء التى قد تنشأ قرب بلده بعد أن تمضى الحملة الى مكانها البعيد . فقد كان محاطاً بجارين مخيفين ، هما اسبانيا وتركيا ، فلو التفتا اليه لوجداه قد التزم بحملة أخرى يتعذر عليه الانسحاب السريع منها . ويبدو أن الأتراك قد تخلوا عن آمالهم فى الحصول على مكاسب أقليمية أخرى فى أفريقيا ، ولكن من العسير أن يوثق بهم .

---

* فى سنة 1821 أرسل الباشا فى طرابلس حملة عسكرية من 2000 من الفرسان و 500 من المشاة لقطع الصحراء الى بورنو . وكانت تجهيزات النقل على اساس جمل واحد لكل اثنين من المشاة ، وجملين لكل فارس وجواده[6] .

وكانت العلاقات بين المنصور ومراد متوترة أكثر من أى وقت مضى . وإصرار المغاربة على أن خليفتهم ليس السلطان العثمانى ، بل هو الشريف القائم على بلادهم ، كان مثاراً للمشاعر المرة فى استمبول . وبالرغم من ذلك فقد كان من عادة المنصور أن يرسل هدية سنوية الى مراد . وكان هذا الأخير قد أوضح أنه يعدها من قبيل الجزية ، وهو أمر أزعج المنصور كثيراً الى حد أنه تخلى عن ارسال تلك الهدية المعتادة ، وبهذا الوجه ازداد شعور الأتراك بالسخط على الشريف .

ومن الناحية الأخرى كانت علاقات المنصور باسبانيا قد سارت فى طريق التحسن . ويعود هذا جزئياً الى أن فيليب لم يعد يثير المخاوف كما كان من قبل ، منذ هزيمة الأرمادا على يد الأنكليز . وبما أنه كان يأوى سراً فى لشبونة اثنين من المطالبين بعرش المنصور فلم يكن مقدراً أن يوثق به أكثر من الثقة بمراد . وهكذا يتراءى أن غزو السودان قد يحمل أحد الطرفين على مهاجمته . وكان أكثر الاخطاء تصوراً هو احتمال مهاجمة فيليب أو اخطار مدينة لاراش من البحر . ومن المحتمل أن ذلك يفسر طلب سفير الشريف فى لندن الأذن باستخدام عدد من النجارين وصانعى السفن الأنكليز ، « لبناء بعض السفن والمراكب الحربية فى أوقات الحرب . . . » وقد حصل هذا فى مارس سنة [7] 1589 .

وبعد شهر من هذا التاريخ وقع هجوم فاشل على لشبونة بقيادة دريك Drake ونوريس Norris ، وقد اعتبرت الملكة اليزابث أن المنصور يتحمل جزئياً الملامة لهذا الفشل . فقد وعد بارسال الأمدادات للأسطول الأنكليزى ولكنه لم يفعل [8] . ومع ذلك فقد ارسلت اليزابث مبعوثاً خاصاً الى مراكش تطلب مساعدته فى الهجوم الثانى على لشبونة ، وكانت تخطط لشنه خلال الشتاء التالى . ولكن مبعوثها استقبل ببرود ورفض طلبها [9] . وبالرغم من هذا الموقف الحاد فقد جددت الملكة طلباتها على الشريف حتى يساعد دون انطونيو Don Antonio الذى كان يتمتع بحمايتها . وفى 23 يونية سنة 1590 كتب المنصور اليها معتذراً عن اهماله سفيرها الملحاح بسبب انشغاله بالحملة التى

كانت على وشك أن تغادر الى السودان فى بحر بضعة أيام [10] .

ولكن وجب التريث حتى 16 أكتوبر حيث حلّ أفضل المواسم لعبور الصحراء ، وعندها تحرك جودار باشا وترك مراكش على رأس جيش الصحراء . كان منظراً مهيباً ملأ الشريف عزة وافتخاراً . وبالرغم من أن المعتاد فى مسيرة الجيوش المغربية أن تنطلق بلا نظام ولا ترتيب . فان المنصور كان يستعرض صفوفاً أحسن تدريبها وانضباطها (وإن كان معظمها من الأوربيين) . وكانت من أحسن الجيوش المغربية التى ارسلت حتى الآن الى ميادين القتال من حيث الأجهزة والمعدات ، وكانت مصممة وواثقة من النصر فى المهمة العظيمة التى ظلت سنوات عديدة تشغل باله .

قاد جودار قواته باتجاه الجنوب ماراً بالأطلس Atlas الى أقليم دراعة وأقام معسكره فى بلدة لكتاوة حيث يمتلك المنصور فيها داراً لضرب المسكوكات الذهبية التى يأتى ذهبها من السودان . وكان فى انتظار الجيش هناك الذخيرة وحيوانات النقل التى جمعت من القسم الريفى الزاخر بالقمح والتمور والمراعى الخصبة . وفى هذا المكان ايضاً ، وعلى عتبة الصحراء أنجزت الاستعدادات والتحضيرات الأخيرة لمسيرة الصحراء . وعندما أصبح كل شىء جاهزاً ملئت القرب الجلدية بالماء ، ووضعت أزواجاً على الجمال . ثم بدأت المسيرة الكبرى وتوارى الجيش فى داخل الصحراء .

وبعد أن مضت عدة أشهر بدون أى خبر عن جودار ، ظهر فجأة من الصحراء جمّال ساخط يتشكى ، كان من الطوارق بلا ريب ، وكان ينوى عرض شكواه على الشريف . لقد كان يرعى جماله آمناً بالقرب من أراوان Arawan ، على بعد مسيرة أيام قلائل فى شمال تمبكتو ، وعلى حين غرة ظهر فى الأفق جودار وجيشه وطردوا حيواناته . وما من شكوى قد حظيت بالترحاب فى قصر ملكى اكثر من شكوى هذا الرجل . ذلك أن قصته تبين بجلاء أن جودار قد عبر الصحراء .

*****

ومن سوء الطالع أننا لم نحصل على شىء من الأخبار الخاصة بمسيرة

جودار في الصحراء . ليس هناك من شك حول الطريق الذى سلكه ، ولكنا لا نعرف شيئاً عما حصل له خلال المسيرة ، وعما فقد من الأرواح البشرية ، وإن كان من الجائز أن نستنتج ، كما سوف نرى ، أن خسائره كانت فادحة جداً .

إن بقاء الجيش على قيد الحياة ، ولا نقول نجاح الخطة ، كان يعتمد دائماً على عثورهم على الماء للتعويض بصورة كافية عما كانوا يحملونه فى القرب الجلدية . وعلى هذا الأساس فان الاعتبارات العسكرية ، كسرية التحرك ، وعنصر المباغتة ، سوف تخضع لهذه الحاجة الملحة . لم يكن لديهم أمل فى خطة سرية ، ذلك أن إعتماد جودار على الآبار قد أرغمه على سلوك طريق تجارى معروف خلال ذلك الفصل من السنة حيث تكثر فيه القوافل التجارية . كان الطريق الوحيد هو الطريق القديم الذى يسلكه تجار الذهب ، وهو يمر الى الجنوب من لكتاوة وعبر تاغازا Taghaza وتودينى الى والاتا . ولم يكن أمام جودار من خيار غير سلوكه هذا الطريق خلال القسم الأكبر من مسيرته الى النيجر . وعند تودينى أو حوالى ذلك كان الطريق الرئيس يتجه الى الجنوب الغربى نحو والاتا . وقد واصل جودار سيره باتجاه الجنوب متبعاً طريقاً أقل أهمية الى تمبكتو ، يمر بأراوان حيث استولى على جمال بعض الأشخاص ، كما رأينا من قبل . وبوصوله الى أراوان حيث يحتمل أنه أنفق شهرين على أقل تقدير الى أن بلغها ، تكون أشد أخطار الصحراء قد تخلفت وراءه ، فمن ذلك المكان وباتجاه الجنوب تيسر أمر المياه والمراعى نظراً لأقتراب نهر النيجر .

بأية حال وصل الجيش الى أراوان، لا علم لنا بذلك. كان الجيش قوة تتألف من 5000 الى 6000 رجل من الأشداء الأقوياء، ومعهم قرابة ضعف هذا العدد من حيوانات النقل، وقد انطلقت بمنزلة جسم واحد في مسير تبلغ 700 ميل عبر بلاد تثير الرعب حقاً. لقد كانت موارد الطريق من القلة بحيث أنها ما كانت تكفى لسد الحد الأدنى من الحاجات الخاصة ببضع مئات من التجار الذين كانوا يسافرون فيه خلال أشهر الشتاء على نحو متقطع . ولم يكن بين تاجهازه وأراوان مكان واحد فيه من الماء والمراعى ما يكفى لتوفير الراحة

لجيش بمثل هذا الحجم . ولم تكن تودينى بأفضل حالاً من تاجهازه : فكل منهما لا تكفى لتأمين حياة الانسان إلا بصعوبة بالغة * . وبين هذين المكانين البائسين للتوقف توجد مراحل طويلة من القفار الموحشة يهرع عبرها فئات صغيرة من التجار الذين يغشاهم فزع دائم عندما يجدون الآبار التالية جافة وهم منهكون بدرجة لا يستطيعون فيها الذهاب الى موضع آخر .

لقد أوردنا من قبل ما ذكره ابن بطوطة عن مخاطر السفر على هذا الطريق . وما أورده ليو عن ذلك الطريق نفسه وقد سافر فيه قبل جودار بأقل من قرن ، يعد أكثر تلويناً وإثارة :

« فى الطريق الممتد من فاس الى تمبكتو نجد حفراً عديدة محاطة بجلود الجمال أو عظامها . وما من أحد من التجار يجتاز ذلك الطريق فى وقت الصيف من غير أن تتعرض حياته لأخطار جسيمة . ففى كثير من الاحيان ، وعندما تهب رياح الجنوب ، تمتلىء تلك الحفر بالرمال . وعندما لا يستطيع التجار أن يجدوا أى أثر لتلك الحفر ، ولا أى شىء يدلهم عليها أو يذكرهم بها ، فأنهم سيهلكون عطشاً . وتشاهد جثثهم بعد ذلك متناثرة هنا وهناك وقد لفحتها حرارة الشمس . على أنه لديهم علاج واحد فى مثل هذه الحالة ، وهو علاج على جانب كبير من الغرابة : فاذا ما اشتد بهم الظمأ عمدوا الى قتل واحد من ابلهم واعتصروا امعاءه للحصول على بعض الماء ، فيشربون منه ويحملونه معهم الى أن يعثروا على حفرة فيها ماء ، أو الى أن تخور قواهم ويهلكوا من العطش . وفى الصحراء التى يسمونها ازاعود Azaoad يوجد نصبان تذكاريان بنيا من المرمر ، وتوجد كتابة منقوشة على كل نصب تشير الى أن أحد النصبين يمثل تاجراً واسع الثراء، والآخر يمثل مكارياً ينقل السلع، وان التاجر الثرى قد اشترى من المكارى كأساً من الماء بعشرة آلاف مسكوكة ذهبية ، ولكن هذا الماء الثمين ما كان يكفى أياً منهما ، فقد هلك الاثنان من

---

* يورد أنه فى سنة 1910مات ما يزيد على 50شخصاً فى تودينى لتأخر وصول القافلة التى كانوا يعتمدون عليها فى حصولهم على ضروريات الحياة (11) .

شدة العطش . . . ففى بعض الأحيان يشتد ظمأ الأنسان ولا يجد قطرة من الماء ، أما لأن الدليل قد فقد الطريق الصحيح ، وأما لأن الأعداء قد قطعوا الينابيع والقنوات الى تلك الحفر والآبار . أن المقدار الضئيل من الماء الذى نعثر عليه ، كنا نقتصد بل نقتر فى استعماله الى ابعد الحدود ، فالذى يكاد لا يكفى لخمسة أيام ، كنا نضغط على أنفسنا حتى يستمر لعشرة أيام [12] .

لدينا مؤشر مباشر واحد فقط ، وهو مؤشر لا ينطوى على الوضوح الكافى ، على أنه يوحى أن خسائر جودار يحتمل أن تكون فادحة جداً . فقد ورد فى كتاب تاريخ الفتاش للكاتى ما يفيد أن القوة الأصلية ، التى كان يقدرها بدقة مقبولة ما بين 3000 و 4000 مقاتل ، لم يشترك منها سوى 1000 شخص فى تصادمها الأول مع قوات السونجاى[13] . ومع أن جودار فى تلك الظروف يحتمل أنه قد استخدم كل رجل يمكن أن يضع عليه يده ، فان بيان الكاتى لا يبرر افتراض بعض المعلقين وهو أن جميع القوة الباقية قد هلكت فى الصحراء . ومع ذلك من الجدير أن يذكر أنه فى سنة 1594 أشار لورنس مادوك ، وهو تاجر انكليزى يعيش فى المغرب ، الى أن جيشاً قوامه 1700 رجل قد فقد ثلث قوته وهو فى طريقه الى السودان . وليس بواضح إن كان يشير الى حملة جودار الأصلية أو الى جيش من التعزيزات كان أرسل من بعد . على أن معرفتنا بالمخاطر الجسيمة التى ينطوى عليها هذا الطريق ، ومعرفتنا بالخسائر البشرية المروّعة التى كانت تنزل بالجماعات الصغيرة من التجار أو الجنود فى مناسبات أخرى ، تحملنا على الاعتقاد أن جودار قد أصيب بخسائر فادحة فى الصحراء .

الفصل العشرون
غزو السودان

«الزورق ملاذ حصين ، والنهر صديق ثابت ، وكل منهما جدير بالثقة والاعتماد عليه»

ريشارد جوبسون

فى نهاية فبراير ، بعد عشرين اسبوعاً من مغادرة مراكش ، وصل جودار نهر النيجر عند كارابارا ، بالقرب من مدينة بامبا الحالية . وقد أحسن الاختيار ، فمن الناحية الستراتيجية لم يكن فى وسعه أن يجد موضعاً افضل منه . هنا يمكن عبور النيجر اسهل من أى مكان آخر على هذا المنعطف من النهر . فهذا المكان ملتقى مهم لطرق القوافل وقد سيطر عليه الآن جودار . وكان موقع كارابارا عظيم الاهمية بالقياس له ، اذ انها تقع فى منتصف الطريق بين جاو وتمبكتو ، وبعيدة عن كل منهما بمسافة ملحوظة ، وقد اتاحت له أن يؤمن حاجة جيشه الملحة الى الراحة ، وأن يعيد تنظيم صفوفه قبل أن يقدم على اشتباك واسع النطاق [1] .

وكان السونجاى يدركون تماماً نوايا الشريف العدوانية ، ولكنهم كانوا على ثقة عالية من أن حدودهم الصحراوية منيعة ويتعذر اختراقها ، ولم يخطر فى بالهم أبداً أن يستطيع حيش مغربى بلوغ بلادهم . ولذلك فقد بوغتوا وما كانوا قد اعدوا انفسهم تماماً .

وقد سمع اسحاق عشقية بطبيعة الحال انباء تحرك المغاربة قبل بلوغهم نهر النيجر بمدة وجيزة ، ولكن الطريق الذى اختاروه كان يوحى أنهم ينوون

الغزو من جهة الغرب . ولذلك فقد استعد لرد الهجوم من تلك الناحية . ثم علم من بعد أن المغاربة قد تركوا طريق والاته عند أراوان وأنهم كانوا يتحركون باتجاه الجنوب . وبهذا اتضح أنهم ما كانوا يريدون الهجوم من الغرب . ولذلك فقد سحب قواته الى جاو . ودعا الى عقد مجلس للحرب . وحصل ارتباك تام . فقد تصوّر البعض أن هدف العدو المباشر هو مدينة تمبكتو ، واصر الآخرون على أن الهدف هو بلدة جاو . واصدرت الأوامر الى المقاتلين فى جميع انحاء المملكة الى التجمع ، ولكن مجلس الحرب قد انفض بدون أن يقرر الترتيبات التى ينبغى السير بموجبها .

واتخذ اسحاق بنفسه قراراً مهماً ، ولكن جاء متأخراً فلم تكن له فاعلية تذكر . فقد ارسل اوامره الى رؤساء الصحراء بردم الآبار التى يحتمل أن يستعملها المغاربة وأن يضايقوهم بالهجمات المتكررة وبدون توقف وهم يبحثون هنا وهناك عن الماء . ولكن الأوامر لم تصل الى الرؤساء لأن حاملى الأوامر قد وقعوا أسرى فى قبضة عصابة من السلابين . كما أن البلاد لم تستجب الى حمل السلاح ، كما كان يأمل اسحق ، لأن الناس كانوا على شاكلة حكامهم ، لا يعتقدون أن بلادهم يمكن أن تهاجم من الشمال ، ولذلك لم يتصوروا أن الموقف كان خطيراً على النحو الذى اخبروا به . ولم يبادر المقاتلون الى التجمع إلا عندما انتشرت الانباء المفزعة فى البلاد أن الفلاحين المرتاعين القاطنين قرب النهر قد شاهدوا المغاربة فعلاً فى كارابارا .

وبعد أن أراح جودار جيشه بضعة ايام ، استأنف السفر ، وسار فى اتجاه مجرى النهر الى جاو . وقبل أن يقطع المغاربة مسافة طويلة هاجمهم الطوارق ، ولكنهم ردوهم على اعقابهم وشتتوهم بسهولة . وبعد مسيرة مسافة قصيرة وجدوا عدداً من الذين كان هؤلاء الطوارق السلابون قد اعتدوا عليهم . كانوا اربعة من الزنوج الجرحى . كان هؤلاء هم السعاة الذين ارسلهم عشقية ، ووجدوا المغاربة معهم الأوامر لردم الآبار فى الصحراء . ولو أن هؤلاء السعاة كانوا قد ارسلوا رأساً عند سماع اسحاق باقتراب المغاربة لكان

المحتمل أن يهلك فى الصحراء كل واحد من هؤلاء الغزاة . لقد نجوا بشق النفس .

صار المغاربة يتعرضون الآن الى مضايقة المقاتلين المحليين الذين كانوا يأتون ضد تيار النهر بقواربهم ويهاجمونهم ليلاً . ومعظم القرى فى هذه المناطق كانت مبنية على الجزر فى النهر للتخلص من غزو الطوارق ، الاعداء التقليديين للسونجاى . ولم يكن لدى المغاربة زوارق ، ولم يكن فى هذه المنطقة القاحلة خشب لصنع بعض القوارب ، ولذلك لم يستطيعوا القيام بهجوم معاكس على المغيرين، واهم من كل ذلك أن مئونتهم من الطعام اخذت بالتناقص سريعاً . وكانوا يأملون الشعور بالاطمئنان حالما يصلون النهر . ولم يفلحوا فى تخفيف الوضع إلا قليلاً بصنع الأرماث من قرب الماء وغزو بعض مخازن القمح فى الجزر الصغيرة .

وحينما كان جودار على مسيرة اربعة ايام تقريباً من جاو علم أن اسحاق عشقية كان يعمل على سد الطريق ويستعد للمنازلة . فدعى اسحاق الى الاستسلام حقناً للدماء ومنعاً لضياع الارواح بدون ضرورة ، ولكن هذا الطلب رفض، واعتبر علامة ضعف، وبذلك زاد السونجاى ثقة بأنفسهم . وفى اليوم التالى حدد جودار موقع جيش الزنوج فى تونديبى على بعد خمسة وثلاثين ميلاً تقريباً من جاو ، وقرر أن يشتبك معهم فى اليوم التالى .

وكان محمود الكاتى ، وهو من اكثر المؤرخين تحفظاً فى مثل هذه الأحداث، قد قدّر جيش السونجاى بنحو 18000 من الفرسان 9700 من المشاة [2] . أما السعدى فيقول إن الجيش كان معظمه يتألف من رماة السهام ، وأن الفرسان المسلحين بالرماح كانوا يبلغون بضعة آلاف[3] . ومع أن السونجاى كانوا يقرون بانهم مسلمون ، فقد كان لهم ايمان عميق بفنون الزنوج ، ودخلوا المعركة مصحوبين بمجموعة من العرافين . وبحسب ما اورده الكاتى كانت قوة المغاربة لا تجاوز الألف من الفرسان ، كان نصفهم من اهالى الأندلس ، وكان النصف الآخر من المرتدين عن المسيحية[4] . وقبل

بداية المعركة حاول السونجاى أن يدخلوا الأرباك فى صفوف الغزاة باطلاق حشد من الثيران عليهم، ولكن المغاربة فتحوا صفوفهم فمرت القطعان بدون ايذاء أحد .

وبدأ المغاربة المعركة ، كما هى عادتهم ، باطلاق النار على العدو من الجناحين . ومنذ البدء لم يكن فى الامر أية شبهة أو شك . فبالرغم من التفوق العددى لم يكن امام حشود الزنوج ذات الأسلحة غير الفعالة أية فرصة ازاء الاسلحة النارية والانضباط الافضل لدى المغاربة . والمحاولة الوحيدة فى المقاومة العنيدة ابدتها مجموعة من المتعصبين الذين كانوا يؤلفون الحرس المتقدم . فقد جثوا على قدم واحدة وربطوا مقدم الساق بالفخذ حتى لا يستطيعوا التحرك ، ثم بدأوا باطلاق السهام على المغاربة المتقدمين حتى فنوا عن آخرهم . ولحقت هزيمة منكرة بقوة الجيش الرئيسة وهرب من بقى حياً تاركين وراءهم العديد من القتلى الذين اخذ المغاربة يجردونهم من حليهم الذهبى * .

وقد افلحت البقية من جيش السونجاى فى هربها بعبور نهر النيجر الى جرمة . وبذلك أمنوا من المطاردة لأن المغاربة لا يملكون الزوارق . وتنفيذاً لأوامر اسحق اقتدى سكان المدن بطريقة الجيش ، ولكن حالة الذعر أدت الى غرق العديدين عند عبورهم النهر .

ولقى المغاربة ترحيباً حاراً عند دخولهم جاو من قبل التجار الاجانب والطبقة المثقفة التى كان العديد منها من اهلى بلد الغزاة . ولكن هذا الترحيب الحار بهم لم يكن سوى مؤاساة ضئيلة ازاء خيبتهم المرة حين وجدوا جاو تختلف كل الاختلاف عما كانوا يتوقعونه .

---

* ترجمة هوداس المتنوعة قد احدثت بعض الارتباك بشأن التاريخ لمعركة تونديبى . فالسعدى يذكر 17جمادى وقد جعلها هوداس فى ترجمته عام 1900 تقابل 12 أبريل . والعفرانى يذكر 16 من الشهر نفسه . وقد جعلها هوداس عام 1889 تقابل 16 فبراير . وفى كتاب تاريخ الفتاش ذكر 2 جمادى وقد جعلها هوداس فى ترجمته عام 1913 تقابل 1 مارس .

لقد كانت التجارة العابرة للصحراء بالذهب والرقيق قوام الحياة لعشرين او اكثر من الموانىء المغربية ومصدراً لثراء الآلأف من التجار الموسرين ، وكانت السودان الغربية تعد فى بلاد المغرب بمنزلة الموطن الاسطورى للثروة ، وكانت العاصمة الشهيرة للسونجاى تعد المستودع الرئيس لثروتها . ولهذا فقد كان جودار وجيشه يعتقدون أنهم سيجدون جاو مدينة ذات ابنية فاخرة وثروة تذهل النفوس ، وان الاستيلاء عليها سيعوضهم بما فيه الكفاية وزيادة عن جميع المشاق التى تحملوها اثناء سيرهم فى الصحراء المرعبة . وبدلاً عن ذلك لم يجدوا غير اكواخ من الطين والقش تشبه ما لدى السودان ولم يجدوا أى أثر أو علامة للثروة العظيمة التى كانوا يتوقعونها . وحتى منزل عشقية لم يكن فيه سوى القليل مما يميزه عن القذارة التى تعم هذا المكان . وقد اخذ اهالى المدن معهم كل شىء قد تكون له قيمة للمغاربة ولم يتركوا أى أثر للذهب . ولكنهم اكتشفوا اشياء اخرى ذات اهمية للاجيال المقبلة اكثر من اهميتها لهم. فقد وجدوا مدفعاً عليه شعار دولة البرتغال، لم يعرف السونجاى كيف يستعملونه ، وتمثالاً للعذراء ، وصليباً عليه المسيح مصلوباً * . هذه الاشياء هى المكافأة الوحيدة التى قدمتها جاو الى هؤلاء الرجال عن جميع ما تحملوه ، وعن دحرهم جيش السونجاى ، وعن الأخطار العديدة التى تفصل ما بينهم وبين بيوتهم . لقد كان تحررهم من الأوهام باهظ التكاليف .

وهذه المعلومات المشوهة لدى جودار وجيشه عن المدينة التى كانت معروفة جيداً لدى عدد كبير من ابناء بلادهم تعود الى السرية التى كانت تغلف دائماً تجارة السودان . لقد كان التجار المغاربة يخافون من تطفل الآخرين ودخولهم فى اعمالهم ولذلك فقد كانوا يتكتمون كثيراً عن احوال الأقطار البعيدة فى داخل افريقيا التى يحصلون منها على ثروتهم . وبالاضافة الى ذلك فان

---

* يحتمل أن تكون هذه المواد قد وصلت جاو خلال التجارة العادية مع ساحل غينيا التى كان البرتغاليون والهولنديون والانكليز يتاجرون معها لبعض الوقت . وحصل مثل هذا الاكتشاف عام 1900 عندما عثر على معبود حربى سحرى يعود لجماعة الاشانتيين وتبين أنه حامل ثلاثى القوائم مصنوع من البرونز فى انكلترا فى القرن الرابع عشر .

طبقة التجار فى المغرب كانت تعارض فى حملة الشريف على السودان ، ولذلك فان المشورة التي قد تـأتى من هـذه الفئة التى لهـا رأى مسبق لن تنـال غير الأعراض . ولا بد أن الشريف قد عرف بطبيعة الحال من رسـوله الذى بعثه لكى يستطلع احوال السودان ، ما كانت عليه مدينة جاو ، ولكن هذا الأخير ربما ساوره الخوف من أن يبدد أوهام سيده ، وربما كان العكس ، فقد يكون الرسول قد اخبر بما شاهد ، ولكن سيده رفض تصديقه .

وبعد أن فقد اسحاق عشقية عاصمته وفقد معها كل رغبة فى المقاومة ، فتح الآن باب المفـاوضات مـع جودار . فعـرض عليه أن يقسم يمين الـولاء للشريف وأن يتخلى للمغاربة عن الحق فى استيراد الملح والاصداف النقدية الى السودان . ولا بد من أن نتذكر أن المغاربة كانوا يرغبون منذ مدة طويلة فى المـاضى أن يسيطروا على تجـارة الملح مـع السـودان ، بسبب ارتبـاط هـذه التجارة على نحو وثيق بتجارة الذهب . ولا توجد أدلة مدونـة عن رغبتهم فى السيطرة ايضاً على تجارة الاصداف ، ولكن استخدام هذه الاصداف بوصفها العملة الـرئيسة فى السـودان يحمل على الـظن أنهم رغبوا فى ذلـك ايضاً . فـالتنازلات التى عـرضها اسحـاق كانت تعـد اذن على جانب من الأهميـة . وقبولها يعطى المغاربة مسكة خانقة على الحيـاة الاقتصاديـة لجميع السـودان الغربية .

وكان اهم ما يشغل بال اسحاق هو تحاشى الاحتلال العسكـرى الدائم الذى من شأنه أن يثقل كاهل شعبه باعباء لا تطاق ، والـذى من المحتمل أن يجعل التخلص من التبعية للمغرب من بعد أمراً عسير المنـال . ولذلـك فقد عرض على جودار 100,000 مثقال ، أو 12,500 أونس من الذهـب ، و 1000 عبد مملوك اذا عاد هو وجيشه فوراً الى المغرب .

ولو أن الباشا كان يملك التفويض اللازم لقبل العرض من ساعته ، فقد كان ، على شاكلة رجاله ، مغموراً بالقنوط . فليست اوهامه عن ثروة السودان قد تبددت فقط ، بل إن الامراض صارت تنتشر فى صفوف جيشه وقـد هلك

العديدون من جنوده . وكانت امنيته الوحيدة هى العودة الى بلاده باسرع ما يستطيع . لم يكن مخولاً التوصل الى اتفاق مع العدو . ولذلك فقد رفع مقترحات اسحاق الى الشريف ضمن رسالة شدد فيها على متاعب رجاله فى الصحراء ، وعلى المأزق المؤسف الذى هم فيه الآن ، وعلى فقر البلاد التى فتحوها بتلك التكلفة الباهظة . ولم تغفل أية حجة يمكن أن تحمل الشريف على قبول العروض التى قدمها اسحاق ؛ وبقى جودار وقتاً طويلاً وهو ينتظر متلهفاً وصول الجواب .

واستمرت ظروف الجيش المغربى على التدهور . ففى خلال اسبوعين حصلت 400 حالة وفاة . والباشا نفسه ألم به المرض . وحيوانات النقل التى بدونها لا يستطيع المغاربة التحرك ، اصيبت ايضاً بالامراض وصارت تنفق سريعاً . ولما احس اسحاق بورطة الغزاة ، وكان هو يتوق الى تخليص عاصمته منهم ، نصح جودار بالانسحاب الى تمبكتو ذات المناخ الصحى وعرض عليه تسهيلاً للمغادرة تزويده بعدد كبير من الخيول . فقبل جودار هذا العرض وبعد مسيرة تسعة وعشرين يوماً دخل بسلام مدينة تمبكتو . وهرب كثير من اهل المدينة الى الصحراء ، ولكن بقى فيها بعضهم ، وبضمنهم قاضيهم الموقر أبو حفص عمر .

كانت تمبكتو أقل بعض الشيء اشعاراً بالخيبة من جاو . كانت مبانيها افضل ولكنها من الطين ايضاً ولذلك كانت مثاراً للازدراء بالمقاييس المغربية . والشيء الوحيد الذى يبعث على الارتياح فى هذا المشهد المتجهم هو مسجد سنكور الذى ما زال يسمو شامخاً فوق كل شيء آخر . اما بالنسبة الى جودار ورجاله ، الذين يعرفون تماماً جلال وبهاء القتيبية فى مراكش ، فلم يكن برج سنكور المبنى من الطين والخالى من أى أثر للبراعة أو الاتقان فما كان ليبدو مؤثراً إلا بالقياس الى المبانى المزرية فى جاو . ومهما يكن من أمر فقد كانت تمبكتو مدينة ذات طابع حضارى . فقد كانت عاصمة السودان الثقافية ، وملاذاً للطلاب القادمين من بلدان بعيدة ، وكان علماؤها ، مثل تجارها ، جماعة تنعم باليسر . ولما أحس التجار وارباب العلم والقلم بان ليس لديهم ما

يحملهم على الخوف من المغاربة بقوا فى المدينة ولم ينضمـوا الى الآخرين الذين خرجوا الى الصحراء . ولذلك وجد المغاربة أن الحياة التجارية والثقافية للمدينة لم ينلها الاختلال نسبياً ، كما أن مظاهر الثروة لم تكن مفقودة . ويبدو أن التعب الذى انهك الجنود هو الذى منع جودار من تجديد الاعمال العدائية ونهب المدينة . ومن المؤكد أن هذا الموقف لم يكن ليخلو من بعض الاعتبار لأولئك الذين أحجموا عن الفرار قبـل وصولـه . ان وجوههم الكئيبـة ورفض قاضيهم باباء وشـمم من استضافته هو وقواده ليدل بوضوح على مشاعر الاستياء من هذا الغزو حتى من اولئك الذين كانوا من أقل الناس احتمالاً للتأثيـر به . والوحيدون الذين تحملوا نتيجة هذا الاستقبال غير الودى فى تمبكتو هم تجار غدامس الاثرياء فالعديدون منهم قد هدمت مستودعاتهم لتبنى فى مكانها قلعة أمر بانشائها جودار * .

وكان لوصول مندوب جودار الى مراكش حاملاً أنباء الانتصار فى تونديبى أثر بالغ فى تحريك المشاعر فى المغرب كله . واذا استثنينا نبأ عبـور الجيش الصحراء بنجاح ، فانه لم يعرف أى شيء عنه منذ مغادرته الى السودان قبـل ثمانية اشهر . ومهما يكن فـان الشريف لم يبـد رضاه عمـا حمله اليه رسـول الباشا . وهزيء بالشروط التى عرضها اسحاق عشقية ، واستاء بشدة من عدم قيام جودار بـوضع حـامية فى جـاو وعدم أخـذه بعض الرهـائن من اسحاق . واعتراه الغضب من أنباء الباشا التى يصعب تصديقها وهى أن بلاد السونجاى فقيرة . فخلال قرون مضت كان الذهب يتدفق نحـو الشمال عـابراً الصحـراء

---

* كان التجار العرب من غدامس ، فى المنطقة الخلفية من اقليم طرابلس ، يشغلون خلال قرون عـديدة مـركـزاً بـارزاً فى التجـارة مـع السـودان الغـربيـة حيث لـديهم فيهـا حتى الآن بعض المستوطنات . وتبين تجارة الترقودى القديمة على نحو جلى سعة اعمالهم ومـدى انتشارهـا . فالترقودى ، وهو قماش كان ينسج فى مدينة كانو التابعة للهاوسا ، كان يستعمل كثيراً بصفة نقود فى تمبكتو . وكان التجار الغدامسيون فى كانو يصدرونه الى غات ، وهى سوق صحراوية فى الشمال الوسطى من الصحراء ، ومن هناك يرسل باتجـاه الغرب الى عين صـلاح ، ومن هناك يرسل مرة اخرى الى تمبكتو . فهذا القماش كان يعبر الصحراء مرتين عبوراً كاملاً تقريباً بدلاً من أن يتابع النسير بمحاذاة نهر النيجر الذى هو أقصر كثيراً ، ولكنه أقل أمناً .

بكميات كبيرة لا تدع مجالاً للشك بوجود مخزونات عظيمة منه فى بعض الأماكن من السودان الغربى. ولذلك قرر المنصور أن يستبدل جودار بقائد أقل ليناً وأشد عزيمة يمكنه أن ينتزع من الزنوج ما اكتنزوه من الثروة وأن يسيطر على مصادر الذهب التى تنبثق منها ثروتهم . ومن الواضح أن خسارة الرجال والمعدات فى السودان قد تستنزف الكثير من موارد المملكة قبل أن يتاح الوصول الى الذهب . واذا كان على الرعايا أن يستجيبوا ، كما كان يرغب الشريف ، الى مطالبه الباهظة التى كان يرى من اللازم أن يفرضها عليهم ، فلا بد من منع كل شائبة يمكن أن تعكر الابتهاج الذى كانوا يستقبلون به الانتصار فى معركة تونديبى . ولذلك فقد اصدر بياناً طناناً كذباً يمجد فيه انجازات الجيش وما اكتشفه من الثروة التى لا حدود لها[6] . ولم يذكر فى البيان بطبيعة الحال شىء عن التكاليف التى نزلت بالحياة البشرية . على أن الحماس الجديد الذى أثاره البيان قد خفف بعض الشىء بالشكوك التى ساورت النفوس لتعيين قائد جديد . فعدم وجود أى سبب يبرر ابعاد جودار ، وهو القائد البارز ، كان يثير القلق ، كما أن المرسوم الذى تلى ذلك سريعاً ، ودعى الى جمع المزيد من الجنود ، قد شدَّد من ذلك القلق .

كان الشريف قلقاً ويريد اخفاء ما يشعر به من مرارة الخيبة فحمله هذا الى الخداع والتضليل والامعان فيهما الى حدود غريبة . ومن جملة الانباء التى سرى تداولها حتى انكلترا ، أن الشريف عرض على السفير التركى رأس انسان مقطوع معلناً أنه ليس سوى رأس اسحاق عشقية [7] . وكان فى تصور المنصور أن أخبار هذا الحادث سوف تزيد مراد الحسود غيضاً وهذا هو الذى دفع المنصور الى استغلال هذه الخدعة البسيطة للتأثير فى السذج من الاتراك .

وفى المغرب انقسم الرأى حول حقيقة حملة السودان انقساماً حاداً . فالعامة كانت ترى فى الانتصار فى معركة تونديبى ما يبشر بثروة عظيمة ومستقبل زاهر للبلد . والذين كانوا افضل علماً ما كانوا يشاطرونها هذا الرأى . ومن المحتمل أنهم كانوا متأثرين بالتجار الذين يتعاطون التجارة مع السودان ،

والـذين كانت لديهم مصادر للمعلومات عن مصاير الحملة اكثر دقة مما تلائم رغبة المنصور وترضيه . فقد كانوا يشعرون أنه قد أدخل نفسه فى التزامات لا يستـطيع البلد الايفـاء بهـا أو تحملهـا . انهم يـدركـون أن مجـرد الاحتفـاظ بـالأراضى التى فتحت ، وهى لا تزيـد إلا قليلاً عن مجـرى النيجر بين جـاو وتمبكتـو ، يستلزم حاميـة كبيرة وتعـزيزات مستمـرة للتعـويض عن الخسـائـر الحتمية بسبب الامراض ومخاطر الحرب الاخرى . وقد بينت التجارب عظم الخسائر المحتملة فى هذا المجال . فالطوارق مستمرون على الفتك بعدد كبير من الجنود الذين يعبرون الصحراء ، يكمنون لهم حتى اذا وصلوا متعبين قرب الآبار انقضوا عليهم ومزقوهم شر ممزق . وبـالاضافـة الى ذلك فـان اكثر مـا يحتاجون اليه هم حملة البنادق ، الذين كانوا فى الغالب من اهل الاندلس ، وكان الشريف يعتمد عليهم لحماية عرشه . وكان المعتقد أن عدداً كبيراً منهم قد سبق ارساله الى السودان . وكان أكثر شىء أثار الفزع فى نفوس التجار هو تصميم المنصور على نوال ذهب السودان بصرف النظر عن التكاليف . وبمـا انهم كانوا ملمين بتجارة الذهب فقد كانوا يعرفون أن مناجم الـذهب ما زالت بعيدة وكانوا يشكون فى قدرته على الوصول اليها فى يوم من الأيام . فقد كانت المناجم لعدة قرون خلت هدفاً يسعى اليه التجار المغاربـة دائماً ولكن بـدون جدوى ، ولا يعلمون حتى ذلك الوقت مكان وجودها . وكان الخوف يتملكهم من أن تصميم الشريف على الوصول اليها قد يؤدى الى خراب البـلاد وهلاك العباد ، أو فى احسن الاحوال ، الى استنزاف جميع المغانم التى اخذت من السونجاى .

وكان اهتمام التجار الاساسى يدور بطبيعة الحال حول تجارتهم . ففى الماضى كان الزنوج يبدون استعدادهم بدرجة كافية لمقايضة ذهبهم بما يقدم اليهم من الملح والسلع التجـاريـة الأخـرى المجلوبـة من منـاطق البحـر المتوسط ، ولكن اذا كانت المكافأة على عملهم هو مصادرة الـذهب على يد الغزاة فسوف يتوقفون سريعاً عن انتاجه . وبهذا الوجـه سيفقد المغـاربة اهم سوق لهم ، وهذا ، كما كانوا يشددون عليه ، سوف يلحق بـالشريف ضـرراً

بالغاً ، فهو ، مثل بقية أسرته ، يستعين بما لدى رعاياه كلما شعر بالحاجة الى ذلك .

. والضابط الذى اختير ليخلف جودار هو محمود بن زرقون ، القائد على جميع المرتدين عن المسيحية فى المملكة . وكان هذا ابن أحد المرتدين الاسبان أو البرتغال ، وكان مثل جودار خصياً تربى فى القصر الملكى . وبالرغم من أن الفصل كان من اسوأ الاوقات لعبور الصحراء ، فقد اخبر محمود بالمغادرة فوراً . وكان القلق على سلامته كبيراً الى حد أنه أمر أن لا يسير إلا ليلاً . كانت الحرارة عالية ، وكانت الرياح الشرقية تهب شديداً ، وكانت المياه فى الصحراء نادرة على نحو غير مألوف . وعلى أية حال فقد وصل هو وحاشيته المؤلفة من اربعين مرتداً الى تمبكتو فى بحر أمد قصير جداً من سبعة اسابيع .

وقد برهن محمود باشا ، كما صار يدعى الآن ، على أنه قائد نشيط ذو عزيمة ماضية . فلم يكد يتسلم زمام الأمور من جودار ، حتى بدأ بتحرير الجيش من العقبة التى تقيد قيامه بحملة نهرية بدون أية زوارق . فقطع الاشجار القليلة التى كانت فى تمبكتو وضواحيها ، ونشرها وحولها الى ألواح ، وأمر بانتزاع جميع الابواب الخشبية واطاراتها من المبانى . وتمكن بهذا من بناء زورقين انزلا على الماء خلال بضعة ايام من وصوله . وبعد أن ترك محمود حامية صغيرة فى تمبكتو شرع بالسير مع بقية جيشه فى محاذاة الضفة اليسرى من نهر النيجر، وهو يبحث عن اسحاق عشقية. ولقى جيش السونجاى فى بامبا فقاتلهم وهزمهم . وهرب العدو ، كالعادة ، عابراً النهر الى جرمة . وبفضل الزوارق التى تبعت محموداً باتجاه مجرى النهر ، فقد استطاع أن يطاردهم . وقد لحقت بقوات السونجاى هزيمة نكراء وتشتت شملها حتى أن اسحاق قد قطع عن اتباعه ، وقتل على يد بعض افراد القبائل التى يعتقد انها كانت من الطوارق السلابين . وبعد هذه الواقعة أخذ العديد يفرون الى صفوف المغاربة ، حتى أن عشقية الذى خلف اسحاق وهنت عزيمته سريعاً فبادر الى عرض خضوعه للشريف .

كانت سنة مجاعة ، ووجد محمود صعوبة بالغة فى اطعام جنوده ، حتى اضطر الى أكل حيوانات النقل . وقد ارسل عشقية الطعام الى المغاربة تلبية لدعوة تلقاها من الباشا ، واظهاراً لنيته الحسنة . ثم دعى الى معسكر المغاربة ليقسم يمين الولاء للمنصور ، ولكن عندما وصل هو واصحابه قتلوا غدراً . ثم برر محمود غدره بانه انتقام عادل عن قتل 400 من جنده فى الصحراء عندما كانوا فى طريقهم الى السودان .

وسرعان ما تبين لمحمود أنه من العبث أن يحاول السيطرة على السونجاى بالحكم العسكرى المباشر . ولذلك فقد عين شخصاً من عائلة عشقية يكون العوبة فى ايديهم ويتولى الحكم من تمبكتو باسم الشريف . ولكنه خاب فى أمله حين تصور أن السونجاى سوف يوافقون على هذا الوضع فى السلطة التقليدية . فرفضوا اطاعة العوبة المغاربة ، وبذلك ساءت الادارة وتفاقم وضع الأحوال سريعاً. وفى الوقت نفسه قام السونجاى فى الجنوب من اتجاه مجرى النهر ، وهم لم يقهروا بعد ، وعينوا واحداً من عائلة عشقية يتعلق بهم . ومن هذا التاريخ وجد واحد من عائلة عشقية هو العوبة يحكم فى الشمال ، وآخر من عشقية هو حر يحكم فى الجنوب .

وفي أسوأ حالة من أوضاع البلاد ظهر بين صفوف السونجاى قائد عظيم البراعة هو نوح عشقية ، الذى أفلح فى جمع القوات المبعثرة للمملكة ، ووقف صامداً امام محمود بجيش متين التماسك عالى المعنويات . وكان هذا انجازاً بارزاً ، لأن السونجاى بعد أن هزموا فى كل مقابلة مع الغزاة ، صاروا يحسون بضئالة قدرتهم فى الوقوف أمام اسلحة العدو النارية. وكان نوح بالاضافة الى أنه قائد ملهم ، كان قد ولد ليكون زعيماً مقاتلاً يعرف كل المعرفة كيف يأخذ فى الحساب المزايا الطبيعية لبلاده ، وكيف يستغل كل فرصة لايقاع الخسائر بالعدو . وقد تمكن بذلك من الصمود فى الميدان ورد العدوان من قوات تتفوق عليه كثيراً خلال السنوات الاربع التالية .

ولم يتأخر محمود عن منازلة القائد الجديد . وكان نوح ينتظر مقدمه فى

دندى وهى بلد تكثر فيه البساتين والادخال فى جنوب جـرمة . وفى المعـركة التى نشبت أحرز نوح انتصاراً معنوياً . فقد استطاع أن يصد العدو يوماً كاملاً ثم انسحب بانتظام . وقد علمته المعركة أن البلد كلما زاد انفتاحاً زادت المزايا فى موقف المغاربة الذين باسلحتهم النارية فى الساحـة يستطيعـون أن يمنعوا خصومهم ذوى الاسلحة غير النارية من ان يطبقوا عليهم . وبعد أن تعلم نوح هذا الدرس المهم انسحب باتجاه الجنوب الى غابات بورجو Borgu .

وظل محمود مستمراً فى المطاردة بعزيمة قوية حتى التقى بنوح على نهر الميكون ، فى منطقـة غزيـرة الامطار ، ذات مستنقعـات موبـوءة بالمـلاريا ، ومزروعات كثيفة تترواح بين ادغال متشابكـة وغابـات استوائيـة . والى جانب المزايا التى توفرها هذه الظروف لمصلحة نوح يضاف التأييد الكبير الذى حظى به من السكان المحليين . كان البورجيـون من الوثنيين المـولعين بالحـرب ، ولهم خبرة طويلة بما يتمتع به بلدهم من امكانـات دفاعيـة عظيمـة . وهم لم يفقدوا استقلالهم ابداً ، بالرغم من اضطرارهم الى صد الهجمات التى شنها عليهم غير واحد من الملوك المشهورين بالارعاب وحب القتال من امثال سونى على وعشقية الكبير*. لقد كانوا يمقتون السونجاى كما كانوا يمقتون جيرانهم الشمـاليين الذين يغيـرون من اجل الاسـترقـاق ، ولكن فى مـواجهـة العـدو المشترك القادم من الجانب الآخر من الصحراء ، فقد ضموا الآن قواتهم الى قوات السونجاى .

فلا غرابة فى مثل هذه الظروف أن يـأخذ محمـود بالنـدم على السماح لنفسه بالانقياد وراء هذا الاغراء الذى جاء به الى برجو . فالمغاربـة الذين لا خبرة لهم فى حرب الادغال وقعوا فريسة سهلة فى حرب العصابات التى يتقنها خصـومهم . ولم تترك لهم فتـرة من الـراحـة لا فى معسكـرهم ولا فى اثنـاء

---

* يعـزو اللورد لوغـارد Lugard ، الذى كـانت له مقـابلات شخصيـة مع البـورجيين ، نجاحهم العسكرى أولاً الى معرفتهم السحر والى السموم القاتلة التى كانوا يطلون بها سهامهم ، وثـانياً الى فنونهم الحربية ، وبخاصة براعتهم فى نصب الكمائن وحبهم الهجمات الليلية (38) .

سيرهم . فقد كانت الهجمات المباغتة تشن عليهم على نحو متعاقب لا يتوقف ولا يلين ، وهى تأتيهم من كل حدب وصوب ليلاً ونهاراً ، فاستنزفت قـواهم وفلّت عـزيمتهم . ويضاف الى حـالتهم البائسـة الجـو المـرطب ، والـطعـام الغريب ، والماء الفاسد الذى كان يفتك برجالهم فتكاً ذريعاً ، كما كان ذباب مرض النوم يفتك بخيولهم * . كانت البلايا التى اصابتهم هى نفس البلايا التى كانت تحول دائماً دون احتلال الغابات من قبـل القبائـل السودانيـة التى تغير لكسب الرقيق ، وهى التى اغلقت لقرون عديدة القسم الداخلى من السودان الغربية فى وجه المستوطنات التجارية الاوربية المقيمة على الساحل الغينى . لقد كانت الغابات منيعة ولا يمكن اختراقها لا من الشمال ولا من الجنوب .

ومـع ذلك فقـد مضت سنتان وجيش محمـود معـرض الى الاستـنـزاف وتـوقف التعزيـزات الكافيـة من المغرب قبـل أن يضطر الى الاعتـراف بعـدم الجدوى من مواصلة القتال . ثم اعد رسالة الى الشريف لا تختلف كثيراً عن التى جلبت السخط على جودار . ومن حسن حظه أن المنصور قد أخذ يدرك أن ادارة الحملة فى قلب افـريقيا ليست بـالأمـر السهـل كمـا كـان يتصـور . وبالاضافة الى ذلك فان صلابة محمود وصبره قد كسباه الاحترام . ولذلك فقد قرأ الشريف تقرير الباشا واحوال جنده المحزنة والانتكاسات المؤلمة بتعاطف وتفهم اكثر مما أبداه نحو جودار فى ظروف مماثلة . ولذلك فقد أرسل فوراً الى محمود امدادات كبيرة تتألف من 1500 من الفرسان ، 1500 من المنشأة ، و 500 من الأفراس البديلة . ثم أردف هذه الامدادات بعد فترة وجيزة برتلين صغيرين قوامهما 400 من مجموع الأصناف .

وعندما وصلت هذه التعزيزات الجديدة كان محمود قد قرر أن لا يضيع مزيداً من الوقت بالقتال فى بورجو وفى نهاية 1593 إنسحب من الضفة اليمنى من نهر النيجر وتوجه الى تمبكتو ، تاركاً خلفه حامية فى جاو .

---

* يلاحظ فى السنوات الأخيرة أن منطقة نهر الميكون قد اقفر من السكان تماماً بسبب مـرض النوم الذى يحمله نوع خاص من الذباب Tsetse Fly .

الفصل الحادي والعشرون

سقوط السونجاى

(. . . نريد أن نكتشف طريقاً الى تلك المناجم الغنية فى جاغو أو تمباتو . . . وكلما زاد يومياً بحثنا عنها ، زاد ما ينبغى من التصحيح حولها) .

النقيب : جون سمث

يبدو أن النجاح المحرز فى ارسال جيش عبر الصحراء قد استنفد قدرة المغاربة على التنظيم . ذلك أنهم فقدوا فى السودان لمجرد عدم كفاءتهم ، وعلى نحو سريع ، تفوقهم الأولى الذى اتيح لهم من تملكهم الأسلحة النارية . وبدلاً من أن يستفيدوا من الخلافات العنصرية ، والقبلية ، والطائفية التى كانت تفرق خصومهم ، اثاروا العداوة والبغضاء ضدهم لدى الناس بسبب قسوتهم وغدرهم . وكان من نتيجة هذه التصرفات الشائنة ، بالاضافة الى تشتيت جيشهم بتوزيعه بين عدد من الحاميات الصغيرة انحطت الحملة تدريجاً وتحولت الى سلسلة من المذابح الوحشية التى تتبعها اعمال انتقامية فظيعة .

كان سكان السودان الغربى يضم عناصر تخريبية عديدة . فتعدد القبائل المتعادية المنتمية الى عدة اصول مختلفة ، والتفاوت فى درجات الحضارة ، والتباين فى المعتقدات الدينية ، وانعدام الحدود الجغرافية الطبيعية انعداماً كلياً تقريباً كانت بعض العوامل التى تتضافر فتدفع البلاد الى الاضطراب كلما رفع عنها يد السلطة المركزية القوية التى تمسك بزمام الأمور .

والنتيجة الطبيعية التى نجمت عن هزيمة جيش السونجاى فى تونديبى هى اندلاع الفوضى وانتشار العصابات التى تقطع الطرق على نطاق كبير . كانت الانباء الخاصة بهرب اسحاق عشقية وتفرق قواته ايذاناً لجميع العناصر المتمردة والمشاغبة بالانطلاق وبث الفوضى فى اجزاء المملكة المتداعية التى لم تكن قد شعرت بعد بالصدمه المباشرة للغزاة . فالقبائل التى كانت خاضعة لنفوذ السونجاى هاجت وماجت متأثرة بتحررها غير المتوقع، وراحت منغمسة فى الملذات والافراط. وانقض الفولانيون والزغرانيون على فلاحى السونجاى فى منطقة البحيرات فوق تمبكتو . وتعرض اقليم جين للغزو والنهب من أوله الى آخره على يد عصابات بامبارا الوثنية . وازداد الطوارق جرأة فى غاراتهم على الفلاحين القاطنين قرب الانهار .

وقد كتب السعدى : لقد تبدل الأمن خوفاً ، والثروة فقراً ، وقلقاً ، ومحنة . وحلّ العنف محل الاستقرار والطمأنينة . فى كل مكان يفتك الناس الواحد بالآخر . فى كل مكان ، وفى كل اتجاه غزو وسلب ، والحرب لا تستثنى أو تبقى على حياة ، أو ملكية أو بشر . كان الاضطراب عاماً يسود فى كل مكان ومرتفعاً الى اقصى درجات الشدة[1] .

وطوال التاريخ المدون ، كان الطوارق دائماً مصدر تهديد للسكان المقيمين فى منطقة النيجر الاوسط ، وبصفة خاصة لسكان تمبكتو الذين كانت فى ثروتهم اغراء لا يقاوم لمقاتلى الصحراء . إن تمبكتو التى تقع على عتبة الصحراء ، كانت دائماً غنيمة سهلة امام غاراتهم التى كانت تشن بغتة وبدون توقع حتى أصبح من المألوف أن تجرى الاعمال فى داخل البيوت بدلاً من اجرائها فى السوق المفتوحة .

ولم يتأخر الطوارق عن الاستفادة من الفوضى التى عقبت غزو المغاربة . فبينما كان محمود منهمكاً فى حملته بمنطقة بورجو انتهزوا الفرصة وغاروا على تمبكتو ، فهاجموا اولاً الحامية المغربية ، ولكنهم كعادتهم فى الغدر ، انضموا فجأة الى المغاربة ضد سكان البلدة . وكان هؤلاء قد اعتادوا

اشهار السلاح للدفاع عن انفسهم ، فهبوا مستميتين ضد الحامية المغربية التى كانت على وشك الابادة لولا وصول نجدة حربية قوامها 300 من حملة البنادق بقيادة مامى بن بارون الذى اعاده محمود الى اعالى النيجر لانقاذ تمبكتو[2] . وكان مامى هذا ، الذى لا نعرف شيئاً عن اصله ويمكن افتراضه أوربياً ، واحداً من هؤلاء القلة الذين ارسلهم المنصور الى السودان واظهروا بعض التعاطف مع الزنوج ، او شعروا بالحاجة الى كسب ثقتهم . وبالرغم من اخباره بان فى وسعه أن يقتل كل كائن حي فى المدينة ، فقد أبدى من الاعتدال ما جعلت عواطفه تميل الى سكان البلدة اكثر مما تميل الى ابناء بلده . فقد قتل بيده جندياً وجده يسرق احد السكان ، واصر على التسديد نقداً لكل شي يزود به جنوده . حتى أنه اعتذر للعالم ابو حفص عمر عما بدر من الجيش المغربى من التصرفات المفرطة التى لم يكن لها من مبرر . وكان هذا يختلف كل الاختلاف عما اختبره الاهالى المساكين حتى الآن على أيدى الغزاة ، الى حد أن المرارة التى كانت تفصل بين الجانبين قد زالت تقريباً . فعادت الثقة العامة ، واقسم الناس يمين الولاء للشريف ، ورجع الهاربون من الصحراء ، واعيد فتح الطرق التجارية ، وغدت الحياة فى المدينة عادية مرة اخرى .

وكان العلماء والتجار المتخوفون فى جين يراقبون بقلق وتلهف الاحداث فى تمبكتو ، فقد ادركوا أن الحماية التى توفرها لهم انهارهم ومستنقعاتهم ليس لها أن تدوم طويلاً . على أنهم تشجعوا من سلوك مامى ومعاملته السخية غير المتوقعة للمتمردين فى تمبكتو فسارعوا الى عرض خضوعهم . فقبل هذا منهم وحددت جزية المدينة بما يعادل 60,000 مثقال من الذهب * .

وعندما أيقن مامى أن لا أمل فى سلام دائم لا فى تمبكتو ولا فى أى

* وفى السنوات التالية اتخذ لنفسه ابن المنصور ، مولاى زيدان ، لقب ملك جاو ، تمبكتو ، وجين ، وهذا يشير الى أن جين كانت اهم كثيراً مما يوحى به دورها المتواضع فى تاريخ السودان الغربى .

مكان آخر على النيجر الاوسط طالما كان الطوارق طليقين ، فقد ارسل حملة تأديبية ضد القبائل التى اثارت الاضطرابات الأخيرة . ولا بد من الافتراض أنه تلقى العون من البدو الموالين الذين كانوا نداً للمتمردين المراوغين ، فقبض عليهم ، وقتل جميع الرجال ، وباع النساء والاطفال فى سوق الرقيق . وقد نجم عن هذا هبوط كبير فى اسعار السوق حتى أن الرقيق كانوا ينتقلون من يد الى أخرى لقاء مبلغ زهيد جداً لا يجاوز بضعة قروش لكل واحد . ومع ذلك فقد ثار هذه المرة بدو آخرون هم الصنهاجة الاقوياء ، وفتكوا باحدى حاميات مامى الواقعة فى الاطراف البعيدة . ولم ينقذ هذا الموقف إلا وصول 2000 من التعزيزات المرسلة من المغرب ، وبقى الوضع على هذا المنوال حتى عاد محمود من الجنوب ، وفى نهاية 1593 استطاع المغاربة أن يثأروا لانفسهم بابادتهم تقريباً جميع الذين اجرموا من الصنهاجة .

وبعد أن استتب النظام شعر محمود بالحرية فى تنفيذ خطة محكمة لسلب تمبكتو . فحتى الوقت الحاضر لم يكسب شيئاً من الحملة . والغنيمة الصغيرة التى جاءت من جاو قد ذهبت كلها الى جودار . ولم يعثروا أبداً على أى شي فى قرى بورجو المبتلاة بالفقر . وحانت الآن الفرصة امام محمود حتى ينتزع كل ما يستطيعه من تمبكتو . فارسل اولاً منادياً يعلن فى الطرقات والازقة أن البيوت سوف تفتش غداً بحثاً عن الاسلحة ، ولكن البيوت المتعلقة بذوى الشيخ سيدى محمود الذى كان قاضياً فى تمبكتو لن يجرى تفتيشها . واسرع الناس الى ايداع ما لديهم من الاشياء الثمينة لدى كل من له نسب بذلك الشيخ ، لأنهم ايقنوا من سرقتها ان تركت فى بيوتهم . وبعد أن فتشت البيوت دعى أهلُ المدينة الى الاجتماع فى مسجد سنكور ليحلفوا يمين الولاء للشريف ، ثم اذن لهم بالانصراف . ودعى بعدهم من كان من ذرية سيدى محمود . واغلقت ابواب المسجد من ورائهم ، ونهبت بيوتهم التى تحوى كل ثروة تمبكتو ، واغتصبت نساؤهم ، وقتل العديد من الأسرى فى المسجد . ومن هذه الغنيمة أفرز 100,000 مثقال من الذهب للشريف .

وكان الناس ، حتى قبل أن ينهب محمود تمبكتو ، قد يئسوا من عودة

المعاملة الكريمة التى وجدوهـا فى ظل مـامى ، ولم يبق لديهم أى أمـل فى النجاة من المضايقات القاسية التى كانوا يعانونها . وفى نهاية 1592 ارسل ابو حفص عمر بشجاعة عدداً من المندوبين الى مراكش ليـطرحوا امـام المنصور الحـالة المؤلمـة التى يعيشها النـاس ويطلبـوا الـرفق والـرحمـة . وقـد دهش المندوبون من الترحيب الودى بهم فى بلاط الشريف ، وعادوا يحملون وعداً بان مظالمهم سوف ترد عنهم فوراً . وكان يصحبهم عند عودتهم قائد اسمه بو اختيار* ، وصف بانه ابن مرتدّ من أب أمير مسيحى ، وانه يحمل معه الاوامر لتحسين معاملة عمر واهل بلدته . ولكنهم عندما وصلوا تاغازة علموا أنهم قد خدعوا أخبث الخداع . ذلك أن المنصور قد بعث قبلهم رسولاً يحمل أوامـر تختلف كل الاختلاف . إذ كانت تقضى بالقاء القبض على عمر وعلى عدد من المثقفين البـارزين فى تمبكتو الـذين هم الآن ، كما اخبـر به المنـدوبـون ، مقيدون بالسلاسل+ . وبعد بضعة اشهر تقرر أن يرسل السجناء بالاضافة الى عـائلاتهم وكتبهم وممتلكـاتهم الأخرى عبـر الصحراء الى مـراكش . وانتماء هؤلاء الى الطبقة المثقفة الموسـرة قد جعلهـا أقل الفئـات قدرة على تحمـل المشاق المرتبطة بهذه السفرة التى اضطروا الآن الى السير فيها . وفوق ذلك فهم عندما شرعوا بها كانوا قد اصابهم الوهن خـلال الأشهر التى قضـوها فى السجن مصفدين بالاغلال . وكان عمر الطاعن فى السن مـريضاً خـلال هذه الفترة .

وليس لدينا أخبار عما عاناه المنفيون حين كانوا يدفع بهم ويساقون عبر

---

* كان تحت أمرة بو اختيار 1200رجل من التعزيزات . وبما أن التجربة قد بيّنت سخف المحاولة فى ارسال عدد واسع من الجنود ليعبروا معاً الصحـراء ، فقد سـاروا فى رتلين منفصلين حتى يستفيدوا الى ابعد حد من الماء القليل ومن المراعى المتاحة فى الصحراء .

+ ويبدو أن جميع الذين القى القبض عليهم (يحتمل أن عددهم لم يكن يجاوز الستة) كانوا من اسرة عاقد التى زوّدت تمبكتو بالقضاة خلال اجيال عديدة ، وانها كانت تحظى بمنزلة رفيعة لدى الملوك من آل عشقيـة . وكان احمـد بابـا المؤرخ البارز ، احـد افراد هـذه الأسرة ، وواحـداً من المقبوض عليهم .

الصحراء ، كما لا نعرف كم منهم قد بقى على قيد الحياة . ولا يشك المرء فى أن عدد الذين لاقوا حتفهم ، وبخاصة بين النساء والاطفال ، كان كبيراً . ومع أن عمر كان كبير السن ، منحرف الصحة فقد اكمل السفرة ، كما اكملها احمد بابا الشهير .

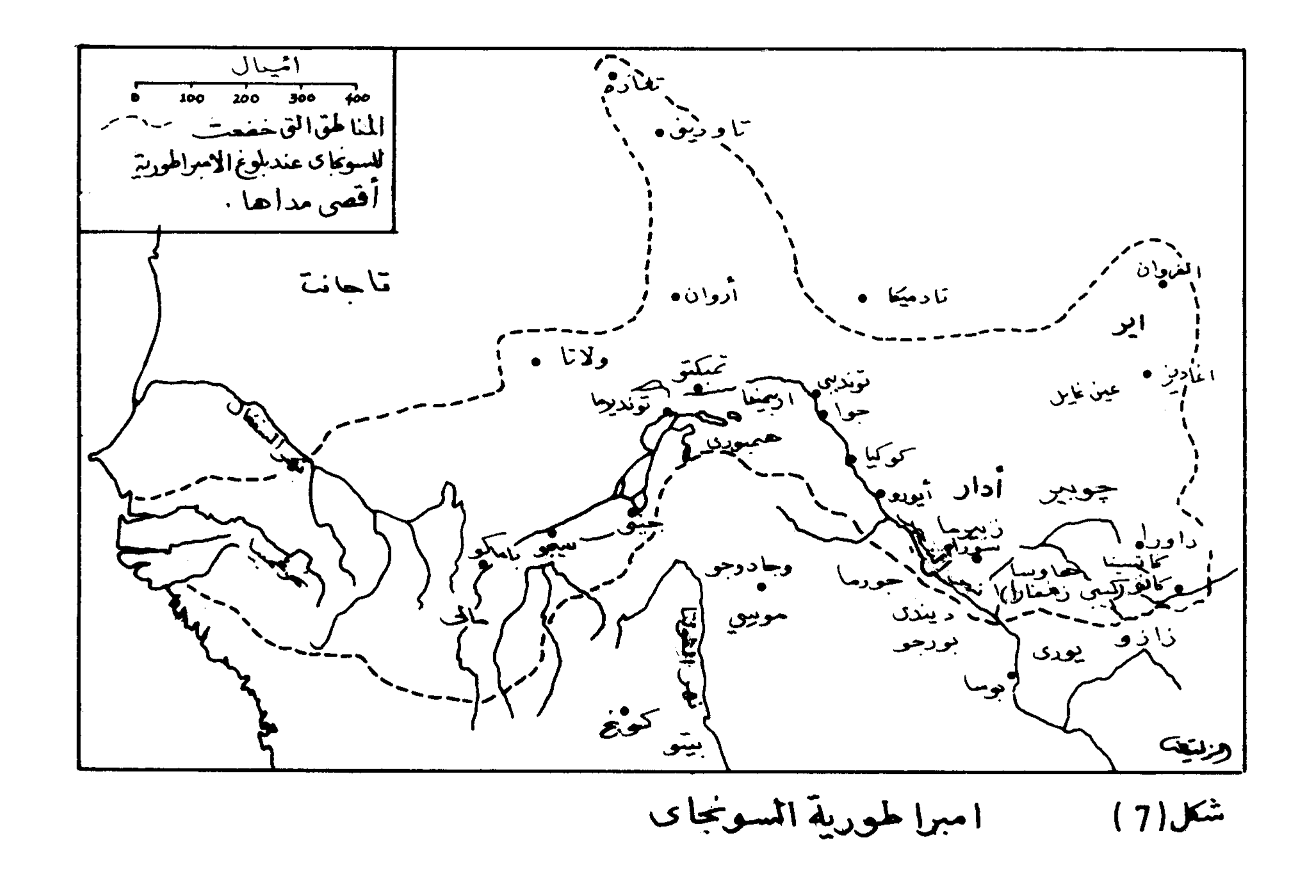
ووضع الأسرى الذين جيء بهم من تمبكتو فى سجن لمدة سنتين مات خلالهما عمر . وفى سنة 1596 اطلق سراح الأسرى ، ولكن المنصور رفض السماح لهم بترك مراكش . واستقر احمد بابا يعمل فى مهنة التعليم وما لبث أن جذب اليه الاتقياء من المسلمين الذين صاروا يفدون اليه من مناطق مختلفة من المغرب . ولم يمض زمن حتى منح الاذن بمقابلة المنصور . « وسرعان ما تكشفت موهبته فى الكلام الصريح امام الاقوياء ، وهى الموهبة التى تميز بها اسلافه . وعندما احضر امام السلطان وجده محتجباً عن انظار الجمهور وراء ستارة فامتنع عن التحدث معه حتى يظهر امامه ، مبيناً أن التحدث من وراء حجاب يعنى أن السلطان يقلّد الله » . ولما صار احمد بابا وجهاً لوجه مع المنصور عاتب السلطان على معاملته على النحو الذى فعله . فبرر المنصور عمله بان ذلك كان جزءاً من سياسته لتوحيد العالم الاسلامى . فرد عليه احمد بابا ولماذا لم تبدأ إذن مع الاتراك فى تلمسان وهم اقرب اليك كثيراً ؟ ، ولما غلب المنصور فى هذه المناقشة انهى المقابلة من ساعته . وبعد وفاة المنصور اذن خلفه مولاى زيدان لأحمد بابا أن يعود الى تمبكتو . وتوفى عام 1627 ، بعد عشرين سنة من رجوعه [4] .

وفى خلال ذلك الوقت فى السودان كانت معاملة محمود باشا للسونجاى قد ساءت حتى اثارت النفور لدى البعض من ضباطه ومن بينهم احمد بن الحداد أحد القادة الذين رافقوا جودار الى السودان . فبعد أن القى القبض على عمر واصحابه ، انسل هذا الضابط الشجاع سراً الى مراكش ليخبر الشريف بالسلوك الشائن الذى يسلكه الباشا . وقد سخط المنصور شديداً عند سماعه ما نسب الى محمود من اساءة بالغة فى استخدام سلطته ، ومن شراسته وقسوته ، ومن عادته فى التصريح بان سيفه هو سلطانه . ويبدو أنه لم يشأ استبدال

محمود حتى وصول عمر واصحابه ، حين علم من قائد الحرس أن حصته من غنيمة تمبكتو كانت تافهة لا تزيد على 100,000 مثقال من الذهب . فما ان سمع هذا حتى ارسل فوراً الى السودان القائد منصور بن عبد الرحمن ومعه الاوامر بتسلم الزمام من محمود والقضاء عليه موتاً بالخزى والاذلال .

وعلى أية حال فقد كان محمود قائداً ذا عزيمة قوية وبسالة فى الميدان . وفى خلال الفترة التى كان فيها مصيره يناقش فى المغرب ، كان هو يقود حملته ضد نوح بهمة متميزة . وطوال الطريق من جين الى جاو كان النهرفى ايدى المغاربة . وكانت جاو فى قبضة جودار المحكمة الذى ظل ، منذ تنحيته عن القيادة العليا ، يظهر أنه قائد مقتدر . ولما عجز نوح عن احراز اى تقدم ضده ، ترك وادى النيجر وانسحب الى مقاطعة هومبورى Hombori الجبلية ، موطن التومبو ، القبيلة المولعة بالقتال التى ظلت تدافع بضراوة عن استقلالها حتى فترة ملحوظة من القرن العشرين . على ان هذا التحرك ما كان يلائم خطة محمود ، لأن هو مبورى يسهل الدفاع عنها وتقع على مسافة ملحوظة من تمبكتو . وبينما كان الباشا يسعى فى زحزحة نوح من معقله الجبلى تسلم تحذيراً تعاطفياً من مولاى ابى فارس ، احد ابناء الشريف ، عن الكارثة التى ستنزل به حالما يصل القائد الجديد منصور . ولما وجد محمود أن الهرب متعذر ، شن هجوماً طائشاً على العدو لقى فيه مصرعه المشرف الذى كان يسعى اليه بنفسه متعمداً . وتبعه خصمه الكبير نوح الى القبر بعد فترة قصيرة فقد قتل فى هجمة على معقل هومبورى شنها منصور .

وفى تاريخ الحملة المغربية لا نجد قادة خدموا بلدانهم المعنية بذلك القدر من التفوق البارز مثل محمود ونوح . ففى خلال السنوات الاربع التى كانا فيها على رأس جيشين متخاصمين كانت الحملة تقاد بعزيمة ثابتة من الجانبين ، وهو أمر كان مفقوداً بدرجة بارزة فى مراحلها السابقة واللاحقة . وبالرغم من أن فقدان الحظوة والموت قد حرما محموداً من النصر النهائى ، فقد كان من أكثر القادة المغاربة نجاحاً . لقد اخفق بوصفه ادارياً بسبب جشعه وقسوته ، على أنه مثل الذين سبقوه ، ومعظم الذين تبعوه ، ما كان يعرف غير



شكل (7) امبراطورية السونجاى

الاستبداد فى الحكم . وبموجب المقاييس المغربية كان قائدا جيدا وواحدا من الجنود القلائل المخلصين فى خدمة المنصور . وكانت خسارة المغاربة بموته لا تقل شأناً إلا عن خسارة السونجاى بموت نوح .

وبموت نوح انهارت كل مقاومة منظمة وسقطت مملكة الزنوج الكبيرة سقوطاً تاماً. ولكن شعب السونجاى هم آخر من يعترف بذلك. فعزيمتهم لم تفل ، وكراهيتهم للفاتحين لا تنتهى أو تهدأ . والواقع لم يكن لدى المغاربة ما يبعث على الرضا إلا الشي اليسير . ولم تجلب لهم الاسلحة النارية المكافأة المناسبة ، وقد يرد ذلك اما لقلة عددهم ، او عدم قدرتهم على مقاومة الأمراض الاستوائية ، أو عجزهم فى الشئون الادارية ، وقد يرد قبل أى أمر آخر الى سعة البلاد التى كانوا يسعون فى اخضاعها . ومع أن السونجاى قد انهكوا وغلبوا على أمرهم ، فان المغاربة لم يصبحوا أبداً سادة البلاد . فاوامرهم الرسمية ما كانت لترى أبعد من ضفاف النيجر الاوسط ، وحتى على طول مجراه لم يفضِ الاحتلال العسكرى الى سيطرة ادارية ، وبدون هذه لن يكون الفتح اكبر من الادعاء إلا قليلاً .

ان المطالب الباهظة التى فرضت على المغرب بسبب الحملة لم تنته بوفاة نوح عشقية. ونظرا لبعض الاغفال غير المبين من جانب الشريف، حصل شجار بين منصور وجودار حول أى منهما سيخلف محموداً فى رتبة الباشوية. وعندما رفع النزاع الى المنصور زاد الأمور تعقيداً وخاصة بتعيين منصور قائداً عاماً ، وجودار حاكماً مدنياً ، ولم يجلب هذا غير تشديد الكراهية والمنافسة بين الطرفين . ولم تنته هذه الحالة من التشويش إلا بوفاة منصور ، ومن المؤكد تقريباً أن جودار كان قد دسّ له السم . ولقى مثل هذا المصير القائد الذى ارسله الشريف ليحل محل منصور . وفى الوقت نفسه كان جودار يمارس القيادة العليا فى السودان . ومع ذلك فقد كان على مقربة منه منافس لم يستطع القضاء عليه بسهولة كما فعل مع آخرين ، وهو القائد مصطفى ، الذى حكم بضع سنين تمبكتو ، وكانت قلة كفاءته مسئولة الى حد كبير عن الاضطرابات المتواصلة التى شهدتها المدينة . وكان آخر فعل من طيشه سعيه ليحل محل

جودار . ولم يكن هذا الأخير بقادر على التخلص من منافسه ، ولـذلك اتفق معه على ترك تسوية هـذا الموضـوع الى الجنود . وأصـدروا قرارهم لصـالح جودار ، واهم من هذا أنهم ادركوا فجأة أنهم قد غدوا سادة أنفسهم . وانتهى هذا أخيراً بخروج السودان من يد المغرب .

وخنق جودار المصطفى ، وما من شي كان الآن اكثر احتمالاً من أن يقوم بتحدى الشريف واعلان نفسه حاكماً مستقلاً . والواقع لم يكن لديه مثل هذا الطموح . فرغبته الوحيدة أن يترك منفرداً ليحكم البلاد بالـوجه الـذى يتصوره محققاً لمصالح الشريف . ويبدو أن هذا الأخير بعد أن تحقق لديه العقم فى ارسـال المزيـد من القادة الـذين يفتك بهم جـودار ، لم يذعن لـلأمر الـواقع فحسب ، بل وافق على أن يعيد جودار الى نفس المكانة العالية التى سبق ان منحها أياه عند أول تعيينه قائداً على جيش الصحراء . وتحقق التراضى التـام مع المخصى الاسبانى حتى أنه استدعاه الى المغرب ليقمع تمرداً كان يسبب له الكثير من القلق . غير أن جودار الذى أصبح الآن يثق بنفسه الى حد بعيد ، رفض ترك السودان حتى يعين حـاكم كفوء يتسلم زمـام الأمور منـه . فارسـل المنصور عندئذٍ قائدين مدنيين ، احدهما برتغالى ، على أن جـودار لم يعتقد بقدرتهما على صد الهجوم الذى كان يتصـوره سيأتى من المـادنجو فى مـالى ولذلك رفض تسليم الأمور اليهما . وارسل المنصور بعد ذلك عمار باشا ، وهو شاب خصى برتغالى كان قد ارسل من قبل الى السودان بوصفه قائداً على رتل من التعزيزات قوامه 1000 رجـل . وقد قسم هؤلاء الى هيئتين كـل منهما من 500 رجل ، احداهما من الالجيين والثانية من الاندلسيين ، وكل فئة تسيـر فى طريق تختلف عن الأخرى ، وهو أمر صار معتاداً عند تحرك اعداد كبيرة من الجند عبر الصحراء . ووصل الالجيون الى تمبكتو بسلام ، ولكن الاندلسيين هلكوا إلا شخصاً واحداً . وبالرغم من هذه النتيجة المثبطة فقد وجد جودار فى نفسه قبولاً كافياً مع ازاء عمار ، فسلم اليه الأمور وعاد الى المغرب .

كان جاسبر طومسون Jasper Tomson تاجراً انكليزيـاً يعيش فى مراكش

خلال ذلك الوقت وقد أرسل الى احد أقاربه فى لندن تقريراً ممتعاً عن عـودة جودار باشا الى وطنه المغرب :

« وصل الى هنا منذ ستة أيام (كتب فى 4 يولية 1599) شخص بارز قادم من جاجو (جاو) يسمى جودار باشا ، كـان هذا الملك قـد أرسله قبل عشـر سنوات ليفتح تلك البلاد حيث فقد فيها الكثير من أبناء هذا البلد حياتهم . وقد جلب معه ثلاثين جملاً محملاً بالتبر ، الذى هو ذهب غير صاف . ومعه ايضاً قـدر كبيـر من الفلفــل ، وقـرون وحيــد القـرن ، وصنف معين من الخشب للأصباغ ، يحملها 120 جملاً . وقدم كل هذه الأشياء الى الملك بالأضافة الى 50 فرساً ، وعدد كبير من الخصيان ، والأقزام ، ومن الـرقيق نساءً ورجـالاً ، بالاضافة الى 15 عذراء ، هن بنات ملك جاجو ، ارسلهن ليصبحن محظيات لدى الملك . وينبغى أن تلاحظوا أن جميع هؤلاء لهم لون أسود ، لأن ذلك البلد ليس فيه من لون آخر *(5) » .

وقدر طومسون قيمة حمل الأبل من الذهب بما يعادل 604,800 جنيه .

ولم يكد جودار يغادر السودان ، حتى كان غزو المادنجو الذى تنبأ به قد أخذ بالاندفاع نحو البلاد . وقد رد الغزاة على أعقـابهم ، ولكن بعد صعـوبة بالغة ، وأمكن بشق النفس تحاشى تمرد عام كانت القبائل تزمع اللجوء اليه . ومع ذلك فان الحالة لم تعالج بالتى هى أحسن من قبـل عمار ، ولهذا السبب فقد استدعى فوراً وعين بدلاً عنه سليمان باشا ، الذى كان آخر ـ ومن المؤكد أفضـل ـ من عينهم المنصور لهـذا المنصب . لقـد كـان سليمـان ، بخـلاف سابقيه ، أدارياً مستنيراً يدرك الحاجة الى كسب ثقة السودانيين . فنقل حامية تمبكتو الى معسكر خارج المدينة ، وبذلك خلّص سكانها من النهب والأعمال

---

* الفلفل المراد هنا هو الذى كان يسمى أحياناً بحب الجنة Grains of Paradise ومنه اتخذ حب ساحل غينيا اسمه . وقرون وحيد القرن يحتمل أن تكون قرون الكركدن ، والتصور البديل بأنها قرون المارية (ضرب من بقر الوحش الأفريقى) غير مقبول ، لأن المارية كانت واسعة الانتشار فى الصحراء الأفريقية ، ولذلك لا يحتمل أن تكون قرونها غالية الثمن فى المغرب .

الأستبدادية التافهة التي تعرضوا لها زمناً طويلاً . ولهذا الغرض نفسه ألزم الجيش كله برعاية سلوك انضباطي صارم لم يكونوا يعرفونه منذ زمن محمود . وعلى أثر ذلك خف سخط السودان وزاد ميلهم الى الصلح والمسالمة على نحو لم يعرفه المغاربة من قبل. ومن سوء الطالع للسونجاي والمغاربة معاً كانت هذه الفترة من الحكومة النظامية قصيرة . فقد انتهت بوفاة المنصور في أغسطس 1603 .

وحاول كل واحد من أبناء المنصور الثلاثة أن يستولى على عرشه ومملكته . فكانت مراكش من نصيب الأصغر زيدان الذى انتصر في الأخير على أخويه ، ولكن بعد سنوات طويلة من الكفاح الأهلي . وعلى أية حال فان الجيش في السودان قد قبل به فوراً واعتبره الوريث الشرعي لأبيه ، على أن هذا لم ينفعه كما لم ينفع الجيش بأى شكل . فقد كان مشغولاً الى حد بعيد بالفوضى الضاربة أطنابها في الداخل ، وبمركزه المحفوف بالمخاطر ، ولذلك لم يكن يشغل باله كثيراً بما كان يجرى وراء الصحراء ، كما أن جنده الموالين له هناك ما كان في وسعهم إداء أية خدمة له في مشاكله الداخلية .

وعلى أثر استدعاء سليمان باشا بعد وفاة المنصور فوراً ، تدهورت الحالة في السودان الى حد بات من المشكوك فيه إعادة السلطة الشريفية الى سابق عهدها . فقد اندلعت الثورات في كل مكان ، ثار الطوارق ، والسونجاى، والفولانيون ، ذلك أن احداً من هؤلاء لم يكن قد قضى عليه القضاء المبرم ، بسبب الحالة المؤسفة التي انتهى اليها الجيش . فقد كان الجنود يتنازعون فيما بينهم ، وكانوا يعنون بالخصومات الحزبية أكثر من عنايتهم بمقاومة اعداء بلدهم . وفي عام 1610 طرد محمود لونكو الذى خلف سليمان ، طرده أحد قواده ، على التلمساني ، الذى رفع نفسه الى مرتبة الباشا متحدياً على نحو مكشوف سلطة الشريف .

وعندما وجد مولاى زيدان في آخر الأمر أن مركزه قد غدا مأموناً بدرجة كافية في الداخل حاول أن يعيد الأمور الى نصابها في السودان ، فأرسل مرة

أخرى عمار باشا ليرى ماذا فى وسعه أن يفعل * . ووجد عمار السودان يغلى بالتمرد ، وكان الجيش قد فلت زمامه ، ولم يعد بالامكان السيطرة عليه أو التحكم فيه ، حتى أن اعدام على التلمساني لم يأت بذرة من الانضباط اليه . وعندما عاد عمار الى بلاده عام 1618 ليقدم تقريره ، اتخذ مولاى زيدان قراراً صائباً بالتخلى عن المشروع الباهظ التكاليف الذى ورّط فيه المنصور بلاده خلال الثماني والعشرين سنة الماضية+ .

أصبح المغاربة على نهر النيجر الآن سادة أنفسهم . فصاروا يختارون الباشوات والقواد بأنفسهم . يطيعونهم أو يعصونهم حسب ميولهم ، ويعزلونهم عند أقل هفوة . وفى خلال بعض الوقت كانوا يختارون ضباطهم من بين الجنود الذين ارسلوا من المغرب . ولما أخذ عددهم يتناقص تدريجاً صاروا يملأون الشواغر بالخلاسيين الذين كانوا يسمون بالأرما Arma . وكان هدف كل قسم من الأقسام الثلاثة التى تؤلف الجيش أن يجعل مرتبة الباشوية لواحد من ضباطه ، ولذلك كانت التعيينات تثير فى حالات عديدة الكثير من الخلافات الحادة . والقسمان اللذان خابا فى مساعيهما يرفضان عادة الخدمة تحت أمرة الباشوات الذين لم يحظوا بموافقتهم ، والذين تبذل الجهود لأقصائهم على وجه السرعة . كان الباشوات يصعدون ويسقطون بين عشية وضحاها تقريباً (6) .

وكان أول ما يعنى به الباشا ، هو أن يشبع ، مهما كلف الأمر ، طمع الزمر التى يدين لها بترقيته الى تلك المرتبة التى أتاحت له الفرص لتحقيق المكاسب الشخصية . ومن نكد الطالع أن أصبح السودانيون ضحية لكل نوع من الابتزاز الذى لم يكن من سبيل للهرب منه . وإذا احس أحد الباشوات بأن

* كان عمار باشا يصحبه الى السودان رفيق فرنسى ، هو الملاح بول امبرت . وسوف ترد من بعد مناسبة يشار فيها الى حضوره .

+ وبرغم ذلك ، فى عام 1958 أدّعى محمد الخامس ملك المغرب أن حدود بلاده تمتد الى السنغال وتشمل تمبكتو .

مركزه قد أخذ يتقلقل فلا يتردد من دعوة الطوارق لمساعـدته ، ويكـافأون فى الغالب على ذلك باطلاق يدهم فى نهب الفلاحين من السونجاى . ولم يكن بد من أن تؤدى الفوضى واختلال الأمن فى كل مكان الى تقلص الزراعة وانتشار المجاعات المدمرة .

وظلت تمبكتو عاصمة للمغاربة ومقراً لأقامة الملوك الدمى من آل عشقية الذين كانوا يصعدون ويسقطون بين آن وآخر مثـل الباشـوات تقريبـاً . وكانت الحاميات التى يتولاها القواد موجودة فى جاو التى كانت فى حالة مستمرة من التمرد ، وفى بامبا وجين . وكان لا بد من التسليم بسيادة الشريف للأغراض الدينية الصرفة ، ولذلك فقد أقر بهذا من الناحية الشكلية على أقـل تقديـر ، واستمرت صلاة الجمعة تؤدى باسمه . ويبدو أنهم كانوا يرسلون اليه الجـزية ايضاً . وحتى فترة متأخرة من منتصف القرن ، ذكر أحد الفرنسيين ، وقد عاش سنين عديدة فى المغرب : «إن ملك جاو ، ـ وهو يعنى بلا ريب الألعوبة من آل عشقية ـ يكنّ احتراماً عميقاً(للشريف) حتى أن البعض قد أكدوا لنا أنه يدفع الجزية الى ملك المغرب، ولكنى لا أصدق ذلك، على أنه من المؤكد أنه يتحفه بالهدايا» (7) . وعلى أيـة حال ففى عـام 1660 رفض الباشـا الحاكم ، محمد الشيتقى ، الأعتراف بالشريف وأمـر أن تؤدى صلاة الجمعـة باسمـه . وبعد سنوات قليلة بلغ الأرما ، أى الخلاسيون ، وقد أصبح كل المغاربة على هذه الشاكلة ، بلغوا حداً من الضعف بحيث أن تمبكتو ذهبت منهم الى أيدى بامبارا الوثنيين من سيجو Segu . وكان هذا أول خطوة فى انحدارهم السـريع نحو الأنقراض السياسى .

وبحلول هذا الوقت كانت الأسرة السعـدية فى المغـرب قد تخلت عن مكانتها الى الأسـرة الحسنية أو الفيلاليـة . وقـد أرغم مولاى الـراشد ، وهـو الحاكم الثالث من هذا البيت الجديد ، على أن ينفق طوال عهده فى مكافحة خصومه الأقوياء الذين كانوا يبغون إعادة السلطة الى الأسرة السعدية . وكـان من أخطر هؤلاء شخص اسمه على بن حيدر ، الذى أرغمه الشريف فى آخر الأمـر على أن يهـاجـر من البلد . فخـرج مـع رهط من أتبـاعــه والتجـأ الى

السودان ، واستطاع بتقديم عذراوين أنـدلسيتين أن يحصل على الحمـاية من ملك سيجو البمبارى ، وهو المسيطر الجديد على تمبكتـو . وشرع فـوراً فى جمع جيش خاص ، وفى عام 1672 بدأ بالعودة الى المغـرب ليأخـذ بثأره من الراشد . ولما وصل وجد الشريف قد مات . ولم يكن من سـوء بين على بن حيدر وبين مولاى اسماعيل الحاكم الجديد ، ولذلك فقد تـرك الأول النشاط السيـاسى ، واستولى الأخيـر على جيشـه محـولاً إيـاه الى نـوع من الحـرس الملكى . وهكذا ظهر الى الـوجود العبيـد الزنـوج أو البخاريـون المشهورون الذين قدر لهم فى السنوات التالية ، كما قدر للمماليك فى مصر ، أن يلعبـوا دوراً تخريبياً فى الحياة السياسية المغربية (8) .

وسرعان ما تبين لدى اسماعيل أن جنوده من الزنـوج ، بسبب انعزالهم عن السياسة المحلية ، كانوا من أكثر الأقسام فى جيشه جدارة بالأعتماد . كان سعيـداً بهم الى حد أنـه راح يزيـد من قوتهم بضم جميـع الهراتينيين الـذين وجدهم الى صفوفهم ، كما ضم اليهم جميع الأولاد من الـزنوج الـذين كان جودار وغيره من الباشوات السابقين قد ارسلوهم بصفة أسرى الى المنصور . كما أنه شجع جيشه الأسـود على انجاب الأطفـال الذين كـانوا منـذ الطفـولة يدربون على الحيـاة العسكريـة . وفكر فى وسـائل أخـرى للمضى فى زيادة قوتهم فأرسل ابن أخته أبا العباس أحمد الى السودان لجمـع الأفراد وتكـوين ذخيرة مناسبة منهم .

وقد وصل أحمد الى تمبكتو فى وقت أصبحت فيها الحياة لا تطاق بسبب غارات البيرابيشيين من الصحراء الغربية ، ولم يفعل سادة المدينة من البمبارة شيئاً لحماية أهل البلدة . وكان مع أحمد عدد ملحوظ من الحاشيـة ، فرحب بهم أهل البلدة واعتبروهم من المنقذين لهم . وبعد أن طرد موظفو البمبارة تولى أحمد السيطرة على البلدة باسم الشريف . وقضى بضع سنين هناك ، ويقـال إنه خلال تلك الفترة استعاد مرة أخرى فتح بعض الأقاليم المفقودة . ومع ذلك يبدو أنه اشغل نفسه أساساً بجمع الجنود السود للشريف ، وعنـد عودتـه الى المغرب ترك وراءه حامية لدعم سلطة الشريف ، ولكن الحامية لم تستطع أن

تصد البمبارة الذين عادوا فدخلوا تمبكتو ، وسـرعان مـا اندمجـوا فى صفوف الأرما (الخلاسيين) .

وكان الأرما فى ذلـك الوقت قـد نال منهم الانحـطاط وتحولـوا الى فئة عسكرية ضعيفة ، تركت لحالها طالما كـانت تدفـع الجزيـة لسيجو . وكـانوا يعيشون أساساً على الابتزاز بالتهديد ، ويبيعون خـدماتهم لمجتمـع التجار . كانت التجارة مستمرة على ازدهارها ، وبالرغم من حالـة الفوضى المـزمنة ، فقد كان فى تمبكتو حتى ذلك الوقت جالية واسعة من التجار الأجانب ، الذين يمثلون البيوت التجارية فى المغرب . واذا لم يدفع التجـار الأجانب الـرسوم التى يفـرضها عليهم الأرمـا زج بهم فى السجن . أمـا اذا أدوا مـا عليهم من الالتزامات فما كانوا يحصلون فى مقابل ذلك إلا على الشىء اليسيـر ، ولهذا كانوا يجرون بعض الترتيبات الخاصة مع الجنود لتوفير ما يحتـاجون اليـه من الحماية لأنفسهم ولقوافلهم . وكانت حاجتهم الى هذين الصنفين من الحماية مستمرة بطبيعة الحال . وكانت لكل واحدة من فرق الجيش الثلاث مجموعـة دائمة من الزبائن يؤجر اليهم الحرس .

وبينما كان الأرما فى تمبكتو يحيون بترف على حساب التجار الأجانب الأثرياء ، كانت جماعتهم فى جاو تعيش حياة غير مستقرة إزاء خطر جديـد . فمنـذ السنوات الأخيـرة من القرن السـادس عشر طـرأ تغيير كبيـر على النمط القبلى فى الصحراء الوسطى . ذلك أن كيل أوى Kel Owi من الطوارق بمعونة سيدهم الكبير ماى أدريس علومة فى بورنو قد أخرجوا كيل جريس Kel Geres من الأيار وسيطروا على طريق القوافل المهم الذى يربط بين الهاوسا وغـات . وانتقلت جماعة كيل جريس غرباً الى أدرار ، ودفعت أمامها قبيلة علم الـدين Aulimniden وقبيلة كيـل تدميكت ، وكلهـا قبائـل مترابـطة ولكنها متعـادية . واستقرت القبيلة الأخيرة بسلام قرب تمبكتـو ، ولكن قبيلة علم الدين الأشـد بأساً ، استولت على المراعى الخصبة حول جـاو متحديـة حاميـة الأرما التى تغلبت عليها . ومع أن الأرما قد استردوا عـاصمة السونجـاى القديمـة ، فان

قدرتهم على المقاومة كانت آخذة بالتضاؤل . فعلى طول الطريق من جاو ، الى جين كانت سيطرتهم على نهر النيجر تضعف تدريجاً . وفى أواخر القرن السابع عشر سقطت جاو مرة اخرى فى أيدى علم الدين ولم تسترد أبداً ، وأصبح قادة جين تابعين على وجه الدوام ، مرة يتبعون قبيلة بمبارا ، وأخرى يتبعون الفولانى . وسعى الأرما فى تمبكتو خلال بعض الوقت أن يحافظوا على قدر من الاستقلال إزاء العدوان المتواصل الذى ما كان يأتى من قبيلة البمبارة التى يبدو أنها فقدت الاهتمام بالمدينة ، بل كان يأتى من الطوارق . فقد هجم على الأرما اولاً قبيلة علم الدين ، ثم هجمت عليهم قبيلة كيل تاتميكت التى على يدها ، وفى منتصف القرن التالى ، منى الأرما بهزيمة لم يستفيقوا بعدها أبداً .

وبمرور الوقت أخذ الأرما يندمجون تدريجاً بالسكان المحليين . وبقوا مدة طويلة ينظر اليهم كزمرة كانت مرتبطة بالحكومات السابقة ، وكان مظهرهم الخارجى يذكر غالباً أن المغاربة الذين غزوا السودان كان معظمهم من الأوربيين . ويمكن العثور عليهم حتى الوقت الحاضر فى تمبكتو وجين ، ولكن من العسير التمييز بينهم وبين بقية السكان .

ويمكن أن يشاهد حتى الآن فى منطقة نهر النيجر الأوسط أثر المغاربة فى الأوانى الفخارية ، والملابس ، وغذاء الناس . ولكن أهم أثر باق لهم كان فى أسلوب البناء ، وبخاصة فى جين ، حيث تطور فيها فن البناء على نحو لا مثيل له فى أى مكان آخر من السودان الغربى [9] . على أن الثمن الذى دفع لقاء هذه المكاسب التافهة هو أن شعباً محباً للسلام قد فقد لعدة أجيال كل شيء تقريباً يدخل فى سعادة الانسان . وإذا ما نسى كل شىء من اللغة الاسبانية التى كان الغزاة ينطقون بها ، فان السودانيين ، كما يخبرنا السعدى ، يتذكرون تماماً حتى الآن ذلك الأمر المروّع « اقطع رأسه » ، إن قصة فتح المغاربة تظل واحداً من احلك الفصول فى تاريخ القارة .

الفصل الثاني والعشرون

الذهبي

« ان ملك المغرب يحتمل أن يصبح اعظم امير فى العالم من حيث الاموال ، اذا استطاع الاحتفاظ بتلك البلاد (السودان)» .

أنطونى داسل

كان مولاى زيدان ، ابن المنصور وخليفته ، بعد خيبته بضئالة ما وجده فى خزينة ابيه ، يشكو بمرارة من الاستنزاف الذى تحملته المملكة بسبب الحملة على السودان . فقد استهلكت ، كما ذكر ، 23000 من الجنود ، ومعظم الذين عادوا ماتوا من الامراض التى اصيبوا بها فى المناطق الاستوائية . وقد بينت صناديق ابيه الخاوية مدى الخسارة والضياع من كل تلك الحملة . وكان السعدى ، مؤلف كتاب تاريخ السودان ، الذى نشأ فى بلدته تمبكتو تحت سيطرة الفاتحين ، يعتقد ايضاً أن ذلك الانفاق الهائل من الرجال والأموال قد ذهب عبثاً .

كلا هذين الرجلين ، الشريف والسوداني ، كان متحاملاً ، وإن كان لاسباب مختلفة . وكلاهما كان على خطأ . ولا ريب فى أن حملة السودان قد اخفقت فى تحقيق غرضها وهو الاستيلاء على مصادر الذهب ، ولكنها اغنت المنصور الثرى على نطاق لا يجعله يندم كثيراً على حملته ، حتى إن لم يشاطره فى رضاه سوى عدد قليل . ومع هذا فقد اطلقوا عليه لقب « الذهبى » .

حتى فى زمن العفرانى ، أى بعد أكثر من خمسين سنة على التخلى عن السودان ، كان المغاربة يتذكرون بفخر الثروة التى تدفقت على بلادهم نتيجة لفتح السودان الغربى :

« على أثـر فتح ولايـات السودان ، تسلم سلطان المغـرب من الذهب الوافر ما حرك حسد الرجـال واذهل المشـاهدين أشـد الذهـول . ومنذ ذلـك التاريخ فصاعداً كان المنصور يدفع الى موظفيه بالمعدن الصافى والدنانير ذات الوزن التام . وكان على باب قصره 1400 صائغ يعملون يومياً فى اعداد القطع الذهبية ، وكان يتبقى بعد ذلك قدر من المعدن الثمين يحول الى خواتم وانواع اخرى من الحلية . وهذه الوفرة العظيمة من الذهب هى التى جعلت السلطان يلقّب بالذهبى . »

وتقدير العفرانى هذا قد أيدته شهادة الاجانب الذين كانوا يعيشـون فى مراكش حينما كانت الحملة تخوض فى مجراها المـأساوى . ومن بين هؤلاء لورنس مادوك ،وهو تاجر انكليزي كان يراسل مديره فى لندن ، انطونى داسل فى شركة البربر ، ويحيطه علماً بما يجرى من الاحداث فى المغرب . وفيما يلى تقرير كان قد أرسله الى لندن فى اغسطس من عام 1594 ، بعد عشرة ايام من وصـول قاضى تمبكتـو أبى حفص عمر والسجنـاء الآخرين الـذين كـان المنصور قد أرسلهم مقيدين بالسلاسل عبر الصحراء :

تسلمت رسالتكم الأخيرة ووجدت أنكم تطلبون منى أن اخبركم باحوال البلدين تمبكتو وجاجـو . ولكن لا يتسرب الـظن اليكم بأنى غـافل عن هـذا الأمر ، وانتم عاقدون العزم عليه حقاً وتماماً ، فانى مخبركم بانه قبل عشرة ايام مضت جاء الى هنا جماعة من الاندلسيين عائدين من جاجو ، كما جاء موظف مغربى كبير كان الملك قد أرسله الى هنـاك فى الأول مع القـائد محمـود بن زرقون ، وقد جلبوا معهم ثلاثين بغلاً محملاً بالذهب . وقد شاهدت أنا بعينى ذلك الشيىء نفسه يحمل الى القصبة * . وهؤلاء الرجال الـذين جاءوا ليسـوا

* كانت القصبة هى قصر الشريف فى مراكش .

بالفقراء بل هم على جانب من الثراء ، بحيث إنهم قدموا بدون حصولهم على أمر من الملك ، ولهذا السبب فان الملك لن يدفع لهم أجوراً عن المدة التى قضوها هناك . ومن الناحية الأخرى فانهم لا يجرأون على مخاطبة الملك بدفع شيىء من الأجور . ولما وجد القائد محمود أن رئيس الاندلسيين لا يريد البقاء معه فى جاجو رأى من الافضل أن يرسل تلك البغال الثلاثين المحملة بالذهب معه ، بالاضافة الى رسائل الاطراء التى استشف منها الملك الثروات التى جلبوها معهم . وكان هذا هو السبب الذى من اجله امتعض الملك منهم .

وعلى هذا الاساس يبقى هناك فى جاجو القائد محمود ، والقائد جودار ، والقائد بواختيار . ويستعد هنا الآن على أمل الرحيل فى نهاية سبتمبر القادم . . . خمسة آلاف رجل معظمهم من الذين يحملون البنادق . . .

وفى فترة تالية من الشهر كتب مادوك مرة اخرى الى داسُل استجابة لطلب الثانى مزيداً من المعلومات عن نشاط المنصور فى غينيا :

إن الدخل الذى تدره تمبكتو يعادل 60 قنطاراً* من الذهب فى السنة. يا له من خير ليتك تعرفه . اما الدخل الذى ستغله جاجو فسوف تعرفه فى الربيع ، ففى ذلك الوقت سيعود القائد محمود الى بلده . إن ريع تمبكتو يأتى محمولاً ضمن قافلة وهو يساوى ، كما ذكر فى اعلاه ، 60 قنطاراً .

ويشير الخبر الى : أن محمود بن زرقون سيجلب معه ثروة لا حد لها ، ولم اسمع بمثلها ابداً . ويبدو أن لديهم من الذهب اكثر من أى جزء آخر فى العالم . والقائد يفوز بكل بلد يذهب اليه بدون قتال ، وانه متجه الى الاسفل نحو ساحل البحر . وهذا الملك على عرش المغرب يحتمل أن يصبح اعظم أمير فى العالم من حيث الاموال، إن استطاع الاحتفاظ بتلك البلاد . . .[4].

---

* القنطار (أو الكنتال) يعادل 100 باوند فى الولايات المتحدة الأمريكية ، و 120 باوندا فى بريطانيا ، و100 كيلو غرام فى فرنسا (المعرب) .

اذا كانت البغال الثلاثون التى ذكرت فى رسالة مادوك الأولى لا تحمل اكثر من 70 كيلوغرام وهو الحمل المعتاد لحمار الصحراء ، فان الذهب على ظهورها يعادل حوالى 70000 أونس . وبما أن قيمة الذهب غير الصافى بالاسترلينى الجارى يساوى 50 شلناً لكل أونس ، فان قيمة تلك الثروة يحتمل أن تكون فى حدود 175000 جنيه استرلينى ، وهذا مبلغ كبير من المال بالقياس الى ذلك الوقت . وقيمة الجزية السنوية من تمبكتو التى هى 60 قنطاراً من الذهب ، تبلغ حوالى 150000 جنيه استرلينى . وقدرت الجزية من جاو بثلاثين حمل بغل من الذهب ، اى حوالى 175000 جنيه استرلينى . ولكن ايرادات المنصور من البلدان المفتوحة ما كانت تقتصر على الجزية السنوية التى تدفع اليه . فعلى سبيل المثال يمكن أن نتذكر ان جاسبر طومسون الانكليزى الذى كان فى مراكش عندما وصل جودار عائداً من السودان ، قدّر الذهب الذى جلبه معه الباشا بنحو 604000 جنيه استرلينى . وبعد ذلك فى عام 1607 حين كانت الفوضى فى المغرب والسودان التى عقبت وفاة المنصور ، والتى يحتمل أنها خفضت وعرقلت مبالغ الثروة المتدفقة شمالاً الى المغرب ، ذكر احد الفرنسيين المقيمين فى مراكش أن ثروة تقدر بنحو 4,600,000 ليرة من الذهب يتوقع أن تصل قريباً من جاو وتمبكتو .

ومع أن الدقة فى كل واحد من هذين الرقمين يثار حولها شك بالغ بطبيعة الحال ، فان البيئة التى أخذت منها تلك الأرقام تبرر على العموم الأفتراض بأن السودان كان يدر خلال بضع سنين على أقل تقدير إيراداً ضخماً .

وبهذا القدر الوافر من الذهب المتدفق الى الخزينة الملكية ، كان فى وسع المنصور أن يستأنف انفاقه المفرط الذى تيسر بانتصار المغاربة فى معركة القصر الكبير عند بداية حكمه . ولكن التجارب علمته أن ينفق بحكمة ، ولذلك فقد خصصت الثروة الجديدة لحاجات المملكة الملحة أكثر من تخصيصها للتعظيم الشخصى . ونظراً لتخوفه من جيرانه الأقوياء ، فقد أنفق

المنصور مبالغ طائلة على تحسين وسائله الدفاعية ضد الغزو والثورة . وقد عززت الى حد كبير تحصينات مدينة لاراش التى يبدو أن عدة جهات كانت تطمع بها . وبنى فى فاس حصنين عمل فيهما الرقيق الاوربيون . ولعل أكثر أصناف الأنفاق حكمة هو الذى كان على اعادة تجهيز وتطوير معمل السكر المهم فى سوس . وادراكاً منه كخليفة على شعبه ، فقد أنفق بسخاء على المساجد والمدارس . ولم يهمل الفرصة لأدخال المزيد من التحسين فى بهاء وفخامة القصور الملكية ، فالتفت مرة أخرى الى أوربا مستدعياً الحرفيين الماهرين .

ويبدو أن عدد الأنكليز الذين استخدموا فى المغرب قد أثار انتباه الضابط المشهور جون سميث من ولاية فرجينيا ، الذى اتفق أن زار البلد بعد بضعة أشهر من وفاة المنصور . وقد كتب:

«في جميع مملكة المنصور يوجد عدد لا بأس به من الصناع الماهرين ، فقد استضاف من انكلترا صاغة الذهب ، وعمال الرصاص ، والنقاشين ، وصاقلى الحجر ، وصانعى الساعات ، وكان يبتهج كثيراً باداء الصناع البارعين ، فخصص لكل منهم عشرة شلنات فى اليوم على نحو دائم ، بالاضافة الى الكتان ، والصوف ، والحرير ، وما يرغبون فيه من الطعام والأدوات ، وأتيح لهم أن يصدروا ويستوردوا ما يشاءون بدون رسوم كمركية . وهذه المهارات كانت نادرة فى مملكته ، ولكن يوجد أنواع منها تعيش الآن فى لندن» [6] .

ولا ريب فى أن صناع الساعات الانكليز ، ونحن نعرف بالاسم واحداً أو أثنين منهم ، كانوا يستخدمون جزئياً لضبط الأدوات البحرية المتعلقة بالملاحة التى كان الشريف يعنى كثيراً بشرائها . والظاهر أن اهتمامه بهذه الأدوات قد نجم عن قيمتها الفائقة فى الصحراء . ذلك أن الغزو المغربى وما جره من الشقاء والبؤس قد أثار عداوة سكان الصحراء حتى بات من العسير العثور على الأدلاء والمرشدين . ولهذا السبب اضطر الجنود والتجار المسافرون الى

السودان أن يستعملوا الأدوات الملاحية . وقد اصطحب عمار باشا فى سفره الى السودان ملاحاً فرنسياً هو بول امبرت ، الذى وصف له أحد أبناء بلده صعوبات السفر فى الصحراء خلال ذلك الوقت بما يأتى :

«لكى توجه سيرك ينبغى لك أن تراقب شروق الشمس ومغيبها ، وأن تراقب النجوم . والبوصلة (إبرة الملاحين) (عند وجودها) يستعان بها لتحديد وجهة السير . ويهتم المسافرون فى أن يأخذوا معهم من يفهم هذه الأمور، مثل بول امبرت الذى كان ملاحاً محبوباً يحظى بالتكريم لدى سيده» (7) .

وعلى هذا المنوال أيضاً ذكر أحد الأنكليز حوالى الوقت نفسه أن التجار يقضون ستة أشهر حتى يصلوا السودان :

«ومنها يقضى شهران فى السير خلال الصحراء الرملية التى لا يسكن فيها أحد ، ولا يوجد فيها أى طريق ، ويسترشد بالأدلاء ، كالسفن فى البحار ، وذلك بمراقبة مسار الشمس ، والقمر ، والنجوم خوفاً من ضياع الطريق . ولو أضاع الناس طريقهم لواجهوا المجاعة والموت لفقدان المياه ، ولا تبلى أجساد موتاهم بل تتحول الى مومياء على نحو طبيعى أو علاجى مثل الذى يأتى من الأسكندرية» (8) .

وفى عام 1600 يذكر أن ادوارد رايت الأنكليزى Edward Wright وكان عالماً بارزاً فى الرياضيات والهيدروغرافيا قد تلقى رسالة من مراكش * يلفت فيها نظره الى أن الزيارة القريبة التى يقوم بها سفير مغربى الى لندن ستكون فرصة مربحة لبيع الأدوات (9) .

وتشير الرسالة أيضاً الى :

«أن الملك مولاى أحمد يسعد كثيراً بدراسة علم الفلك وعلم التنجيم ،

---

* كان مراسله صهره توماس برنهير

ويقدر الأدوات النادرة التى تستخدم لبيان حركة الشمس ، والقمر . ولذلك فان كرتك السماوية ، وساعتك ، ومزولتك ، وآلتك لقياس الأجرام السماوية (Sextant) ، وأداتك المغناطيسية الجديدة لبيان الميل الزاوى (البعد الزاوى لنجم أو كوكب شمالاً أو جنوباً من خط الاستواء السماوى) ، أو أى أسطرلاب فيه شىء فريد ، ستلقى قبولاً ويمكن أن تبيعها بأثمان جيدة . . .

وفى وسعك أن توصى بصنع إطار من النحاس أو الفضة لبعض الأدوات ، بعد ترك بعض الفراغات للكلمات والأرقام العربية ، على أن تكون صورها على الورق دقيقة ، وتدون الأرقام اللاتينية والكلمات باللغة اللاتينية أو الأسبانية التى هى أفضل كثيراً . ويمكن أن يعثر هنا على من يستطيع أن ينقش نفس الأشياء على الأدوات باللغة العربية بعد أن يتلقى منك بعض التوجيهات حول الموضوع . . . أن التجارب الرياضية حول حجر المغنطيس سوف ترضى السفير كثيراً . فلا تتردد فى أن تعرض عليهم ما فى وسعك . فكل ذلك قد يعمل لصالحك . . .

أن أداتك المغناطيسية عن الميل الزاوى ستكون ملائمة للسفرة السنوية التى يقوم بها البعض لأجل الملك على بحر رملى (حيث يتوجب عليهم أن يستعملوا الأبرة والبوصلة) الى جاجو . ولو سألت عن هذا الموضوع ، وبينت لهم بعض الأدوات التى تستخدم لهذا الغرض ، فسوف يكون رضاهم عظيماً» (10) .

لم يكن الذهب هو المنتوج السودانى الوحيد الذى كان يثمن عالياً فى المغرب . فقد كان هناك طلب حاد على الرقيق ، العاج ، خشب الأبنوس ، وطيب الزباد ، وأشياء كثيرة أخرى كانت تجد لها سوقاً رائجة . وكان الباشوات التابعون للمنصور يزودونه بهذه المواد جميعاً على أحسن الوجوه . فالى جانب الهدية الفاخرة التى جلبها معه جودار ، كان المنصور قد تسلم من قبل هدية أرسلها محمود تشمل 1200 من الرقيق ، نصفهم من الرجال ونصفهم من النساء ، بالاضافة الى أربعين حملاً من الذهب ، وكمية من خشب الأبنوس ،

وطيب الزباد ، وسنّور الزباد ، وعدد من المنتجات الأخرى النـادرة والثمينة . وأرسل اليه مرة فيل استطاع به الشريف، أن يشبع رغبات الناس فى مراكش ويثير دهشتهم * .

وتـركزت الثـروة الجديـدة التى حصل عليهـا البلد فى أيـدى الشـريف والمقربين اليه ، أما العامـة فقد حـرموا من أى تعـويض فى مقابـل المطالب الباهظة التى فـرضتها الحملة عليهم . وأثبتت الـوقائـع أن تخوف التجـار من انقطاع تجارتهم بسبب الحملة كان له ما يبرره ، وإن كانت الأعمال التجارية استعادت نشاطها بعد توقف الحرب . ولكن الجميع كانوا يشعرون بخيبة مريرة بسبب فشلهم فى اكتشـاف مصدر الـذهب وإضافـة هذا الأنجـاز الى قـائمـة فتوحاتهم . وبقيت ثروة وانغارا نائية كما كانت دائماً . ومع ذلـك فقد كـانت الخزينة قد امتلأت حتى الفيضان ، وكانت التجارة مزدهرة ، وما من أحد قد استفاد مثل التجار الأجانب ، لأن المواد الترفية التى يحتاج اليها القصر كثيراً كانت كلها تقريباً تستورد من أوربا .

وكان معظم الجماعات التجارية الأجنبيـة من الانكليز ، والفـرنسيين ، والهولنديين ، غيـر أن التجار الأنكليـز كانـوا يؤلفون القسم الغـالب ، وكانـوا يتمتعـون فعلاً بـاحتكار التجـارة المارة بـأغـاديـر وصـافى حيث أخـرج منهـا البرتغاليون على يد المغـاربة عـام 1541 . وكان فى قبضـة البرتغـاليين آنذاك موانىء سبتة ، وطنجة ، ومازاغان ، فقط ، على أنهم كانـوا يشعرون بمـرارة بالغة لفقدانهم التجارة الثمينة فى جنوب المغرب . وادعوا أنهم بموجب البيان الشهير الذى أصدره البابا اليكساندر السادس ، لهم وحدهم الحق فى التجارة مع أفريقيا خارج البحر المتوسط . وقـد أدى هذا الى نـزاع طويـل الأمد مـع الأنكليز لم يحل إلا بعد أن وافقت انكلترا على تـرك مطالبهـا فى غينيا حيث أقامت معها علاقات تجارية منذ منتصف القرن السادس عشر . ولكنهم (أى

* يعزى ادخال التبغ الى المغرب الى الزنوج القائمين على صيانة الفيل .

الأنكليز) رفضوا باصرار التخلى عن تجارتهم المربحة مع المغرب .

والمواد الرئيسة الداخلة فى التجارة الانكليزية كانت تتألف من الملح الصخرى ، والسكر من سوس ، وكان المنصور قد استخدم المهرة من الأنكليز فى أعداد كلتا الصناعتين . وفى خلال الحرب الأهلية التى عقبت وفاته تخرّب الكثير من مزارع السكر ، ولحقت انكلترا من وراء ذلك خسائر كبيرة . وكانت الصادرات الأخرى الى انكلترا تشمل الذهب ، ريش النعام ، النيلة ، شمع النحل ، التمور ، الخيول ، والصقور بأنواعها . ومع الذهب ، الذى كان فى حالة التبر المجلوب من السودان ، كان اليهود المغاربة يشحنون الى لندن مقادير ملحوظة من المسكوكات الذهبية الرائجة فى المغرب ، لكى يعاد ضربها وتحول الى مسكوكات انكليزية * . والسلع الرئيسة التى كانت تشحن من انكلترا الى المغرب هى الأصناف المختلفة من الذخائر ، ومواد بناء السفن ، والأجهزة البحرية (وهذه المواد كانت تطلب لأغراض القرصنة ولذلك وسمتها حقاً أوربا الكاثوليكية بأنها ذخائر حربية) ، وكميات كبيرة من الأقمشة .

أما تجارة الأسلحة ، فقد أرادت اليزابث ، كما أرادها الشريف ، أن تظل سراً مكتوماً ، وكانت رابطة شخصية بين الملكين ، كما كانت من قبل بين اليزابث وعبد المالك . كانت رابطة يعول عليها المنصور كثيراً ، ذلك أن انكلترا ، بالاضافة الى أنها الدولة الأجنبية الوحيدة التى فى وسعه أن يجهر بصداقتها ، هى التى حطمت الأرمادا ، أسطول فيليب ملك اسبانيا المقيت . وكان يرى أن هذه الصداقة ينبغى أن تعزز وان تستغل ايضاً .

---

* فى عهد اليزابث الأولى والسنوات الأولى من حكم جيمس الأول ، كان المصدر الرئيس لذهب المسكوكات الانكليزية هو المسكوكات الذهبية الأجنبية ، التى كانت تغنم من الأسبان أو يستوردها التجار . وبعد سنة 1612 ، ولأجل الحصول على ربح من دار الضرب ، وضع جيمس حداً أعلى لأسعار المسكوكات الأجنبية والسبيكة ، وكان هذا الثانى يطلق عليه اسم «ذهب البربر» . (رئيس الموظفين ، دار الضرب الملكية ، فى رسالة الى المؤلف) .

وفى عـام 1600 وصل سـراً الى لندن مـوظف ذو مقـام عـال فى بـلاط الشريف ، وهو السفير الذى أخبـر ادوارد رايت بأنـه من المحتمل أن يشتـرى أدواته . وكان هو وحاشيته المؤلفة من تاجرين ، ومترجم ، واثنى عشر خادماً ، قد اسكنتهم الملكة المرتبكة فى منـزل أحد أعضـاء المجلس التشريعى على مضض منه فى مدينـة لندن . وعنـدما أتيـح للسفير مقـابلة اليزابث فى قصـر نونسوج Nonsuch ذهلت حين كشف لها السفير أنه قد جاء لكى يقترح عليها أن تقوم هى والمنصور بشن هجوم مشترك على اسبـانيا وأن يستـوليا على جميـع ممتلكات فيليب فى العالمين القـديم والجديـد ويقتسمانهـا . ولكى لا تشك الملكة فى قدرة جيش الشريف على أداء دوره فى مثل هذا المشروع الخطير ذكرها بما حققه المنصور حديثاً من فتح غينيا ومدنها البالغة 86,000 مدينة ![11].

ونظراً لرغبة اليزابث فى أن لا تعرض الى الخطر استيراداتها من الملح الصخرى فقد ردت عليه بجواب لبق جعلت المغربى يتصور أن الوسائل لتأمين رغبـات سيده سـوف تبحث وتدرس . وقـد وجدت الملكـة فى التخلص من السفير وأصحابـه عسراً شـديداً يفـوق ما شعـرت به من الضيق والحـرج عند سماعها الغـرض المضحك والغـريب من وفادتهم . وبـالرغم من الاشمئـزاز المتصاعد والعداوة المكشوفة التى أثارهـا فى كل مكـان السلوك الفظ لهؤلاء المغاربة ، فقد مضت عدة أشهر حتى تخلصت الملكة من ضيوفها الثقـلاء . وبمرور الزمن تنامى الشك فى أن الغرض المبرر لزيارتهم لم يكن سوى قناع لاخفاء التجسس التجارى .

ويشيـر محضر فى مجلس شـورى الملكة الى : أنـه من بـلاد البـربـر ويستخـدم كلمات فخمـة فيما يعـرضه على الملكـة من ضـروب المسـاعـدة العامة . . . ولكن غرضهم ، المستور بسفرتهم الرسمية ، هو أن يعرفوا كيف تسير الأمور التجـارية ، ومـاذا نكسب نحن من سكرهم ، حتى يستـطيعوا أن يرفعوا الأسعار تبعاً لذلك [12] .

وفى عام 1603 ، أى بعد أقل من ثلاث سنوات توفى المنصـور ، ودفن

فى ضريح فخم يمكن أن يشاهد حتى الآن فى مراكش . أنه مدين بالكثير الى الظروف الميمونة خلال عهده ، ولكنه ترك بلاده مدينة له الى حد كبير . وقد استمر عهده خمساً وعشرين سنة ، وكان جيرانه المعادون يهددون حدوده طوال هذه الفترة ، ولكنه أفلح فى المحافظة على استقلال مملكته ، وأتاح لها منزلة مرموقة بعد معركة القصر الكبير. كما أنه أذهل أوربا بالثروة التى اكتسبها من السودان بعزمه وتصميمه . وإذا ظهرت لديه معظم الأخطاء التى تلازم المستبدين فى الشرق فقد انفرد عنهم برعايته الفنون . ويضاف الى شغفه بالصناعات اليدوية البارعة اهتمامه البالغ بالمخترعات العلمية ، وكانت هذه السجية تميزه عن معاصريه أكثر من أى شىء آخر .

وجاءتنا صورة مجملة عن خصال المنصور رسمها انكليزى غير معروف الأسم ، هو الشخص المختفى وراء رو. سى RO.C * من برجاس حيث كتب : «لم يكن تجاه رعاياه شديد الاستبداد ، بل كان يلطف من سلطته المطلقة بالكثير من الرحمة والرأفة ، وقد جمع بطرق شتى مخزوناً مفرطاً من الذهب . فأولاً بتحققه من أن أعشاره قد دفعت تماماً من قبل اللاربيز (القراصنة) . وثانياً بتعاطيه التجارة مع الزنوج ، يستخرج الملح من تاغازة ويبيعه فى جاجو ، آخذاً فى مقابل ذلك قدراً جيداً من الذهب . وثالثاً بعنايته بمعصراته ومزارعه الواسعة التى ينتج فيها قصب السكر . . . ولا أذكر رغبته فى استضافة الماهرين من الصنّاع والحرفيين الأجانب ، وإعادة تجميل بيته فى مراكش ، وجلبه الرخام الأيطالى ، واختياره أرقى الأنواع التى يمكن أن تشترى منه بالنقود ، واستئجاره العمال من هناك بدفعه أجوراً عالية . وكذلك توفيره الوسائل الفاخرة لسراى السلطان وصيانة نسائه ، وما كان ينشد الأبتهاج الكبير فى انغماره بالخطيئة ، كما فعل أسلافه من قبل ، بل كان يبتغى عرض مفاخره ، لأن عادات البلد هى أن يعرض الناس ثرواتهم ورفعة منزلتهم على

* يعتقد ان آر . سى R.C هو الضابط روبرت كوفرت Robert Coverte (استناداً الى رسالة كتبها ماغز Maggs الى المؤلف) .

ذلك الجنس السهل الأنقياد وما لهن من عدد وخدمات . وكان أكثر ما يدخل السرور الى نفسه أن يشاهد بسالة الفرسان فى مملكته وهم يمتطون ظهور جيادهم البربرية القوية وعلى سواعدهم السيوف المعقوفة وهم يكادون يطيرون فى مطاردتهم البلشون» [13] .

وعند وفاة المنصور أخذت العيون الأوربية الطامعة توجه نظرها الى أفريقيا . وعلى غرار الوضع فى أيام الأمير هنرى ، قبل ما يقرب من قرنين ، كان منظر الذهب وهو يتدفق من غير قيد الى المغرب قد حرك عقول الناس الى إمكانية الاستيلاء على هذه التجارة فى مصدرها بالسير عن طريق البحر . وقد غدت إمكانات النجاح الآن أكثر إغراء . فالذهب كان ينساب بمقادير لم يحلم بها من قبل أبداً . وكل الدلائل تبين بوضوح أن المشروع قد أصبح أيسر على التطبيق . فساحل غينيا بات الآن معروفاً على نحو حسن ، والقسم الداخلى من القارة قد قيست أبعاده عن طريق المحطات التجارية التى انشأها البرتغال بين الرأس الأخضر وخليج بنين . وبالأضافة الى ذلك فقد صار الذهب يتدفق الآن ، وإن كان بكميات معتدلة ، باتجاه الشمال الى أوربا من الساحل ، وبخاصة من الحصن البرتغالى فى ساو جورج دامينا على ساحل الذهب . لقد جلب الذهب الى الساحل ، ولكن ما من أحد يعرف من أى مكان فى الداخل . إن الذين ظنوا أن ذهب المغرب وذهب غينيا لهما مصدر واحد قد وجدوا تشجيعاً فيما سرده ليو من الأخبار ، ووجدوا تأييداً فيما ذكره مارمول كارافاجال فى كتابه « وصف أفريقيا » الذى نشر أولاً فى عام 1583 وقرىء فى أوربا على نحو واسع * . ولعل العالم لا يملك سوى عدد قليل جداً من الجوائز أكبر مما يقدمه لاكتشاف المصدر الخفى للذهب ، ومن الواضح أن ساحل غينيا هو أكثر الطرق المحتملة التى تؤدى إليه . وقد عرض اقتراح من هذا القبيل على البلاط الاسبانى فى عام 1591 . ذلك أن ملجيور بيتونى Mel-chior Petoney قد كتب من أرغوين على ساحل الصمغ (كما صار يسمى) :

---

* كان مارمول اسبانياً ولد فى غرناطة وانفق سبع سنين فى أفريقيا بصفته رقيقاً لدى المغاربة .

«لو أن فيليب أرسل كل سنة مركبين أو ثلاثة مراكب شراعية محملة بالسلع التجارية الملائمة لاستطاع جلالته أن يوقف ذلك المرور ، ويمنع ملك فاس من حصوله على ذلك القدر الواسع من الذهب . وكان بيتونى نفسه يتعاطى التجارة هناك ووجد أنه بتقديم أشياء تافهة ضئيلة القيمة يمكن أن يأخذ منهم قطعة كبيرة من الذهب» ـ214 . على أن هذا لم يكن من صنف المشروعات التى يعنى بها فيليب ، فى وقت كان مشغولاً بالتمرد فى أراغون وبالثورة المستمرة فى الأراضى المنخفضة .

وبسبب المركز الممتاز الذى كان الانكليز يشغلونه فى التجارة الخارجية للمغرب ، فقد كانوا يعرفون أفضل من أية جهة أخرى حدود المقادير الواسعة من الذهب التى كانت تأتى الى البلد . وبالاضافة الى ذلك فقد كانوا يعرفون قدراً ملحوظاً عن تجارة غينيا حيث كانوا هم والفرنسيون يتعاطون تجارة الذهب ، على الرغم من البرتغال . ولذلك فقد كانوا أفضل وضعاً من أية دولة أخرى لجمع المعلومات المتعلقة بتجارة الذهب وتقديرها والاستفادة منها . ولكن هذا ما كان يقدم شيئاً كثيراً . فمن المغرب جاءت تقريباً نفس القصة التى رواها هيرودتس . فبعد فترة وجيزة من وفاة المنصور وصف رو . سى كيف اعتاد المغاربة أن يحملوا الملح من تاغازة وينقلوه الى القسم الداخلى من أفريقيا :

«ينقلون الملح الى صنف من الزنوج المشوهين الذين لا يشاهدون أبداً عند تعاطيهم المبادلة التجارية مع المغربى أو أى غريب آخر . فهم (اى المغاربة) يضعون ملحهم هناك فى المناجم ويتركونه . ثم يأتى الزنجى المشوّه ويضع أمام كل كومة من الملح مقداراً من الذهب يتصوره معادلاً لقيمة الملح ، ثم يأخذ طريقه تاركاً الذهب مع الملح . ثم يعود المغربى ، فاذا رغب فى الذهب أخذه وانصرف . واذا لم يرغب فيه أخذ قدراً من كومة الملح وترك القدر الآخر ليبيعه الى الزنجى فى مقابل الذهب . وعند عودة الزنجى ، إن رضى بالكمية وضع قدراً آخر من الذهب ، وإلا ترك المقايضة وارتحل .

ولكن قلما ينصرفون بدون مقايضة . فـالمغاربـة يحصلون على عائـد دسم ، وملكهم يملأ منه خزينته ، أما الزنجى المشوه فيثنى عليه بوصفه أصدق بائـع فى العالـم» [15] .

أن الزنجى المشوه يعد عنصراً جديداً أضيف الى القصة ، ولكنه ، كما سنرى من بعد ، كان شيئاً أكثر من مجرد تلفيق اختلقه التصور المغربى .

وفى عام 1603 اقترح هنرى روبرتس ، الذى كان وكيلاً للشركة البربرية Barbary Company ، ثم صـار من بعد وكيـلاً يخـدم اليزابث ، اقتـرح على جيمس الأول ضرورة الاستيلاء على تجارة الذهب وذلك بفتح بلاد المغرب . فقـد كتب : «أن جلالتكم بعـد تملك هذا البلد ، فى وسعكم القيـام بالغـزو والانطلاق حيث تشاءون الى غينى (غينيا) التى هى غنية جداً بالذهب والمواد الأخرى ذات القيمة العظيمة» [16] .

ولم يفعل الانكليز شيئاً حول تجارة الذهب حتى سنة 1618 ، حينما كوّن بعض التجار فى لندن « شركة لبلدان غينى وبينى (بنين) » غرضها « اكتشاف تجارة الذهب التى يتعاطاها المغاربة فى شمال أفريقيا » .

وكان يتراءى لهؤلاء المغامرين أن نهـر غامبيـا هو أكثـر الطرق احتمـالاً للوصول الى مناجم الذهب التى افترض أنها فى بعض الأماكن القريبة من جاو على نهر النيجر . وبما أن المعتقد هو أن نهرى السنغال وغامبيا منفذان يتخذ منهما نهر النيجر طريقه الى البحر ، فقد حصل الاستنتاج أن الأبحار فى أحد هذين النهرين من الساحل الى الداخل سيؤدى فى الأخيـر الى بلوغ المناجم التى طال البحث عنها .

وأول سفينة أرسلها المغامرون كانت « كاثرين » . كان يقـودها جـورج تومبسون ، وكان مؤهلاً للقيام بهذه المهمة ، واكتسب خبرة طويلة من ممارسته التجـارة فى مراكش ، ومن المحتمـل أنه ينتمى الى نفس الأسـرة التى منهـا طومسون فى تلك المدينة . وكانت الأوامر اليه أن يرتاد المناطق العليا من نهر

غامبيا أملاً فى اكتشاف المناجم . ولكن البعثة منيت بالفشل . فلم يمض زمن على وصولها أفريقيا حتى استولى البرتغاليون على السفينة وقطعوا رقاب ملاحيها . وكان تومبسون حين ذاك بعيداً فى أعالى النهر ولذلك بقى على قيد الحياة ، ولكنه لم يلبث أن قتل من بعد على يد بعض رجاله [17] .

ثم أرسل المغامرون بعد ذلك ريشارد جوبسون فى السفينة المسماة (سيون) يصحبها مركب شراعى صغير . وعندما كان جوبسون يبحر فى أعالى النهر ، كان يتوقع دائماً ، مثل تومبسون ، أن يلتقى بالتجار القادمين من المغرب . ولكنه لم يلق أحداً من المغاربة ، ولم يعثر على شىء من مناجم الذهب ، ووسمت الرحلة بالاخفاق . وبالرغم من أن جوبسون كان يؤكد على اقترابه من اكتشافات عظيمة ومربحة فقد قرر المغامرون التخلى عن المشروع .

ولكن الناس ظلت متمسكة بهذا الاعتقاد وهو أن نهر غامبيا هو المفتاح الى أسرار تجارة الذهب . وبعد أربعين سنة أشار بيتر هنرى الى إبحار خمس سفن من داونز « متوجهة نحو ريو دى غامبا غرضها أن تكتشف من أين كان يأتى الذهب » [18] .

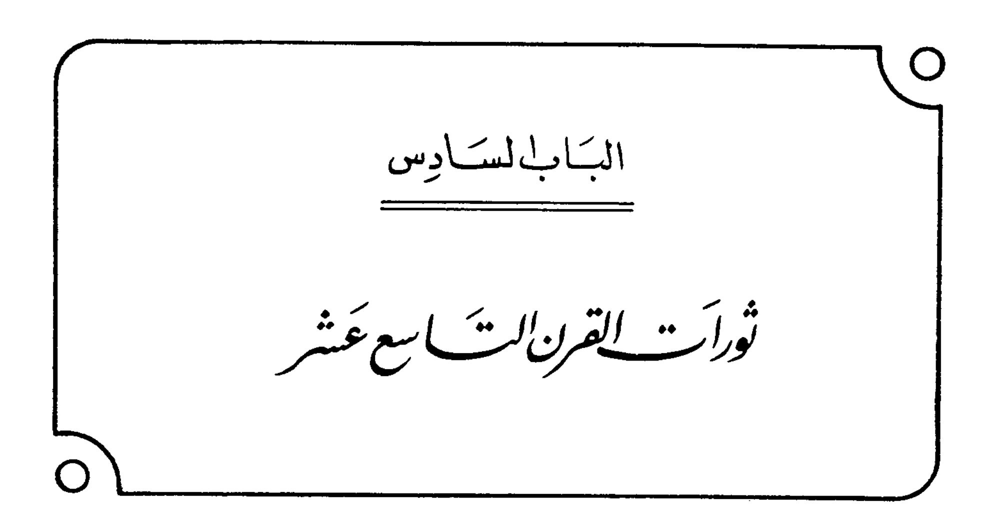
ظلت المشكلة حتى الآن بعيدة عن الحل ، ومن الواضح وجود قدر كبير من الصدق فيما قاله جبسون عن التكتم والسرية التى تحاط بهذه التجارة . فقد كتب : «أن المغاربة كانوا يمارسون هذه التجارة بقدر واسع من العناية والسيطرة بحيث إنهم ما كانوا يسمحون لأحد من أبناء بلدهم بالدخول اليها إلا اذا كان من الأشخاص البارزين ، وبعد إذن خاص ، وما كان لأحد من اتباع الدول الأخرى مهما كانت صفته أو علاقته التى اكتسبها بين المغاربة أن يستضاف الى تلك التجارة »[19] .

وقد عانت التجارة العابرة للصحراء كثيراً بطبيعة الحال من الفوضى التى سادت السودان طويلاً ، ولكن يبدو أنها لم تنقطع كلياً أبداً . فالرقيق بالاضافة الى الذهب ، قد أصبح من المواد الرئيسة فى التجارة المتجهة الى الشمال .

واشتملت الآن على العاج * أيضاً . وظل الملح السلعة الرئيسة التى تستـورد الى السودان ، وكان يحمل معه الكثير من الأقمشة الانكليـزية . وكتب أحـد التجار الأنكليز فى سنة 1635 ˆ36 «إن أهالى سوس يجرون تجارة واسعة بسلعنا الانكليزية ، فهم يأخذونها الى تمبكتو ، جاو ، والأقسام الأخـرى من غينيا ، ويحصلون من هناك على مقاديـر كبيرة من الـذهب ، الذى نحصـل منه نحن على نصيب حسن ببيع سلعنا» [20] . وفى عام 1638 كان الذهب مستمراً على شحنه الى انكلترا ، غير أن جورج كارتريت قد كتب : «من الأجدر أن يعد هذا الذهب كنزاً وليس سلعة ، ذلك أن التجهيز السابق من جـاجو ، الـذى كانت القوافل تجلبه فى أيام أحمـد ، جد الملك الحـالى ، قد انقـطع الآن بسبب الاضطرابات فى تلك الدولة» [21] . وقبل نهاية السنة كانت الاحتياطيـات من الـذهب فى المغـرب قـد أخـذت بـالتنـاقص « ذلـك أن تجـارة الـذهب من جاجو . . . قد انقطعت منذ زمن طويل » .

---

* كانت تجارة العاج سابقاً مقتصرة على الصحراء الوسطى لأن القاهرة كانت السوق الرئيس لها .



الباب السادس

ثورات القرن التاسع عشر

الفصل الثالث والعشرون

التوغل الأوربي في القارة

« لا تزال جهات القارة الأفريقية الداخلية ، مجهولة لكل من الأنجليز ، والفرنسيين والهولنديين ، رغم أنهم يتعاملون مع أكثر الجهات الساحلية

النقيب جون سميث

« يا لروعة الرأس الأخضر ، وأى سحر له من مكان !! »

اتشارلس الثانى

لم يعدم الكرتوغرافيون ، منذ بداية القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، المعلومات الجديدة ، التى أتاحت لهم دوام أثراء ما كان بحوزتهم من خرائط ، فمن النادر جداً مرور عام واحد دون أثراء المعرفة الجغرافية بمزيد من المعلومات ، فكانت تلك الفترة بحق قمة ظهور خرائط حديثة على مستوى العالم قاطبة .

ومع انتشار الخرائط الجديدة ، التى صححت العديد من المعلومات ، وأضافت الكثير الى عالم المعرفة الجغرافية ، إلا أن الملفت للنظر حقاً أنه خلال تلك الفترة والقرون الثلاثة التى أعقبت رحلة ليو الأفريقى * Leo

* استعاض دانفيل فى خرائطه عن نهر النيجر بالمحاولات التى اقتفت آثار ليو الأفريقى ، وحددت انصراف مجرى النهر غرباً صوب المحيط، إذ تبين له بعد مراجعة أعمل كل من بطليموس والأدريسى ، ومقارنتها بما استقاه من معلومات حصل عليها وأظهرت لـه أن كلا من نهرى

Africanus فان ما أضيف من معلومات موثوقة عن داخل القارة الأفريقية لم يكن شيئاً يذكر . وهكذا ظل الفكر العالق بذهن رسّامى الخرائط من الأوربيين والممزوج فى معظمه بالخيال هو الرأى المسيطر حتى استطاع الكرتوغرافى الفرنسى دانفيل Danville إزاحة تلك الصورة الخيالية ، إذ جاءت أعماله العلمية الدقيقة موضحة مدى جهل من سبقوه فى هذا المضمار ، والتى تمثلت فى عجز وفشل التجار الأوربيين فى التوغل بعيداً عن السواحل سواء من أطراف القارة الشمالية ، أو من محطات التجارة القائمة يومها على ساحل غينيا * .

فرغم تناقض واضمحلال أهمية تجارة الذهب فى منطقة الشمال الأفريقى ، فأن فكرة التخوف من أحلال التجار الأوربيين محل الوسطاء الأفارقة وفقدهم للدور الذى يقومون به ظلت قائمة وتجد لها مرتعاً فى المناطق الداخلية ، مما أحال بين دانفيل وتوطيد أقدامه فى المناطق التى وصلها ، خاصة وأن التوغل الأوربى فى منطقة المغرب العربى ، أضاف صعوبات اخرى بحكم ما طرأ من توتر على العلاقات السياسية بين أوربا ومنطقة المغرب .

شهدت أرجاء المتوسط طوال فترة العصور الوسطى تكثيف عمليات القرصنة البحرية بين كل من المسلمين والمسيحيين على السواء ، ولو أن مزاولة تلك الحرفة لم تعمل قط على عرقلة حركة التجارة ، التى كانت تخدم كلاً من الطرفين ، والتى توقفت مع الأسف ، منذ بداية القرن السادس عشر بعد دحر المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا من جهة ، وتحقيق القوة البحرية العثمانية السيطرة على معظم ثغور المتوسط من جهة أخرى .

= النيجر والسنغال نهران منفصلان . كما أظهرت احدى الخرائط التى رسمها أن نهر النيجر يسير باتجاه الشرق خلافاً لما كان سائداً، وأنه ينتهى الى بحيرة يدل مكانها على أنها بحيرة اتشاد. ومما تجدر الأشارة اليه ان أفكار دانفيل لم تلق كامل التأييد ، اذ استمر البعض فى اعتباره نهراً ينصرف صوب الغرب كما تظهر ذلك بعض خرائط التسعينات من القرن الثامن عشر .

تمكن المسلمون العائدون من اسبانيا من تأسيس تجمعات سكانية على بعض جهات الساحل الأفريقى بغية مزاولـة نوع من الثـأر ضد من نـالوا منهم على الشـاطىء الآخر ثم بـدأوا فى الأغارة على الشـواطىء الأسبانيـة ، التى يعرفونها جيداً ، وتمكنوا من إثارة الرعب بين بحارة المسيحيين وبـالذات فى منطقتى جبل طارق ، والممرات البحرية قـرب جزيـرة مالـطا مستعينين بنقاط الحماية التى يوفرها لهم ساحل أفريقيا الشمالى ، وبـالذات حين أفلحـوا فى كسب ود البحرية العثمانية ومساعدتها لهم وبالذات لذلك الدور الذى قام بـه الأخوة بربرا روسا Barbara Rossa مما ساعدهم ليصبحوا قادة ما عرف بالحصار المسيحى ، الأمر الذى مكن معظم الموانىء ما بين جزيرة جربه فى الشرق ، وميناء سالى على المحيط من تأمين وأعداد وحداتها البحرية للغـرض المشار اليه . كما ساهم أمراء تلك الموانىء فى مزاولة القرصنـة ولمدة ثـلاثة قـرون كـاملة مما أثـار الرعب بين تجـار البحر المتـوسط ، والأغارة على المـوانىء الأوربية ، وأسر آلاف المسيحيين دون أن ينازعهم أحد .

لجأت القوى الأوربية التى لم تتمكن بعد من تـوحيد صفـوفها لـدرء ذلك الخطر المشترك الى التفاوض كلا على حدة لضمان سلامة سفنها واطلاق سراح رعاياها ، بدفع الجزية والرشاوى مقابل تحقيق ذلك الغرض ، بل وأكثر من ذلك لجأت الى إقامة تمثيل دبلوماسى مع تلك الأمارات الأفريقية لتسهيل إجراءات تعاملها سواء فيمـا يتعلق بضمان حـرية سفنهـا أو وهو الأكثـر أهمية لأطلاق سراح ذوى الشأن من بين آلاف الأسرى ، الذين انغمس بعضهم فى أمور الرذيلة .

هذا وقد أتاح استعمال سفن أكبر وأسرع للبحارة الأفـريقيين فى القرن السابع عشر ، من توسيع مجال تنقـلاتهم وتكثيف نشاطهم فى مجـال بحرى أوسع بمساعدة أعداد كبيرة من الربابنة الأنجليـز الذين فقـدوا أعمالهم بحكم الأوضاع الاقتصادية السيئة التى تلت حكم الملكة اليزابيت ، ومجىء الملك شـارل الأول ومـا صـاحب ذلك من كسـاد وركـود أدى الى انتشـار ظـاهـرة المجاعة بين الملاحين الذين تكالبوا على العمل مع أساطيل الثغور الأفريقية ،

التى باتت تملك سفناً أكبر وأكثر قدرة على اجتياز المسافات الطويلة مع خبرة الملاحين الجدد ، الذين لم يعد من العسير عليهم مهاجمة سواحل أيسلندة ، وسواحل الجزر البريطانية وساحل الدانمرك .

فقد تمكن بحارة ثغر سالى المغربى ، على سبيل المثال ، من مهاجمة واحتلال جزيرة لاندى Lundy ، أثناء حكم الملك اتشارلس الثانى . كما ذعر سكان ميناء كورك Cork ، لسماعهم صوت أذان الفجر وهو يعلو فوق مياه مينائهم الهادئة .

أدى نمو البحرية الأوربية المتزايد الى اضطرار البحارة المغاربة ، الى قصر نشاطهم داخل البحر المتوسط ولو أنهم ظلوا يشكلون خطراً لا يمكن إغفاله فى الجهات المجاورة حتى نهاية حروب بونابرت ، التى تمكنت على أثرها القوى الأوربية من جمع شملها فى مؤتمر فينا ، والأتفاق على ضرورة وضع حد لذلك الخطر الذى يقلقهم جميعاً .

أما الوضع على سواحل غينيا فكان لا يزال مشيناً لسمعة الأوربيين الذين أدى فشلهم فى اختراق المنطقة الساحلية ، والتوغل صوب الداخل لأسباب خارجة عن أرادتهم بحكم الظروف الطبيعية القاهرة كصعوبة الملاحة النهرية ، ومناطق الغابات ، التى ظن باستحالة اختراقها ، والمناخ القاتل ، وهى العوامل التى زادت من استفحال سوء النية بين السكان الوطنيين ، ومن يتواجد بينهم من التجار البيض ، ذلك أن البرتغاليين اتخذوا من بعض تلك الجهات الساحلية مراكز لاقتناص الوطنيين وارسالهم كعبيد للوطن الأم .

كما أدى اكتشاف القارة الأمريكية (العالم الجديد) وتنمية المزارع الكبيرة سواء فى جزر البحر الكاريبى ، أو فى العروض المدارية من القارة الأمريكية نفسها ، الى زيادة الطلب على الأرقاء الأفارقة للعمل هناك .

وهكذا كانت تجارة الرقيق طوال القرن السادس عشر فى يد البرتغاليين الذين احتكروا ذلك النوع البغيض من التجارة التى استلم رايتها منهم ، ومنذ

النصف الأول من القرن السابع عشر ، البحارة الهولنديون الذين نجحوا فى احتلال القلاع البرتغالية وما كان بحوزتهم من مراكز تجارية فى تلك الربوع .

كما استطاع الأنجليز والفرنسيون فى تلك الأثناء انشاء بعض المستعمرات الخاصة بهم فى العالم الجديد ، وتمكنوا أيضاً من تأسيس العديد من المراكز التجارية على بعض جهات ساحل أفريقيا الغربى فى ذات الوقت الذى شهد العالم فيه نمواً فى حركة التجارة ، التى اسهمت بالتدريج فى ازدياد الطلب على حركة التعامل فى الرقيق ، حيث بلغ معدل التجارة السنوية فيها عبر المحيط الأطلسى وحده ، قرابة ثلاثة عشر الف نسمة سنوياً طوال فترة القرن السادس عشر.

أما فى نهاية القرن الثامن عشر حيث تحرك وعى الضمير العالمى ضد هذا النوع البشع من التعامل التجارى ، فأن المعدل السنوى لحركة التعامل فى تلك التجارة ، ما كان ليقل عن أربعة وستين الفاً سنوياً من منطقة غرب أفريقيا وحدها .

كان طابع المعاملات التجارية ، التى يمارسها التجار الأوربيون فى منطقة غرب أفريقيا ، طوال القرن الثامن عشر امتداداً لنوع تلك المعاملات التى كانت معهودة منذ أمد طويل . ففى منطقة ساحل الذهب كان نشاطهم التجارى يتمثل فى المقام الأول فى تشييد القلاع التجارية مثل كريستيانبورج Ckristianborg ، وألمينا Elmina وغيرها كثير ، والتى لا زالت خير شاهد على تلك الحقبة من التاريخ .

كما شهد ساحل نيجيريا نشاطات تجارية متنوعة من قبل التجار الأوربيين ، الذين ما كان يسمح لهم بأقامة وبناء مراكز تجارية فى الأطراف الداخلية من البلاد ، والذين كانوا يعتمدون دوماً على حسن معاملة السكان الوطنيين الذين وجدوا فيما يصلهم من سلع أوربية كالمنسوجات والمصنوعات المعدنية ، والاسلحة والمشروبات الروحية قبولاً حسناً .

وكان التجار الأوربيون يحصلون عن طريق الوسطاء الأفارقة ، بجانب

الرقيق ، على عدة سلع مثل الصمغ من على ضفاف نهر السنغال ، والذهب من منطقة الساحل، والخشب والعاج من جهات نهر النيجر. وكان طبيعياً أن يرتاب الوسطاء الأفارقة لرؤية التجار الأوربيين مما جعل معظمهم يقصر معاملاته على أسواق الساحل ، باستثناء قلة من التجار الفرنسيين الذين كان يستهويهم الوصول والتعامل فى أسواق ذهب مركز بامبوك Bambuk الشهيرة الواقعة على مجرى نهر النيجر ، خاصة وأن معظمهم لا يملكون رأس المال الكافى للأعداد لرحلات باهظة التكاليف ، وما يعترض سبيلهم من عقبات طبيعية يصعب اجتيازها مما جعلهم يكتفون بما يؤول اليهم من عائدات من خلال تنقلاتهم على طول أسواق الساحل .

وهكذا بقى داخل القارة الأفريقية غير معروف للأوربيين لأمد طويل على أساس حيلولة العوائق الطبيعية دون ذلك فالصحارى المحرقة ، والغابات المتشابكة ، والمستنقعات المليئة بأمراض الحمى ، والسواحل التى لا توفر الموانىء الجيدة عملت جميعها على كسر روح المغامرة .

فما أشير اليه من عقبات طبيعية لا يمكن تجاهلها أمور حظيت بالكثير من المبالغة ، فالصحراء على سبيل المثال ، كانت أبعد ما يكون عن استحالة عبورها كما تشهد على ذلك تلك الطرق التجارية المنتظمة التى كانت تخترقها رغم المخاطر التى كانت تحفها .

لقد كان بامكان أى رحالة أوربى لبق ، التمكن من الوصول واجتياز أية دولة أفريقية ، كما هو واضح من مذكرات الرعيل الأول من الرحالة الأوربيين ، مما يوضح أن جهل الأوربيين بالمناطق الداخلية يكمن فى واقع الأمر الى فقدان الدوافع المحركة لارتياد تلك الأصقاع التى كان يشار اليها ضمن الوصف العام بالقارة المبهمة ، والذى ظل سائداً حتى أواخر القرن الثامن عشر الذى شهد نمواً ملحوظاً فى ثروة بلاد أوربا الغربية ، وأدى بدوره الى ضرورة التطلع الى معارف جديدة وفى مجالات مختلفة .

ففى مجال الكشف الجغرافى ارست الرحلات الثلاث التى قام بها

البحار البريطانى جيمس كوك James Cook فى المحيط الهادىء معالم انجازات ستظل من سمات ذلك العصر ، اذ كان من بين آثارها فيما يخص القارة الأوربية ، لفت أنظار ذوى المعرفة والثروة فى بريطانيا الى ادراك أن معظم الأجزاء الداخلية لأفريقيا لا تزال غير ممثلة على خريطتها . أنها وصمة عار ولا بد لعمل شيء لملىء تلك الفراغات البيضاء ، رغم كتابات ليو الأفريقى واشارات الشريف الأدريسى لبعض ما هناك من انهار ودويلات غير واضحة المعالم .

فرسم مجرى النيجر ، وتحديد منابعه ومصبه ، وهل يمثل مجرى مستقلاً بذاته لا تزال اموراً غير محددة . انها سمة الجهل فى عصر ما بعد الكشوفات الجغرافية ، وكان لا بد من عمل شيء يزيلها ، ويوسع مدى انها المعرفة الانسانية وكان أن خرجت الى الوجود فكرة تكوين تجمع يرمى الى اكتشاف مجاهل الفارق الافريقية .

انبثقت الفكرة عن بعض أوجه المعرفة والمال الانجليز الذين كانوا اعضاء فى ناد خاص بهم حيث أصدروا فى عام 1788 قراراً بتنفيذ الفكرة المشار اليها . كان السيد جوزف بانك Sin Joseph Bank أحد الاعضاء البارزين فى ذلك التجمع، وكان شخصية لها وزنها فى المحافل العلمية، فقد رافق الكابتن كول فى أول رحلة له حول العالم وعلى نفقته الخاصة ، وانتخب وهو فى سن الخامس والثلاثين ليكون أول رئيس للجمعية الملكية البريطانية ، التى حلت محل النادى المذكور ، الذى كان بانك أحد أشهر أعضائه اذ تميز دون غيره باهتماماته العلمية التى أكتسبته شهرة عالمية حتى وفاته عام 1820 حيث أعتبر من اشد المتحمسين لكشف المجهول من القارة الافريقية .

استقر الرأى لدى اعضاء النادى المشار اليه ، قبل ان يعرف باسم الجمعية الملكية البريطانية ، الى ان يدعى تجمعهم باسم الاتحاد الافريقى African Association للدلالة على الهدف من مسعاه الذى باءت محاولاة الأولى بالفشل كلها : ـ

فلأمريكى جون ليديارد John Ledyard الذى ارسل للقاهرة لبدء جـولته الافـريقية حتى سـاحل المحيط ، تـوفى فى مصر نتيجـة حادث قبـل ان تبدأ رحلته .

كما ان الانجليزى سيمون لوكان Siman Lucan ، الذى وصـل طرابلس حاملاً تعليمات ببدء رحلته التى ستنتهى الى ساحل غينيا ، اضطر للعودة بعد ان أجبـر على ذلك نتيجـة للتـطاحن بين بعض القبـائـل التى تسكن اطـراف الصحراء .

أما الرحالة الايرلندى دانيل هوتن Daneil Houghton، الذى أراد أن تبـدأ رحلته من ساحل غمبيا ، فقد توفى فى ظروف غامضة بعد ترك الساحل بعدة أيام حيث كان متجهاً الى مدينة تمبكتو .

جاءت هذه النتـائج مخيبـة للآمـال التى كانت تعلق عليهـا ، وتبين ان تحقيق نتائج مرضية قد لا تكون بالأمر الهين والسريع الوشوك ، لذا ما أن تقدم الطبيب الاسكتلندى مانجو باركMango Park طالباً الأذن للانخراط لمواصلة المسيرة ، لم يجد الاتحاد الافريقى غير سرعة الموافقة رغم ان بارك لم يتجاوز بعد الثالثة والعشرين من عمره . وكانت التعليمات تدعوه للوصول الى ساحل غمبيا وتتبع خط سير نهر النيجر .

بـدأ بارك رحلتـه المحفوفـة بالمخـاطـر ، وتمكن بعـد لأى من التعب والمعاناة من الوصول الى مجرى النهر الذى يبحث عنه ، ففى يوم 27 يولية سنة 1796 وغير بعيد عن مدينة سيجو Segu ، عاصمة اقليم بامبرا Bambara ، كتب يقول « . . . . بسعادة لا حدود لها وصلت الهدف الشامخ لرحلتى ، انـه نهر النيجر الذى طال الأمد فى البحث عنه ، والذى تتـلألأ مياهـه المتجهة شـرقاً تحت أشعة شمس الصبح ، وبعرض لا تزيد عن عرض نهر التيميز Thames ، فى منطقة وستمنستر Westwinister [7] .

لم يـثن هذا الاكتشاف العظيم الرحالة بارك انهاء رحلتـه رغم تدهـور صحته ونضوب مدخراته، بل أصر على متابعة مـا بدأه استرشاداً بمـزيد من

المعرفة الشخصية عن هذا النهر الذى ظل سراً غامضاً للعالم حتى تلك السنة ، التى دوَّن فيها قوله « . . . . أنهكني الجوع والاعياء ، ولا أدثر الاَّ بما يستر العوزة . . . ولا أملك اى سلع يمكن مقايضتها بطعام أو ملابس . . . وادرك جيداً ان نيتى فى الوصول الى مدينة جينى Jenne ستنهى حياتى دونما سبب وجيه ، خاصة وان نتائج ما توصلت الى اكتشافه ستذهب سدى هى الأخرى [8] .

قرر بارك العودة ، رغم ان احتمالات وصوله معافى كانت موضع شكه ، اذ لولا مقابلته رجلاً افريقياً يتعامل مع تجار الرقيق البيض ، لما استطاع الصمود وشق طريقه الى الساحل اذ كان جد منهكاً، ولا يملك ما يسد رفقه طوال الشهور السبعة التى تولى امره فيها ذلك المغامر الافريقى .

غاب بارك مدة ثلاث سنوات ونصف وكان الظن أنه لقى حتفه ، الاَّ ان وصوله المفاجىء والمنتظر فى ذات الوقت أثار ضجة علمية باكتشافه نهر النيجر ذلك الحدث الذى عمت اخباره المملكة البريطانيه وخارج الحدود أيضاً .

نشرت اخبار رحلة بارك عام 1799 ، وكان الجميع فى انتظار معرفة الطريقة التى تمكن بها من ازاحة الستار عن لغز ذلك النهر ، الذى ظل سراً محيراً تتطلع اليه جغرافية العالم ، ولذا فلا غرابة ان يقوم الجغرافى الفذ جيمس رينل James Rennel بكتابة مقدمة طريقة حاول فيها اعطاء صورة صحيحة لجغرافية غرب السودان بناء على اكتشافات الرحالة المذكور . واكثر وهذا اقحم رينل نفسه فى تحديد مصب النهر ، الذى اكد أنه ينتهى الى مجموعة بحيرات فى الجزء الشرقى من القارة فى كل من منطقتى ونجارا Wangara وغانا Ghana اللتين اعتبرها بمثابة خط لتصريف مياه هذا النهر التى تتبخر بحكم اتساع مصبه .

جاءت أقوال رينر هذه ، بعد الكشف الجغرافى الجديد ، وبعد تمحيص كتابات الجغرافيين العرب وبالذات الادريس وليو الافريقى ،

ووجدت هذه النظرية ، فى وقت لاحق ، الكثير من القبول اعتماداً على شهرة من نادى نها، ولو ان الحقيقة أثبتت خطأ رأيه لظنه أن اقليم ونجارا، الذى ذكره ليو الافريقي ، هو نفس المنطقة التي أشار اليها الشريف الادريس ، وافتراضه ان كانو تطابق الاسم القديم لبلاد غانا حيث اشار الى « . . . ان غانا تشكل مدينة هامة في قلب القارة الافريقية ، كما تضم مقاطعة من كتشنا . لقد فشل رينبل بالوقوع في هذين الخطئين، ايجاد توافق بين جغرافية القرون الوسطى التي خلفها الرحالة العرب، وبين الاكتشافات الحديثة.

قبل الاتحاد الافريقى عام 1796 ، وقبل ان يعرف مصير الرحالة بارك ، خدمات شاب ألمانى يدعى فريدريك هورنان Fredrick Hornemann ، لمواصلة نفس المهام ، حيث ارسل الى مدينة القاهرة انتظاراً لمرافقة احدى القوافل التى تعبر الصحراء ، بعد ان يستعد لتلك المهمة الشاقة اذ بالفعل تمكن على أساس أنه شاب مسالم من الانضمام الى قافلة كانت متجهة الى مدينة مرزق فى اقليم فزان ، التى بعث منها رسالة فى شهر أبريل ، بعد أربع سنوات من انخراطه فى مهمته الجديدة .

كانت تلك الرسالة آخر ما أرسل به ، ولو ان المؤكد انه تمكن من اجتياز نطاق الصحراء، مخترقاً اقليم البورنو، الى أن وصل مدينة نوفى حيث قيل أنه توفى هناك . وتبين من الملاحظات التى بعث بها قبل ان يغامر باجتياز الصحراء ، قوله بعد سؤال بعض من أهل منطقتى البورنو والهاوسا ، بأن نهر النيجر يسير فى اتجاه الشرق الى ان يلتقى بنهر النيل كما ذكر ذلك هيرودوت قبل زمن بعيد . وقد ادى موت هورنمان الى ضياع وفقدان واحدة من اهم الرحلات فى تاريخ الكشف الجغرافى الافريقى .

قررت الحكومة البريطانية ، بعد الايعاز المستمر من الاتحاد الافريقى ، تقديم يد المساعدة بتبنيها فكرة ارسال بعثة استكشافية الى غرب أفريقيا للقيام برحلة نهريه تحدد عبر طريقها نهاية مصب نهر النيجر .

كان الرحالة مانجو بارك، فى تلك الاثناء يمارس عمله كطبيب قريباً من

مدينة لندن ، مما حذاه قبول تولى منصب قائد تلك الرحلة ، اذ لم يتقبل بعد عمله كطبيب ، وكانت خطته تهدف الوصول الى مدينة سيجو ، حيث يتم تجهيز مركب يؤهله لاجتياز مملكة الهاوسا عن طريق نوفى وكتشتنا ومنها الى مملكة ونجارا حيث سيتحدد خط سيره ، اذ لو أتى النهر الى نهايته فسيستطيع العودة عن طريق النهر نفسه ، أو باجتياز منطقة الصحراء ، أو عن طريق نهر النيل أو بلا بحار عبر منعطف فرع نهر بنين .

ومع اقرار بارك للخطة السابقة، الا أننا تفاجأ بقبوله الرأى الذى طرحه التاجر جورج ماكس مرويل George Maxwell البريطانى الجنسية الذى تربطه علاقات تجارية جيدة مع منطقة الكونغو ، والذى يتلخص فى القول بأنه رغم ضخامة النهر الذى يحمل اسم المنطقة (الكونغو) الا انه غير معروف سوى فى منطقة مصبه ، أما نهر النيجر الذى لا يعرف سوى فى اجزائه العليا هما فى الواقع نهر واحد . فاذا صحت هذه الاقوال ، التى يظهر ان بارك بات مقتنعا بها ، فسيكون بمقدوره ودون مشقة ، الابحار حتى ساحل البحر حيث ينتهى مصب نهر الكونغو [11] .

ابحر الطبيب بارك فى شهر يناير عام 1805 ، رفقة اثنيين من رفاقه الأسكتلنديين وخمسة من فني البحرية البريطانية لبناء المركب ، والتقى عند بلوغه محطة جورى Goree ، بفرقة مكونة من خمسة وثلاثين جنديا يقودهم ضابط من الحامية البريطانية فى غمبيا ، كما كان برفقتهم اثنان من رجال البحرية الملكية ، والذين امروا بعدم استخدام السكان الوطنيين عدا الاستعانة بخبرة مرشد واحد .

أوهن اشتراك هذا العدد الكبير من الجنود البيض ، الذين يعانون من مصاعب جمة انطلاقة جيدة لما يشكلونه من عبىء لم يكن بوسع بارك الافلات منه بل وكان عليه ان يباركه .

توفى العديد منهم بسبب الحمى والدزنتاريا منذ البداية ، وأصيب الباقى

باليأس والقنوت ، وكادت الرحلة ان تأتى الى نهايتها لـولا اصدار بـارك على الوصول بها الى نهايتها .

وعند بلوغ مدينة باماكو Bamako على ضفة النيجر ، كـان ثلاثـة أرباع الرجال قد توفوا ، كمافـارق الحياة كامل الطاقم الفنى . وبوصول باقى المسيرة الى مركز سانساندج Sansanding ، بعد جهد مضنى ، بدأ من لا زالوا أحياء فى مباشرة بناء المركب ، وبعث هو بآخر اخبارية كان من ضمن ما دونه فيها . . . انه فى بالغ الأسى لا لذكر ان الأربعة والاربعين رجلاً الذين تركوا غمبيـا فى مرفور الصحة ، لم يبق منهم سوى خمسة احياء . . . وحتى على افتراض ان يمـوت جميع الأروبيين البـاقين بصحبتى ، رغم انـه نصف ميت مثلهـم ، الا اننى مصمم على بلوغ حتفى على ضفاف نهر النيجر رغم ما قد يعترضنى من فشل فى تحقيق اغراض الرحلة .

حمل مرشدهم الوحيد* معه الى الساحل بجانب الرسالة السابقة ، كتابا وجهه الى زوجته ، وهكذا حين انقطعت اخبـار بارك مـدة طويلة كلف ذلـك المرشد بالعودة ليتقصى أخبار سيده حيث تبين له أنه على الرغم من معارضة السكان الوطنيين لخططه، الا أن بارك رفقة ثلاثه فقط من رفاقه، ركبوا النهر حتى منحدرات بوسا Bussa على مسافة تقرب من الف ميل .

تبين لبارك ومن معه أن تواجدهم فى تلك الديار ، ولو فى مركب على النهر ، لا يسر السكان فواصلوا السير غير مدركين ضعف مركبهم لتحمل ضغط المياه الشديدة الانحدار التى أدت الى هلاكهم .

كانت الايماءات المتلاحقه التى لـوح بها السكـان المسلمون من على ضفاف النهر قصد الايحاء بالخطر المحتوم ، علامات اعتبرت وعيداً مما حمل بارك ورفاقه على مواصلة السير ودون الانتباه الى الغرض الكامن وراءها .

---

* ينتمى المرشد المشار اليه الى مجموعة الماندينج الزنجية الاصل والمنتشـرة فى اغلب جهات غرب أفريقيا .

كانت رحلة بارك الثانية هذه فشلا ذريعا بكل معنى الكلمة ، اذ لم تكتب الحياة لأى من مرافقيه البيض ، ومع هذه الخسائر المفجعة فى الأرواح وطول المسافة التى تم قطعها ، الاّ ان القاء ضوء جديد على مكان وطبيعة مصب نهر النيجر لم يكتب لها النجاح .

وبالنظر الى سوء تقدير المسافة (ثمنمائة ميل بدل ثمانين ميلاً) بين منحدرات بوسا ومدينة تمبكتو ، فإن تحديد اتجاه سير النهر نحو الساحل ، ولا قيمة ما حققه بوصوله الى تلك المنطقة استحقت اعتراف الآخرين بالجميل ، مع الاشارة الى ان نظر التاجر ماكس ويل بخصوص وحدة مجرى كل من نهرى الكونغو والنيجر أصبحت تلقى مزيد القبول بعد الدعم الذى حظيت به من رحالة عمت شهرته الآفاق مع الأخذ فى الاعتبار ان النظرة التى اتى بها الجغرافى الاكاديمى الالمانى الجنسية س. ج. ريتشارد C. G. Riechard ومن بعده الاسكتلندى James Mac Queen الذى عاش فى جزر الهند الغربية ، والقائلة بوصول نهر النيجر الى شاطىء بنين ، وأن مجموعة الانهار الصغيرة والمسيلات القريبة من ذلك الساحل ما هى الا جزء من دلتا ذلك النهر العظيم بدأت هى الاخرى تجدلها بعض المؤيدين[13] .

أقدمت الحكومة البريطانية عام 1816 ، على اعداد بعثتين منفصلتين للتأكد من مدى صحة نظرة اتحاد نهرى النيجر والكونغو ، وكانت الاولى تحت قيادة ضابط من سلاح البرية ، وأوكل اليها الأبحار من مصب نهر الكونغو .

أما الثانية التى كان عمادها الجنود فكلفت بالانطلاق صوب نهر النيجر من مقر أقامتها فى غمبيا . انتهت الرحلتان بالفشل اذ اعترضت الاولى وعلى بعد مائة ميل فقط من مصب النهر مجموعة من الحواجز التى وضعت حداً لمواصلة رحلتهم وأتت الحمى على جميع أفراد البعثة. أما البعثة الثانية فقد امضت ستة سنوات كاملة فى محاولة التوغل صوب الداخل ، وكانت ترد على اعقابها فى محاولة من قبل الحكام المحليين .

وفى هذه الاثناء تحول الاهتمام البريطانى بعد كل تلك الانتكاسات

والعراقيل ، الى امكانية استخدام مدينة طرابلس نقطة ارتكاز للانطلاق صوب الداخل .

ففى عام 1819 تمكنت بعثة صغيرة تحت رعاية طبيب شاب يدعى جوزيف ريتشى Joseph Ritchie من الوصول الى مدينة مرزق بفزان ، ومع ان السيد ريتشى توفى هناك ، الا ان زميلة النقيب ج . ف . لايون G. F. Lyonسلك طريق العودة سالماً حاملاً معه معلومات قيمة ، ولو ان مساهمته فى القاء مزيد من الضوء على مجرى نهر النيجر لم تكن ذات بال مطلقاً .

كما ارسلت الى طرابلس بعد ذلك بعامين ، بعثة اخرى يقودها الطبيب أودنى Audney رفقة اثنين من الضباط هما النقيب ديكسون دنهام Dixon Denham ، والملازم هيوكليبيرتون Huph Clapperton . مكثت البعثة عدة شهور فى مدينة مرزق قصد مواصلة السير جنوباً ، ثم تمكنت بعد خلق العديد من العراقيل فى وجهها ، من متابعة السفر والوصول الى بحيرة اتشاد على أمل العثور على ما يفيد ويلقى الضوء على معضلة نهر النيجر . خفق قلبى بشدة كتب النقيب دنهام . . . لايمانى بأن هذه البحيرة ستكون مفتاح الأمل الكبير لما نبحث عنه .

ترك كليبرتون واودنى المنطقة متجهيين غرباً للبحث عن نهر النيجر فى منطقة الهاوسا ، حيث توفى الطبيب عند مركز كاتجم Katagum ، وأفلح زميله فى الوصول الى مدينة كانوKano حيث اخبر بأن النهر الذى يبحث عنه ، والذى يعرف باسم كوارًا Kwarra فى جزئه السفلى ، ينتهى عند البحر فى مكان يدعى ركاح Rakah وتعرفه سفن المسيحيين جيداً .كما تبين له ان الأهالى يعزفون عن الحديث عن هذا الموضوع خشية ان يستغل الاجانب ما يدلون به من معلومات قد تؤدى الى احتلال بلادهم .

اتجه كليبوتون من كانو الى مدينة سوكوتو Sokoto ، عاصمة السلطان محمد بيللا ، الزعيم الروحى لرؤساء قبيلة الفولانى بأرض الهاوسا ، حيث تبين له ان الزعيم المذكور على علم بنوايا البريطانيين ارسال سفنهم الى ميناء

ركاح قصد التبادل التجارى ، والذين يود منهم ارسال طبيب له واقامة قنصلية لهم بعاصمة سوكوتو ، ووعده بمساعدته فى الوصول الى كل من مركزى يورى Yauri ونوبى Nupe لتسهيل مهمته فى الكشف عن نهر آلنيجر .

غير كليبرتون رأيه، رغم هذا الوعد، تحت تأثير نصح العرب المقيمين هناك والذين رأوا فيما يظهر عزم كليبرتون على افساح المجال امام التجار البريطانيين وما ينجم عنه من تأثير مباشر على مصالحهم التجارية فى تلك المناطق . لقد كان اصدار كليبرتون المتكرر على ضرورة الغاء تجارة الرقيق من الأمور التى وقفت حجر عثرة فى سبيل انجاح المهمة لأن الفولانيين كانوا ينعمون من وراء استمرار ذلك الفعل المشين .

ومع تأكيد السلطان بأن مجرى النيجر ينتهى الى البحر عند مركز فوندا Fondah فقد تم رسم خريطة للجزء السفلى من المجرى موضحة انتهاءه مع تلاحمه مع نهر النيل الى الجنوب قليلاً فى مركز ركاح الأمر الذى توصل اليه دنهام من خلال المعلومات التى استقاها فى منطقة البورنو ، مع التأكيد بأن كليبرتون كان مقتنعاً ، داخل نفسه بأن النيجر ينتهى فى منطقة خليج غينيا .

أقنعت الصعوبات التى واجهها كليبرتون بعودته الى أرض البورنو حيث تقابل مع زميله دنهام وقفلا راجعين معا الى بريطانيا .

لم يمض وقت طويل على عودة كليبرتون الى وطنه حتى تطوع من جديد للذهاب الى مدينة سوكوتو ليرى دعائم تلك العلاقات الطيبة التى بدأها مع السلطان أحمد بيللا . كما كان يؤمل بسلوكه طريقا يبدأ من ساحل غينيا من احراز سبق يحل به مشكلة نهر النيجر .

اشرك كليبرتون معه أربعة اوروبيين كان من ضمنهم خادمه ريتشارد لاندر Ritchard Lander وبوصولهم الساحل الغينى تبين لهم الاّ أحد طرق سمعه اسمى ركاح أو فوندا ، اللتين اخبره بهما السلطان بيللا كميناءين معروفين .

اتخذوا من مركز بدجرى Badagry نقطة الانطلاق صوب الداخل ،

واتجه احدهم صوب وداح Whydah وكان ذلك آخر أخباره . كما تـوفى اثنان بمجرد مغادرة مركز تحركهم ، وهكذا بقى هو وخادمه الذى صحبه معه مارين بمدينة اويو Oyo حتى وصلا النهر عند منحدرات بوسًا .

انهك اختراق نطاق الغابات الكثيفة صحة الرجلين وتركهما منهكين وفى حالة نفسية سيئة خاصة وان كليبرتون قوبل بفتور واضح فى العاصمة سوكوتـو بسبب ما روج من اخبار عن نوايا البريطانيين زحزحة تفوذ الفولانيين ، مما زاد من سوء حالته الصحية وتوفى فى ابريل عام 1827 .

ومع ان ما حققـه كليبرتـون من انجازات فى مجـال الكشف الجغرافى كانت أقل أهميـة مما حققـه بارك من قبله ، الا ان اضـافاتـه فى توسيـع افق المعرفة لم تكن لتقل عما خلفه المغامر بارك .

اتسم كـليبرتـون خلال رحلتيه ، بحسن التصرف والشجاعة ، واخترق القارة من طرابلس الى ساحل غينيا ، كما كان أول أوربى يصل ساحل غينيـا منطلقاً من الجنوب .

عاد ريتشارد لاندر خائر القوى وشبه يائس الى مدينة كانو ، التى انطلق منها بعد فترة وجيزة قاصداً فوندا ، عند ملتقى النيجر مع نهر البينـو Benue . معتزماً ركوب النهر حتى نهايته عند خليج بنيس كما كان يعتقد سيده .

كان لاندر يعتقد أنه سيكون فى مقدوره حل اشكالية هذا النهر اذا قدر له ووصل الى هدفه الذى أجبر عن التخلى عنـه مع الأسف ، اذ تحتم عليه ان يعود الى الوراء الى ان انتهى به المطاف على الساحل عند مركز بدجرى ، حيث أبحر موليا وجهه شطر بلاده .

تمخضت هـذه البعثة عن لا شىء يـذكـر ، رغم الخسـارة الكبيـرة فى الأرواح ، وتبخـر أمل تـوطيد العـلاقـات التجـاريـة بين الـوطن الام وقبـائـل الفولانى ، كما سد الطريق أمام القاء مزيد من الضوء على لغز نهر النيجر .

كان الكثيرون حتى هذا الوقت ، يـرفضون ان يكـون مصب النيجر فى

منطقة خليج بنين، رغم ايمان كليبرتون المطلق بهذا الظن، والواقع ان ذلك الرفض كان قد بنى على أساس اشارة ذكرها بارك فى رحلته الأولى اذ أفاد بوجود سلسلة من احجار الجرانية تعترض مجرى هذا النهر . ومع هذا فلعل اغرب النظريات التى لاحقت سيرة هذا النهر ذلك الافتراض الذى قدمه عام 1829 العداء المتقاعد السير روفين دنكن Sir Ruffene Donkin بعد مراجعة كتب الاقدمين ، التى خلص منها بأن نهر النيجر يتجه شمالاً تحت هضبة الصحراء الكبرى الى ان ينتهى عند خليج سمرت (18) .

أولع رتشارد لاندر ، الذى لم يكن يملك ميزة نسب او تصميم ، بالعودة الى افريقيا ، لينهى العمل الذى بدأه عندما كان فى خدمة الرحالة كليبرتون ، لذا لم يتوان فى قبول مبلغ زهيد لا يزيد على مائة دينار عندما يعود الى بريطانيا ، ومكافأة لا تزيد على خمسة وعشرين ديناراً لزوجته كل أربعة أشهر طوال مدة غيابه التى رافقة فيها أخاه جون John الذى رفضت الحكومة تقديم اية مساعدة له .

أعطى لاندر تعليمات محددة اذ كان عليه الوصول الى منحدرات بوسّا ، ثم ينطلق فى اتجاه سير المجرى نحو مركز فوندا صوب الجنوب ليحدد ان كان النهر يصب فى بحيرة او مستنقع أو يستمر حتى ساحل البحر ، أو ان يغير من اتجاهه ويصل الى بحيرة اتشاد جهة الشرق .

وصل الاخوان مركز بوسّا منتصف عام 1830 ، ثم تقدما جنوباً مع اتجاه النهر حتى نقطة التقائه مع نهر البنيو ، حيث أسرهما أفراد من قبيلة الأبو Ibos ، ولو انهما تمكنا من استعادة حريتهما ، وواصلا ابحارهما حتى احتضنتهما مياه البحر . عادا بسرعة الى بلدهما فى شهر يونيه من عام 1831 واعلنا للملىء فك رموز ذلك اللغز الذى حير العالم لأمد طويل .

تمكن فى تلك الاثناء مغامر آخر اسكتلندى الجنسية يدعى الرائد جوردن ليينج Gordon Laing من الوصول الى مدينة تمبكتو ، تلك المدينة التى كان

تحـديد مكـانهـا ، ونـوع الحيـاة فيهـا من الأمـور التى تشغـل تفكيـر العـالم المتحضر .

كانت مدينة طرابلس بداية انطلاقه الى كـل من غدامس وعين صـالح ومنها الى تمبكتو ، التى وصلها فى شهر اغسـطس سنة 1836 بعـد أن أوشك على الموت للجروح البالغة التى اصيب بهـا فى شجار مـع بعض الطوارق . استقر به المقام بعض الوقت الاّ انه بعد ان حزم متاعه ليولى أدباره قضى نحبه بعد أن نكلّ به مرافقه ، البربرى الاصل ، وانتهى كل ما معه الى الضياع مما حرم العالم من معرفة ذلك الرجل الفذ ورحلته المثيرة ،وبقى كشف النقاب عن تلك المدينة الاسطورة سراً كما كان ولو ان الامر لم يرم بعد ذلك طويلاً اذ تمكن الفرنسى رينه كاليه Rene Caillie من الوصول اليها بعد سنة واحدة . كان رينه شاباً عادى الأصل ومعدماً تقريباً ، الا انه كان مولعـاً بالـوصول الى تلك المدينة النائية ورفع الحجاب عنها مما دعاه للتخفى كعربى وانطلق الى مركز جينه ، التى ركبا منها مركباً أقلته الى تمبكتو التى وصلها بعد عام كامل من تركه ساحل غرب أفريقيا .

أصيب الشاب بالذهول اذ لم يجد ، ويشاطره فى ذلك الكثيـرون ، ما كان بذهنه من سحر وعظمه لتلك المدينة اذ يقول « . . .لقد وجدتها خلافاً لما فى مخيلتى عن تلك العظمة والثراء . . . انها ولأول نظرة لا تزيد عن كوم من البيوت المبنية بالطين» [21] . . . كما لا توجد اية مؤشـرات عن قلعة الحكـومة التى اشار اليها ليو الافريقى ، ولا ذلك القصر الأميرى الرائع الذى بناه حرفيو غرناطة المهرة . لقد كان ليو الافريقى على حق فقط فيما اشار اليه من كميات الملح القليلة المبعثرة .

لقد وجد رينه التجار المغاربة يجمعـون ثروات هـائلة من تجارة الملح الذى يجلبونه من منطقة تاودينى Taoden ، وتلك المصنوعات التى يحضرونها من مراكش وتونس وطرابلس .

عاد رينه الى وطنه عبر الصحراء صحبة قافلة مكونة من ألف واربعمائـة

جمل . متجهة الى جنوب المغرب ، وكانت محملة بجانب الرفيق ، بالذهب والعاج والصمغ ، وريش النعام وبعض الملابس .

وصل رينه بعد رحلة شاقة ، عبر كل من أروان وتغازه ، كاد يفقد فيها حياته اكثر من مرة الى مدينة فأس ، التى عاد منها الى فرنسا حيث لقيت اخبار رحلته جميل الثناء .

أدى اكتشاف مصب وتحديد اتجاه مجرى نهر النيجر ، وتلاشى تلك الصورة الخيالية التى حظيت بها مدينة تمبكتو الى فقدان وتبخر اهتمام الأوربيين بكامل منطقة غرب افريقيا التى لم تكتشف معظم اجزائها بعد ، خاصة وان الاسرار التى بدأت تظهر من اكتشاف اجزاء اخرى هى فى الواقع اكثر اثارة مما عرفته القارة حتى ذلك التاريخ .

فالرحالة لفنجستون Livingstone يعمل بجد لتتمة اكتشاف نهر الزمبيزى واكتشاف شلالات فكتوريا ، كمايذيع كل من ج .ك . كرابت ، وج ريبمان J. L. Krapt And J. Rebman ، فى نفس الوقت لعالم تعلوه الدهشة ، اخبار قمم الجبال التى تكسوها الثلوج فى منطقة خط الاستواء اذ كان الظن يومها بانتشار الجفاف فى تلك الديار .

وبينما كان العالم الغربى مشدوداً بجسارة واقدام مكتشفى نصف القارة الجنوبى ، يحل ببريطانيا رحالة مغمور وفى منتهى الارهاق بعد سفر محفوف بالمخاطر لمدة خمس سنوات كاملة فى الطرف الشمالى الغربى من القارة الافريقية . كان ذلك المغامر شاب المانى يدعى هنرى بات Henery Barth اذ بوصوله فقط حظيت انجازاته فى مجال الريادة والكشف الجغرافى بالتقدير الذى استحقه .

كان بارث وابن وطنه الدكتور أوفرويج Overweg ، عضوين فى بعثة ارسلتها الحكومة البريطانية بقيادة جيمس ريتشارد James Richard الى مدينة طرابلس أواخر عام 1849 بغية التوغل وسط القارة لمناقشة واقرار اتفاقيات تجارية مع رؤساء تلك الربوع .

افترق ثلاثتهم داخل الصحراء على أمل اللقاء فى السودان بعد حين ، حيث اتجه بارت نحو منطقة جبال الأير Air ، وقضى فترة فى مدينة أغاديس ، ثم اتجه جنوباً الى ارض الهاوسا ، حيث تراءى له أمل قديم فى زيارة مدينة كانو ، التى كان يقول عنها بأنها المركز التجارى لوسط افريقيا ، حيث بلغها شبه يائس ومفلس أيضاً مما اضطره ان يطلب من أميرها اعارته بعض الأصداف التى تقوم محل العملة ، حتى يتمكن من الوصول الى منطقة البورنو ، التى عرف قبل بلوغها ، بلوت رئيسه مما جعله يتولى مسؤولية البعثة ، التى كان غرضها الاساسى اقامة علاقات وتبادل تجارى مع سلطات بورنو .

تبين لبارث ان اهم مقومات التبادل التجارى مع سلطة بورنو يكمن فى حصولهم على الاسلحة النارية التى يحتاجونها لمزاولة تجارة الرقيق ، التى كان الانجليز يدعون بحماس لانهائها ، الأمر الذى ادى الى عرقلة تلك المهمة ، مما اضطره عن التخلى عن الفكرة ، والبحث عوضاً عنها عن المجرى الأعلى لنهر البنيو Benue ، اعظم الروافد التى تصب فى نهر النيجر ، الذى وصله عند مركز يولا Yula ولكن دون ان يطول به المقام للعداء الواضح الذى اظهره افراد قبيلة الفولانى المقيمين هناك .

جاء اكتشاف بارث لرافد نهر النيجر المذكور تتويجاً لاكتشافاته الجغرافية حيث وصفه بأنه اعظم لحظة من كامل حياته وقال عنه الآخرون بأنه أهم اسهامات المذكور فى مجال الريادة الجغرافية .

أمضى بارث جزءاً من وقته متجولاً فى المناطق المحيطة ببحيرة اتشاد ، حيث رأى عن كثب المآسى المحزنة التى يتعرض لها الرفيق مما زاد من استفحال متاعبه ووجد نفسه مضطراً للتخلى عن فكرة انتقاله الى السودان ، وبدأ يستعد للعودة ، الا انه فوجىء بطلب من السيد بالمرستون Palmerston ارسل اليه من لندن ، يخبره فيه بضرورة التوجه غرباً صوب تمبكتو مستعيناً بالمال الذى أرسله اليه . لقى هذا الطلب استحساناً كاملاً اذ سيكون بمقدوره تقصى طريق رحالة لهم سمعتهم مثل مانجوبارك ، ولو أن عليه ان يقوم بتلك

الرحلة بمفـرده ، اذ فارق زميله الدكتور أوفريج الحياة والرحلة على وشك أن تبدأ .

سلك بارت طريقه نحو جواندى Gwandu ، مروراً بكل من زندر وكتشنا وكانو حيث عثر فيها على نسخة من الكتاب الشهير طريق السودان . وكان على بارث ليصل الى هدفه اجتياز انحناءة نهر النيجر التى ما أن عبرهـا حتى وجد نفسه فى ارض ملتهبة بسبب الحرب الدائـرة بسبب اتباع مسينـا من الفلانيين وبين الطوارق والعرب المجاورين لهم . ومع ان بارت كان يرتدى الزى العربى باستمرار ، الا انه لم ينكر حقيقة كونه مسيحياً علمـاً بأن الفـولانيين يجهرون بكـراهيتهم لأى مسيحى مما ارغمـه على التنكر كـأمل وحيـد لـوصـولـه الى تمبكتو ، ولو ان ذلك لم يكن بالأمر الهين اذ تعرضت صحتـه وحياتـه للخطر اكثر من مرة حتى بعد وصوله اذ عرف الناس حقيقة امره .

كان دفاع بارث عن معتقداته والمامه الجيد بأمور الدين الاسلامى محل ثقة أهل المعرفة وذوي النفوذ فى المدينة وبالذات الشيخ البكاى الذى يدين له بارث بحياته .

رفض الشيخ المذكور ، بدعم من مرؤوسيه من سكان المدينـة ، طلب قبائل الفولانى الاذن لهم باعادة تولى زمام أمور المـدينة وتسليمهم المسيحى الكافر الذى يحظى برعاية الشيخ البكاى .

أمضى بارث قرابة ثمانيـة أشهر يتجـول فى المدينـة والجهات الغـربية منها ، ومع كل ما سببه وجوده من قلق وهيجان ، الا انه تمكن من جمع الكثير من المعلومات عن المدينة وتاريخها . كما تمكن الشيـخ البكاى ، رغم كـل التهديد والوعيد والتضحية بسمعته ، من رفض مطالب اعدائه الذين كان همهم استلام ذلك المسيحى حياً أو ميتاً .

أرسل الشيخ المذكور بعد ست سنوات من تلك الواقعة ، عندما كانت مدينته محاصرة من قبل عدوه الشيخ عمر ، بعثـة سريـة الى طرابلس لتـطلب

حماية الملكة فكتوريا ، التى اخبره عنها بارث بأنها اقوى ملوك أوربا ، وللعلم أقام الفرنسيون ضريحاً على قبر الشيخ البكاى تخليداً وذكرى لما قدمه للمدينة ممثلاً فى حمايته لذلك الالمانى .

بدأ بارث رحلة العودة حينما سنحت له الفرصة للهرب ، باتجاهه جنوباً عبر أرض الهاوسا ، التى وصفها بأنها أفضل رقعة لاقامة الأجانب من بين جميع المناطق التى زارها ، حيث اتخذ طريقه الى اقليم البورنو شرقاً ومنها عبر الصحراء شمالاً الى مدينة طرابلس التى أبحر منها الى انجلترا فى شهر سبتمبر من عام 1855 .

لقد تمكن بارث خلال مدة غيابه التى دامت خمس سنوات كاملة ، من الكشف عن اسرار المنطقة الداخلية لشمال افريقيا بشكل لم يضاهيه فيه أى من الذين سبقوه . وللحق فان ما قدمه بارث لم يلق استحساناً يذكر في انجلترا، فباستثناء حفل الاستقبال الذى اعده اللّوردان بالمستون ، وكلارندن Clarendon على شرفه فى لندن ، فان الحكومة البريطانية التى اسدى لها اعظم الخدمات ، ولم يكلفها اكثر من مبلغ الف دينار طوال رحلته ، اكتفت بذلك القدر الضئيل من رد الجميل ، لكن الحال مع الجمعية الملكية البريطانية التى اسبغت عليه ارفع أوسمتها التى كان فعلاً أهلاً لها . ومع ذلك بقى اسم بارث غير معروف لدى المواطنين الذين استدعى انتباههم اخبار بداية تلك الرحلة التى سرعان ما طواها النسيان وكأن شيئاً لم يحدث حتى بعد عودة الرجل الذى بقى وحيداً على قيد الحياة .

كان الاهتمام بمنطقة غرب افريقيا عند حده الادنى آن ذلك ، اذ ظهرت مؤلفاته الممتازة ـ رحلات واكتشافات فى شمال غرب افريقيا * ـ دون ان يلحظها أحد تقريباً مع انها كانت وصفاً دقيقاً لأوجه الحياة المختلفة فى جهات

* طبع من الأجزاء الثلاث الأولى الفان وخمسمائة نسخة ، ونقص الرقم الى الف نسخة فقط للجزئين الرابع والخامس .

لم تكتشف من قبل ، ومثلت دون منازع سبقاً لا نظير له . اذ يكاد مستحيلاً على انسان واحد ان يسطر كل تلك المعلومات الجغرافية والجنسية ، والتاريخية المتناهية الدقة لاقطار لم تكتشف من قبل وفى وقت كانت حياته معرضة للخطر باستمرار .

فما تركه بارث فى مجال الجغرافيا وحدها كفيل باعطائه المجد والشهرة التى يستحقها والى الأبد ، فبجانب كونه المكتشف الأول للجزء الأعلى من نهر البينيو ، كان أيضاً أول من يصف الطرف الاوسط لنهر النيجر الذى لم يشاهده أحد قبله الا الرحالة بارك ، كما حدد بكامل الدقة أماكن العديد من المدن والجبال والانهار التى لم تكن معروفة هى الأخرى .

لقد كان من سوء حظ بارث انه لم يوفق الى اكتشافات مثيرة تشد اهتمام الرأى العام ، الذى كان يلهث وراء اهتمامات اخرى ، وبالتالى فعلى الاجيال القادمة ان تعى ان هنرى بارث هو الذى أزاح الخمار عن منطقة شمال غرب افريقيا بعد ان عبر ، رحالة اقدم واكثر شهرة ، من خلاله فقط .

الفصل الرابع والعشرون

اقليما البورنو والهاوسا، وامبراطورية الفولاني في سوكوتو

كانت دول منطقة غرب افريقيا المعروفة لسكان منطقة البحر المتوسط حتى نهاية القرن السادس عشر ، تتمثل فى تلك الدول التى تضمها أراضى مجرى نهر النيجر الأوسط والأعلى . وبعد انهيار امبراطورية سنجاى ، لم يشهد ذلك الجزء من القارة ما يماثلها من ثراء حكامها ولا فى امتداد منطقة نفوذها مقارنة بامبراطوريات القرون الوسطى الثلاثة . اذ تحول مركز الأهمية السياسية جهة الشرق عبر النهر المذكور ، الى المنطقة التى تشغلها حكومات قبائل الهاوسا وامبراطورية الكانم ـ بورنو .

ويعنى مدلول الكانم الاسم الذى يطلق على الاقليم الواقع شمال بحيرة اتشاد ، والطرف الجنوبى لنهاية أحد أهم طرق قوافل الصحراء . وكان جغرافيو العرب من القرنين التاسع والعاشر يعرفون مملكة الكانم التى تخضع فى حكمها لافراد من أصل زغاوة Zaghawa ، التى يظن انها فرع لبعض السكان الرحل ، والتى تحول نمط حكمها الهش القائم على قلة من السكان المزارعين وبعض القبائل الرعوية ، الى نظام حكم ملكى مستقر وتحول حكامها فى القرن الحادى عشر الى اعتناق الدين الاسلامى وتمكنوا فى القرن الثالث عشر من بسط سلطانهم شمالاً الى منطقة فزان ، وأقاموا علاقات دبلوماسية مع كل من تونس ومصر . وفى هذا الخصوص يذكر المؤرخ ابن خلدون اندهاش اهل تونس من تلك الزرافة التى ارسلها حاكم الكانم هدية الى السلطان الحفصى المنتصر [1] .

ومع نهاية القرن الرابع عشر طرد حكام كانم من المناطق التى يتواجدون فيها من قبل فرع البولالا Bulala ، الذى ينتمى الى نفس العشيرة الحاكمة ، وركزوا حكمهم شرقى بحيرة اتشاد مجبرين العائلة المخلوعة الى التقهقر غربى البحيرة المذكورة فيما يعرف بمنطقة البورنو التى كانت موطناً لقوم يعرفون بالسو So حيث كان يعيش بعضهم داخل مدن مسورة .

ومع الوقت استطاع سكان الكانم مد نفوذهم سواء بالحرب تارة أو عن طريق التسلل والاختلاط مما أفرز فى النهاية مزيجاً هو محصلة التشكيل الحامى للسكان المعروف باسم الكانورى Kanuri .

وبلغت امبراطورية البورنو أوج عظمتها فى آواخر القرن السادس عشر زمن حكم أدريس حلومه الذى دون له أمام حكمه القاضى أحمد بن فارت تفاصيل مجريات الاحداث التى قام بها ، خاصة ما تعلق منها بأمور الحرب والقتال مما يظهره بمظهر المقاتل المغوار .

اذ من المؤكد قيام ادريس بأداء فريضة الحج التى قادته الى كل من مصر وطرابلس حيث شاهد بنفسه أحدث الاسلحة النارية المستعملة يومها مما دعاه بعد عودته ، الى تكوين فرقة مقاتلة قوام سلاحها البنادق واختار لها نخبة من عبيده وخدمه ، وتولى مدربون أتراك احضروا خصيصاً من طرابلس أمور تدريبها والاشراف عليها * .

تتميز منطقة بورنو بخلوها من المظاهر التى يمكن ان تقوم كحدود طبيعية لها ، مما اضطر معه حاكمها ادريس الى شن الحروب وعلى جميع

---

* أرسل عمر بن أدريس سنة 1636 ، سفراء له الى طرابلس غرض إعادة تجديد بعض الاتفاقيات التجارية ، وحملهم ببعض الهدايا التى كان من بينها سوار ضخم من الذهب الخالص لباشا طرابلس ، الذى رد الجميل بأرسال خمسة عشر شاباً مسيحياً مزودين بالبنادق حيث نالوا الاعجاب والتقدير ، حتى أن سلطاناً آخر أرسل يخاطب أحد باشوات طرابلس ، أمكان تكرمه بارسال هدية مماثلة . جاءت هذه القصة على لسان جراح فرنسى قضى بعض الوقت سجيناً فى طرابلس فى أواخر القرن السابع عشر .

الجبهات ، فكانت له حرب مع قبائل البولالا فى منطقة كانم ، والطوارق فى منطقة جبال الاير ، وضد سكان كانو وكل القبائل التى تقطن المناطق الجنوبية ، فاستتب له الأمن وقوى نظام حكمه وتمكن من الاسراع فى ضم وتوحيد صفوف سكان البورنو نفسها .

لم يكن السلطان ادريس رجل حرب فقط ، وانما كان رجلاً حذق اللسان ومفاوضاً بارعاً ، ويقال ان السلطان التركى أوفد اليه مبعوثاً خاصاً وهنا قد يكشف البحث فى الارشيف التركى عن نوع تلك العلاقات التى كانت قائمة بين البورنو ودول منطقة الشمال الافريقى [4] .

واكثر من هذا كان السلطان ادريس كما يقول أمامه ، مناصراً قوياً للاسلام ، وبذل جهوداً مضنية فى اقامة العديد من المساجد ، والعمل بالشريعة الأسلامية وضم الوثنيين الى الدين الحنيف . للحق والحقيقة كتب الامام . . . كانوا يأتون من انفسهم مهللين فى ارض البورنو. . . وتحول كل الوجهاء الى مسلمين ، ولم يتخلف سوى المنافضين والحاقدين ، ومن لا دين لهم [5] .

وهكذا عندما حان أجله فى عام 1603 كانت دولة بورنو اغنى وأرسى جذوراً عن عداها فيما بين النيل ونهر النيجر .

تقع الى الغرب من بورنو مجموعة دويلات الهاوسا ، التى يقدر عدد الذين يتكلمون اللغة التى تحمل نفس الأسم قرابة عشرة ملايين ، مما يجعلها أحدى اكبر التجمعات اللغوية فى افريقيا ، وترجع فى تركيبها الى تجمعات مختلفة ولو أن ثقافتهم تشكل انتماء الى مجموعة السو فى منطقة بحيرة اتشاد ، مع أن تقاليدهم تشير الى انضمام مجموعات من الوافدين سواء من الشمال أو من الجنوب ، اذ تميز ماضيهم الذى لم يدون الا مؤخراً ، بسرد تاريخهم الدقيق كما هو الحال مع مملكة كانو .

وتتميز قبائل الهاوسا دون غيرها من شعوب منطقة شمال غرب افريقيا ، بأن أول وحداتهم السياسية ، منذ الف سنة خلت ، ظهرت فيما يسمى بالبرنى

Birni أو المدينة المسورة . ففى داخل بعض اجزاء تلك الوحدات ، التى لا زال بعضها قائماً ، كما فى مدن كانو وكتشنا وزاريا ، تمارس حرفة الزراعة ، أما مجتمع القرية بمعناها العام فيظهر وراء السور . لذا يصف ترمنجهام Trimingham ، ظهور دول الهاوسا بأنها نتاج احتواء احدى تلك المدن على مجموعة من القرى الصغيرة حولها وتحولها مع الوقت لتصبح جزءاً من المدينة الأولى ، التى تنمو حول سورها قرى أخرى وهكذا حتى تصبح عاصمة بتحول رئيسها المعروف بالساركى Sarki ، اى زعيم القرية ، الى حاكم مدينة له ديوان حكم مرموق وسلطة وراثية (7) .

ويتحدث تاريخ الهاوسا عن دولة دوارا Duara كأول وأقدم دولة لهم ، رغم انها لا تزيد اليوم على امارة صغيرة شرقى مدينة كتشنا . وطبقاً للتراث فقد ظهر فى تلك الدولة ، البطل المغوار باياجيدا Bayajidda اى رجل الشرق الذى قتل الحية المقدسة وتزوج الملكة ، التى انجب منها مؤسس حكومات الهاوسا الاخرى مثل كانو ، وكتشنا ، وجوبر ، وزاريا ، ورانو وبيرام ، التى كونت جميعها مع الدولة الأولى ما عرف باسم باكواى Bakwai أو دول الهاوسا السبع . كما يحكى التراث عن سبع دول اخرى تعرف مجتمعة باسم البانزا باكواى Bannza Bakwai اى الدول السبع الزائفة أو اللقيطة ولا يتكلم سكانها لغة الهاوسا كلغتهم الأم وتتمثل فى كل من كبىٍّ Kebbi ، وزانفارا Zanfara وجوارى Gwari ، وجوكون Jukun ، ويوروبا Yoruba ، ونوبى Nupe ، ويورى Yauri .

وتعد دولة كانو بحكم تاريخها المدون ، أهم دول الهاوسا ، المعروفة ، اذ كانت لها صراعات دينية حادة مع مهاجرى دولة دوارا ، الذين تمكنو منذ بداية القرن الحادى عشر من السيطرة على حكم كانو ، التى يعبد سكانها ألهاً متقمصاً شجرة داخل فناء ، ويقدمون له القرابين السوداء اللون وبالذات من الدجاج ، وذكور الماعز والكلاب . وقد رفض رهبان المنطقة بعناد افشاء سر دينهم الى الحكام لمدة ثلاثة قرون كاملة حتى تمكن احدهم من مداهمة ذلك المكان المقدس وتدميره .

وقد تمكنت دول الهاوسا من خلق عزلة حولها حتى بداية القرن الـرابع عشر ، مما يبين ضآلة أثر اختلاطهم مع جيرانهم الاقوياء سـواء فى الغرب أو الى الشرق منهم ، حتى ان الجغرافيين العرب قبل ابن بطوطة لم يوردوا ذكراً لهم ، كما اقتصر ما أتى به ابن بطوطة عن مملكة جيد الاشارة اليها فى عبارة موجزة ، وفى هذا دليل على ان كلا من كانو ، وكتشنا لم تكن على عـلاقات مع تجار منطقة الشمال الافريقى قبل عام 1350 ميلادية .

أما فى منتصف القرن المشار اليه فيظهر واضحاً قيام مثل تلك العلاقات التجارية بوضوح يبين بعض دول الهاوسا وبين منطقة مالى ، التى كانت فى أوج قوتها .

كما يحكى تاريخ كل من مملكتى كانو وكتشنا عن بدء دخـول الاسلام الى تلك الديار عن طريق بعض سكان وانجاراوما Wangarawa ، الذين يظن أنهم من مواطنى مالى . وعلى هـذا النحو من الاتصـال بـدأ لفت انتبـاه دول الهاوسا الشمالية الى شبكة الاتصال التجارى بين منطقة الصحراء ودول غرب السودان [9] .

ومما تجدر الاشارة اليه ظهور اشارات تاريخية من مملكة كانو منذ ذلك الحين ، تشير الى ممارسـة الرق والاتجـار فيه ، حيث لا يستبعـد قيام بعض الوانجاراوما ، بلفت انتباه الحكام الى اهمية تلك التجارة التى تسهل ممارستها أما بلا غارة على الأقاليم المجاورة مباشرة ، أو بفرضها ضريبـة عليهم الايفاء بها [10] .

والـذى لا شك فيـه ان دولة كـانو تمكنت ومنـذ منتصف القرن الـرابع عشر ، من شق طريقها لتصبح مـركزاً تجـارياً مـرموقـاً وبالـذات خلال حكم المدعو يعقوب (1452 ـ 1463) اذ يتحدث تاريخها عن وصول بعض الفولانيين من مالى حاملين معهم كتباً عن الوحدانية ومفـردات اللغة . . . كمـا حل فى تلك الاثناء قوم من طوارق الأير فى مملكة جوبر Gobir ، وأكثر من هذا بات الملح متـوفراً فى كـل انحاء اقـاليم الهاوسـا ، وحل بكتشنـا تجار من جـونيا

Gonya ، كما وفدت اعـداد كبيرة من سكـان بورنـو ومن العرب الـذين طاب المقام لبعضهم فى كتشنا وفى كـانو للبعض الآخـر ، وأرسل الحـاكم يعقوب عشرة خيول الى سلطان نوبى Nupe ليشترى له بثمنها نفراً من الخصيان (11) .

واحتلت دولة كتشنا ، من بين جميع دول الهاوسـا ، مرتبـة تضاهى مـا وصلت اليـه كانـو من رخاء ان لم تفقهـا فى بعض الاحيـان بحكم مـوقعهـا الجغرافى ، الذى جعلها اكثر احتكاكاً بأمور التجـارة سواء فى الغـرب أو الى الشمال منها .

أما دولة جوبر ، الواقعة الى الشمال من كتشنا ، فقـد ادى موقعهـا شبه الجاف الى دوام تأثرها بالمصادمات مع طوارق جبال الأير . أما الى الجنوب من دولـة كتشنا فتـظهر تلك الـدولة التى لم يـرد ذكرهـا عند أحـد سوى ليـو الافريقى ، الذى اطلق عليها اسم جوانجارا Guangara ، التى يظهر ان بعض المهاجرين الماليين هم الذين قاموا بتأسيسها (12) .

أما تاريخ دولة زاريا ، فغير واضح ، اذ تتحدث الروايات عن تناقض فى تحديد تاريخ معين (ربما خلال القـرن الرابـع عشر أو الخـامس عشر) حين خضعت تلك المملكـة لحكم ملكة عـرفت باسم أمينـا Amina ، التى مدت فتوحاتها من نهر النيجر الى رافد البنيو، واستحقت أتاوات من كل من كتشنا وكانو (13) .

وتعرضت دول الهاوسا فى بداية القرن السادس عشر ، لضغوط شديدة من جيرانهم الاكثر قوة ، اذ حقق محمد أسكيا M. Askia فرض سلطانـه من الغرب على معظم دول الهاوسا لبعض الوقت . وللعلم فقد وفدت من الاتجاه المشار اليه اكثر الجماعات التى عزمت على نشر الدين الاسلامى .

أما نفوذ اهل البورنو القادم من الاتجاه الآخر ، فكان اكثر عمقاً تحت حكم السلطان محمد رمغا (1465 ـ 1499) الذى خلف السلطان يعقوب لتفانيه فى نشر الدين الاسلامى ، ولما أدخله من تجديدات تراوحت ما بين استعمال

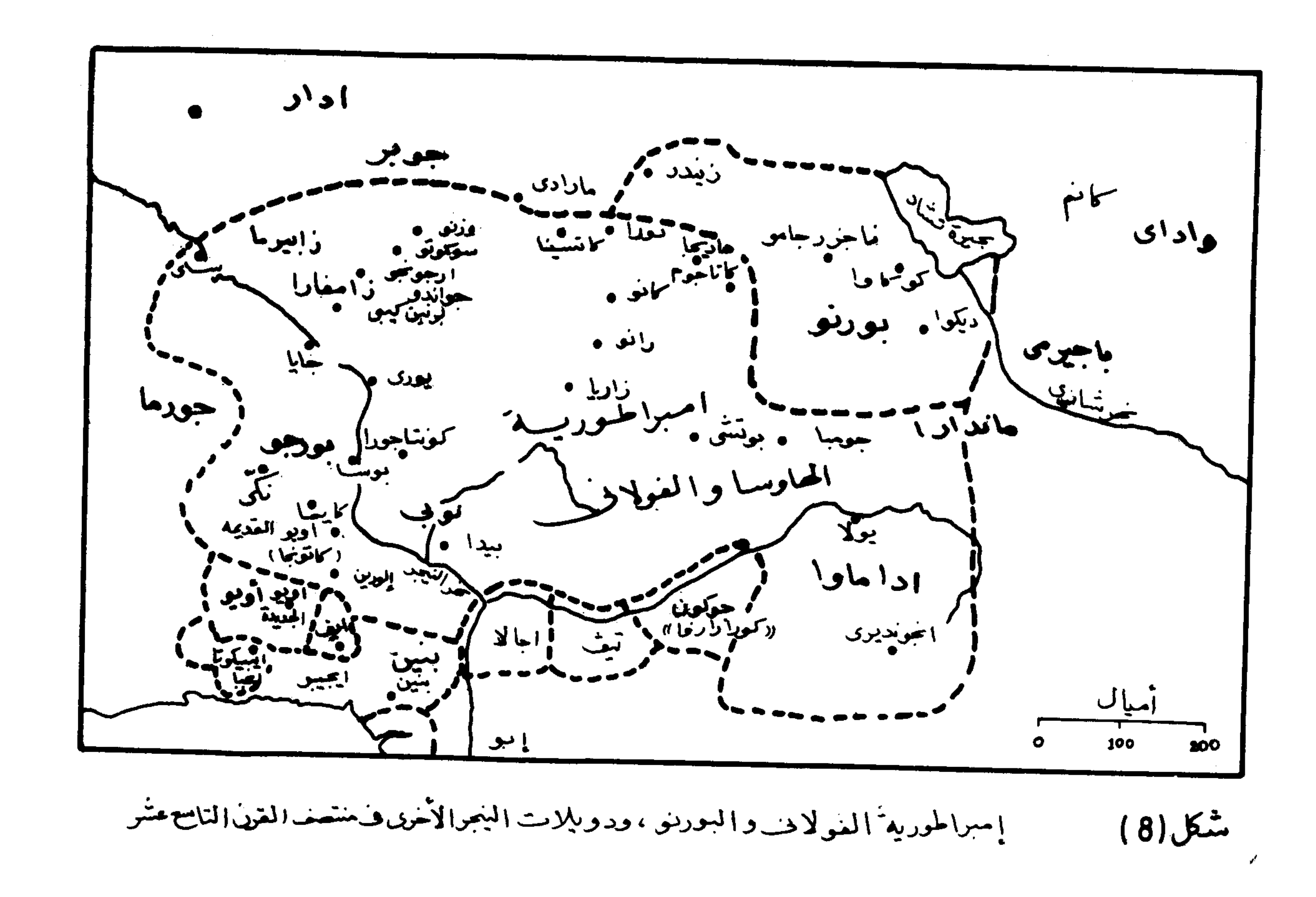
مراوح ريش النعام ، والمزامير الطويلة ، وامتلاك الف جارية وتعيين العديد من الخصيان فى المراكز العامة .

لم يحض تدوين تاريخ المنطقة فى القرن السابع عشر والثامن عشر، بتلك الأهمية التى نالها تاريخ القرن الذى سبقهما ، اذ تنبىء مخلفات ما سجل من تاريخ عن فترة من الصراعات المستمرة بين دول الهاوسا نفسها ، فحرب بين زمفارا وكبى ، واخرى بين جوبر وزمفارا ، وثالثه بين كانو وكتشنا ، وغارات كاسحة من قبل الكوارارافا ، على دول الهاوسا وحكومة البورنو ومحاولات من قبل الاخيرة على جيرانها فى الغرب .

كما كان هناك اتجاه للعودة الى الوثنية ، وبالذات بين حكام دويلات الهاوسا والبورنو ، ففى ما يخص الحكومة الاخيرة مثلاً كان حكامها يقومون بتقديم القرابين للحيات ، التى كانوا يحفظونها فى بيوت كبيرة خاصة ، وهنا يعتقد البعض ان ذلك التراجع عن مبادىء الدين الاسلامى كان نتيجة مباشرة لغزو قوات المغرب للمنطقة الوسطى لنهر النيجر ، وما نجم عنه من آثار تدميرية ، لحقت مدينتى حينى وتمبكتو اللتين كانتا مركز اشعاع حضارى .

أدت التغيرات الجذرية التى حلت مع بداية القرن التاسع عشر ، الى تعديل شمل انماط الحكم لدول المنطقة ما بين بحيرة اتشاد ونهر النيجر ، واعادة تقيم وضع الدين الاسلامى ذلك ان قبائل الفولانى باتو الآن يلعبون الدور الاساسى فى توجيه دفه الأمور بعد أن كانوا كماً مهملاً .

ينتشر الفولانيون فى الوقت الحاضر ، فى جميع الاقطار الواقعة فيما بين السنغال والكمرون ، مما يجعلهم اكثر شعوب المنطقة تشتتاً اذ يحترف بعضهم رعى الماشية ، فى الجهات التى تسمح ظروفها بممارسة هذه المهنة الشاقة ، ويتميز هؤلاء عن جيرانهم بلون بشرتهم الفاتح ، كما يعيش الكثير من الفولانيين حياة الاستقرار ، ويصعب تميزهم من بين القبائل الاخرى التى يعيشون بينها ويتزاوجون معها كقبائل الهاوسا مثلاً ، علماً بأن أصل الفولانيين لا يزال موضوع جدل بين الدارسين ، ولم يتوصل فيه الى رأى قاطع بعد .



شكل (8) إمبراطورية الفولانى والبورنو، ودويلات النيجر الأخرى فى منتصف القرن التاسع عشر

ويرجع أصل لغة الفولانيين الفولفولد Fulfulde الى نسب قريب من تلك اللغات التى يتكلمها سكان منطقة وادى السنغال ، وينتمى أول المتكلمين بها الى اصل زنجى ، ويرجح انهم هم الذين أسسوا دولة التكرور Takrur فى العصور الوسطى .

لقد كان وادى السنغال الخصب عبر القرون الماضية منطقة جذب للرعاة من البربر الذين كانوا يعيشون على أطراف الصحراء ، والذين تمكن بعضهم من اجتياز النهر والوصول الى هضبة فيرلو Ferlo فى منطقة السافنا ، فتم بذلك انفصالهم عن باقى ابناء عمومتهم ، وكان عليهم ان يتحولوا بالتدرج الى لغة الزنوج من حولهم رغم لون بشرتهم الفاتح .

ومنذ حوالى القرن الثانى عشر ، وما تلا ذلك اخذ أبناء الفولانى الرعاة ، فى التحرك شرقاً للبحث عن المراعى الجيدة ، أما لازدياد اعدادهم ، أو لسبب انهاك المراعى التى كانت متاحة لهم ، وكان انتقالهم يتم سليماً اذ لم يحدث ما يعكر صفو المزارعين الذيم حلوا بينهم ، بل بالعكس أتاح ذلك الحضور تزويد المزارعين بما هم فى انتظاره من سماد وحليب وزبد .

كما تقدم فى ذات الوقت بعض الفولانيين الزنوج جهة الشرق ، فكانوا من أوائل اهل السودان الذين يتم تحولهم الى الدين الاسلامى ، مما اعطاهم حظوة الاستقبال سواء فى المدن أو داخل دواوين الأمراء وبالذات المتعلمين منهم ، علماً بأن بعض الرعاة الفولانيين ، من ذوى البشرة الفاتحة ، لا زالوا مقيمين وسط المناطق العشبية النائية .

وفى مكان وسط بين المسلمين الاتقياء بما لهم من احترام وتقدير ، وبين الملوك الذين لا يحملون من دينهم سوى الاسم كان حتى تظهر بعض الممارسات الوثنية ، ففى اقليم البورنو على سبيل المثال ، قام احد السلاطين المسلمين أحد رجال الدين لا لشيء أنه قذح نظام حكمه .

وتم أول تصادم حقيقى يدخل الفولانيون المسلمون طوفافية ، فى

مـرتفعات فـوتاجـالون Futa Jallon ، التى تكـون جـزءاً من جمهـوريـة غينيـا الحالية ، وهاجر اليها بعض الفولانيين رفقة بعض رجال الـدين خلال القـرن السابع عشر ، اذ قام فى عام 1725 أولائك المهاجرون بلا غارة على جيرانهم ، من الوثنيين ، رافعين راية الجهاد .

ظل الصدام محتدماً لمدة نصف قرن تمكن المسلمـون بعده من اقـامة دولة علمانية اذ أصبح أمامهم الحاكم السياسى ، وهو ما حدث فى عدة جهات اخرى فى منطقة وادى السنغال وبالتحديد فى منطقة فوتاتورو Futa Toro .

تمكنت قبل عدة قرون ، مجموعة مما يتكلمون لغة الفولانى من منطقة فوتا تـورو ، من الاتجاه شـرقاً حتى انتهى بهم المقـام فى دولة جـوبر . ومن المعروف عن تلك الجماعة انها كانت بمثابة عشيرة من الوعاظ الاكفاء كان من بينهم السيد عثمان مؤسس واحدة من اعظم دول القرن التاسـع عشر ، أو مـا بات يعرف بامبراطورية سوكوتو الفلانية .

ولد عثمان دان فوديو Uthman Dan Fodio عـام 1754 ، ونشأ فى عـائلة اسلامية مالكية المذهب ، وعمل بتفانى ليرضى طموحاته الدينيـة حتى اصبح واعظاً مرموقاً اكسبته تصرفاته التى تنم عن التقوى ، وشخصيته الجذابة كامل التقدير وبالذات فى مدينة جوبر ، حيث نالت حججه المفحمة على المرتدين كسب ود الناس ، ولو أنها أثارت غضب الملك الذى أصدر مرسوماً يحرم على اى انسان لم يولد لعائلة مسلمة ممارسة الشعائر الاسلامية ، كما حـرم ارتداء العمم على الرجل والحجاب على النسوة .

مرت الأمور بسلام ، ولم يظهر اى عداء مسلح حتى تـولى الأبن يونغـا Yonga عرش أبيه . كان الحاكم الجديد طالباً عند الواعظ عثمان ، وكان يعلم جيداً ، رغم اضفاء لقب الشيخ عليه ، مدى الخطر الذى يمثله استاذه لكرسى حكمه فصمم على انهاء حياته . ومع فشل المؤامرة زادت شعبية الواعظ بشكل ظاهر وتحول ليصبح بطلاً قومياً .

ادى شعور الخيبة لدى الملك ، وظهور عدم الارتياح بين الناس الى ان يجازف برأسه يوم 21 فبراير سنة 1804 ، وهو اليوم الذى لا تزال قبائل الفولانى تحتفل به كذكرى لهجرة شيخهم الموقر .

اتجه الشيخ عثمان عبر حدود جوبر الى مركز جودى Gudu حيث وجد ما لا يحصى من الاتباع بما فيهم العديد من الجند ، الذين يدفعهم الحماس الدينى ، والاستعداد للموت فداء للمبادىء التى ينادى بها .

هزم المسلمون فى العام التالى جيش يونغا ، واعلنوا الجهاد ضد جميع الكفرة ، ونصّبوا قائدهم أميراً للمؤمنين وقائداً عاماً للجيش ، وهى الصفات أو الالقاب التى تحلى بها خلفاؤه من سلاطين سوكوتو .

لا تدع أحداً يفكر ، أعلن الشيخ عثمان أُنعم عليه بلقب أمير المؤمنين ، اننى أقبل هذا المركز لأكون أعظم من أى انسان آخر ، أو لأفرض سلطانى على الآخرين بالقوة .

أغرى انتصار المسلمين مزيداً من المعجبين بالانضمام لمبادئه ، فقد كان جيشه يقتصر فى البداية على المؤمنين بتعاليمه ، اما الآن فقد انضم اليه العديد من الرعاة الذين يسعون فى الواقع الى الغنائم ، اكثر من مجرد فعل الحماس الدينى .

ادى انهزام جيش حكومة جوبر الى احداث حالة من الفزع بين حكومات الهاوسا الاخرى ، خاصة بعد ان نبههم يونغا الى الخطر المحدق بهم حيث قرر ملوك كل من كتشنا ، وزازُّو ، Zazzaw ، ودوارا ، الى الانقضاض على اتباع أمير المؤمنين أينما وجدوا ، مما أثار حمية الفولانيين ضد ملوك الهاوسا ، ودفع البلاد بكاملها الى أتون حرب أهلية مع الأشارة الى ان قلة من الفولانيين لم يكونوا من أنصار أمير المؤمنين اذ حارب بعضهم بجانب حكومة جوبر ، كما كان بعض أفراد الهاوسا من أنصار الشيخ المذكور .

ومع ان الشيخ عثمان كان قد هزم جيش حكومة جوبر ، الاَّ أنه فشله فى احتلال عاصمتهم ، وهـزم فى احدى المعـارك اللاحقـة رغم استمرار تـدفق أنصار جدد من أغلب اقاليم الهاوسا .

استطاع جيش الشيخ عثمان بعد هزيمته ،من رد هيبته واحتل مملكـة زاريا عام 1804 ثم واصـل انتصاره فى العـام التالى بـاحتلال مملكـة كتشنا ، وتمكن حين التقى مع جيش سلطان كانو ، المكون من اكثـر من عشرة آلاف من الجند المدجج بالرماح ، من الحاق الهزيمة بهم واحتلال عاصمتهم دون عناء .

وعلى الـرغم من تلك الانتصـارات المتلاحقـة ، الا ان جيش الشيخ عثمان ، منى بهزيمة نكراء بنهـاية العـام ، أمام تحـالف جيش جوبـر وكيبَّاوا Kebbawa وانصارهم من الطوارق .

بات وضع الفولانيين حرجاً بعد تلك الواقعة ، الأمر الذى دفعهم عـام 1808 لمحـاولة الانتقـام من جيش مملكة جـوبـر ، الا أنهم لم يفلحـوا رغم محـاصرتهم للعـاصمـة التى لم تسقط فى ايـديهم الاَّ بعـد عـام كـامـل من التجهيزات ، التى قادها بيللو ابن الشيخ المذكور ، الذى انتقم بذبح الملك يونغا .

استتبت الأمور أمام الشيخ ، الذى ازدادت شهـرته وعلى صيتـه بعد ان دانت له مملكة جوبر ، وجاءه سلطان أغاديس خصيصاً لتقديم فروض الطاعة والاعتذار عما ألحقه به بعض قومه من الطوارق ، الذين رأوا فى تجسم سلطان أغاديس مشاق السفر للتعبير عن ولائه لغاصب ومحتل لأراضى طالما باشـروا رعى حيواناتهم فيها ، نذيراً بأن تصعيد المزيد من المقاومة لن يؤتى ثماره .

كانت قبائل الفولانى فى تلك الاثناء ، فى صراع مـع سكان البـورنو ، اللذين طلبت منهم بعض قبـائل الهـاوسا ، مـد يد المسـاعدة ، وقـد تمكن

الفولانيون عام 1808 من احتلال وتدمير العاصمة انجازارجامو Ngazargamo ، مما حذا بالسلطان أحمد بطلب يد المساعدة من أحد أعيان مملكة كانم ، المدعو محمد الأمين ، الذى كانت له مكانة وشهرة كواعظ رائد ، مما مكنهما من جمع الكثير من الانصار بما فيهم بعض العرب ، وردوا الفلانيين مهزومين مرتين خلال عامى 1808 و 1813 .

أتاحت هذه الانتصارات لمحمد الأمين اعتلاء مركز الريادة ، وأصبح الحاكم الفعلى لاقليم البورنو ، وعمل على انشاء عاصمة جديدة له غربى بحيرة اتشاد رغم انه سمح ببقاء السلطان الاول كواجهة ، واستمر وضع أحفاده على تلك الصورة حتى عام 1846 ، حين اطيح بهم نهائياً من مسرح الحياة العامة .

والواقع انه ابتداء من عام 1814 ،أعيدت الحياة كما كانت لامبراطورية البورنو ، تحت القيادة الجديدة ، واستمرت دون اى تهديد من قبل الفولانيين باستثناء المقاطعات الغربية التى كانت قبائل الفولانى قد وطدت سيطرتها عليها وحولتها الى أمارتى هاديجيا وكاتاجوم Hadejia And Katagum .

اعتاد حامل راية أعلام الجهاد الشيخ عثمان دان فوديو اتخاذ سوكوتو مركزاً لعملياته العسكرية رغم انها لا تزيد عن معسكر للصيادين ، وبالذات تحت شجرة التمر الهندى ، التى ظلت قائمة فى فناء المسجد الذى اقيم حولها حتى عام 1950 .

ظلت سوكوتو كما كانت عليه حتى سنة 1909 عندما شرع محمد بيللو ، ابن السلطان عثمان فى تشييد المدينة الحالية ، التى استمرت عاصمة سلطان المسلحين .

كان موقع سوكوتو غير بعيد عن الحدود الغربية للاقاليم التى اخضعها لحكمه حديثاً، ولذا لا نستغرب أنه فى نفس العام الذى بنيت فيه هذه المدينة كان بامكان اخيه عبد الله ، فتح واحتلال دندى Dendi ، وتتبع جيشها الفار عبر

نهـر النيجر الـذى يقول عنـه . . . كان النهـر مطيعـاً وسهل العبـور ، عندمـا وصلناه ، ثم اجتزناه مرة اخرى عندما كانت المياه لا تتجاوز اقدامنا * .

كانت مجموعات من قبائل الفولانى تسكن غربى مجرى نهـر النيجر ، وكان من بينهم أعداء تدين بالولاء للشيخ المـذكور ، خـلافاً للوضـع بالنسبـة لأولئل الذين يقطنون داخل الانحناءة ، التى كونها مجـرى النهر حيث كـانت سيطرته عليهم أسمية أكثر منها واقعاً ملموساً كما فى مدينة دوريس مثلاً Doris .

كـان من بين الاتباع الأوائـل للشيخ عثمـان مـواطن فـولانى من مسينـا Massina يدعى أحمد لوبو A. Lobo أو الشيخ أحمد فى بعض الاحيان .

عاد الشيخ المذكور من مدينة جوبر ليساعد سيده الشيخ عثمان بعد ان تعـرض هو واتبـاعه للتنكيـل على يد الحـاكم أردو Ardo ، الملك الفـولانى لمسينا ، الأمر الذى رفع من مكان الشيخ أحمد وزاد من انصاره وضعت نوعاً من الرعب لدى الملك المشار اليه ، الذى طلب بدوره المساعدة من حليفـه ملك سيجو Segu ، مما دفع بالشيخ أحمد الى اعلان الجهاد ، ومع ان قوات اعـدائه كـانت اكثر وأقـوى من مناصـريه الاَّ انهم تمكنـوا من الحاق الهـزيمة باعدائهم .

كانت حياة ومبادىء الشيخ أحمد ، صورة من سيده ، لذا أرسل أخويه لنيل بركة وولاء الشيخ عثمان بعد ذلك الانتصار . لبى طلب الشيخ أحمد ، وظهرت تكهنات تفيد بأنه كان من ضمن الرعيل الأول الذى حمل اعلام دعوة جهـاد الشيخ ممـا دفع حتى بـأقـرب المنـاصـرين للملك أردو للتحـول عنـه والانضمام الى رفاق الشيـخ أحمد الـذين زاد حماسهم وتجـرأوا على القبض

---

* لا تشير هذه الحادثة الى واقعة خارقة للعادة ، كمـا يصورهـا البعض ، إذ أشار كـل من بارث والنقيب هيل Hill ، الى وجود مثل هذه الأماكن وعلى ذلك لا يجب النظر اليها على أنها حدث فريد .

وتسليم الملك الى شيخهم كسجين ، وتحول بذلك الشيخ أحمد الى ان يكون السيد الوحيد حتى انه اعلن كما فعل شيخه من قبله ، نفسه أميراً للمؤمنين ، وجعل مقر حكمه فى قرية اطلق عليها اسم «حمد الله» حيث باشر سلسلة من الفتوحات ، التى امتدت يومها من تمبكتو الى فولتا السوداء .

قسم الشيخ عثمان فى عام 1812 ، ادارة امبراطورية ، بين أخيه عبد الله ، وابنه محمد بيللو ، الذى ناله بجانب سوكوتو التى استمرت كعاصمة له أقاليم كانو وكتشنا ، وزاريا ، وبوكى Bauchi أضافة الى بعض المناطق الاخرى الواقعة الى الشرق من ذلك .

أما عبد الله ، الذى جعل من جواندو عاصمة له ، رغم أنها لا تبعد بأكثر من خمسين ميلاً عن عاصمة ملك أبن اخيه ، فقد منح حق الحكم على جميع الأراضى الواقعة الى الجنوب والغرب .

كما عين حكام الاقاليم ضمن كادر القادة العسكريين ، الذين أُنيط بهم حمل الأعلام الخاصة بالشيخ ، واعلان حالة الجهاد كلما استدعى الأمر ذلك .

اتبع بعض الحكام الجدد نمط الادارة والحكم الذى أقره حكام الهاوسا كما فى مدينة كانو مثلاً ، أما الباقون وخاصة فى الجهات النائية ويسكنها الوثنيون فكان عليهم اعداد مقار لحكوماتهم ، وأختيار الانظمة الادارية التى يرونها مناسبة ودفع مساعدات سنوية لحكومة العاصمة ، وتتمثل فى العادة فى كم من الرقيق ، كما انهم ملزمون باتخاذ كافة الاحتياطات لابقاء جيوشهم جاهزة استعداداً لأى طارىء . وكان شرط الايفاء بهذه التعهدات ميزة وفرت عليهم تدخل السلطة المركزية مباشرة فى تسيير دفعة أمور تلك الامارات .

شعر الشيخ عثمان باتمام بناء الكيان الادارى لامبراطوريته . أن واجبه قد انتهى ، وقرر التخلى عن أمور الحياة العامة ، وتحول الى القراءة ومزيد

البحث عن المعرفة أرضاء لنفسه الطموحة التى وجدت ضالتها بقـدر أوفر من الرضى عن تلك الاحداث التى خطط لها ونفذها ، فـاسمه سيـظل يذكـر فى أرض احكم سلطانه عليها ارضاء لآماله وتطلعاته فى الحياة. فكما يقول السيد ف. دانيل . . . عاش الشيخ ليرى خاتمة اعماله وكـان يشعر ان مهمتـه فى الحياة قد انجزت ، فقد وجد ان الدين الاسلامى كان يرزخ تحت وطأة وعليه ان يزيحها عنه ويرفع شأنه عالياً ، كما حوَّل حياة الفولانيين من حياة التنقل والرعى الى ان يصبحوا سادة القوم فى كامل اقاليم الهاوسا .

كان انساناً يملك ايماناً صادقاً ، واعتقاداً دينياً عميقاً ، ويؤمن بلا حدود بدعوته الى هذا الدين . كما اغدقت شخصيته الجذابة على اتباعه ثقة كتلك التى يمتلكها ، وأظهرت طباعه الحسنة وزهده فى الحياة صورة مغـايرة لابهـة وخـيلاء الحكام الـوثنيين ، وكان دومـاً يعزو انتصـاراته الى ثـورة الله وحده . وانسحب من الحيـاة العامـة ، بعد تقسيم امـراطـوريتـه ، الى حيـاة الـدرس والتحصيل حتى انتهى ، المقام فى مدينة سوكوتو ، التى توفى بها عام 1817 حيث لا يزال قبره مزاراً يحج اليه الناس [19] .

علينا لنفهم جهاد الفولانيين ، ان ننظر اليه من خلال رؤية ، عامـة الى التاريخ الاسلامى ذاته ، اذ تمثلت مثل هذه الحركة كما فى حركتى المرابطين والموحدين بشمال افريقيا اللتين تقفان كمثال حى ، أو تلك الحركات المشابهة الاخرى ، التى حدثت فى تاريخ متأخر من القرن التاسع عشر كما فى الحركة السنوسية ، وحركة المهدى بشرق السودان .

ففى كل من هذه الحركات يمكن للمرء اقتفاء اسلوب مشترك يتمثل فى العودة الى كل من القرآن والسنة ، واعادة الدولة الاسلاميـة الى سابق نقـائها وطهارتها ، والتأكيد على الاخـلاق الفاضلة ، واعتبـار الجهاد أداة لـلاصلاح المشروع .

كما يجب النظر الى هذه الحركات داخل اطـارها المحلى ، اذ شكـل

مسلمو الفولانيين فى كل دول الهاوسا ، الطبقة المثقفة التى جاءت ثورتها كتعبير لما أشار أليها تومس هودكن Thomas Hodkin . . . انها احساس بالمصلحة المشتركة ، التى يمكن ان تظهر لاية جماعة تربطها علاقات ثقافية ، وتعليمية وتفكير مشترك ، اضافة الى القرابة واللغة الواحدة داخل أطار قومى واحد . ويجب الاّ ننسى أيضاً أن حركة الفولانيين وجدت لها قبولاً حسناً لدى العديد من المواطنين فى اقاليم الهاوسا المختلفة ، الذين رأوا فيها فرصة لتخليص أنفسهم من فساد وظلم حكامهم .

كانت ولاية الأبن بيللو ، التى امتد عشرين عاماً ، حافلة هى أيضاً باخماد الثورات ، التى قامت ضد الحكام الجدد ، أضافة الى أنه كان ادارياً ممتازاً مما جعل منه أعظم سلاطين سوكوتو .

كما جذبت رعايته وحبه للآدب نخبة من أهل المعرفة من اماكن بعيدة مثل الحاج عمر التل أحد مناصرى حركة الجهاد الذى استطاع فى منتصف القرن مدّ نفوذه على منطقة واسعة على نهر النيجر الأعلى ، ويعرف عنه أنه قضى وهو فى طريق العودة من مكة ، حزءاً من شبابه فى سوكوتو وتزوج من قريبة السلطان .

وبرزت حملة اعلام الجهاد الأوائل ، بدأ الفولانيون يفقدون وبسرعة حماسهم الدينى ، وجلبت مكاسب الانتصار معها ، كما يحدث عادة فى التاريخ ، مقومات ضعف الخصال التى ترجع اليها أسباب تفوقهم على دول الهاوسا .

فكما قال أحد أهالى طرابلس ، وهو يتحدث مع الرحالة كليبرتون ، عندما كان الفولانيون فقراء ، كان رؤساؤهم يقودون الجند الى المعركة ، أما حين شبعوا فان القادة يبقون حيث هم ، ويرسلون الجند الى المعركة وحدهم .

لقد تحول أعظم رجالهم الى حكام محاطين بالجوارى ومئات من الخدم

من الرقيق والخصيان ، وقام أقاربهم وذوى الحظوة لديهم بجمع الضرائب لهم . وكانوا لا يتوانون أيضاً فى شن الهجمات الشرسة ضد جيرانهم الوثنيين ، وتمكنوا عن طريق استعمال الدبلوماسية الحذرة والتهديد باستعمال القوة ، ونجحوا أيضاً خلال الثلاثينات فى فرض سيطرتهم على أجزاء عديدة من اقليم اليوربا . كما سيطر أحد شيوخهم على مقاطعة أدما ، التى تحولت لتضم اجزاء واسعة امتدت الى ما وراء حدود دولة نيجيريا الحالية ، وجزءاً من الكمرون .

ويبدو أن محصلة هجمات الفولانيين ضد السكان الوثنيين بحلول منتصف القرن التاسع عشر ، لم تزد فى جوهرها على حصيلة أضافية من الأرقاء ، حيث باتوا يشكلون دعامة لا مناص عنها لدعم اقتصاد الامارات المختلفة ، اذ كانت بعض المحاصيل الزراعية تشكل قاعدة لعلف الحيوانات ، التى بحوزة كبار القادة والحكام الذين كلما زاد ما حولهم من عبيد ، زادت رغباتهم فى شن المزيد من الغارات وهكذا .

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الخصوص ، أن اسباباً كهذه كانت العامل المباشر فى خلخلة كثافة السكان الواضحة فى العديد من المناطق ، التى اعتاد الفولانيون الاغارة عليها ، كما فى مقاطعة كونتاجورا Kontagona شمال نيجيريا خلال القرن الماضى ، خلافاً للحال مع الجهات الجبلية التى تمكن سكانها من تجنب تلك الهجمات .

أدت المباغتات التى كان يمارسها الفولانييون لاقتناص الرقيق ، الى أن تتحول تلك العمليات الى حروب مباشرة أحياناً ، اذ لم يكن باستطاعة الفولانيين اخضاع جميع ممتلكات الهاوسا ، التى تدخل ضمن حدود ممتلكاتهم ، حتى التى لا تبعد كثيراً عن أحصن معاقلهم كما فى اقليم كبىٍّ ، حيث استطاع سكانها ، رغم قربها من العاصمة سوكوتو الاحتفاظ باستقلالهم لحين قدوم الجيش البريطانى .

أو كما فى حالة بعض القبائل التى تراجعت عن كتشنا شمالاً للهرب من حكم الفولانيين ، الذين تعرضوا للعديد من الغارات المضادة وبالذات من مركز مرادى Maradi . كما ثار بعض الاقوياء طلباً للاستقلال كما هو الحال مع السيد البوخارى ، حاكم منطقة هديجة ، الذى تمكن من اعلان استقلاله خلال الخمسينات من القرن الماضى ، وأثار الرعب والدمار على أبواب مدينة كانو نفسها .

تبين بعض المؤرخين أن استمرار الغارات على الرقيق ، والانتفاضات ضد الحكم ، وقوة مقاومة افراد الهاوسا ، وسرعة انهيار الفولانيين أمام تقدم الجيش البريطانى ، كانت مؤشرات واضحة على مدى ضعف وتهلهل الحكم الفولانى فى النصف الثانى من القرن الماضى .

أما على الطرف الآخر فان اجزاء عديدة من الامبراطورية ظلت هادئة وبقيت العلاقات التى تربطها مع العاصمة كما هى ، وأظهر الكثير من الحكام اللاحقين بوادر صحوة للحفاظ على مكتسباتهم . . . فقد ظن الرحالة الفرنسى مونتيل Monteil ، الذى زار سوكوتو عام 1891 ، أن الامبراطورية كانت على وشك الانهيار ، الا انه لم يلبث ان غير تصوره واعترف بأن تنبؤاته لم تكن صائبة بعدما أظهره السلطان عبد الرحمن من بسالة وقدرة على قهر اعدائه .

أن أى مؤرخ منصف ، مع ما يتوفر لدينا من معلومات ، سيكون فى منتهى الحكمة لتجنب اصدار حكم قاطع فى هذا الصدد قبل توفر الدراسات الدقيقة عن اللامبراطورية الفولانية ، ومع ذلك فأن حكماً لن تعوزه البراهين يجيز الاعتراف بأن امبراطورية الفولانيين ، فى سوكوتو وجواندو ، مثلت واحدة من أبرز الحكومات التى عرفتها القارة الافريقية .

الفصل الخامس والعشرون

آخر القوافل

التجارة هى المعيار الحقيقى لتقييم اى أنسان ، أذ من خلال التعامل التجارى معه ، تتبين نزاهته وأهليته الدينية .

الخليفه عمر بن الخطاب

أدت حاجة العالم الغربى الى منتوجات افريقيا ، وما تميز به أهلها سواء شمال أو جنوب نطاق الصحراء الكبرى من روح واستعداد تجارى ، الى أن تصبح التجارة الخارجية عاملا مؤثراً فى تاريخ الجزء الشمال الغربى لهذه القارة .

فالتبادل التجارى جعل من الصحراء رغم انها أفظع الحواجز فى العالم للالتقاء البشرى ، جسرا يربط بين منطقة شمال غرب القارة والسودان الغربى ولمصلحة كل منهما .

فتجارة القوافل عبر الصحراء جعلت من منطقة شمال غرب افريقيا ، قطبا يجذب اليه التجار الأوربيين الذين ملأت سفنهم مرافىء سواحله المتضرسة ما بين طرابلس وأغادير .

فالى اهل السودان حملت تلك التجارة السلع المرغوبة ، ونشرت الثقافة الاسلامية ، التى تركت أثرها اكثر من اى شى آخر فى تشكيل تطورهم الاجتماعى والسياسى . كما يعزى اليها دفع سكان المناطق الداخليه ، بعد قرون من الأحباط واليأس ، الى التطلع والاخذ بفكر وعقلية أوربا .

ومع بدء فجر الرواد من المكتشفين الذين نأوا عن حمل السلاح ، حل دور ابنـاء عمومتهم المـدججين بالأسلحـة قصد الغـزو والاحتـلال ، والـذين تمكنوا بالتدريج من تغيير نمط الحياة الافريقيه بأكملها ، علماً بأن ما طرأ من تغيير كان اشد وأعمق بكثير على التجارة الداخلية منه على اى نوع من ضروب النشاط البشرى الآخر ، مع التأكيد بأن النشاط التجارى كان بعيدا عن أى أثر للاوربيين قبل ذلك التاريخ .

أذ فتحت الطرق البرية ، والمراكب النهرية ، والسلك الحديدية ، نقاط عبور جديدة الى ساحل غينيا مما سلب تجارة الصحراء شأنها ، وتحولت طرق القوافل الى ممرات مهجورة بعد ان كانت أعمدة للتجارة والحياة الثقافية . لذا يستحسن القـاء نظرة على تلك التجـارة ، كما ظهـرت للرحالـة العظام وعلى طبيعتها التى لم تتغير لقرون طويلة .

كانت طرق القوافل خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ما بين منطقة شمال غرب افريقيا ، والسودان الغربى تتركز حول ثلاث محـاور هامـة ممـا جعلهـا ضمن أقـدم طـرق التجـارة فى العـالم وهى طـريق تغـازة Taghaza تـمبـكتـو Timbuktu فـى الـغـرب ، وطـريـق غـدامس ـ أيـر Ghadames ـ Air الى اقليم الهـاوسـا فى الـوسط ، وطـريق فـزان ـ كـوار Fezzan ـ Kawar الى اقليم البورنو فى الشرق .

تتعرض بعض القوافل ، وبالذات المحملة منها بالبضائع ، للعديد من المخاطر بحكم المسافات الشاسعة ، التى تفصل بين مواطن توفر الماء على طول تلك الطرق ، التى أثبتت التجارب انها ليست أقصر الطرق فحسب بـل واكثرها أمانا للتجـار الذين تحتـاج ابلهم لمدة لا تقـل عن شهرين لقـطع اى منها .

ومع ان طرقا أقصر مسافة كـانت تستعمل فى بعض الأحيـان ، الاَّ انها سرعان ما تهمل لنضوب مياه آبارها ، أو لشـح ما يتـوفر من كـلأ ، أو بحكم الصراعات السياسية . أما الطرق الرئيسة الثلاث السابقة فكادت تشكل بحكم

الخبرة والممارسة ، أضمن دروب الصحراء لما يتوفر بها من مـرعى وماء فى الأماكن التى يتوقـع التجار تـوفرهـا فيها رغم مـا يعترض طـريق بعضهم من محاولات الابتزاز ، أو مواجهة الصراع المسلح مما سبغ عليها طابع الصمود عبر الاجيال والعصور .

يتطلب الحديث عن موضوع تجـارة القوافـل ودروبها ، من أى بـاحث منصف أن يستقى معلوماته من مصادر تدعمها البيانات الاحصائية، ولحسن الحظ فان مثل هذه البيانات قد اخذت تجد سبيلها الى النور وبالذات فى الفترة التى تخص الجـزء الاخير من النصف الثـانى من القرن المنصـرم ، ذلـك ان أغلب ان لم يكن جميع المكاتب القنصلية ، التى أقامتها القوى الأوربيـة فى اغلب الموانىء على الشواطىء الافريقية ، كانت تولى كامل اهتمامها لجمع كل ما يتعلق بشؤون التجارة بين تلك الموانىء ومنطقة ظهيـرها الافـريقى ، وترسل بها الى حكوماتها حيث تحفظ فى مكاتب الارشيف الخاصة بذلك .

أمـا خلال النصف الأول من ذات القـرن ، فأن مـا أشـار اليـه وجمعـه الرحالة الأوربيون عن تجارة القوافل ، فأنه وان أعطى انطباعاً جيدا الا انه لا يرقى الى السند الذى يصبح معه بلأمكان تقييم التجارة الفعلية لأى من الطرق التى كانت تسلكها .

كان طريق تغازة ـ تمبكتو قبل القرن السابع عشر ، طريقا قامت شهـرته على تجارة الذهب ثم تحول فى تاريخ لاحق ، ليصبح رمزاً للتبادل الثقـافى مما جعله يحظى بأهمية فاقت غيره من الطرق التى اشير اليها .

أقدم السلطان المغربى ، القوى الشكيمة ، مولاى اسماعيل فى أواخر القرن السابع عشر وبـداية القـرن الثامن عشـر ، على جلب أعداد كبيـرة من الارقاء الأفارقة ليدعم بهم جيشه ، الا ان البلاد شهدت بعد وفاته فى 1727 ، ولفترة جيل كامل ، حربا أهليه لعب فيها جيش العبيد ، كما كانوا يعـرفون ، دوراً مأسويا مما حمل السلاطين اللاحقين على الاستغناء عن خدماتهم .

أدى تسريح أفراد الجيش المذكور الى تناقص ملحوظ فى جلب واستخدام المزيد منهم ، وتدهورت بالتالى ، حركة وكمية التبادل التجارى بين المغرب ومنطقة السودان بكامله .

وفى هذا الخصوص لاحظ القنصل البريطانى فى المغرب السيد جيمس ماترا James Matra فى تقرير له عام 1788 تناقص رحلات القوافل المتجهة جنوباً ولعدد طويل من السنين . وهكذا يظهر ان الاستقرار السياسى الذى حظيت به المغرب خلال القرن التاسع عشر ، قد انعكس فى استعادة طريق الجنوب الى تمبكتو سابق أهميته . وبغض النظر عن تحديد مدى استرجاع تلك الأهمية فمن المؤكد ان تجارة القوافل كان لها دور فعال فى اقتصاد المغرب خلال الثمانينات من القرن الماضى * (1) .

تمخض تدمير مدينة سجلماسّا Sijilmassa فى السنوات التى سبقت انهاء القرن التاسع عشر ، والتى كانت آيلة للدمار منذ أيام ليو الافريقى ، فى حرمان طريق تغازة - تمبكتو من محطته الهافة فى طرفه الشمالى، حيث ارتبطت بذلك الطريق منذ القدم ، والتى حلت ولو جزئياً ، مكانها مدينة أبوام Abuam التى لا تبعد كثيراً عن المدينة المدمرة ، ولو ان جزءاً هاماً من التجارة التى كانت تجد طريقها الى تافيليت Tafilet ، قد غيرت مسارها اذ اتجه جزء منها الى عين صالح عاصمة أقليم توات ، التى يسهل الوصول اليها من مراكش عن طريق وادى ساورا ، فى حين اتجه الجزء الآخر غرباً الى مدينة لكتاوا LeKatawa ، المركز العمرانى الذى انشىء حديثاً قرب الساحل ، وعلى بعد عدة أميال فقط من رأس نان ، من قبل بعض الفارِّين من ظلم أحد السلاطين (2) .

اتخذ التجار الذين يتعاملون مع اقليم السودان ، من كل من وادى نام ومدينة أبوام ، طريقهم الجديد عبر مدينة أكّا Akka ، التى حلت محل مدينة

---

* قدر الباحث ج. ل. ميج J.L. Miege ، فى دراسة حديثة له ، بأن تجارة المغرب مع السودان فى سنوات (1858 6 1870) كانت فى أوج ازدهارها ، ويذكر أن مجموعة من التجار اليهود من جنوب المغرب كانوا قد استقروا فى مدينة تمبكتو .

سجلماسًا ، بتوفير احتياجات القوافل التى تجد طريقها بعد ذلك الى الطريق العام القديم عبر كل من تغازة وتاودينىTaodeni الى تمبكتو .

وبدلاً من أن يتجه الطريق تاودينى نحو ولاتا Walata صوب الغرب لشهرتها فى صناعة الذهب، الاّ ان الطريق يتجه مباشرة نحو أراوا Arawa حيث يلتقى مع طريقين آخرين يسير اولهما جهة توات ومبروك وينتهى أخيراً عند تمبكتو ، أما الثانى فيتجه شمالاً من مدينة سانسنديغ Sansanding على نهر النيجر الأعلى ومنها الى تمبكتو .

وعلى الرغم من القرون الطويلة ، التى استخدم فيها هذا الطريق ، الاّ ان طول المدة لم يشفع له ويجنبه ويلات التعرض لبعض المآسى ، ففى عام 1805 تعرضت قافلة عائدة من تمبكتو ، عدتها ألفى رجل والف وثمانمائة بعير الى الهلاك المبرم بسبب العطش الذى لم يبق على حى كان[3] .

والواقع ان هذا الطريق (تغازة ـ تمبكتو) الذى احتكر معظم تجارته تجار يجمعون مزيجاً من الدماء العربية والبربرية ، كان قد بنى شهرته على توزيع غير عادل فى الاتجار بين خامى الذهب والملح فى المناطق الداخلية ، اذ انصب معظم الحديث وتلك الشهرة عما حظيت به تجارة الذهب ، فى حين بقى الحديث عن أهمية تجارة الملح مختفياً ومقتصراً عن تلك الاشارات القليلة التى كانت لها صلة بموضوع الحديث عن الذهب .

وهنا لا نبالغ اذا أكدنا ان التعامل مع الملح كان يحظى بمركز ارفع لدى الافارقة لأن أهمية الذهب كانت تتحدد لديهم بمقدار قوته الشرائية لمادة الملح ، الذى كان سعى الحصول عليه غاية ما يمكن الأمل فيه . فقد كان أساس التعامل فيما بينهم ، وكان أيضاً معيار التعامل مع الآخرين الامر الذى لا يمكن فهمه الا فى إطار ادراكه كسلعة لا يمكن التغاضى عنها لبقاء آدمية الانسان نفسه . فما أشار اليه البكرى ، الجغرافى العربى الشهير ، من أقدام قبائل الفيراوى Ferawi على استبدال الذهب بمقدار وزنه ملحاً لم يكن رأياً مبالغاً فيه [4] .

كما ان هناك اشارات اخرى تماثل ما جاء على لسان البكرى ، اذ تتحدث بعض الملاحظات المدونة على خرائط تركها نفر من اليهود لمنطقة مالى فى اوائل القرن السادس عشر ، عن المعنى المشار اليه ، والتى قد تكون تكرار لذات المعنى الذى قصده البكرى . واكثر من هذا فان الرحالة الفرنسى رفائيل Reffenel الذى كان يجوب تلك الديار قبل قرن فقط ، يشير فى سياق حديثة انه كان على وشك ان يكرر الفعل نفسه حين وجد نفسه مضطراً لذلك (5) فنقص الملح عند اولائك القوم شيء لا يمكن اقرار أثره الا أولائك الذين مروا بنفس التجربة ، فشح تلك المادة تترك أثراً عميقاً فى نفوس من اعتادوا عليه حتى انه كان يعتبر سلعة لن يستطيع الا الأثرياء دوام الحصول عليها .

وتقتصر تكوينات الملح الطبيعى على بعض المناطق القليلة فى منطقة غرب السودان ، كما فى الجهات القريبة من مركزى دندى وكبى Dendi And Kebbi ، حيث تظهر بعض السبخات نتيجة تشبع التربة بتكوينات الملح ، التى يمكن الحصول على بعضها بفعل التبخر . أو كما فى بعض الجهات المبعثرة على طول ساحل المحيط ما بين السنغال ونهر النيجر حيث يمكن الحصول على بعض الملح الذى يندر ان يترك فائضاً للتصدير . أما بالنسبة للقبائل التى لا تتمكن من توفير حاجتها عن طريق المبادلة ، فانها تلجأ الى استخراجه بطرق بدائية ، وبكميات محدودة جداً عن طريق اضرام النار فى الحشائش وعيدان الذرة ، أو بعض الشجيرات الصغيرة أو روث الماشية* .

وحين احتل المغرابة مدينة تغازة ، بعد طرد سكانها من قبيلة سونجاى Songhai فى القرن السادس عشر ، عمل الاخيرون فى استغلال مناجم ملح

---

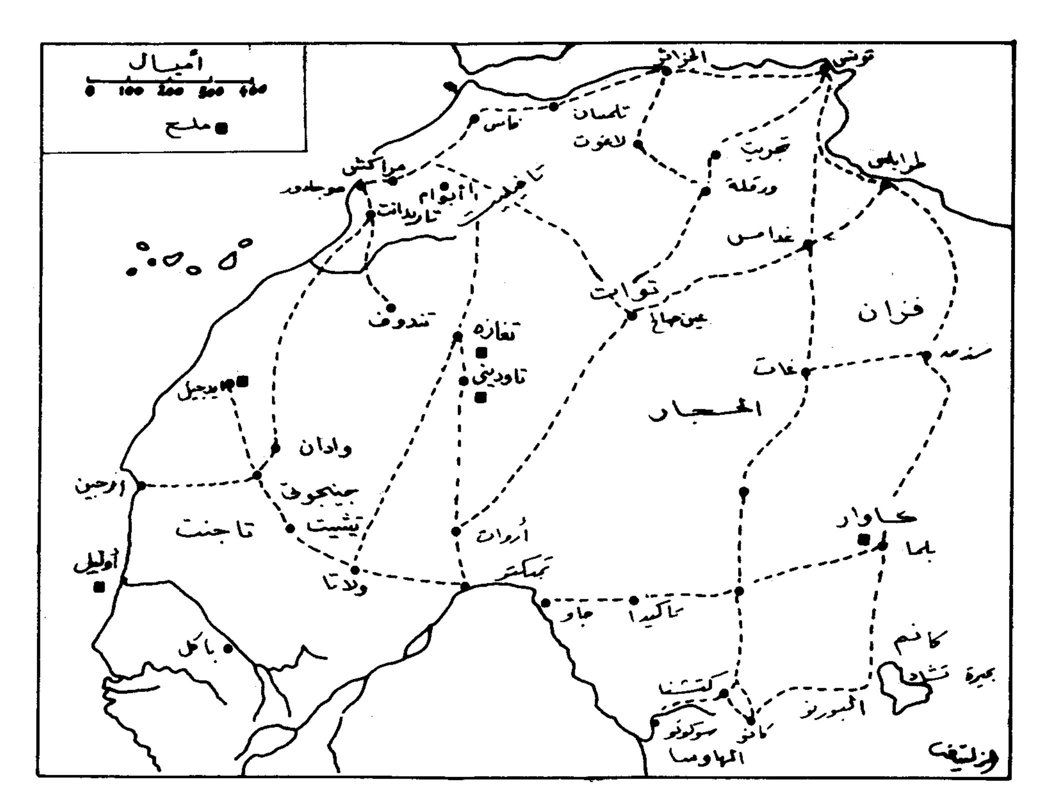
* لاحظ الرحالة الفرنسى بنجر Binger ، خلال الثمانينات من القرن الماضى ، أن المدن الواقعة فيما بين خطى عرض 8°, 3, 10° شمالاً كانت لا تشكو نقصاً فى هذه المادة ، فالى جانب الأستيراد كانت تحصل عليه أيضاً عن طريق الخامات المحلية من الصحراء ، أو من شواطىء المحيط ، والى ما يتوفر من الخامات المحلية ، كما ان ملح تاودينى كان يسوق فى الطرف الجنوبى من منطقة ساحل العاج .

تاودينى ، التى كانت ولا تـزال المصدر الاسـاسى لاستخراج وتصـدير الملح لكل اقطار نهر النيجر الأوسط [6] ، ا ذ يشير الرحالة بارك بوجود بعض منه فى مدينة باماكو الى جانب ذلك المستخرج من ساحل المحيط قرب نهر ريوجراند Rio Grande . علمـاً بـأن بعض الملح كـان يستخـرج من بعض السبخـات الصحراوية ولو أن الاعتماد عليه كـان قليل الاهمية لصعوبـة الحصول عليـه بحكم الـظروف البيئية الصعبـة التى لا تؤمن مورداً ثـابتـاً لمـادة اسـاسيـة فى الحياة .

وعموماً فان مثل تلك المصادر كانت معـرضة للنهب لصعـوبة حمـايتها والدفاع عنها بجانب امكانية تعرضها للنزاعات السياسية ، التى تحكم حيـاة الصحراء ، اضافـة الى امكانيـة توقفهـا اذا فـشـل وصول ضـروريات الحيـاة للعاملين فيها كما حدث اكثر من مرة بالنسبة لمناجم تاودينى .

لكل هذه الاسباب بدأ المغـاربة ، ومنـذ بدايـة القرن التـاسع عشـر ، يعملون على تصدير كميات وافرة من الملح الى اقاليم السودان ومبادلته بمعدل رطل لكل أوقية من الذهب .

بنت مدينة تمبكتو شهرتها ، ويشاطرها فى تلك السمعة طريق القـوافل الذى ينتهى عندها ، على الاتجار فى الذهب والملح ، فالمدينة لم تكن تنتج أو تصنع شيئاً اذ انصب اعتمادها على استيـراد حاجيـاتها من الغـذاء ، وعلى تجارة العبور التى تشكل مورد رخـائها ، فكـانت بحق ميناء داخليـاً حقق لها موقعها الفريد مصدر أهميتها لوقوعها على نهر النيجر عند أفضل نقاط الاتصال مع كل بلاد المغرب العربى . فالطريق العام الذى يصلها مع تغازة يحمل اليها الملح ومنتـوجات البحـر المتوسط كمـا يأتيهـا عن طريق النهـر الأرز والـذرة والذهب والعاج والرقيق ولوز الكولا Kola Nuts . هذا بـالاضافـة الى الطريق الذى يصلها مع مصر عن طريق غات ، وغدامس ، التى كان لتجارها أثر على تجارة المناطق الداخلية .



شكل (9)

طرق القوافل الرئيسية

كانت علاقات تمبكتو ، زمن الرحالة بارث ، تمتد ما بين منطقة ساحل العاج ونهرى السنغال وغمبيا اللذين تأتى عن طريقهما معظم المنتوجات البريطانية عبر مدينة باماكو ، وباختصار فان المجال الجغرافى لتجارة تمبكتو وعلاقاتها الخارجية كان مذهلاً بحق .

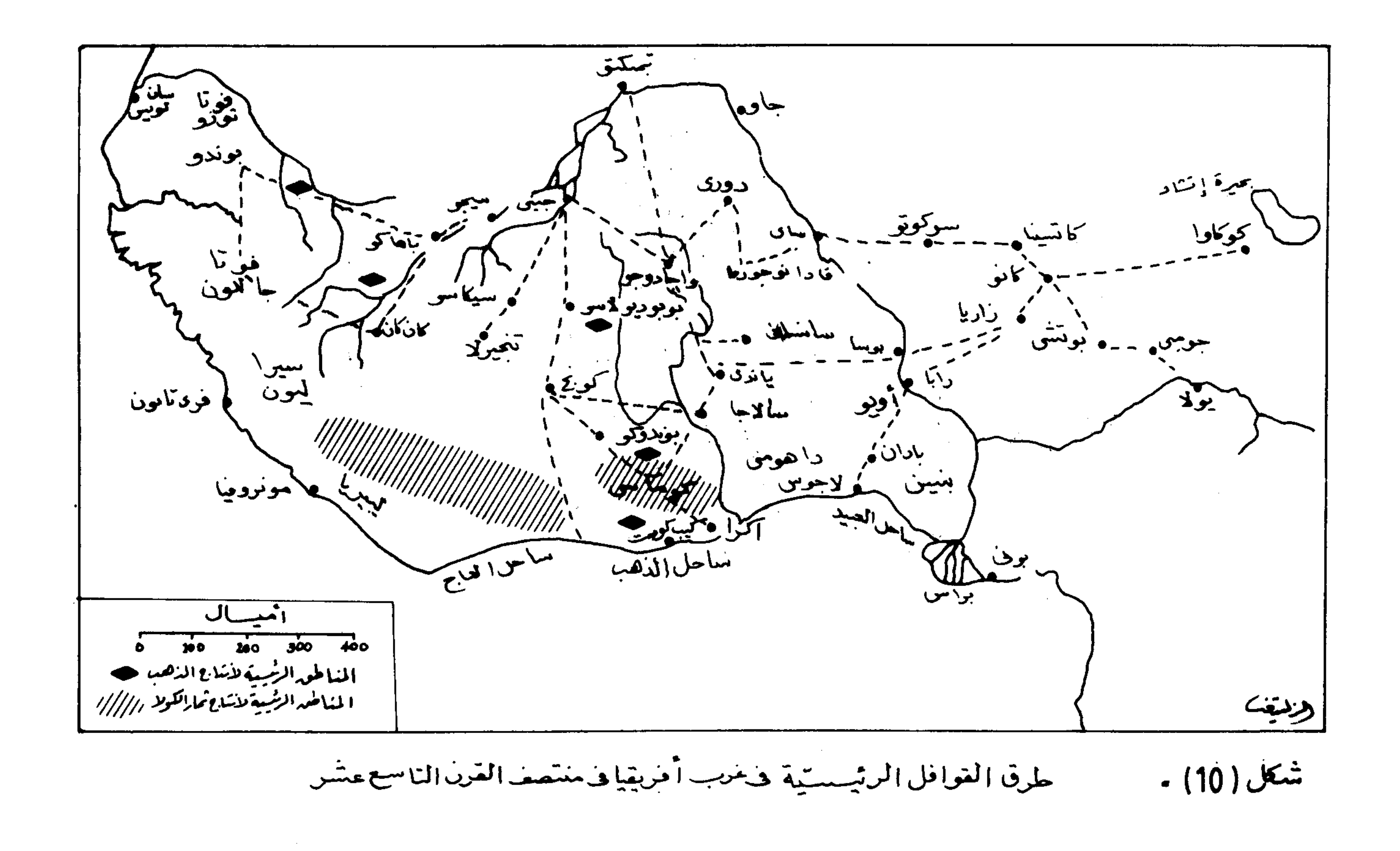
أما الطريق العام ما بين غدامس وأير ، فأنه لا يقل قدماً فى استعماله عن الطريق الواصل الى تغازة ، ورغم اجتياز هذا الطريق لمناطق صحراوية جرداء فى الكثير من اجزائه ، الا ان استمرار التردد عليه ترك أثاراً تدل على استعماله منذ أمد طويل وبحركة مكثفة . وكان جزء الطريق ما بين غدامس وغات

خاضعاً فى النصف الأول من القرن الماضى ، لطوارق الأزجر Azger الاقوياء . أما بين غات وأير فانه يجتاز طرفاً من أسوأ المناطق الصحراوية فى العالم ممثلاً فى اقليم كل أوى Kel Owi حيث يلتقى فى منتصفه عند عين أزاوا Azawa بالطريق الواصل الى مركز توات ، الذى يجتاز هضبة الهجَّار التى تحكمها قبائل الطوارق الذين يحملون نفس اسم الهضبة . ويمر الطريق العام الواصل الى مركز أير عبر نقطة تقاطع افروان Ifrwan ، التى يصلها طريق الحج القديم القادم من تمبكتو عبر عين جال Gall ومنها الى عين أزاوا ، فغات ثم مرزوق فالعقيلة ومنها الى سيوة فالقاهرة .

وبما ان طبيعة الاقليم المحيط بمدينة اغاديس لا يصلح لعبور الابل المثقلة فان الطريق يمر غير بعيد عنها من جهة الغرب . وكانت مدينة كتشنا تمثل نهاية تلك الطريق الجنوبية ، الا ان مدينة كانو حلت محلها بعد اعلان الجهاد من قبل قبائل الفولانى ، وأصبحت بذلك مركز السوق الأول فى منطقة الهاوسا ، اذ باتت تصلها تلك الطريق بعد ان تمر بمركز زندر ثم كتشنا ، وكانت المنطقة الفاصلة بينها وبين منطقة أير فى الشمال تخضع لسلطة قبائل كيل جريس Kel Geres من الطوارق .

وكانت مدينة اغاديس تمثل الميناء الداخلى أيام حكم امبراطورية السونجاى Songhai ، لتجارة الذهب الذى أضفى عليها مظهراً من الرخاء ، اذ كان يصلها من مركز جاو Gao ، ثم يأخذ طريقه الى كل من طرابلس والقاهرة . ومع خضوع المنطقة لحكم المغاربة انتهى أمر تجارة الذهب ، وتراجع مركز اغاديس الاقتصادى رغم ان نفوذها السياسى بقى دون ان يناله تبدل يذكر لتمكنها من الاحتفاظ ببعض العائدات عن طريق الاتجار فى الملح بين اقليم كاوار والهاوسا .

لقد تمكن سكان اغاديس من المحافظة على تنظيم تجارة الملح البالغة الأهمية ، بحكم ما كان فى حوزتهم من مراعى شاسعة مكنتهم من امتلاك



شكل (10) - طرق القوافل الرئيسية في غرب أفريقيا في منتصف القرن التاسع عشر

قطعان كبيرة من الأبل التى لولاها لما كـان بـالامكان ممـارسة تلك التجـارة الثقيلة الحمل .

تتحرك مع كل خريف قـافلة هائلة ، تعـرف باسم الأزلاى ، Azlai من مركز أير لتنقل الملح من مدينة بلما Belma ، عاصمة اقليم كاوار ، لسد حاجة أسواق منطقة الهاوسا . لقد كانت قوافل الازلاى تشكل مظاهرة تجارية ندر ان يوجد لها نظير فى اى مكان ، ذلـك انه حتى عـام 1908 عندمـا اوشكت تلك القوافل على لفظ أنفاسها الاخيرة ، ما كان عدد الابل التى تضمها الواحدة منها ليقل على عشرين ألفاً .

يستدعى رحيل مثل تلك القوافـل اعداد تـرتيبات وتنـظيمات ممتـازة ، فتجميع اعداد هائلة من الابل من قبيلتى كيل جريس واتسـان Itesan يستخدم فتـرة لا يستهان بهـا ، اذ كانت جميعهـا تلتقى فى مركـز تـابيللو Tabello فى المنطقة الوسطى من جبال الأير حيث يتوفر المرعى الجيد الذى يؤهلها لسفـر مرهق وشاق . فمع ان مدة السفر من منطقة الانطلاق وحتى اقليم كاوار والعودة لا تستغرق سوى ثلاثة اسابيع الا انها تحتاج لصبر وجلد شاقين ، ولهـذا فان تلك الطريق كانت مليئة بالهياكل العظيمة الملقاة والمبعثرة على جانبيها . هذا بـالاضافـة الى ان قافلة بهـذا الحجم كانت دومـاً عرضـة للنيل منهـا من قبل محترفى النهب والسلب ، الذين كثيراً ما يسببون اضراراً وخسائر لأصحابها من تجار الملح .

تنطلق قافلة الأزلاى فى شهر اكتوبـر عادة ، بقيـادة وزير يعينـه سلطان أغاديس ، محملة بالذرة والملابس لمبادلتها بالملح مع سكان منطقة الهاوسا ، كما تحمل معها كميات كبيرة من العلف اذ ليست هناك مراعى كافية فى منطقة كاوار ، التى تعيش ابلها القليلة على التمر .

وتبلغ القافلة مركز فيكى Fechi باقليم كاوار ، بعد رحلة خمسـة ايام ، حيث تلتقى مع قافلة اخرى قادمة من مركز داماجارام Damagaram ثم يواصلان السفر الى مدينة بلما، التى يبلغانها بعد ثلاثة ايام، علماً بأن سكان المدينة

الاخيرة سيعرفون بقدوم القافلة قبل ان تحل بينهم بيومين نتيجة لما تحدثه احدى القمم الجبلية القريبة من صدى لتحركات القوافل المتجهة صوبها من الغرب * .

أما رحلة العودة المحملة بالملح الى اقليم أير فتتخذ نفس الطريق أذ بعد الاقامة للراحة فى اغاديس يترك جزء منها الى الجنوب قاصداً مدينة سوكوتو ثم كانو حيث يباع الملح ، الذى يجد طريقه بعدها الى كافة أراض الهاوسا ، ثم تعود القافلة محملة بالملابس والذرة (7) .

وكانت مدينة كانو ، خلال القرن التاسع عشر ، اكثر أهمية من مدينة تمبكتو ، حيث كان معظم سكانها من أفراد قبائل الهاوسا الذين يقطن بينهم الكثير من التجار الاثرياء من منطقة طرابلس . هذا وقدّر الرحالة بارث ، الالمانى الاصل ، عدد سكان المدينة بما يزيد على ثلاثين ألفاً ، أما بحلول فصل الجفاف واعادة انتظام طرق التجارة فان عددهم قد يتضاعف بكل يسر .

كان لموقع كانو وسط منطقة زراعية توفر كل احتياجات سكانها وتترك فائضاً للتصدير الذى ما كان له ليشكل مصدر رخائها لولا تلك الصناعات التى أفلحت فى خلق كادر من الحرفيين الممتازين وبالذات فى مجال صناعة النسيج والصباغة ودبغ الجلود* فقد ذكر بارث ان ميزة كانو الكبرى تكمن فى العلاقة الوثيقة التى تجمع بين مهارات التجارة والتصنيع بدأ من الأسرة ، فقد كانت صناعاتها تملك خصائص المنافسة التى افسحت لها المجال الى كل من غات ، ومرزوق وغدامس وطرابلس شمالاً ، ووصلت الى ساحل المحيط ،

---

* يظهر أن هذا الفعل الغريب شبيه لما يعبر عنه برمال الالحان ، كما يشبه فى مظاهر عديدة الهضبتان الموجودتان بمنطقة روس ـ شاير Ross^ Shire اللتان يصدر عنهما زئير عند نزول الثلج ، وهبوب الرياح الشرقية الشديدة .

* كانت الكثير من الملابس المصنوعة فى طرابلس ترسل عبر غدامس الى مدينة كانو لاعطائها الألوان التى تليق بها . كما أن الصناعات الجلدية الممتازة كانت تجد لها سوقاً رائجة على طول ساحل المتوسط الجنوبى .

أما فى اقليم البورنو شرقاً فكانت منتوجاتها متوفرة بشكل ظاهر ، كمـا امتدت الى قبائل الايبو جنوباً رغم منافسة الصناعات المحلية (8) .

أما وارداتها فيأتى معظمها من الشمال وبالذات عن طريق منطقة الأير ، كما يصلها جزء آخر عن طريق اقليم كاوار ويرنو مثل الملح والحرير الخام ، الـذى يأتى جله من طـرابلس ، ومجموعـة متنوعـة من المصنوعـات الأوربية كالقطن من مانشستو والحرير الفرنسى ، والمصنوعات الزجـاجية من كـل من البدقية وتريستا ، والورق والمرايا والأبر من سوريا ، اضافة الى كميـات من السكر والشاى . كما اشتهرت كانو بسوقها الهام لتجارة نتـرات الصودا ولـوز الكولا .

كانت ثمرة لوز الكولا معروفة منذ زمن بعيد فى منطقة السودان الغربى ، كما يظهر ذلك من اشارات الرحالة العرب الأوائل، فبذرتها أو نواتها المزدوجة المتداخلة ينظر اليها كرمز للصداقة ، وكانت أية هدية غير ذات بـال اذا خلت من بعض اللوز معها ، مما اكسبها أهمية خاصة فى الاحتفالات وباتت مركزاً لحلف اليمين ، ونظراً لطعمهـا القابض فـأن السكان يقبلون عليهـا بشغف ، أضافة الى انها مغذية ، ويعتبرها الكثيرون عـلاجاً نـاجحاً للوهن والضعف . ونظراً لتكاليف النقل فـأن اسعارها مرتفعة مما حولها الى نـوع من الكماليـات التى لا يقدر على اقتنائها سوى الاثرياء رغم انها من الضروريات بالنسبة لعدد كبير من السكان ، خاصة وان ما تحويه من سائل ، رغم مذاقه القابض ، الا أنه لا يعد من الممنوعات عند المسلمين . وتزرع اشجار الكولا شمال منطقة الغابات فى حزام يمتد من منطقة فولتا جالون الى شمال اقليم الاشانتى حيث تجمع الثمار وتعد للتصدير الى جينى فى الشمال وكانو فى الشمال الشرقى ، كما ان بعضها يعبـر منطقة الصحراء وتباع فى العديد من المدن كما فى تونس حيث عرف أن باى تونس وحاشيته من المماليك كانوا يـستهلكون كميات كبيرة منها خلال الخمسينات من القرن الماضى (9) .

كان على المسافرين عبر منطقة الصحراء ارتياد طـرق ومسالـك محددة

ومعروفة ، أما الى الجنوب من مراكز كوكاوا Kukawa ، وكانو وتمبكتو ، التى تمثل الموانىء الداخلية لتجارة الصحراء ، فان المسالك التى تخدم حركة التجارة تصبح اكثر صعوبة وتعقيداً . ففى حزامى منطقة السافنّا والغابات جنوبها تقوم العديد من المدن التى تجنى جزءاً هاماً من ثروتها عن طريق التجارة كما فى مدينة كونج Kong الواقعة فى الطرف الشمالى من منطقة ساحل العاج ، التى قدر الرحالة بنجر Binger عدد سكانها بأكثر من خمسة عشر ألفاً فى الثمانينات من القرن الاخير لأهميتها كمركز لصناعة الملابس وحركة التجارة النشطة فى كل من الذهب والملح ولوز الكولا [10] .

كما كان تجار الهاوسا يقومون بزيارات متكررة لمدينة سلاجا Salaga شمالى غانا ، لشراء ثمار الكولا وبيع الخيل والورق والسيوف وأنواع العطور التى تصلهم عن طريق الصحراء ، كما كان بالامكان التعامل فى الذهب والسلع الأوربية التى تصلها من ساحل المحيط [11] .

اعتاد العديد من التجار الصغار على التردد على مثل هذه الطرق النائية للحصول على كسب مجز من وراء تجارة ثمار الكولا والملح ، فعلى سبيل المثال كان بامكان تاجر من هذا النوع شراء الثمار المشار اليها وبيعها بسعر أعلى خمسة وعشرين مرة على بعد مائتى ميل عند مدينة سلاجا مثلاً [12] .

تبين للمكتشفين الأوربين عدم استحالة السفر لمن يكون وحيداً أوصحبة بضع رفاق من الخدم ، رغم ان مخاطر ذلك الفعل قد تكون فضيعة ، لذا كانوا يفضلون الانضمام الى قوافل التجار المنتظمة اذ قد تعوق المنازعات المحلية سفرهم أو تجبرهم على تغيير خط سيرهم . فالسفر داخل حدود الدول ذات السيادة أمر هين الا ان الأمر يصبح غاية فى الصعوبة داخل الحدود المتنازع عليها .

لعب كل من زنوج افريقيا الغربية الماندى Mande ، وبعض جماعات الهاوسا الدور الاساسى فى تطوير وتبادل التجارة فى منطقة غرب السودان ذلك ان تجار قبائل الهاوسا كانوا يقطنون المنطقة غربى نهر النيجر والعديد من

المراكز الصحراوية شمال غانا . أما غربى منطقة نفوذهم فان المنطقة تخضع لتأثير جماعات الماندى اذ أشار الرحالة بنجر ، عندما حل بمركز كونج ، بقوله بأن أى اسرة مسلمة تمتهن التجارة وتستقر بمناطق الوثنيين فأنها سرعان ما تبنى لنفسها مركزاً مرموقاً بحكم ما تملكه من ثروة وثقافة وبالطبع لدينهم الأسلامى الذى يحظى بالاحترام الكامل مما يلزم الرؤساء المحليين بالرجوع اليهم طلباً للمشورة ، وكقضاة للفصل فى المنازعات وكسفراء لهم ايضاً ، أضافة الى ان القادمين الجدد كثيراً ما يستغلون شهرتهم كمحاربين اشداء مما يسمح بوصول التجارة اليهم دون ان ينالها سوء يذكر [13] .

كان طريق القوافل عبر فزان الى كاوار وأقليم البورنو، أكثر طرق القوافل سهولة ، ولو أننا لا نملك أدلة قاطعة تحدد ان كان هذا الطريق مطروقا قبل العصور التاريخية ، فالقائد العربى عقبة بن نافع كان قد حل بكاوار عام 666 ميلادية ، ولو أنه اضطر للعودة حين أخبر بأن اهل المنطقة لا يعرفون شيئاً عن الاراضى الواقعة الى الجنوب منهم . أما خلال القرن التاسع فان الطريق كان مستعملاً بكل تأكيد حسب رواية الجغرافيين العرب ، كما كان طريقاً آمناً بحكم استمرار التردد عليه ، أيام نهضة أقليم الكانم . ولذا يمكن القول أنه منذ بداية القرن السابع ، وحتى عام 1830 كان الطريق المشار اليه (فزان ـ بورنو) بلا منازع الطريق الأوفر حظاً دون غيره من طرق قوافل الصحراء الاخرى .

أما مع بداية الاربعينات من القرن الماضى ، فقد اضمحلت أهمية مع ظهور القلاقل السياسية التى شهدتها المنطقة ، فأسرة القرة ماناللى ، ذات الأمر فى قلعة طرابلس ، التى تمكنت من بسط نفوذها الشامل على منطقة فزان ، واقامت علاقات غاية فى الود مع اقليم البورنو ، أطيح بها وفشل خلفاء الباب العالى فى طرابلس فى بسط نفوذهم على تلك الديار من جديد .

فقد تعرضت قبيلة اولاد سليمان ، اكثر من غيرها ، لانتشار الفوضى والقلاقل ، ففى الخمسينات من القرن الماضى تركت القبيلة أراضيها وتحولت

الى المنطقة التى تجاور بحيرة اتشاد شمالاً ، وسنت لنفسها شريعة السطو ونهب كل ما يقع تحت أيدى رجالها ، الذين لم يكن لديهم مورد آخر للعيش .

كما شهدت المنطقة نفسها حروباً متكررة بين جماعات البورنو ووادای ، وشارك الكثير من تبو تبستى السطو على العديد من الواحات والذين تعرضوا هم أنفسهم لهجمات طوارق منطقة الأير الذين يكنون لهم العداء . وطبيعى كانت القوافل صيداً سهلاً وثميناً لقطاع الطرق من تلك الجماعات المتناحرة ، مما ارغم التجار على استعمال الطريق الاكثر مشقة وطولاً عبر كانو ومنطقة جبال الأير فى الجزائر [14] .

ومع ان طريق فزان ـ كاوار ، كان درباً لنقل كميات كبيرة من الملح من مركز بلما الى الجنوب ، الا انه كان اساساً وفى الدرجة الأولى طريقاً للرقيق ، فجميع الرحالة الأوربين الذين سلكوه أظهروا جزعهم وانفعالاتهم الغاضبة لتلك الآلاف من بقايا الهياكل العظمية المبعثرة وبالذات قرب الأبار حيث تظهر بقايا هياكل الأناث والاطفال بشكل ملفت للنظر ، مما يوضح ان الارهاق الشديد قد حال بينهم وبين محاولاتهم اليائسة للوصول الى قطرة ماء لتنقذ حياتهم ولكن دون جدوى .

كان هناك ، ومنذ أمد طويل ، طلب جامح للحصول على بعض الارقاء على طول ساحل افريقيا الشمالى لتلبية السوق المحلية ذلك ان حاجة السوق الخارجية كانت أقوى واكثر اغراء وبالذات فى كل من مصر وتركيا . ولذا فأن كل الذين زاروا اقليم الهاوسا يدركون جيداً الاقبال الشديد على رقيق تلك المناطق اذ يفضل الرجال منهم لما لهم من خبرات وملامح ذكاء فى حين امتازت النسوة بحسن المظهر وخفة الروح والرشاقة وهى صفات كانت معروفة ايضاً لتجار ساحل المحيط الأطلسى حيث أشار اليها ج . جاكسون فى بداية القرن الماضى ، والتى يؤكدها و . ب . هاريس فى نهايته ، اذ يؤكد كلاهما السعر الباهظ الذى يحققه عبيد الهاوسا فى الاسواق المغربية [15] .

كان تجار الرقيق يحرصون على تحسين صحة ومظهر رقيقهم قبل البدء فى اجتياز الصحراء ، ذلك ان الذكور منهم سيكبلون من جديد ، من أرجلهم ورقابهم فى حين تترك الاناث يرافقن القافلة دون خوف عليهن من الهرب . أنها رحلة العذاب ولا شيء آخر ، فالأصحاء فقط هم الذين سيكون بمقدورهم الوصول صحبة أسيادهم بعد ان يتحولوا الى اشبه رجال ، حيث يولون قدراً اكبر من الاهتمام ابتغاء سعر أعلى فى اسواق طرابلس وبنغازى اذ يباع الواحد بصافى ربح قد لا يقل عن خمسمائة فى المائة من جملة تكاليف ما انفق عليه .

ومما تجدر الأشارة اليه أنه بجانب هذا النوع المتعارف عليه من تجارة الرقيق كان هناك نوع اكثر أهمية ولو انه أقل انتشاراً للسرية التى يحاط بها ، اذ كان الاتجار فى الشباب بغية حراسة الحريم (الخصيان) يشكل جزءاً لا يستهان به من طلب السوق الخارجى والمحلى ايضاً . فعادة خصى الشبان الاقوياء كانت معروفة فى اكثر جهات السودان ، التى تتعرض لهجمات تجار الرقيق ، واكثر من هذا فان بعض القبائل كالموسِّى Mossi مثلاً كانت تقوم بنفس الفعل جزاء لبعض الجرائم وتشجيعاً خفياً لهذا النوع من الاتجار فى بنى الانسان ، علماً بأن نسبة لا تزيد على عشرة فى المائة مما يوقع عليهم مثل ذلك العقاب كانوا يفتلون من الموت المحقق للبشاعة التى تمارس بها عمليات تنفيذ مثل تلك الاحكام* التى رغم بشاعتها الا ان قبائل الموسِّى كانت أمهر من غيرها فى ممارسة تنفيذ تلك العقوبة مما جعلهم يحتفظون بأدائهم لها كسر حرفة لا يجب أن يباح به** علماً بأن بعض سكان اقليم البورنو كانوا يزاولون نفس المهنة مما جعلهم، مع بعض تجار قبائل الموسِّى، يحتكرون هذا النوع من

---

* اكد احد موظفى كانو للمؤلف أن من بين مائة ، وثنى من قبيلة ننجى Ningi ، أجريت لهم تلك العملية فأن عشرة فقط تمكنوا من الحياة مما يعتبر نتيجة جيدة للغاية ، الأمر الذى يؤكده الرحالة بارث .

** يتحدث الباحث إ. ف. جوتبير عن ذهول السفير الفرنسى فى القسطنطينية عندما عرف بوصول مجموعة من هؤلاء الخصيان الى مينائها عام 1900 .

التجارة التى كانت لها اسواق رائجة فى كل من مصر وتركيا وبلاد المغرب الأقصى .

كما يذكر ليو الافريقى انه اشترى عدداً من الخصيان من احدى القبائل التى تسكن ساحل منطقة طرابلس (16) . وهنا لا يجب ان يغيب عن البال ان هذا النوع من التجارة كان أقدم بكثير ، فقد قام ابراهيم بن أحمد من جزيرة صقلية ، خلال القرن التاسع ، على سبيل المثال بقتل ثلاثمائة منهم كانوا فى حوزته .

كان الطلب على حيازة هذا النوع من الرقيق يفرض منافسة شديدة بين التجار الاجانب وبين الموسرين من اهل السودان انفسهم اذ كان استخدامهم شائعاً كما هو الحال مع بقية اقطار المسلمين الاخرى ، فقد ذكر دينهام Denham ، ان سلطان بورنو كان يحتفظ بمائتين مع حريمه فى الوقت الذى يدفع فيه اى تاجر تركى ما بين مائتين وخمسين وثلاثمائة دولار ثمناً للواحد منهم (17) .

ان تجريم السودانيين لممارسة هذه التجارة الكريهة لا يجب ان ينسينا ان مثل تلك الأعمال البشعة كانت تمارس داخل اوربا المسيحية قبل ذلك بوقت طويل . فخلال العصور الوسطى أقيمت منشآت أوربية كبيرة تحت امرأة اليهود فى اغلب الاحوال ، لأمداد اسبانيا المسلمة بحاجتها منهم ، اذ كانت فرنسا وبالذات فى مدينة فردان Verdun ، المركز الرئيسى لذلك الفعل الأخلاقى ، كما ان خصى الشباب كان ظاهرة معروفة فى ايطاليا حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من الطلب الشديد على الرقيق سواء فى شمال القارة المسلم أو جنوبها المسيحى ، فان تلبية الحاجة منه محلياً ظلت عند أوجها ، فامتلاك عدة آلاف منهم كان سمة يتحلى بها معظم الرؤساء المحليين ، وعلى ذلك فان السطو على أراضى القبائل الوثنية ، سواء فى مناطق الهضاب أو

داخل الغابات الاستوائية ، كان حرفه رئيسية لمسلمين كثيرين على طول منطقة السودان الغربى .

كانت عمليات السطو تلك من الأمور التى يخطط لها جيداً وتتم فى منتهى السرية غالباً ، حيث تحاصر القرية المقصودة فى وقت متأخر من الليل ، وبأكبر عدد من القوة المغيرة مما لا يترك مكاناً لنجاة أحد من افرادها اذا لم يحصل ما يعكر احكام عملية التنفيذ ، التى لا تتأخر عادة عن بزوغ الفجر * ، حيث تجرى عملية فرز لاختيار الفتيات والشبان المؤهلين لاسعار مجرية فى حين قد لا يترك أحداً على قيد الحياة بغض النظر عن جنسهم أو اعمارهم .

لقد شاهد الرحالة بارث فى منطقة بورنو ، مشهداً مرعباً حينما ترك مائة وسبعون من الشباب اليافع ينزفون دماً حتى الموت بعد تعرض قريتهم لحادث من هذا القبيل ، وللعلم فان مشهداً من هذا القبيل ما كان ليحدث لو أن تلك القرية كانت قرب الساحل حيث توجد اعداد كبيرة من التجار الأوربين الذين يهمهم اقتناء صغار السن من الرقيق .

ومما يؤسف له ان هذه التجارة القذرة كانت تمارس باسم الدين أو كما عبر عنها اللورد لوجارد Lugard «أنها أكبر وصمة ضد الاسلام الذى شجع وأعطى مبرراً دينياً للاتجار فى الرقيق **» (18) .

أسهمت عدة عوامل فى ظهور بوادر الوهن ثم الأضمحلال الذى بدأ يدب فى حركة طرق القوافل الصحراوية ، فجنوب المغرب كان مسرحاً للعديد من الأحداث السياسية التى أخلّت بالأمن والأمان ، وبدأت فى نفس الوقت

---

* يفضل صيادو الرقيق ، الذين يعرفون باسم القرّازيه فى منطقة فزان ، استعمال الأناث من الدواب التى تصحبهم فى تلك العمليات لما تمتاز به من هدوء هم فى أشد الحاجة اليه لأن أى ضجيج أو جلبة قد يؤدى الى إيقاظ السكان وفرارهم بالتالى .

** على العكس تماماً من هذه الاشارة الحاقدة ، كانت تعاليم الاسلام لا لبس ولا غموض فيها ، أنها النفوس المريضة الجشعة التى حاولت تبرير أفعالها . فلا الاسلام ولا الاخلاق الأسلامية تسمح وتقر هذا العمل الدنىء حتى مع ما ألد أعداء الدين الحنيف .

القوات الفرنسية تمد نفوذها السياسى من قواعدها فى جنوب الجزائر الى المنطقة الواقعة جنوب جبال الأطلس التى كانت خاضعة لسلطان المغرب ، كما حاولت كل من أسبانيا وبريطانيا أقامة مراكز تجارية مهمةً فى الطرف الشمالى الغربى لنطاق الصحراء ، فى محاولة منهما لكبح تجارة الرقيق فى تلك المناطق ، ولأيجاد أسواق تأسر جزءاً من حركة التجارة العادية نحوها مما أولد روحاً معادية عند السكان المحليين ، الذين تعرضوا لسلسلة من الهجمات ضدهم بتحريض من القوى الأجنبية ، التى ألحت على سلطان المغرب ضرورة التدخل لوضع حد للأنتهاكات المتكررة ، التى كانت تتعرض لها ما بقى من تجارة القوافل فى تلك الربوع ، والتى مع الأسف ، لم تسفر الاّ عن زيادة تعميق الدمار الذى ما لبث أن أتى على تلك العلاقات الممتازة ، التى كانت تربط التجار المغاربة مع معظم أن لم يكن كامل أرض السودان الغربى [19] .

فالى جانب ما اجتاح الأراضى المغربية من قلاقل سياسية شهدت المنطقة تغيراً مفاجئاً فى نمط المبادلات التجارية ، فمنذ أواخر الخمسينات من القرن الماضى حدث تبدل سريع فى الطلب على ريش النعام ، الذى بات سلعة مرغوبة فى كل الاسواق الأوربية حيث أصبح جزءاً مهماً فى مكونات الزينة التى ابتدعتها الامبراطورية الفرنسية يوجين ، حتى أن قيمة صادرات ميناء موجادور Mogador المغربية ، تضاعفت عشر مرات فى الفترة ما بين عامى 1853—?1864 ?.

أما خلال الثمانينات من القرن المنصرم فقد أخذت تلك التجارة تتقلص فى حجمها وقيمتها الى أن انتهت كلياً عام 1895 ، بسبب المنافسة الشديدة التى نجمت عن نوعية أفضل وبكلفة أقل من نفس السلعة ، التى أصبحت مزارع تربية النعام فى جنوب أفريقيا المصدر الاساسى لها [20] .

وأكثر من كل ذلك جاء انخفاض التعامل فى تجارة الرقيق عبر الصحراء مؤشراً بالغ الخطورة على اقتصاد تلك المناطق حيث بلغ ذلك التعامل نصف

كامل التجارة التى اجتازت نطاق الصحراء شمالاً * .

ومع أن تجارة الرقيق كانت قد توقفت على الصعيد الرسمى منذ سنة 1807 ، فى أغلب مناطق شمال أفريقيا ، إلاّ أن الحكومة البريطانية كانت تعمل جاهدة لاتمام القضاء على تلك التجارة اذ تمكنت من أقناع باى تونس عام 1842 بمنع استيراد وتصدير الرقيق ، كما قامت الحكومة العثمانية بعد خمسة عشر عاماً من تطبيق نفس المبدأ على الأاضى التابعة لها بما فيها ولاية طرابلس .

أما الحكومة المغربية فلم ترضخ للمساعى الأجنبية ، الاّ أن تقدم القوات الفرنسية واستيلائها على مدينة تمبكتو وضع نهاية لتجارة الرقيق فى منطقة غرب أفريقيا ، ولو أن جزءاً من تلك التجارة ظل قائماً عن طريق أقصى طرق القوافل شرقاً فيما بين اقليم واداى والكفرة وأنتهاء عند بنغازى ، التى لم تتوقف عن تصدير الرقيق الى ما بعد مباشرة احتلال الايطاليين لها عام (21) 1911 .

أما بقية المبادلات التجارية ، التى ظلت تصل شمال غرب القارة ، من منطقة السودان الغربى نجد تجارة القوافل . فقد ظل الذهب سلعة ذات أهمية فى منتصف القرن الساتع عشر ، ولو أن تلك المنزلة باتت تتضاءل تدريجاً حتى انتهت تماماً خلال العقد الأخير منه .

وبوصول التعامل فى كل من الذهب ، والرقيق ، وريش النعام الى نهايته فقدت تجارة القوافل معظم أركانها الأساسية ، ولم يعد منها إلاّ القليل من العاج والجلود وبعض الأقمشة القطنية من مدينة كانو .

---

* قدر المتوسط السنوى لعدد الرقيق الذين اجتازوا الصحراء بما يساوى عشرة آلاف كان من بينهم وحتى عام 1860 حوالى النصف الى منطقة طرابلس ، وكان نصيب المغرب ربع العدد الاجمالى ، فى حين نالت الجزائر وتونس الربع الباقى ، ويذكر ان قرابة نصف من يصلون طرابلس يتم ارسالهم الى القسطنطينية وأزمير بتركيا ، والى قبرص وبعض الموانىء الألبانية .

كـان كل من البـريطانيين والفـرنسيين يعملون جاهـدين لأتمام احتـلال الأجزاء الداخلية من منطقة السودان الغربى التى شهدت منذ ذلك التوغل فى أواخر القرن ، بدأ إرساء معـالم الطرق ودروب أكثـر فعاليـة ، ففى عام 1883 تمكن الفرنسيون من الوصول الى نهر النيجر ، وأقاموا لهم محطة عند باماكو ، كما أن مدينة تمبكتو أصبحت تحت تصرفهم منذ سنة 1894 الأمر الذى مكنهم خـلال الخمسة عشـر عامـاً اللاحقـة من وضع أغلب اجـزاء الصحـراء تحت نفوذهم المباشر .

أما البريطانيون الـذين تقدمـوا نحو أطـراف نهر النيجـر العليا ، فكـان بامكانهم وضع يدهم على قلب مملكة الفولانى باحتلالهم مدينة كانو عام 1902 ثم سوكوتو فى العام اللاّحق .

كما تمكن الفرنسيون عام 1906 من ربط كل من نهرى النيجر والسنغال بسكة حديدية ، هذا فى حين أنجز البريطانيون عام 1911 ربط كل من مدينتى كانو وليجوس Lagos بخط سكة حديدية أيضاً .

ومما تجدر الاشارة اليه أن ريـاح التغيير ، حتى قبـل إتمام مـد خطوط السكة الحديدية المشار اليها ، كانت قد بدأت تهب ولا يمكن اخفاؤها ، ففى عام 1874 ، وصل أول تاجر مغربى مدينة سانت لـويس ST. Louis ، عاصمـة مستعمرة السنغال الفرنسية ، ثم أخذ العدد فى الزيادة حتى وصـلوا الى مائة بعد عشرين سنة فقط . ووصل العاصمة المذكورة عام 1885 ، وفد من مدينة تمبكتو لتنمية العلاقات التجارية مع نقاط التجارة ، التى اقامها الفرنسيون على طول نهر النيجر[23] . كما كانت ، بنهاية الثمانينات ، معظم المرافىء الجديدة على ساحل غربى القارة تقيم علاقات تجـارية مـع القارة الأوربيـة عن طريق السفن البخارية .

كـان الاتصال بين تمبكتـو ومراكش ، عبـر الصحـراء أقصـر بكثيـر من الطريق الواصل بينها ومدينة سـانت لويس ومنهـا الى موانىء المغـرب ، ومع

ذلك فان الطريق الجديد أصبح أكثر أماناً وبالتالى أقل كلفة إضافة الى سرعته .

أكثر من هذا أعطت النافذة الجديدة على ساحل المحيط منطقة غرب السودان اتصالات مع أسواق لم تكن لها معها سابقاً علاقة كالأسواق الأوربية والسوق الأمريكى التى كانت متلهفة للحصول على الفول السودانى ، الذى يرجع فى أصله الى امريكا الجنوبية ، والذى أدخل الفرنسيون زراعته فى السنغال فى الخمسينات من القرن الماضى حيث لاقت زراعته نجاحاً يفوق أى محصول آخر ، حتى أصبح خلال الثلاثينات من هذا القرن محصولاً رئيسياً فى كل منطقة غرب أفريقيا ، وتحول انتاجه ليوفر مصدراً للدخل فاقت أهميته جملة ما كانت تصدره تلك المناطق من الرقيق ، والذهب وريش النعام وكميات العاج التى كانت تحملها القوافل عبر طرق الصحراء المختلفة .

أسفر التخلخل الواضح فى حركة تجارة القوافل عبر الصحراء ، الى بدء ثورة عميقة فى حياتها بسبب المستجدات السياسية التى أخذت تشق طريقها خلال الفترة ما بين عامى 1850ـ 1930 تلك الفترة التى صاحبها بسط النفوذ الأوربى على كامل نطاق الصحراء .

فالفرنسيون بدأوا زحفهم من المغرب والجزائر ومن مستعمراتهم فى السودان الغربى ، وأقليم اتشاد وباتوا بالفعل بسيطرون على معظم الصحراء باستثناء المنطقة التى اخضعتها اسبانيا على ساحل المحيط ، كما ان ايطاليا باشرت فى استعمار الأراضى الليبية بما فى ذلك مناطق غدامس والكفرة وكامل اقليم فزان .

لقد شهدت منطقة الصحراء الكبرى بفضل الحكم الأوربى ، استقرار الأمن والسلام بحكم حنكة الضباط الفرنسيين الذين عملوا على الاستعانة بمجهودات حلفائهم من السكان الوطنيين ، فقد انخرطت اعداد كبيرة من قبيلة غامبا Chaamba العربية الأصل ، وهم بدو شديدوا المراس وقطاع طرق محترفين ، الى الأنخراط فى فيلق الجمالة الفرنسى الذى انشىء عام 1902 .

لقد وفر انخراط أولائك البدو فى السلاح الفرنسى عملاً مارسوه وشغفوا به طوال حياتهم ووفر لهم فرصة ثمينة للنيل من خصومهم سواء من الطوارق أو من المغاربة اذ تمكنوا على سبيل المثال سنة 1902 من تدمير قوة ومناعة طوارق الهجّار [24] .

ومع احلال السلام على معظم ربوع الصحراء ، خبرت المنطقة وسائل جديدة للنقل والاتصال اذ حظى ادخال السيارة الى المناطق الصحراوية بالأثر الأكثر أهمية دون غيره فى كل ما سجل الفرنسيون ادخاله اليها لأول مرة . فلا أحلال السلام ، ولا مضاعفة عدد آبار المياه حققت تغيير نمط حياة الصحراء الصحراوية بمثل ذلك العمق الذى حملته عجلات السيارة معها . . . أنه مثل ذلك الأثر الذى واكب وصول الجمل اليها لأول مرة[25] .

فتحت السيارة الطريق أمام سكان الواحات من عبيد وخدم وفلاحين الى أقصى مدن الشمال فى بداية الأمر ، كما مكنت فى تاريخ لاحق إقامة معسكرات العمل التى تنبع بالحياة العصرية ، وفتحت المجال أمام الباحثين عن الذهب الأسود والخامات المعدنية الأخرى .

ومع كل هذا التطور المذهل كانت هناك مساوىء بدأت ترسم ظلالها على العديد من الواحات حيث ردمت الآبار وتعطلت قنوات الرى ولم تعد هناك العمالة الكافية ، وبدأت الصحراء تتجاوز وتتخطى جزئين من تراثها وماضيها .

فمع اختفاء تجارة القوافل ، وتوقف حملات السطو والنهب وابتزاز الآخرين ، تداعت أركان مظاهر السلطة والمكانة الأجتماعية سواء بالنسبة لأغلب القبائل ككل ، أو لمن يمارسون فيها أمور القيادة والنهى وبدأوا يفقدون خدمهم ورعيتهم وشعروا بتقلص مواردهم تبعاً لذلك [26] .

لقد أخذت البداوة بمعناها العام تنكمش وتتداعى أركانها وشعر الجميع سواء الذين يمارسون الرعى ويحترفون النهب ، أو القلة المستقرة داخل

الواحات أنهم باتوا مدفوعين للتلائم مع الظروف التى تلزمهم بالبحث عن عمل لا علاقة له البتة بماض أصبح وشيك الأنتهاء وشعور بالحزن والمهانة ذلك أنهم كانوا قد تأقلموا بكل ما تعنيه الكلمة مع ظروف البيئة لا من حيث صفاتهم الجسمانية عن طريق حواسهم المرهفة ، وغرائزهم النافذة ، وسرعتهم فى التفكير ، وإنما بما أقاموه أيضاً من تنظيمات اجتماعية وشعورهم بالعظمة والكبرياء [27] .

أنها مأساة أن يتحولوا الى طالبى عمل فى حقول النفط ، ويفقد سادة مثلهم نالوا احترامنا لمهابتهم وحكمتهم الى كم من البشر لا هم لهم سوى التضرع للحصول على عمل [28] .

وبغض النظر عن النتائج ، فأن عزلة الصحراء أخذت تفقدها أهميتها كحاجز رهيب ، فمصادر الثروة الجديدة ، كما فى بعض جهات غرب أفريقيا ، أتاحت الوصول الى موارد ثروة فجائية ممايحتم ظهور مجتمعات بديلة . فمنذ عقد خلى كان المرء يفكر فى تلك العلاقات المتينة التى ربطت غرب السودان مع معظم شمال غرب أفريقيا بأنها علاقات صمدت لعدد لا يحصى من القرون ، وأنها لا يمكن ان تنفصم بالتالى [29] . أما اليوم فيمكن للمرء أن يتخيل تلك الصحراء المترامية وقد بدأت تتخللها العديد من الطرق العامة التى تزخر بالحركة وبسيل أكبر حجماً وتنوعاً من التجارة والمسافرين عما كانت عليه خلال تلك القرون التى عاشتها مع سودان الأمس .

المراجع

References

الفصل 1 أسود الاراضى الجافة

CHAPTER I: ARID NURSE OF LIONS

1. Herodotus, *The History,* II. 32.
2. J. Carcopino, *Daily Life in ancient Rome,* London, 1941, 239.
3. Pliny the Elder, *Natural History,* VIII, 7.
4. ibid, VIII, 10.
5. Strabo, *Geography,* XVII 3.
6. G. W. Murray, 'The Climate of Egypt', *Geogrpahical Journal,* CXVII (1951), 422-34.
7. Horace, *Odes,* I. 22.
8. Sallust, *Jugurthine War,* XVII. 4.
9. Herodotus, op. cit., II. 32.
10. Pliny, op. cit., V. I.
11. Herodotus, op. cit., III. 26.
12. L. C. Briggs, *Tribes of the Sahara,* London, 1960, 34.
13. R. Mauny, *Tableau géographique de l'ouest africain au moyen âge, Mémoires de l'Institut Français d'Afrique Noire,* no. 61, Dakar, 1961, 202-204.
14. Mauny, op. cit., 204-8.
15. ibid. 208-11; R. Capot-Rey, *Le Sahara français,* Paris, 1953, 85-98.

الفصل 2 العقيق والذهب

CHAPTER 2: CARBUNCLES AND GOLD

1. Herodotus, op. cit. IV. 183.
2. ibid. II. 32.
3. H. Barth, *Travels and Discoveries in North and Central Africa,* London, 1858, I. 196-202.

4. H. Lhote, *Les Touaregs du Hoggar,* Paris, 1955, 64-75; R. Mauny, 'Gravures, peintures et inscriptions rupestres de l'quest africain', *Initiations africaines,* no. II, I.F.A.N., Dakar, 1954.

5. H. Lhote, *The Search for the Tassili Frescoes,* London, 1958, 122-32.

6. Briggs, op. cit. 21.

7. F. R. Rodd, *People of the Veil,* London, 1926, 203.

8. Strabo, op. cit. III. V. II.

9. Pliny, op. cit. XXXVII,. 25, 30.

10. Athenaeus, *Deipnosophistae,* II. 22.

11. Frontinus, *Strategematicon,* I. xi. 18.

12. Herodotus, op. cit. III. 21.

13. Thucydides, VI. 34.

14. Pliny, op. cit. XXXIII. 15.

15. S. Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,* Paris, 1921-9, IV, 140.

16. Herodotus, op. cit. IV. 195.

17. ibid. 196.

18. Strabo, op. cit. II. iii. 4.

19. ibid. XVII. i. 19.

20. The original text of Hanno is given in C. Muller, *Geographici Graeci Minores,* I, 1-14. It has been translated in full with a commentary in M. Cary and E. H. Warmington, *The Ancient Explorers,* Penguin Books, Harmondsworth, 1963, 63-68.

21. For a detailed discussion of the Periplus on conventional lines, see J. Carcopino, *Le Maroc antique,* Paris, 1943, 49-162.

22. G. Germain, 'Qu'est-ce le périple d'Hannon? Document, amplification littéraire ou faux intégral?' *Hespéris,* Paris, 1957, 247.

23. R. Mauny, 'La Navigation sur les côtes du Sahara pendant l'antiquité', *Revue des études anciennes,* LVII, Bordeaux, 1955; idem. *Les Navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1434),* Lisbon, 1960, 1-25.

24. E. F. Gautier, *L'Afrique noire occidentale,* Paris, 1935, 123-7.

الفصل 3 الرومان والجرمنتيون

CHAPTER 3: ROMANS AND GARAMANTES

1. Sallust, op. cit. LXXX.
2. Tacitus, *Annals,* III. 74; IV. 23.
3. Tacitus, *Histories,* IV. 50.

4. Lucian, *De Dipsadibus,* II.

5. For a fuller discussion of the ethnology of the Garamantes, see Capot-Rey, op. cit. 171-2.

6. Pliny, op. cit. V. 5. For a detailed discussion of this expedition, see J. Desanges 'Le Triomphe de Cornelius Balbus 19 av. J.C.', *Revue africaine,* CI (1957), 5-45.

7. Tacitus, *Annals,* III. 73-4; IV. 23-4.

8. ibid. IV. 23.

9. ibid. IV. 26.

10. Pliny, *Natural History,* V. 5.

11. ibid.

12. Ptolemy, *Geography,* trans. E.L. Stevenson, New York, 1932, I. viii.

13. Rodd, op. cit. 318-29.

14. Caesar, *Bellum Africanum,* LXVIII.

15. Ammianus Marcellinus, *History,* XXXVIII. vi. 5.

16. G.F. Lyon, *A Narrative of Travels in Northern Africa,* London, 1821, 93.

For a discussion by modern scholars of the introduction of the camel into North Africa, see O. Brogan, 'The Camel in Roman Tripolitania', *Papers of the British School at Rome,* XXII (1954); S. Gsell, 'La Tripolitaine et le Sahara au IIIe siècle', *Mémoires de l'Institut National de France,* XLIII (1926); C. Courtois, *Les Vandales et l'Afrique,* Paris, 1954, 97-104.

17. R.G. Goodchild and J. B. Ward-Perkins, 'The Limes Tripolitanus', *Journal of Roman Studies,* XXXIX (1949), XL (1950).

18. Barth, op. cit. I, 157.

19. The results of this expedition were published in *Monumenti Antichi,* XLI, Rome, 1951; see also Mortimer Wheeler, *Rome beyond the Imperial Frontiers,* Penguin Books, Harmondsworth, 1955, 121-33.

20. Pliny, op. cit. V. 5.

21. Strabo, op. cit. XVII. iii. 19.

22. ibid. IV. v. 2.

23. R. H. Barrow, *Slavery in the Roman Empire,* London, 1928.

24. Seneca, *Letters,* LXXXVII. 9.

25. On Tin Hanan, E.F. Gautier and M. Reygasse, 'Le Monument de Tin-Hanan', *Annales de l'Académie des Sciences Coloniales,* VII, Paris, 1934; M. Reygasse, *Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord,* Paris, 1950, 88; Mortimer Wheeler, op. cit. 133-7.

***

(الباب الثانى : الصحراء والسودان)

SAHARA AND SUDAN

الفصل 4 الطوارق والشعوب الصحراوية الاخرى

CHAPTER 4: THE TUAREG AND OTHER PEOPLES OF THE SAHARA

1. Briggs, op. cit. 37.
2. ibid. 66.
3. ibid. 67.
4. Capot-Rey, op. cit. 168-70.
5. Briggs, op. cit. 168; Capot-Rey, op. cit. 172-5.
6. Briggs, op. cit. 126.
7. ibid. 151-5.
8. Lhote, *Les Touaregs du Hoggar,* 120-1.
9. Ibn Khaldun, quoted in G.H. Bousquet, *Les Berbères,* Paris, 1957, 53.
10. Ibn Haukal, quoted in Lhote, op. cit. 126-7.
11. On the history ot the Western Sahara, see F. de la Chapelle, 'Esquisse d'une histoire du Sahara occidental', *Hespéris,*, XI (1930).
12. Capot-Rey, op. cit. 191-2.
13. Lhote, op. cit. 344-6.
14. H. Macmichael, *History of Arabs in the Sudan,* London, 1922, I, 55-7.
15. Yaqubi, quoted in H.R. Palmer, *The Bornu Sahara and Sudan,* London, 1936, 209 n.3.
16. F. Wüstenfeld, *Jacut's Geographisches Wörterbuch,* Leipzig, 1866-1870.
17. Ibn Khaldun, *Histoire des Berbères,* trans. de Slane, Paris, 1925, II, 64.
18. Briggs, op. cit. 90.
19. M. Delafosse, *Haut-Sénégal-Niger,* 3 vols., Paris, 1912, II, 219.
20. For a summary of recent discussions about the position of the Jews in West Africa see Mauny, *Tableau géographique,* 459-60.
21. P. de Ceniral and T. Monod, *Description de la côte de l'Afrique de Ceuta au Sénégale, par Valentin Fernandes,* Paris, 1938, 85.

الفصل 5 شعوب السودان

CHAPTER 5: PEOPLES OF THE SUDAN

1. J. H. Greenberg, *Studies in African Linguistic Classification,* New Haven, 1955.

2. R.G. Armstrong, 'The Use of Linguistic and Ethnographic Data in the Study of Idoma and Yoruba History' in *The Historian in Tropical Africa,* ed. J. Vansina, R. Mauny, and L. V. Thomas, London, 1964, 135.

3. B. Fagg, 'The Nok Culture', *West African Review,* December 1956.

4. T. Shaw, 'The Approach through Archaeology to early West African History' in *A Thousand Years of West African History,* ed. J. F. A. Ajayi and I. Espie, Ibadan, 1965, 36. See also J. P. Lebeuf and A. Masson-Detourbet, *La Civilisation du Tchad,* Paris, 1950.

5. On the megalithic and other archäeological sites in West Africa, see Mauny, op. cit. 56-187.

6. as-Sadi, *Tarikh as-Sudan,* trans. O. Houdas, Paris, 1900, 18.

7. ibid. 6.

8. J. D. Fage, 'Reflections on the early history of the Mossi-Dagomba group of States' in *The Historian in Tropical Africa,* 177.

9. One version of this legend is given in H. R. Palmer, *Sudanese Memoirs,* Lagos, 1928, III, 132-41.

10. Palmer, *The Bornu Sahara and Sudan,* 112.

11. Y. Urvoy, *Histoire de l'empire du Bornou,* Dakar, 1949, 21-26; see also Thomas Hodgkin, *Nigerian Perspectives,* London, 1960, 21.

12. M. G. Smith, 'The Beginnings of Hausa Society, A.D. 1000-1500' in *The Historian in Tropical Africa,* 342.

13. ibid. 88-90.

14. J. S. Trimingham, *A History of Islam in West Africa,* London, 1962, 35-6.

الفصل 6 العرب

CHAPTER 6: THE ARABS

1. C. A. Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord des origines à la conquête arabe,* Paris, 1961, 225.

2. Procopius, *Secret History,* XVIII. 9, quoted in Julien, op. cit. 272.

3. Ibn Khaldun, op. cit. quoted in Trimingham, op. cit. 18.

4. Ibn Battuta, *Travels in Asia and Africa,* trans. H. A. R. Gibb, London, 1929, 317.

5. Details of some of the other Arab geographers not mentioned here are given in Mauny, op. cit. 24-37. Translations of all Arab geographers who wrote about Africa are contained in Youssouf Kamal, *Monumenta Cartographica Africae et Aegypti,* 5 vols., Leiden, 1926-53, III, folios 1-4.

6. Ibn Haukal, *Opus geographicum anctore Ibn Haukal,* ed. J. H. Kramers, Leiden, 1938, I, 9-10.

7. J. O. Hunwick, 'Ahmad Baba and the Moroccan Invasion of the Sudan (1591)', *Journal of the Historical Society of Nigeria,* II, Ibadan, 1962, 311-28.

8. Barth, op. cit. IV, 406.

الفصل 7 المرابطون

CHAPTER 7: THE ALMORAVIDS

1. Ibn Haukal, *The Oriental Geography,* trans. W. Ouseley, London, 1800, 21.

2. al-Bakri, *Description de l'Afrique septentrionale, trans. de Slane, Algiers, 1913, 282.*

3. *Ibn abd al-Hakam, Conquête de l'Afrique du Nord,* trans. A. Gateau, Algiers, 1942, 119.

4. On the site of Kumbi Saleh, see Mauny, op. cit. 71-4, 469-73, 480-2; Mahmud al-Kati, *Tarikh al-Fattash,* trans. O. Houdas and M. Delafosse, Paris, 1913, 76.

5. as-Sadi, op. cit. 18.

6. Mahmud al-Kati, op. cit. 75-6.

7. On the area covered by the empire of Ghana, see Mauny, op. cit. 508-10.

8. Ibn Khaldun, op. cit. II, 65.

9. al-Bakri, op. cit. 299-301, 317; Mauny, op. cit. 71-2, 481-3.

10. Ibn Haukal, *Description de l'Afrique,* trans. de Slane, *Journal Asiatique,* Paris, 1842, 243.

11. al-Bakri, op. cit. 311-12.

12. Ibn Khaldun, op. cit. II, 69.

13. al-Bakri, op. cit. 314.

14. ibid. 317.

15. Ibn Khaldun, op. cit. II, 71.

16. R. Dozy, *Spanish Islam,* trans. F. G. Stokes, London, 1913, 694.

17. E. Lévi-Provençal, 'Reflexions sur l'emire almoravide au début du XIIe siècle', *Cinquantenaire de la Faculté des Lettres d'Alger,* Algiers, 1932, 307-30.

الفصل 8 الذهب فى غانا

CHAPTER 8: THE GOLD OF GHANA

1. Leo Africanus, *History and Description of Africa,* trans. J. Pory and ed. R. Brown, 3 vols., Hakluyt Society, London, 1896, II, 282.
2. al-Bakri, op. cit. 328-30.
3. al-Idrisi, *Description de l'Afrique et de l'Espagne,* trans. R. Dozy and M. J. de Goeje, Leiden, 1866, 8.
4. Ibn Khaldun, op. cit. II, 115.
5. al-Idrisi, op. cit. 7.
6. Yaqut, quoted in Delafosse, op. cit. II, 45-6.
7. al-Masudi, *Les Praires d'or,* trans. B. de Meynard and P. de Courteille, 9 vols., Paris, 1861, IV, 93.
8. A. da Cadamosto, *Voyages,* ed. and trans. G. R. Crone, Hakluyt Society, London, 1937, 22.
9. al-Bakri, op. cit. 325; Barth, op. cit. IV, 443.
10. al-Bakri, op. cit. 327.
11. Delafosse, op. cit. II, 162-70.

الفصل 9 منسا موسى عاهل مالى

CHAPTER 9: MANSA MUSA OF MALI

1. al-Bakri, op. cit. 333.

6. D. T. Niane, 'So undiata ou l'épopée mandingue', *Présence Africaine* (1960).

3. al-Umaii, *Masalik al-Absar,* Paris, 1927, 79.
4. Ibn Khaldun, op. cit. II, 113.
5. On the foundation of Timbuktu, see as-Sadi, op. cit. 36.
6. Dulcert's *mappa-mundi* is reproduced in Youssouf Kamal, op. cit. IV, ii, 1223.
7. ibid. IV, iv, 1465.
8. ibid, IV, iii, 1305.
9. ibid. V, i, 1515.
10. ibid. V, i, 1504.

الفصل 10 ابن بطوطة

CHAPTER 10: IBN BATTUTA

1. as-Sadi, op. cit. 16-17.
2. On Sulaiman, see Trimingham, op. cit. 71-2.

3. On Takedda and its copper mines, see Mauny, op. cit. 139-41, 308-13.

4. Leo Africanus, op. cit. III, 802.

5. Ibn Battuta, op. cit. 321.

6. ibid. 323.

7. ibid. 332.

8. ibid. 329-31.

9. ibid. 335-6.

10. Abbé Bargès, 'Mémoire sur les relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan', *Revue de l'Orient,* Paris, 1853.

11. On the decline of Mali, see Trimingham, op. cit. 73-76, 147-8.

الفصل 11 الهلال والصليب

CHAPTER II: THE CRESCENT AND THE CROSS

1. On the survival of Christianity in North Africa, see Julien, op. cit. 277-9, 322.

2. al-Bakri, op. cit. 70.

3. Mas Latrie, *Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes du moyen âge,* Paris, 1886, 268.

4. Ibn Khaldun, op. cit. II, 235 n.I.

5. Mas Latrie, op. cit. 20.

6. Ibn Haukal, *The Oriental Geography,* 16.

7. Mas Latrie, op. cit. 22.

8. R.W. Southern, *The Making of the Middle Ages,* London, 1959, 51; see also M. Bloch, 'Le problème de l'or au moyen âge', *Annales d'histoire économique et sociale,* V, Paris, 1933, 1-34; F. Brandel, 'Monnaies et civilisations: De l'or du Soudan a l'argent d'Amérique', *Annales: (Économies, sociétés, civilisations),* I, (1946), 9-22; M. Lombard, 'L'Or musulman du VIIe au XIe siècle', *Annales,* II (1947), 143-60.

9. Mauny, op. cit. 293-306, 375-7.

10. Youssouf Kamal, op. cit. IV, i, 1139.

11. Abbé Bargès, op. cit.

الفصل 12 البحث عن الذهب

CHAPTER 12: THE QUEST FOR GOLD

1. On the Majorcan cartographers, see C. de la Roncière, *La Découverte de l'Afrique au moyen âge,* 3 vols., Cairo, 1924-7, I.

2. Malfante's letter is given in an English translation in Cadamosto, op. cit. 85-90.

3. de la Roncière, op. cit. I, 161.

الفصل 13 اكتشاف غينيا

CHAPTER 13: THE DISCOVERY OF GUINEA

1. Ibn Khaldun, op. cit. I, 187-8.
2. Mauny, *Navigations médiévales, 1-25.*
3. *Mauny, op. cit. 26-33, 86-91.*
4. *J. H. Parry, The Age of Reconnaissance,* London, 1963, 19.
5. R. H. Major (ed.), *The Canarian or Book of the Conquest and Conversion of the Canarians in the year 1402, by Messire Jean de Bethencourt, Kt.,* Hakluyt Society, London, 1872. 106.
6. H. V. Livermore in *The New Cambridge Modern History,* I (1957), 420.
7. For a discussion of Henry's motive, see J. H. Parry, op. cit. 35-6.
8. Mauny, op. cit. 17-19.
9. Gomes Eannes de Azurara (Zurara), *The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea,* Hakluyt Society London, 1896, 1899, II.
10. Richard Jobson, *The Golden Trade,* London, 1623, reprinted Teignmouth, 1904, 34.
11. J.D. Fage, *Ghana: A Historical Interpretation,* Madison, 1959, 20.
12. ibid. 42.
13. Brandel, op. cit. I.
14. Quoted in C. R. Boxer, *Four Centuries of Portuguese Expansion, 1415-1825,* Johannesburg, 1961, 26-7.
15. A. F. C. Ryder, 'Portuguese and Dutch in West Africa before 1800', in Ajayi and Espie (ed.), op. cit. 226.
16. Quoted in R. Hallett, *The Penetration of Africa up to 1815,* London, 1965, 128.

الفصل 14 وانغارا

CHAPTER 14: WANGARA

1. al-Fazari in Youssouf Kamal, op. cit. III, i, 510.
2. Ibn al-Faqih in Youssouf Kamal, op. cit. III, i, 558.
3. al-Bakri, op. cit. 331.
4. ibid. 333. al-Bakri states that Iresni lies 'to the west' of Ghiarou: Mauny, *Tableau géographique,* 302 n, thinks that this must be a mistake.
5. al-Idrisi, op. cit. 3, 7-9. For a summary of Muslim accounts about the gold of West Africa, see Mauny, op. cit. 300-6.
6. Malfante in Cadamosto, op. cit. 88.
7. For a more detailed account of the gold-bearing areas of West Africa, see Mauny, op. cit. 293-9.

8. The *Tohfut-ul-Alabi* is printed in Palmer, *Sudanese Memoirs,* II, 90.

9. Ibn Battuta, op. cit. 318.

10. al-Umaii, op. cit. 58.

11. W. Bosman, *A New and Accurate Description of the Coast of Guinea,* Eng. trans., London, 1721, 70.

12. J. Dupuis, *Journal of a Residence in Ashantee,* London, 1824, xli n.

13. S. Purchas, *Purchas His Pilgrimes,* 20 vols., Glasgow, 1905-7.

14. de la Roncière, op. cit. I, Plate IX; see also Mauny, *Navigations médiévales,* 96-7.

15. al-Idrisi, op. cit. 7-9.

16. *The Book of Knowledge,* Hakluyt Society, London, 1912, 31.

17. Yaqut, quoted in Delafosse, op. cit. II, 46.

18. Delafosse, op. cit. I, 55.

19. Mauny, *Tableau géographique,* 302.

20. Cadamosto, op. cit. 21-23.

21. ibid. 24.

22. Jobson, op. cit. 131.

23. H. Labouret, 'Mutilations labiales des populations du Lobi', *L'Anthropologie, XXXI (1921), 95-104.*

24. *E. G. R. Taylor, 'Pactolus: River of Gold', Scottish Geographical Magazine,* XLIV (1928), 129-44.

25. On Lobi and its ruins, see Mauny, op. cit. 297. H. Labouret, 'Le mystère des ruines du Lobi', *Revue d'éthnologie et des traditions populaires (1920), 177-96; H. Labouret, 'L'or du Lobi', Bulletin du Comité de l'Afrique Français, Renseignements coloniaux* (1925), 69-73.

26. Leo Africanus, op. cit. III, 831-2.

27. Barth, op. cit. 82.

28. Mauny, op. cit. 306.

29. The Kano chronicle is printed in Palmer, op. cit. III, III.

30. The relevant passages from J. de Barros, *Da Asia,* 24 vols., Lisbon, 1778, are translated by Crone in his edition of Cadamosto, *Voyages,* 146-7.

31. For a more detailed account of these expeditions, see Hallett, op. cit. 78-91.

32. M. Park, *Travels in the Interior Districts of Africa,* London, 1799, XXIII.

33. R. Caillié, *Travels through Central Africa to Timbuctoo,* Eng. trans., 2 vols., London, 1830, I, 283-4.

34. Mauny, op. cit. 364-5.

35. Lyon, op. cit. 148-9.

36. Dixon Denham and Hugh Clapperton, *Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa,* 2 vols., London, 1826, II, 85. This book has been edited and new material added by E. W. Bovill in *Missions to the Niger,* II, III, IV, Hakluyt Society, London, 1866.

37. R. J. Harrison church, *West Africa,* 3rd ed. London, 1961, 406.

38. ibid. 144, 294-5.

39. J.J. Scarisbrick and P. L. Carter, 'An expedition to Wangara', *Ghana Notes and Queries,* No. I (1961).

الفصل 15 السونجاى

CHAPTER 15: THE SONGHAI

1. as-Sadi, op. cit. 4-9. For a more detailed discussion of Songhai origins, see J. Rouch, *Contribution à l'histoire des Songhay, Mémoires de l'I.F.A.N.,* no. 29 (1953), 165-71.

2. For the criticism of Delafosse's statement, see Trimingham, op. cit. 85.

3. On Kukiya, see Mauny, op. cit. 120; on Gao, ibid. 48, 112-13; on as-Suk, ibid. 117-18, 487; on Takedda, ibid. 139-40.

4. al-Bakri, op. cit. 342; as-Sadi, op. cit. 5.

5. as-Sadi, op. cit. 103.

6. ibid. 22-23. On Jenne, see also Mauny, op. cit. 115-16, 494-5, 499-500, and C. Monteil, *Une Cité soudanaise: Djénné,* Paris, 1932.

7. Portuguese contacts with the interior of West Africa at this time are briefly described in de Barros, *Da Asia,* I, ii, 12, translated in Cadomosto, op. cit. 142-5.

8. On Sonni Ali's magical powers, see Rouch, op. cit. 183-4.

9. The historian, Mahmud al-Kati, accompanied Askia Muhammad on his pilgrimage. On the significance of his investiture, see Trimingham, op. cit. 98.

10. Rodd, op. cit. 26, 101; C. Jean, *Les Touareg du Sud-Est l'Aïr,* Paris, 1909, 87-89.

11. Barth, op. cit. I, 418; M. Abadie, *La Colonie du Niger,* Paris, 1927, 189.

12. Rouch, op. cit. 193-4, 199, 209.

13. A. G. P. Martin, *Les Oasis sahariennes,* Algiers, 1908, 142; Trimingham, op. cit. 133.

14. T. H. Baldwin, *The Obligations of Princes,* Beirut, 1932.

الفصل 16 ليو الافريقى

CHAPTER 16: LEO AFRICANUS

1. Leo Africanus, op. cit. I, 190.

2. The account given here of Leo Africanus' life and travels is based on the research done by R. Mauny for 'Note sur *Les grands voyages de* Léon l'Africain', *Hespéris,* XLI (1954), 379-94.

3. Leo Africanus, op. cit. II, 309.

4. ibid. III, 821.

5. Mauny, *Tableau géographique,* 497-9.

6. On the identity of the 'rich king' of Timbuktu, often confused with the Askia, see the note by H. Lhote, in Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique,* trans. A. Épaulard, Paris, 1956, II, 467.

7. Leo Africanus, op. cit. III, 824-5.

8. Caillié, op. cit. II, 49.

9. as-Sadi, op. cit. 22.

10. Leo Africanus, op. cit. III, 822.

11. ibid. 823.

12. ibid. 826-7.

13. This passage is omitted in Pory's translation, but is included in the French translation by Épaulard, II, 471.

14. Leo Africanus, op. cit. III, 828.

15. ibid. 831-2.

16. ibid. 832-5.

17. As Pory failed to give an accurate translation of this important passage, it has been translated from the French version by Épaulard, I, 5.

18. Cadamosto, op. cit. 94.

19. Leo Africanus, op. cit. III, 938.

الفصل 17 مولاى احمد المنصور

CHAPTER 17: MULAI AHMAD AL-MANSUR

1. For a detailed account of the events leading up to the battle of al-Ksar al-kabir, see E. W. Bovill, *The Battle of Alcazar,* London, 1952.

2. The principal Moroccan source for the reign of al-Mansur is the 18th-century historian, al-Ifrani, *Histoire de la dynastie saadienne au Maroc, 1511-1670,* trans. and ed. O. Houdas, Paris, 1886, 131-54. For other sources, see C. A. Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe à 1830,* 2nd rev. ed., Paris, 1952, 210-23, 344-5.

3. For a more detailed account of al-Mansur's relations with England, see Bovill, op. cit. 43-48, 175-9.

الفصل 18 تاغازة

CHAPTER 18: TAGHAZA

1. For a comprehensive account of the salt trade, see Mauny, op. cit. 321-36.

2. Ibn Battuta, op. cit. 317-18.

3. Leo Africanus, op. cit. III, 800.
4. as-Sadi, op. cit. 163-4.
5. ibid. 174; Mauny, op. cit. 331 n.2.
6. as-Sadi, op. cit. 180.
7. ibid., 193.
8. al-Ifrani, op. cit. 154-5.
9. H. de Castries, *Les Sources inédites de l'histoire du Maroc,* 18 vols. Paris, 1905-36, *Première série - dynastie sa'dienne, Archives et bibliothèques de l'Angleterre,* I, 431.
10. as-Sadi, op. cit. 193.
11. Julien, op. cit. 214.
12. as-Sadi, op. cit. 216-17; al-Ifrani, op. cit. 155.
13. Mauny, op. cit. 331-2.

الفصل 19 جيش الصحراء

CHAPTER 19: THE DESERT ARMY

1. as-Sadi, op. cit. 217.
2. al-Ifrani, op. cit. 160-2.
3. Leo Africanus, op. cit. III, 991,
4. *The tragical life and death of Muley Abdala Melek, the late King of Barbarie,* Delft, 1633, quoted in de Castries, op. cit. III, 201.
5. Details of the expedition's equipment are given in the account of the anonymous Spaniard, published by H. de Castries, in 'La Conquête du Soudan par El-Mansour (1591)', *Hespéris,* III (1923), 433-88.
6. *Journal of the African Society,* XXXV (1936), 159.
7. de Castries, *Sources inédites,* I, 521.
8. ibid. I, 527.
9. ibid, II, 10.
10. ibid. II, 23.
11. J. Méniaud, *Haut-Sénégal-Niger: Géographie économique,* 2 vols., Paris, 1912, II, 207.
12. Leo Africanus, op. cit. III, 800.
13. Mahmud al-Kati, op. cit. 263.

الفصل 20 غزو السودان

CHAPTER 20: THE INVASION OF THE SUDAN

1. This account of the Moroccan invasion is based chiefly on Mahmud al-Kati, op. cit. 160-320, and as-Sadi, op. cit. 215-80. See also Hunwick, op. cit. 311-28.

2. Mahmud al-Kati, op. cit. 264.
3. as-Sadi, op. cit. 219.
4. Mahmud al-Kati, op. cit. 263.
5. *Antiquity,* VII (1933), 353.
6. This document was published by H. de Castries in *Hespéris,* III (1923), 483-8.
7. de Castries, *Sources inédites,* II, 66.
8. *Geogrpahical Journal,* VI (1895), 219.

الفصل 21 سقوط السونجاى

CHAPTER 21: THE FALL OF SONGHAI

1. as-Sadi, op. cit. 223.
2. A letter written by Mahmud to the *qadi* of Timbuktu at this time was discovered by E. Lévi-Provençal among the Arabic documents in the archives of the Escorial, Madrid, and published in *Arabica,* II, Leyden, 1955, 89-96.
3. Hunwick, op. cit. 313, 322-3.
4. ibid, 324-5.
5. de Castries, op. cit. II, 146.
6. For the later history of the Moroccan Pashas of Timbuktu the principal source is the anonymous work, *Tedzkiret en-Nisian* (translated by O. Houdas in 1899), a biographical dictionary of the Pashas of the Sudan from 1590 to 1750.
7. Mons. A****, *A Letter concering the Countrys of Muley Arxid, King of Tafiletta,* Eng. trans., London, 1671, 17.
8. Julien, op. cit. 229. The principal Moroccan source for the reign of Mulay Ismail is the chronicle of al-Zayani, *Le Maroc de 1631 à 1812,* ed. and trans. O. Houdas, Paris, 1886.
9. Monteil, op. cit. 83.

الفصل 22 الذهبى

CHAPTER 22: ADH-DHAHABI

1. as-Sadi, op. cit. 223.
2. al-Ifrani, op. cit. 167.
3. R. Hakluyt, *Principal Navigations of the English Nation, 12 vols., Glasgow, 1903-5, VII, 99-100.*
4. *ibid. 100-1.*

5. *Quoted in P. Masson, Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque,* Paris, 1903, 92.

6. Captain John Smith, *Travels,* 2 vols., Glasgow, 1907, II, 163.
7. Mons. A****, op. cit. 15.
8. Ro. C., *A True Historical discourse of Muley Hamet's rising to the three Kingdomes of Moruecos, Fes, and Sus,* London, 1609, ch. XXV, quoted in de Castries, op. cit. II, 404.

9. For an account of Edward Wright and his work, see E. G. R. Taylor, *Mathematical Practitioners of Stuart and Tudor England,* Cambridge, 1954.
10. Purchas, op. cit. II, 168-70.
11. de Castries, op. cit. II, 177-9.
12. ibid. 200.
13. Purchas, op. cit. VI, 60-1.
14. Hakluyt, op. cit. VII, 88.
15. Ro. C., op. cit. quoted in Purchas, op. cit. VI, 108.
16. de Castries, op. cit. II, 226.

17. For an account of this expedition, see Jobson, op. cit. See also J. M. Gray, *A History of the Gambia,* Cambridge, 1939, 26-35.
18. Peter Mundy, *Travels,* 5 vols., Hakluyt Society, London, 1907-1936, v, 131.
19. Jobson, op. cit. 4.
20. de Castries, op. cit. III, 237.
21. ibid. 452.
22. ibid. 485.

الفصل 23 التوغل الاوربى فى القارة

CHAPTER 23: THE EUROPEAN PENETRATION OF THE INTERIOR

1. For D'Anville's ideas about the Niger, see his 'Mémoire concernant les rivières de l'intérieur de l'Afrique', *Mémoires de Littérature de l'Académie Royale des Inscriptions et Belles Lettres,* XXVI, Paris, 1759.
2. Sir Godfrey Fisher's *Barbary Legend,* Oxford, 1957, provides a scholarly corrective to many long accepted ideas about 'Barbary pirates'.
3. On Cecil's activities, see Hatfield House, Cecil MSS. 38, f. 59. For an account of the Salee pirates, see de Castries, op. cit. III, 'Les Moriscos à Sale'.
4. For a more detailed discussion of the reasons for European ignorance, see Hallett, op. cit. 125-35.
5. *Proceedings of the African Association* (1810), I, 7-8.
6. On the work of the African Association, see R. Hallett (ed.), *The*

Records of the African Association, London, 1964, and *idem, Penetration of Africa.*

1. Park, op. cit. ch. XV.

8. ibid. ch. XVI.

9. For Rennell's ideas, see *Proceedings of the African Association (1810), I, 534-7.*

10. Frederick Hornemann, *Journal of Travels from Cairo to Mourzouk,* African Association, London, 1802. This book has been edited with much additional material by E. W. Bovill in *Missions to the Niger,* I, Hakluyt Society, London, 1964.

11. For a more detailed account of the genesis of Park's second expedition, see Hallett, *Penetration of Africa,* 321-31.

12. Park's *Travels in the Interior Districts of Africa,* was published with much additional material in 1816. For a discussion of the various reports on Park's death, see Hallett, op. cit. 340-6.

13. Reichard's theory was first put forward in an article in the *Monatliche Correspondence,* Gotha, V, May 1802, 402-15, MacQueen's in *A Geographical and Commercial View of Northern Central Africa,* Edinburgh, 1821.

14. On the Congo expedition, see J. K. Tuckey, *Narrative of an Expedition to Explore the River Zaire,* London, 1818; on the Senegambian expedition, W. Gray, *Travels in Western Africa,* London, 1825; on the Fezzan expedition, see Lyon, op. cit.

15. Denham and Clapperton, op. cit.

16. Hugh Clapperton, *Journal of a Second Expedition into the Interior of Africa,* London, 1829; Richard Lander, *Records of Captain Clapperton's Last Expedition to Africa,* 2 vols., London, 1830.

17. On the origin of the idea of a chain of mountains across West Africa, see the passages quoted in Hallett (ed.), *Records of the African Association,* 251-2, 255.

18. General Sir Rufane Donkin, *Dissertation on the Course and Probable Termination of the Niger,* 1829.

19. Richard and John Lander, *Journal of an Expedition to Explore the Course and Termination of the Niger,* 3 vols., London, 1833; abridged edition with additional material, R. Hallett, *The Niger Journal of Richard and Jhon Lander,* London, 1965.

20. Many of Laing's letters written during the course of his expedition to Timbuktu have survived; they have been edited by Bovill in *Missions to the Niger,* I.

21. Callé, op.cit. II, 49.

22. For a detailed account of the genesis of Richardson's and Barth's expedition, see A. A. Boahen, *Britain, the Sahara, and the Western Sudan,*

1788-1861, Oxford, 1964, 181-212. Boahen brings out clearly the diploma-tic importance of Barth's mission.

23. Delafosse, op - cit - II, 317.

24. Barth's *Travels* were published in five volumes in 1857-8; they have recently been reprinted in a three-volume edition, and in an abridged form, *Barth's Travels in Nigeria,* ed. and introd. A. H. M. Kirk-Greene, London, 1962. Richardson's journal was published posthumously, *Narrative of a Mission to Central African in 1850-1, 2 vols. London, 1853.*

الفصل 24اقليما البورنو والهاوسا ، وامبراطورية الفولاني في سوكوتو

CHAPTER 24: BORNU, HAUSA, AND THE FULANI EMPIRE OF SOKOTO

1. Ibn Khaldun, op. cit. II, 306, quoted in Hodgkin, op. cit. 74-75.

2. Ahmad ibn Fartua's chronicles have been translated by H. R. Palmer in two volumes, *History of the First Twelve Years of Mai Idris Alooma,* Lagos, 1926, and 'The Kanem Wars of Mai Idris Alooma' in *Sudanese Memoirs,* I. The original manuscripts were obtained by Barth in Bornu in 1853 and sent by him to the Foreign Office.

3. Palmer, Sudanese Memoirs, I, 22.

4. Palmer, *The Bornu Sahara and Sudan,* 243.

5. Palmer, *Sudanese Memoirs,* I, 18.

6. ibid. III.

7. Trimingham, op. cit. 127.

8. Traditions connected with Daura are given in S. J. Hogben and A. H. M. Kirk-Greene, *The Emirates of Northern Nigeria,* London, 1966, 145-50. (See note on p. 271 *infra*).

9. M. Hiskett, 'The Historical background to the Naturalization of Arabic Loan Words in Hausa', *African Language Studies*, VI (1965), 20.

10. M. G. Smith, 'The Beginnings of Hausa Society', 346-7.

11. Palmer, op. cit. III, III.

12. For comments on this State of Wangara, see Trimingham, op. cit. 128-9.

13. On the legends connected with Amina, see M. G. Smith, op. cit. 349; and Hogben and Kirk-Greene, op. cit. 215-18.

14. M. G. Smith, op. cit. 351.

15. Muhammad Bello, *Infaq al-Maisur,* quoted in Trimingham, op. cit. 152.

16. Palmer, *The Bornu Sahara and Sudan,* 246.

17. J. O. Hunwick, 'The nineteenth-century Jihads', in Ajayi and Espie (ed.) op. cit. 265.

18. E. J. Arnett, *The Rise of the Sokoto Fulani,* Kano, 1929, appendix 26.

19. F. de F. Daniel, 'Shehu dan Fodio', *Journal of the African Society,* XXV (1925-6).

20. Hodgkin, op. cit. 39.

21. Barth, quoted in Hogben and Kirk-Greene, op. cit. 488.

22. P.-L. Monteil, *De Saint-Louis à Tripoli par le lac Tchad,* Paris, 1895, 248-55, quoted in Hodgkin, op. cit. 313-17.

الفصل 25 آخر القوافل

CHAPTER 25: THE LAST OF THE CARAVANS

1. Matra's report is printed in Hallett (ed.) *Records of the African Association,* 79-82. See also Boahen, op. cit. 104, and J. L. Miège, *Le Maroc et l'Europe,* Paris, 1961, II, 146-54.

2. On trade routes from Morocco, see W. B. Harris, *Tafilet,* London, 1895, 265, 305-6, and J. G. Jackson, *An Account of the Empire of Morocco,* 2nd ed., 1811, 282-8.

3. Jackson, op. cit. 285.

4. al-Bakri, op. cit. 327.

5. A. Raffenel, *Nouveau Voyage dans le pays des Nègres,* Paris, 1856, I, 284.

6. For a vivid account by a modern traveller who has accompanied a caravan from Taodeni to Timbuktu, see J. Skolle, *The Road to Timbuktu,* London, 1956.

7. For an account of the present salt trade of Kawar, see Capt. Grandin, *Bulletin de l'I.F.A.N.,* XIII (1951), 488-533.

8. Barth, op. cit. II, 126.

9. On the trade in kola nuts, see Mauny, op. cit. 248-9, 366, and Prax, 'Commerce de l'Algérie avec la Mecque et le Soudan', *Revue de l'orient,* IV (1849).

10. L. Binger, *Du Niger au golfe de Guinée,* Paris, 1892, I, 309.

11. ibid. II, 86.

12. ibid. II, 220.

13. ibid. I, 328.

14. On the Fezzan-Kawar route, see Mauny, op. cit. 435, and Boahen, op. cit. 106-8.

15. Jackson, op. cit. 247, and Harris, op. cit. 297.

16. Leo Africanus, op. cit. I, 161.

17. Denham and Clapperton, op. cit. I, 206.

18. F. D. Lugard, *The Dual Mandate in British Tropical Africa,* London, 1923, 365.

19. Miège, op. cit. III, 292-372.

20. Ibid. III, 89, 361-2; IV, 382.

21. Boahen, op. cit. 132-59.

22. H. Schirmer, *Le Sahara,* Paris, 1893, 363-6.

23. Miège, op. cit. III, 369-72.

24. Briggs, op. cit. 203.

25. Capot-Rey, op. cit. 479.

26. R. Capot-Rey, 'The Present State of Nomadism in the Sahara, *Arid Zone Research:* Vol. XVIII, *The Problem of the Arid Zone,* UNESCO, 1962.

27. Briggs, op. cit. 268.

28. Capot-Rey, op. cit. 307.

29. E. W. Bovill, The Golden Trade of the Moors, first ed., London, 1958, 247.

المراجع المختارة

Select Bibliography

شمال افريقيا

North Africa

There are two excellent introductory works on the geography and history of North Africa: J. Despois, *l'Afrique du Nord* (Vol. I of the *Géographie de L'Union Française,* Paris, 1964) and C. A. Julien *Histoire de l'Afrique du Nord* (2 vols., Paris, 1956). The latest editions should be consulted. Both books contain comprehensive bibliographies .

C. B. McBurney, *The Stone Age of Northern Africa* (Penguin Books, Harmondsworth, 1960) is the best introduction in English to the pre-history of North Africa. S. Gsell, *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord (8* vols., Paris, 1913-28) is one of the finest works of French historical scholarship produced in this century. It covers the history of the Maghrib up to the end of the first century B.C.; it should be supplemented by the results of recent research, details of which are given in the bibliography to the first volume of Julien's *Histoire de l'Afrique du Nord.*

C. Courtois, *Les Vandales et l'Afrique* (Paris, 1955) is one of the most important recent works on North African history. It is concerned not only with the Vandal invasion, but also with the position of the indigenous Berber people during the centuries of Roman rule.

On the Byzantine period in North African history C. Diehl, *L'Afrique byzantine,* though first published in 1896, is still the outstanding work .

Of the history of the Muslim states of the Maghrib, the second volume of Julien's *Histoire de l'Afrique du Nord* contains the most comprehensive account. E. F. Gautier, *Le Passé de l'Afrique du Nord* (Paris, 1937) is a stimulating and controversial interpretation of the early Muslim centuries .

H. Terrasse, *Histoire du Maroc* (2 vols., Casablanca, 1949-50) is the only good history of a single country. But although there is no adequate single work on Algeria or Tunisia, French scholars have produced many fine works dealing with aspects of these countries' history. The bibliography in the second volume of Julien's *Histoire de l'Afrique du Nord* provides an invaluable introduction to recent French research.

The *Encyclopedia of Islam* contains a mass of valuable historical material, with articles by leading scholars on the countries and peoples of the Muslim world, on the main towns, on the dynasties of the countries of North Africa, together with biographies of many of the important men in Muslim history. The *Encyclopedia* is in the process of being completely rewritten; wherever possible the new edition, sections of which are published every year, should be consulted.

الصحراء الافريقية الكبرى

THE SAHARA

The most comprehenvise single work on the Sahara is R. Capot-*Reÿs Le Sahara Français* (Paris, 1953); this book contains a detailed bibliography. The most useful general work in English is L. Cabot Briggs's *Tribes of the Sahara* (London, 1960).

On the Tuareg F. R. Rodd's *People of the Veil* (London, 1926) and H. Lhote's *Les Touaregs du Hoggar* (Paris, 1944) should be consulted.

F. de la Chapelle's article 'Esquisse d'une histoire du Sahara occidental' (*Hespéris,* XI, 1930) provides the best introduction to the history of the Sanhaja.

غربى افريقيا

WEST AFRICA

J. F. A. Ajayi and I. Espie (ed.), *A Thousand Years of West African History* (Ibadan, 1965) provides the most comprehensive introduction to West African history.

For the history of West Africa up to 1600 R. Mauny, *Tableau géographique de l'ouest africain au moyen âge* (Dakar, 1961) is the essential work. It contains a comprehensive bibliography. In English the most important work on the Sudanic belt of West Africa is J. S. Trimingham, *A History of Islam in West Africa* (London, 1962).

Among West African regional histories the following contain material particularly relevant to the subjects discussed in this book:

M. Delafosse, *Haut-Sénégal-Niger* (3 vols., Paris, 1912).
J. D. Fage, *Ghana - A Historical Interpretation* (Madison, 1959).
T. Hodgkin, *Nigerian Perspectives* (London, 1960).
J. Rouch, *Contribution à l'histoire des Songhay* (Dakar, 1961).
Y. Urvoy, *Histoire des populations du Soudan central* (Paris, 1936).
Y. Urvoy, *Histoire de l'empire de Bornou* (Dakar, 1949).

الفعاليات الاوربية فى القسم الشمالى والغربى من افريقيا

EUROPEAN ACTIVITIES IN NORTHERN AND WESTERN AFRICA

The most important study of European activties in the Maghrib during the Middle Ages is still Mas Latrie, *Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes du moyen âge* (Paris, 1886)

C. de la Roncière, *La Découverte de l'Afrique au moyen âge,* (3 vols., Cairo, 1924-7) contains the most detailed account of the knowledge possessed by medieval Europe of the interior of Northern Africa.

Early European voyages down the coast of Western Africa are summarized in R. Mauny, *Navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures a la découverte portugaise (1434)* (Lisbon, 1960).

J. W. Blake, *European Beginnings in West Africa, 1454-1578* (London, 1937) is the standard short account of the first century of European activity on the West Coast.

R. Hallett, *The Penetration of Africa up to 1815* (London, 1965), describes European activties in the interior of northern and western Africa principally in the eighteenth and early nineteenth centuries. A second volume will describe European penetration of the interior between 1815 and 1830.

A. A. Boahen, *Britain, the Sahara and the Western Sudan, 1788-1861* (Oxford, 1964) draws on a mass of unpublished material to describe British exploration in the mid-nineteenth century,.

ملاحظة حول المراجع الإضافية

SUPPLEMENTARY BIBLIOGRAPHICAL NOTE

Among the works relating to the subject of this book published while the present edition was in the press the following should be specially noted:

N. Barbour, *Morocco* (London, 1965). The first history of Morocco by an English writer to appear for more than fifty years, this book provides an

excellent introduction to the entire span of the country's history.

W. K. R. Hallam, 'The Bayajidda legend in Hausa folklore', *Journal of African History,* VII, I (1966). Much circumstantial evidence is brought forward to suggest that Bayajidda (see p. 225) represents the personification of a group of Berber political refugees, the supporters of Abu Yazid, a Kharijite rebel defeated by the Fatimids of Tunisia in the middle of the tenth century

R. C. C. Laws, 'The Garamantes and Trans-Saharan enterprise in classical times', *Journal of African History,* VIII, 2 (1967).

M. Lewis (ed.), *Islam in Tropical Africa* (London, 1966). An important collection of studies, several of which deal with the history of Islam in West Africa.

C. W. Newbury, 'North African and Western Sudan trade in the nineteenth century: a re-valuation', *Journal of African History,* VII, I (1966). Evidence from French and British archival sources suggest that the caravan trade increased in the mid-nineteenth century, reaching its peak in 1875, when the total value is estimated at £1.5 m (imports and exports combined), then falling steadily away.

Marilyn R. Waldman, 'The Fulani *Jihad*:a reassessment', *Journal of African History,* VII, 3 (1965). An excellent study of the Fulani *jihad* in Northern Nigeria, with references to many other recent works on the subject.

فهرست

الباب الرابع
تجارة الذهب

الباب الخامس
امبراطورية السونجاى
نشوؤها وسقوطها

الباب السادس
ثورات القرن التاسع عشر

